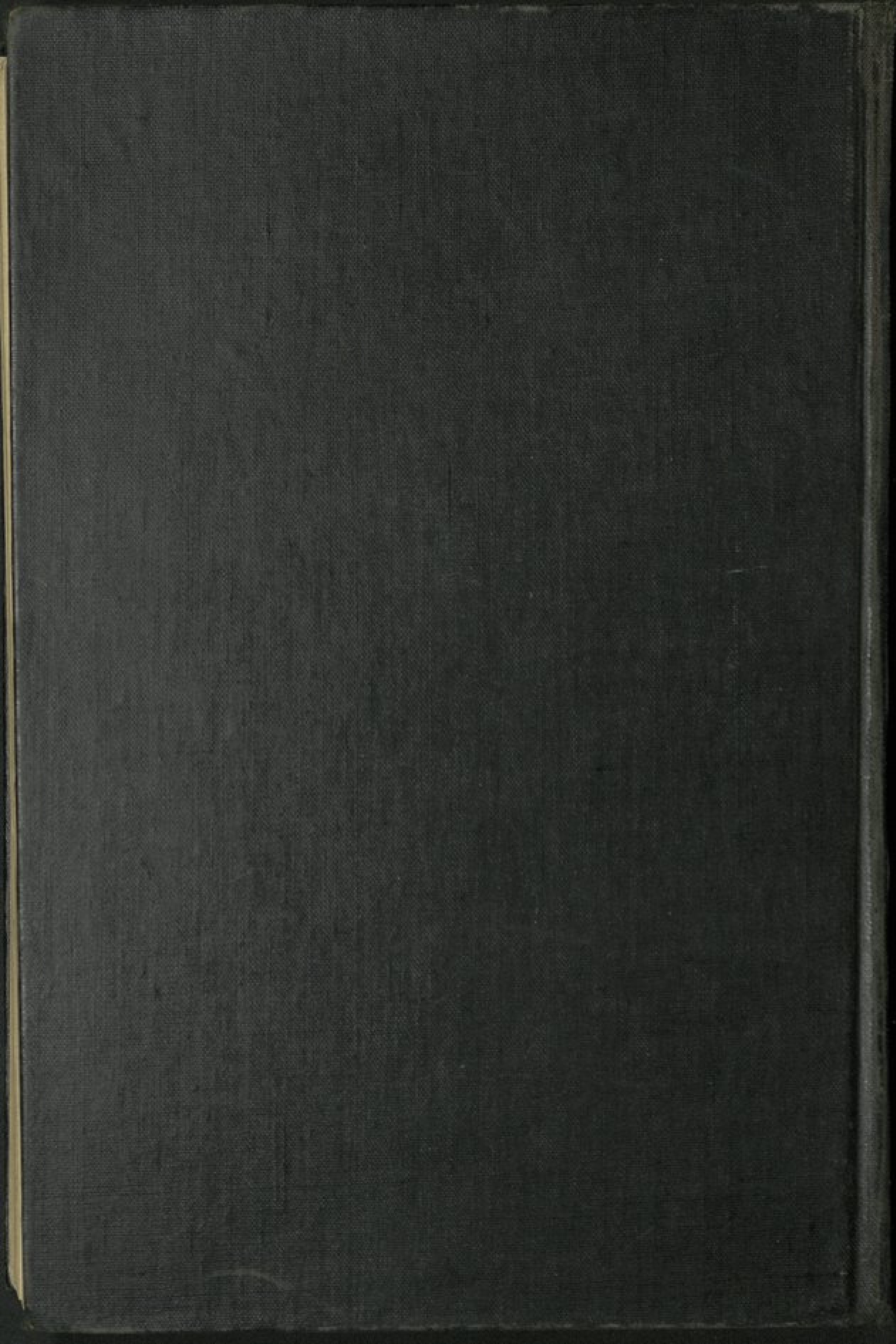



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY



هذي هي الأغلال

تأليف

عبد الله علي القصيمي

ثورة فى فهم العقل والدين والحياة ... دراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية التى قضت بانحلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى ... ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم هذا الطوفان ...

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الفلكي)
١٩٤٦



إن الجهل الاعتقادى قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد ، وإن أفضل ما يعمله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد . . . إن للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج :

أولاها أن يعوق عن السير إلى الغاية المنشودة ، وثانيها أن يوجه جهة أخرى مضادة ، وهذا فيه الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها إفساد العقل ، فإن الأوهام تأكل العقول ، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره .ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التميز ويتخلى فى النهاية عن وظيفته . . . إن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ... ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم ، يستغنى عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية .

***

إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وانحطاط .

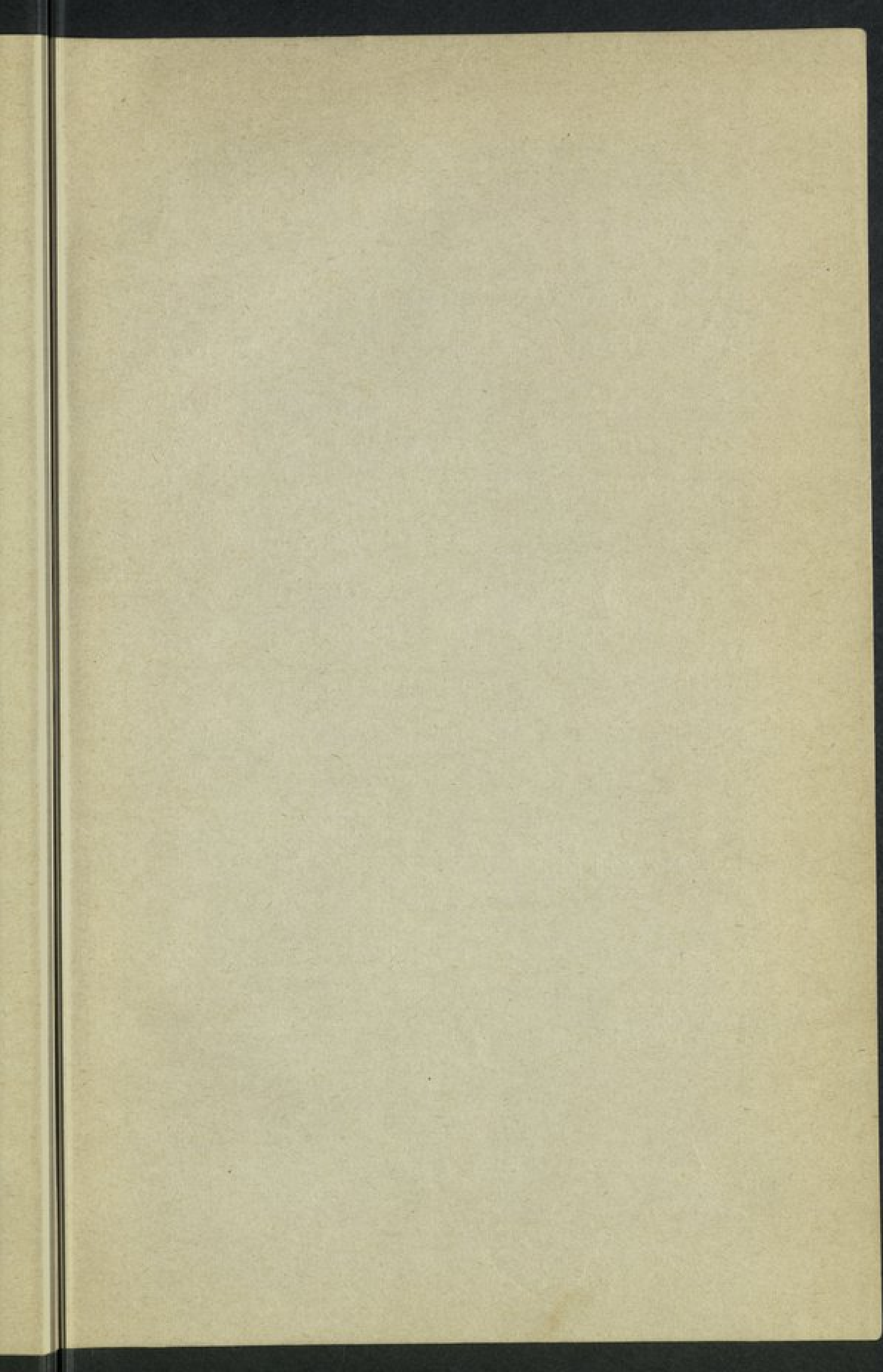
[أحد فلاسفة الغرب]

***

طلاسم هـذا الذل دقت وإنما تفك بسر العلم هذى الطلاسم

يقولون حظ اليعربيين نائم لقد وهموا فالسعى لا الحظ نائم

[أحد شعراء العصر]



مرفوع إلى

باعث العرب ومقيم دولتهم الملك عبد العزيز آل سعود

ياصاحب الجلالة :

إن آباء جلالتكم العرب الأحرار لما أن تدفقت جحافلهم المظفرة على بلاد الأكاسرة الجبارين ، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لاشك فيها بعث إلى سعد بن أبي وقاص: أن أرسل إلينا من قبلك من نعرف منه الأغراض التي قدمتم إلى بلادنا من أجلها ، فبعث إليه سعد رسله ، فسألهم رستم فكان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا جميعاً : إن الأغراض التي أخرجتنا وأقدمتنا إلى بلادك هي : أولا أن نخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الله [1] ، وهي ثانياً أن نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، وهي ثالثاً أن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام .

---

(١) مما يشهد لما بلغه العرب من تربية الشخصية ومن حراستهم لطاقة الفرد النفسية من الضياع والانهيار والضعف والضعة ما جاء أن عمر بن الخطاب رأى مع عيينة بن حصن أحد سادات العرب في الجاهلية والإسلام جماعة يمشون وراءه فعلاه بالدرة ، فقال عيينة اعلم ما تصنع يرحمك الله ، فقال عمر أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع . وما جاء أنه — أي عمر — ضرب قوماً مشوا وراء أحد الصحابة وقال إنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع . وما جاء عن أحد التابعين ، قال خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه أناس فقال لهم ألكم حاجة ؟ قالوا لا ولكن أردنا أن نمشي معك قال ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

ولن يتصور المرء تربية أسمى من هذه التربية ، ولا إيماناً بالإنسانية المثالية أبلغ من هذا الإيمان ، ولا وضعاً لحقوق الفرد في الجماعة وفي الدولة أعظم مما سمعنا . ونحن لا نستطيع أن نعلم ما لهذا من قيمة إلا إذا علمنا فساد ذلك العهد ومظالمه وكيف كان الفرد مسلوب الحقوق بل كيف كان الناس يجهلون أن للفرد حقوقاً أو أنه من الممكن أن يكون له حقوق ، وإلا إذا علمنا كم كان الآلهة البشريون الذين يجب أن تؤدى لهم حقوق الألوهية ، بل وحقوق الربوبية وإلا فالويل لأهل الأرض جميعاً ، بل الويل لهم على كل حال . فإن أولئك الآلهة كانوا يغضبون وينتقمون ويبيرون وإن عبدوا حق العبادة ، لأن الغضب والانتقام حقان من حقوق الإله على حسب ما يتصورون ... ولولم يسد العرب في العهد الذي سادوا فيه لوجب أن نعتقد بأن العالم يسير بتدبير الفوضى ، وأنه ليس هناك أسباب تقدم ولا أسباب تؤخر ، ولكننا من المؤمنين بالنظام وبالأسباب والمسببات .

ومعنى هذه الكلمات القصيرات أن العرب الأحرار إنما بعثوا إلى العالم فى الزمن الذى وجب أن يبعثوا فيه ليبلغوه رسالتهم المحمدية وهى تتلخص فى ثلاثة أمور جامعة : الأول : تخليصه من مفاسد عبودية رجال الدين ، وعبودية القادة والرؤساء الظالمين ، وعبودية سائر صنوف المخلوقين ، تلك العبودية التى أرهقت العقول والمواهب والقوى البشرية فلم تقدر على الانبعاث والنهوض إلى جسيمات الأمور ، فظل الإنسان الأحقاب تلو الأحقاب عاجزاً عن أن يحقق من معانى الإنسانية وأهدافها سوى مظهرها فحسب . وثانى الأمور الثلاثة الجوامع : تخليصه من ذلك النظام الحكومى الفاسد الذى رماه بالفقر والضيق والشقاء ، وكل تلك التى كانت — ومازالت — مبعث الانحطاط والفساد ، ومصدر الفوضى والشر الكثير . وثالث الأمور الثلاثة : تخليصه من المعتقدات والمذاهب والأديان الواهية الواهنة التى جردت الإنسان من كل فضيلة ، وعطلت فيه كل نبوغ وعبقرية وانطلاق فى تحصيل المعانى الإنسانية المهذبة لما فى هذه المعتقدات والمذاهب والأديان من الجمود والتضليل والتعويق والتخدير للقوى الفاضلة .

يا صاحب الجلالة :

إن العرب الكرام لما أن آمنوا بهذه المعانى والمبادى، واندفعوا إلى الدنيا ليشركوها معهم فى الإيمان بها أرغموا التاريخ العالمى العام أن يكتب لهم تاريخاً وأن يسجل لهم انقلاباً كاد فى سرعته وقوته ومفاجآته أن يخرج عن جميع سنن التطور التى عرفت حتى اليوم : انقلاباً بهر الكثيرين من العلماء والباحثين الذين يحاولون التغلغل فى الأسباب والمسببات ، فعجزوا أن يجدوا له تعليلا بين العلل والمعلولات ، فذهبوا يقولون إن العرب كانوا — فيما سمى الجاهلية وقبل الإسلام — أمة راقية متوثبة متهيئة لمكانها الجديد من القيادة والصدارة . لأنه من غير المعروف فى نواميس التطور المعروفة ، ولا فى تواريخ قيام الأمم وسقوطها أن شعباً من الشعوب يتخلى فجأة عن عزلته السياسية وعن أميته التى تكاد تكون شاملة ليثب وثبة واحدة تحله موضع الزعامة العالمية .

ولكن الذى فهمناه ، والذى يجب أن يفهمه الناس جميعاً هو أن للجماعات دائماً جانبين من القوى والمواهب : جانب ظاهر بارز ، لأنه وجد مايظهره وما يبرزه ، أو لأنه لم يجد مايمنعه الظهور والبروز ، وجانب خفى مستور كامن ، لأنه لم يجد مايظهره ، أو لأنه وجد مايمنعه من أن يظهر ويبرز ... والقوى البشرية تشبه فى كمونها وبروزها قوى

الأرض وقوى الطبيعة أجمع . ومن المعلوم أن قوى الأرض ، وكل القوى أيضاً ، تظل كامنة ساكنة ماوجدت مايمنعها الظهور ، أو ما لم تجد مايعمل على إظهارها وبعثها . وقد ظل النفط فى الجزيرة كامناً مستوراً منذ وجد ، كأنه لاشىء فيها ، وكأنها لا تحمل فى أحشائها جنيناً نفيساً كل يتمنى حضانته وكفالته ، حتى هيأ الله لها جلالتكم ، فأخذت تخرج كنوزها من النفط وغيره ، وأخذ العالم يؤمن بقواها الكامنة الطبيعية . وهكذا هى من الناحية الزراعية ... والأمة العربية كانت فى عصورها التى عرفت بالجاهلية أمة ذات قوى كامنة هائلة كمون كنوزها الطبيعية فى أرضها . وكانت عوامل هذا الكمون وأسبابه معروفة أو على الأقل موجودة ، فلما زالت هذه العوامل والأسباب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وجاء مابعث الكامن منها وثبت تلك الوثبة التى حار فى تعليلها وفهمها الباحثون . ولكن لامعنى للحيرة فى هذه الوثبة إلا إذا كان من الممكن الحيرة فى خروج النفط فى الجزيرة على عهد جلالتكم لأنكم أمرتم بإخراجه وهيأتم الأسباب التى تخرجه والقوى التى تبعثه . ومثل هذا كان العرب فى المملكة السعودية قبل أن يوحدهم الله على يد جلالتكم . فقد كانوا ذوى قوى كامنة واستعداد مستور . فلما آن الأوان ، والفضل لله ثم لجلالتكم ، طفقت هذه القوى تبرز وهذا الاستعداد يظهر ... والعرب اليوم — بل والمسلمون كافة — متخلفون عن الأمم الغربية تخلفاً ظاهراً ، لانقول فى شىء دون شىء ، بل يجب أن نقول وا أسفاه فى كل شىء . ولكن هذا التخلف ليس طبيعياً ، وإنما هو تخلف يشبه تخلف الجزيرة العربية قبل عهد جلالتكم عن العالم من الناحية الاقتصادية . ويشبه تخلف العرب قبل الإسلام من الناحية السياسية والعسكرية عن الرومان والفرس دولتى العالم فى ذلك العهد ، أى إنه تخلف ظاهرى فقط لوجود أسباب معينة عارضة وهم ينطوون على مواهب وقوى كانت تستطيع إلحاقهم بمن سبقوهم إذا أخرجت وأبرزت ، وتستطيع القضاء على هذا التفاوت بينهم وبين الآخرين ... ولقد صار معلوماً أن عظمة الشعوب ليست فى الاستقلال السياسى ، ولا فى وفرة العديد ، ولا فى ثروة البلاد الطبيعية ، ولا فى الوطنية الباسلة ، ولا فى الحماسة المتوقدة ، ولا فى الاتفاقات وقيام الوحدات ... وصار معلوماً أن شيئاً من هذا لايهب الشعب تلك المنزلة الدولية الرفيعة المحترمة ، ولا ذلك التأثير القوى فى المجتمع العالمى . بل صار معلوماً أن أمراً من هذه الأمور — بل هذه الأمور كلها مجتمعة — ليس فى طاقتها أن تحافظ على الاستقلال السياسى إذا كان موجوداً ، ولا أن ترده إن كان مفقوداً ، ولا أن تصونه من عدوان

العادين ... ولكن عظمة الشعب الحقيقية التى تطأطىء الدنيا أمامها إجلالا ورهبة تتجلى فى شىء واحد لا ثانى له : هذا الشىء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلى والمادى من ناحية الأفراد . فالشعب الذى يتفوق أفراده فى هذا الإنتاج هو الشعب الذى له التفوق المطلق ، وله السيادة المطلقة ، وهو الشعب الذى تخفض له الدنيا رأسها ... والفرق بيننا وبين شعوب أوربا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم فى هذا الإنتاج . فإنهم لما وفر إنتاج أفرادهم العقلى والمادى وضعف إنتاج أفرادنا — أو أضحى مفقوداً — أضحوا أقوى منا فى كل شىء ، فسادوا وتأخرنا . والقوى هو سيد الضعيف فى قانون الأزل وقانون الأبد أيضاً . وهو قانون مطبق على الإنسان وعلى الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد ، بل وعلى كل شىء . فهو قانون خالد من قوانين الطبيعة الخالدة . وقوانين الطبيعة هى بالنسبة لها كالوجود ، لاتتخلى عنها مادامت موجودة ، كما أنها لاتتخلى عن وجودها ما دامت كذلك . وإذا ما سألنا العلماء اليوم : لماذا صارت الشمس هى المركز للمجموعة الشمسية ، ولماذا صار أكبر نجم فى كل مجموعة من المجاميع الفلكية الأخرى هو المركز الذى تدور حوله الأتباع والأقمار وتدين له وتنجذب إليه ، ولا تستطيع مفارقته ، قالوا لنا هذا قانون الطبيعة وقانون القوة . وإذا سألناهم : هل من الممكن التملص من القوانين الطبيعية ، أجابونا بلا طبعاً . وكما أن العشرين أقل من الأربعين ، وكما أن هذا العدد لا يمكن أن يكون مساوياً لهذا العدد بحال من الأحوال ، فمثله الشعوب التى هى أكثر إنتاجاً وأضخم قوة ، لابد أن تكون سيدة الشعوب التى هى أقل منها فى هذا الإنتاج وأضعف منها فى هذه المقدرة . ولا يمكن أن يقوم التساوى بين هذه وهذه إلا أن يكون بالكلام مثل أن يغلط طفل فيقول إن العشرين أكثر من الأربعين أو أنها مساوية لها . ولكن هذا القول لا يغير الحقيقة الأبدية وهى الاختلاف والتفاوت .

ما الذى أعطى الطوائف اليهودية هذه المكانة الدولية وهذا الاعتبار الدولى اللذين لم ينلهما كثير من الشعوب المستقلة سياسياً ؟ إنه مقدرة هذه الطائفة العجيبة على الإنتاج الفردى .

فعلينا إذن أن نعرف كيف يعظم إنتاج الفرد الذاتى ، وعلينا أن نحشد كل قوانا لتحطيم ما من شأنه أن يضعف هذا الإنتاج ، ولتحطيم القيود التى تعوق القوى الفردية

عن القيام بوظائفها الإلهية ، وعن إخراج أفضل ما فيها من استعداد وآخر ما عندها من طاقة .

وفي هذا الكتاب الكشف عن الأسباب والعوامل التي قضت علينا بهذا التخلف وبهذا التفاوت بيننا وبين الغربيين والتي أضعفت الإنتاج لدينا وجعلتنا عاجزين عن اللحاق بالركب البشري . ولكن العرب والمسلمين يحتاجون من أجل إفهامهم هذه الحقيقة إفهاماً عاماً شاملا إلى قيادة بارزة ، وإن الآمال لترنو — لأسباب واضحة جلية — إلى جلالتكم ، فجئت أرفع إليكم الكتاب ، سائلا الله أن يسعد القائد وأن يحفظه ويسدده ، راجياً أن أكون قد قدمت لأمتي وديني ما فيه نفع أو ما فيه دفع ضر . وقد آن أن يقبس الناس من تلك الشعلة المقدسة التي أوقد جذوتها مصلح الجزيرة العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) .

---

(١) ها هنا ملاحظة خليقة بالتفكير . ذلك أنه قد قام في أوقات كثيرة متقاربة ومتباعدة ، وفي بلاد متعددة رجال مخلصون يدعون إلى ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وقد بذلوا كل إخلاصهم وعلمهم رجاء أن يصيبوا نجاحاً ، ولكنهم قد أخفقوا جميعاً : أخفقوا سياسياً وأخفقوا دينياً : فالأمراء والملوك والرؤساء رفضوا هؤلاء الدعاة ورفضوا دعوتهم ، بل وتألبوا عليهم مع العامة : فسجنوا وآذوا فريقاً منهم ، وازوروا وتباعدوا عن فريق آخر . وبهذا عدوا مخفقين سياسياً . أما دينياً فإن دعوتهم لم يكتب لها النجاح ولا القبول لدى العامة والجماهير ، بل عادوها وعادوا أصحابها وأصروا على البقاء في ما كانوا فيه . وبهذا صاروا فاشلين دينياً .

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كتب له ولدعوته النجاح المطلق : أما من الناحية السياسية فإن آل سعود العظام قد شادوا دولتهم وأقاموا صروحها على دعوته منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم . وقد آوى أمراء آل سعود آل الشيخ محمد وقربوهم وأكرموهم وأخذوا عنهم ولا يزالون يفعلون ذلك ، ولم يحاولوا التخلص منهم في وقت من الأوقات لا في أوقات الشدة ولا في أوقات الرخاء . وأما من الناحية الدينية فقد كان النجاح عظيما . ذلك أن الناس هناك خاصة وعامة قد آمنوا بهذه الدعوة وقبلوها ظاهراً وباطناً قبولا لا يشوبه شيء من التردد أو الريب . وإنه لا يخطر على بال إنسان واحد اليوم — كما لم يخطر قبل اليوم — أن يرفض هذه الدعوة أو أن يشك فيها . فالإيمان بها كان إيمان اقتناع لا إيمان اضطرار أو حاجة أو ظرف من الظروف . ومن أكبر الدلائل على ذلك أن آل سعود قد غلبوا على أمرهم في عهدين معروفين ، وخرج حكم الجزيرة من أيديهم إلى أيدي قوم آخرين هم خصوم لهذه الدعوة ، ومع هذا فإن الناس هناك بقوا مستمسكين بالدعوة مؤمنين بها كما كانوا في عهد آل سعود المؤيدين لها ... فنجاح الشيخ إذن كان نجاحاً مطلقاً ، وإخفاق الآخرين إذن كان إخفاقاً مطلقاً ، فما الأسباب ؟ أما إخفاق الآخرين في كل زمان ومكان فلابد من عزوه إلى أن الناس الخاصة منهم والعامة في تلك البلاد كانوا غير مستعدين استعداداً حاضراً لقبول فكرة التوحيد الخالصة . بل كانت هناك موانع مؤلفة من النظام الاجتماعي القائم ، ومن =

= التربية الدينية المختلة ومن الوراثة ومن البيئة ومن التفكير العام ، تحول بينهم وبين الإيمان بمبدأ التوحيد النقي . ومن أجل هذا نجد أكثر الذين يقبلون هذا المبدأ إجمالا من أهل هذه البلاد يدخلون عليه في التفصيلات ما ليس منه ، أي أنهم في الأكثر لا يستطيعون إدراك هذا التوحيد وهذا السمو الفكري إدراكا صحيحاً كاملا مبرأ من شوائب ما يضاده وينافيه . وسبب هذا هو عجزهم عن التحرر من سيطرة الموانع الآنفة — وهي النظام الاجتماعي والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة . هذه هي أسباب فشل أولئك الدعاة المحزن . ولا يزال هذا الفشل يتلقى كل من يحاول ما حاوله أولئك الدعاة .

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كان نجاحه التام يرجع إلى أمرين أساسيين أحدهما : أن الناس في جزيرة العرب الخالصة كانوا كافة مستعدين لقبول هذه الدعوة وللإيمان بها ، ولكن لماذا كانوا مستعدين دون غيرهم ؟ كانوا مستعدين لأن النظام الاجتماعي القائم عندهم والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة : لأن ذلك كله لا يأبى قبول هذه الدعوة بل إنه يقبلها ويهضمها بسهولة ويسر ، إذ لا تنافي ولا تنافر بينهما بل بينهما التوافق التام ... ومن ثم فإن أجزاء معينة من جزيرة العرب عجز أهلها عن فهم هذه الفكرة وعن الإيمان بها مع كثرة من جاءوهم من أنفسهم بالدعوة إليها . وسبب هذا أن رسوماً دينية ، ونظما اجتماعية أجنبية ، وغلت عليهم بلادهم في عصور مختلفة فأثرت في تفكيرهم وفي تربيتهم الدينية تأثيراً كان هو العائق الأكبر الأظهر .

أما الأمر الثاني من الأمرين الأساسيين في نجاح الشيخ محمد فهو أمر خاص به وبأسلوبه العام وبحياته الخاصة والعامة .

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان أحد أولئك الرجال القليلين الذين تتكافأ قواهم العقلية والعلمية والخلقية فيصيبون النجاح الذي يبغون . وإن كل إنسان — سواء أكان عادياً أم كان عبقرياً — له قوى مختلفة ، أحياناً تكون متكافئة ، وأحياناً تكون متنافرة متفاوتة . ولا ينجح من الناس في الغالب — سواء في ذلك الأفراد والجماعات — النجاح التام الصحيح إلا من تكافأت قواه تكافؤاً تاماً . فإذا كان للانسان قوة علمية غير مكافئة لقوته العقلية أو لقوته الخلقية مثلا ، أو كان العكس لم يكن إنساناً مرجواً له النجاح المطلق في الأكثر ولا مرجوة منه الفائدة المنشودة . لأن قواه حينئذ تتهادم ويدمر بعضها بعضاً .

أما إذا تكافأت هذه القوى فإنها كلها حينئذ تنطلق في سبيل واحدة وقوة واحدة إلى الغرض الأقصى فتبلغه . والأمم في هذا كالأفراد سواء . وقد رأينا كيف صرعت أمة من أكبر الأمم وأعظمها في قوتيها العسكرية والعلمية ، ولكن هاتين القوتين كانتا فوق قوتيها السياسية والخلقية . فلم يكن بين قواها تكافؤ فتنافرت وراحت تتخبط بين هذه القوى تخبط من وقع بين قوتين متنافرتين حتى خرت صريعة خائرة متهدمة . وهي ليست أمة بل أمم ، وإنما أردنا المثل فقط .

أما الأفراد الذين يسقطون في الميدان وتتلقاهم الخيبة والفشل أينما وجدوا وذهبوا — على رغم المواهب الهائلة التي امتازوا بها لأنها لم تجيء متكافئة — فكثيرون جداً ، وطريق الحياة يغص بهم دائماً ، وهم يشاهدون كل وقت مجندلين دون أغراضهم وأهدافهم . وإن أغلب الناس من هذا القبيل .

والتنافر في القوى الإنسانية المعنوية يشبه التنافر في قوى الطبيعة ، والتكافؤ بينها يشبه التكافؤ بينها . ولو أن هذه الأجرام التي نشاهدها سائرة دائرة بنظام ودقة أصابها التنافر وعدم التكافؤ لكان القضاء المحتوم ، ولما كان هناك بد من فرض تحطم هذا العالم كله وتدميره . =

= والشيخ محمد رحمة الله عليه كانت قواه العقلية والعلمية والخلقية متكافئة تكافؤاً دقيقاً . ثم إنه لم يكن عالماً دينياً فحسب ، بل كان زعيماً ورجل دين ، وكان يتصف بكل ما يتصف به الزعيم الشعبي من الذكاء والدهاء وقوة الشخصية والجاذبية والمرونة مع الصرامة أحياناً . ورجل الدين كان متهماً دائماً بأنه عاجز عن مجابهة الحياة ، ولكن هذا الشيخ كان أحد رجالها المعدودين . ومن هنا لم يكن عجيباً أن يصيب النجاح الذى أصاب ، وأن يبلغ الغرض الذى قصد ، وأن يظله هو وآله ودعوته آل سعود العظام بظلالهم الوارفة ، وأن يرصدوا قوامم وبطولتهم ودولتهم فى سبيل الدعوة وفى سبيل المبادىء التى جاءوا بها بلا قيد وبلا شرط .

قبل البدء

لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها بينما هي أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث من هذه القضية . وذلك أن جموعاً بشرية هائلة — قيل إن أعدادها تبلغ أربعمائةمليون منتشرة فى سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوربا أيضاً، تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هى أسمى مايتصوره العقل البشرى من القوة والحث على مواصلة السير فى سبيل المجد والكمال — عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الإنسانى المغذ الخطا إلى هذه الحياة التى تتفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الإنسانية العلمية التى من ملكها فقد ملك ناصية هذا الوجود واحتكم فيه وفى من فيه من حيوان وجماد ونبات ... وقد غلبت هذه الجموع على أمرها فى كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها . . . فهى من الناحية السياسية خاضعة ، بل خاضع ماتحت أقدامها إما بالفعل وإما بالقوة ، كما يقول المناطقة ، للسلطان الأجنبى — ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمى شيئاً يمكن أن ينسب إليها ، وعاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين فى أمر من أمورها الدقيقة أو الجليلة — وهى من الناحية الصناعية عاجزة عن إيجاد ملاعق لأفواهها وإبر لأثوابها — ومن الناحية الزراعية عاجزة — لولا الآخرون — عن الانتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أرضها — أما من الناحية التجارية فإن أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحدأبنائهامتجر واحد يضارع أحد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغنى عنه .. وهكذا هى فى كل وجه من وجوه حياتها وغرض من أغراض وجودها .

ومما يوجب الدهشة والاستغراب أن هذه الجموع الهائلة عاجزة أفراداً كما هى عاجزة أمماً ، فلم يستطع أفرادها ومهاجروها فى أوربا وأمريكا أو إحدى القارات الأخرى أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً فى هذه الحياة تتعلق به الأبصار أو يبعث على الإعجاب أو يؤثر فى المجموع الصناعى أو التجارى بوجه من وجوه التأثير كما فعل غيرهم . . . وإن العجب ليأخذ منا كل مأخذ — كما يجب أن يذهب الألم فى نفوسنا كل مذهب — إذا نظرنا فرأينا الرجلين من سوريا أو لبنان أو غيرها ، أحدهما مسلم والآخر مسيحى ، يخرجان يضربان فى الأرض ، يطلبان الثراء والمجد ، فيهبطان أمريكا أو يهبطان وطناً إسلامياً

كمصر مثلا . فما هو إلا أن ينغمس ذلك المسيحى فى ذلك المجتمع القوى اللجب ، ثم لايلبث أن يرفع رأسه عالياً ، فإذا به قد دفع الجموع عن موضعه ، وإذا به يذكر حينما يذكر أصحاب رؤوس الأموال الضخمة وملوك الصناعة المتوجون بتاج العصامية البراق . . . أما صاحبه المسلم فيبقى فى مهاجره مابقى بدون أن يحس له وجوداً كما لم يحسس له وطنه حينما خرج منه فقداً ماعدا النادر القليل .

وقد أخذ هذا التفاوت بين الفريقين فى الوطن الواحد ومن العنصر الواحد يتعاظم يوما فيوما ، حتى أصبح ملحوظاً جداً فى جميع الأقطار التى يسكنها المسلمون وغيرهم أن غير المسلمين يفوقون المسلمين فى كل ضروب التقدم وفى كل وجوه الحياة بشدة وقوة ، سواء فى ذلك الجوانب المادية والجوانب المعنوية ... وهذا التفاوت العجيب لم يقتصر على الشرق دون الغرب أو على البلاد العربية دون الأخرى غير العربية ، بل يوجد فى أوربا وأمريكا كما وجد فى الشرق العربى وفى الشرق غير العربى من الشعوب الأسيوية والأفريقية .

وقد التقيت هذا العام فى الحجاز بأناس ممتازين وآخرين عاديين من بلدان إسلامية كثيرة ، فتحدثنا طويلا ومرات كثيرة فى هذه المسألة ، فوجدت كلهم متفقة على وجود هذا التفاوت بأشكال وصور قوية بارزة فى كل مكان ، وإن كانوا حينما حاولت أن أفهم منهم العوامل والأسباب لذلك لم أجد عندهم شيئاً ، بل وجدتهم فى الأكثر يذكرون أشياء هى بعيدة جداً عن المسألة وعن أن تكون أسباباً للمسألة ، زاعمين أنها هى الأسباب الحقيقية . وهذا وأأسفاه مما يعد عن معرفة المرض الحقيقى ، ثم مما يعد عن نيل الشفاء أو التماس الشفاء ... وإن الأمراض فى نفسها خطيرة مخيفة ، ولكن أخطر هذه الأمراض أن يكون المرء مريضاً ثم لايدرى ما المرض ، بل يذهب يظنه شيئاً آخر ، ويظل يتمنى العلاج من ذلك الشىء الآخر حتى يهلك ، لأنه فى نفس الأمر عاجز عن العلاج وعن الشفاء من تلك الأمور التى زعمها أمراضه ... والخطوة الأولى اللازمة لمحاولة العلاج — أو لإفادة العلاج — هى معرفة المرض . وقد كان خطب الإنسانية فى مراحل وجودها الأولى فى عجزها عن معرفة أمراضها ، ثم فى عجزها عن الخلاص منها لو عرفتها قبل تقدم المباحث الطبية والكشوف العلمية .. إنها ظلت كل تلك الأحقاب الغابرة جاهلة بأمراضها وبأسبابها ، ثم جاهلة بالعلاج الذى فيه ضمان الشفاء ... وستظل الإنسانية أيضاً

تعانى أمراضها الاجتماعية والعقلية والاعتقادية حتى تتوصل إلى معرفتها معرفة صحيحة جازمة ، وإلى تعينها تعييناً قاطعاً صحيحاً ، وحتى تتوصل إلى معرفة الخلاص والشفاء منها . وإذا كان صحيحاً قولهم : إن تشخيص الداء نصف العلاج فإن أصح منه أن يقال : إن العلاج مستحيل ما لم يشخص الداء . . . فعلينا إذن أن نعرف أمراضنا وأن نعمل على معرفتها إذا كنا راغبين حقاً فى أن نكون قوماً صالحين نافعين لأنفسنا ولغيرنا فى هذه الحياة .

يوجد اليوم قوم يعدون من خيرة المسلمين تعلما وأخلاقاً ، ينادون ماوسعهم النداء : بأن جماع علل المسلمين هو سفور المرأة واختلاطها بالرجل ، ويزعمون أنهم لو رجعوها إلى البيت وإلى الحجاب لاستطاعوا بسهولة وسرعة أن يثبوا على قمة المجد الدولى ... وقد عبأ هؤلاء القوم كل قواهم للنهوض بهذه الفكرة .

ولا يمكن أن يصدق هذا القول إلا إذا صدق القول : بأن سواد جلود الزنوج هو السبب فى حرارة الشمس وفى غزارة ضيائها . ويجب أن يعلم هؤلاء الإخوان الفضلاء أن الأجنبى الظافر حينما اعتدى على بلاد المسلمين وسلبهم حريتهم كانوا — أى المسلمون — آخذين بالحجاب وبالتفريق بين الرجل والمرأة بلا هوادة ولا اعتدال ، وأن يعلموا أيضاً أنه لاتزال توجد إلى اليوم أمم مستمسكة بهذين الأمرين بعناد وشدة . ومع هذا فإنها — أى هذى الأمم — تعد بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة ..

ويوجد إلى جانب هؤلاء جماعات أخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة ، تكاد فى هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها — وأنا أعنى كما لايخفى دنيانا فقط لادنيا الأعداء — مبشرة برسالة روحية خلقية ، استاقت فى طريقها جماهير الشباب ، وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الفكرة التقى البار ، أو الجنون المقدس .

خلاصة هذى الرسالة : أن طريق المجد الإسلامى المنشود ينحصر فى الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى ، وفى تنفيذ الحدود الشرعية ، وفى أداء الزكاة ، وفى إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية ، ثم فى الإيمان بالله والجهاد الدينى فى سبيله .. وقد انطلقوا فى كل مكان يبشرون بهذه الرسالة ، وأخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة إليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون ... ويا ليت هؤلاء يعرفون أن الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون إليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك

الإخوان المسلمون ؟!

إلى دخول ملكوت الله ، وإلى امتلاء أنفسنا بالجمال والرضا والثقة ... ولكن السبيل إلى المجد القومى المطلوب ينحصر فى أشياء أخرى : فى الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ... وإذا كان لا أمل لنا فى أن يخرج صيام غاندى الانجليز من الهند ، فإنه كذلك لا أمل لنا فى أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا أو صيامنا أو إيماننا المجرد ، أو بأخلاقنا الدينية الصرف . فالأخلاق الصناعية الاقتصادية العلمية المادية هى التى تعز الشعوب وتحلها الذروة .. ويؤسفنا أننا لانزال محتاجين إلى فهم هذى الحقيقة وإلى تفهيم الآخرين إياها ... أما الأخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى ، لها نتائج أخرى . ولهذا فإن المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الأعداء ، لايرهبون هذى الأخلاق ولا يخشون أصحابها ، ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها ، بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التى يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم ، متدينة مسرفة فى تدينها ، محافظة على كل فضائلها الدينية ... وإنما يخشى هؤلاء الأخلاق الصناعية المادية العلمانية ، لأنهم يدركون مالهذه من قوة ومنافسة .

ولعله من الواضح المستغنى عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم إنما انتصروا فى بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة ، وأن خصومهم إنما انتصروا فى آخر الجولة بهذه الأمور نفسها ، وأن الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية .

أمريكا اليوم مثلا هى أقوى منا — مع الفروق المخجلة بلا شك — فإلى ماذا ترجع قوتها وتفوقها علينا ، وإلى ماذا يرجع ضعفنا وعجزنا ؟ من الجلى المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله ، أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية ... وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والمادية والعلمية ، وأننا إنما عجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذى ، لالعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية ... لا أحد اليوم يستطيع أن يمارى فى هذى الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر مع أن هؤلاء سلبيون من هذه الناحية تماماً .

فطريق المجد القومى إذن يجب أن يكون معروفاً واضحاً متفقاً عليه ، ويجب أن يعلم أنه غير مايبشر به هؤلاء الإخوان الصالحون ... إن كان هؤلاء الإخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم إنما يدورون حولها الآن اضطراراً ، وإنهم بعد حشد الحشود سيتعرفون

إلى طريقهم الحقيق : إن كان هذا هو الأمر الذى ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم وبأتباعهم . ونظنه مخطئاً جداً من حاول أن يقوى نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت النور الضئيل ...

كم تستولى علىّ شتى العواطف إذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيرة يقادون بهذه الأفكار ، دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسرف فى إعطائهم الوعود السخية الكريمة الرخيصة ، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها ... إنى لأهتف أحياناً كثيرة إذا رأيت هؤلاء المؤمنين — كما كان يهتف أحد أدباء فرنسا إذا رأى أمثالهم : ياللسذاجة المقدسة ، وياللإيمان المخدوع !.

يقال إن الدعاة ينجحون كثيراً ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الاتكالية التى يعتمد أفرادها على الآخرين فى تحقيق آمالهم لعجزهم هم عن تحقيقها . فأمثال هؤلاء يسارعون إلى تصديق كل من جاءهم بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب ، زاعماً أنه سيعطيهم كل شىء إذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا فى إيمانهم .. ويسارعون إلى التنازل لمتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شىء فيهم ، ويصبحون له آلات إنسانية تقاد بأذنيها لا بعقلها ، ويهبونه منهم الطاعة العمياء . وهؤلاء يعسر جداً إفهامهم أو إخراجهم من قبضة هذا المؤمن به ، وتذهب الحجج والبينات لديهم عبثاً ولغواً ... فعلينا نحن إذن أن نتوقع رخص الإيمان ورخص المؤمنين ما لم نصبح أمماً استقلالية ذاتية تعتقد أنها إنما تبلغ آمالها بأعمالها وأفكارها وقواها الذاتيـة الفردية ، لا باتباع الدعاة والرؤساء الكرماء بالكلام . . . إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب فى هذه الآونة الأخيرة على مصر التى رضيناها لنا زعيمة ، وإنها لترنح تحتها . ولاندرى أتثبت لها أم تتهاوى تحت ضرباتها الوجيعة .

لست أحاول هنا وقف العاصفة ، فهى لن تقف ، ولكنها ستتكسر على الشواطىء الصخرية ، وستذهب مزتها فى انطلاقها فى هذا الفضاء الرحيب ، وفى دورانها حول نفسها . وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التى تمنع هبوبها من جديد ، أو لاتوجد العوامل التى تجعلها تعصف مرة أخرى .

ولا أجد مفراً من أن أذكر هؤلاء الإخوان أن الروح الدينية كثيراً ما تكون سلبية تجاه الحياة ، وعطلا فى أصحابها إن لم تشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة

ومن التربية العالية ... وفى الحق أنهم قليلون جداً — إن لم يكونوا غير موجودين — أولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الإبداع فى الحياة والنهوض بها. ولهذا فإنه ليكاد يعجز الباحث أن يجد متديناً حرفياً استطاع أن يكون فى الحياة شيئاً مذكوراً، وأن يتقدم بها ويعطيها ماليس عندها، ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه ... والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة .. وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء. ويروى أن زياداً — ذلك القائد الداهية العربى المشهور — قال: أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه — يعنى عن النهوض إلى السيادة والمجد — وقال المتنبى يصف الرجل الذى سيكون عونه فى انتزاع الملك:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحل دم الحجاج فى الحرم

يريد أنه غير متدين، لأنه يرى المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه ...

ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون:

أمسى إمام الهدى المأمون مشتغلا   بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

غضب وقال: مازدت على أن جعلتنى عجوزاً عاجزة عن الحياة.

فطبيعة المتدين — غالباً — طبيعة فاترة، فاقدة للحرارة المولدة للحركة، المولدة للإبداع ... ومن ثمة فإنك غير واجد أعجز ولا أوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية ... ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لاذنب له، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين، والتوفيق بين الروحين روح الدين، وروح العمل للحياة. وسيكون عملنا هو محاولة التوفيق.

وإن مما يؤلم ومما يتعجب منه حقاً أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وقفاً على الشعوب الإسلامية فحسب، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين فقد اجتاح الضعف والاندحار والسلطان الأجنبى كل الشعوب الموحدة الإسلامية والشعوب المختلطة حتى لم يفلت صغير ولا كبير من هذه القبضة المحكمة القوية، ومن هذه البطشة القاصمة.

ومن المشاهد الموجعة أن الشعب من هذه الشعوب يظل جامداً فى موضعه لايتقدم، بل ولايتحرك ولا يأخذ بشىء من وسائل الحضارة والعمران القوى ولا بالعلم الحديث

— أولا يطلى مظاهره ومظاهر بلاده بذلك — إلا إذا وصل نفسه بهؤلاء الغرباء واستعانهم واستقدمهم كمعلمين مرشدين أو قدموا هم غزاة فاتحين . وصار مقدار ما يأخذ الشعب وما يكسب وما يستفيد من هذه الحضارة وهذا العلم وذلك العمران مقيساً موزوناً معدوداً بالسنين والأعوام التى قضاها فى كفالة هؤلاء ، وبعدد الشركات والمتاجر والمصانع والخبراء الفنيين الذين استخدموا فى وطنه وأراضيه ، أو على الأصح الذين سادوا فى أراضيه . فكلما كثرت هذه الأعوام والمتاجر والشركات وزاد عديد هؤلاء الخبراء والفنيين فى وطن من الأوطان كثر بقدر ذلك مظاهر حضارته أو طلاء حضارته كما هو الواجب أن يقال ، وكلما نقص ذلك نقص ذاك ... ولهذا فإنك إذا أردت أن تسأل : أى هذه الشعوب والأوطان أكثر حضارة وعمرانا ، أو أيها أكثر استعارة للحضارة والعمران ، أو أيها أقدم فى ذلك وجب عليك أن تقول : أى هذه الشعوب والأوطان اتصل بأوروبا أول ، وأيها أكثر انتفاعاً بشركات أوروبا ومتاجرها وخبرائها وأموالها !.... وما أحسب بلداً من بلاد المسلمين استطاع أن ينجو من هذا الناموس الشامل الصارم . . . وقد شوهد وإلى اليوم لايزال يشاهد أن الأمة التى تختار العزلة التامة والاكتفاء الذاتى تظل محرومة من كل أسباب هذه الحياة الحاضرة ، محرومة من كل ما يسمى تقدماً ، متمسكة بخيوط تلك الحياة القديمة الواهية . ونحن نعرف وأكثر القراء فى ظنى يعرفون أن أمة من هذه الأمم اختارت لنفسها البقاء خارج هذه الحلقة المضروبة فصارت مضرب الأمثال فى ضعف الشأن وسوء الحال حتى إن بلادها كلها — وقد كانت فى أزمان متقادمة موئلا للحضارة والسلطان والمجد — لا يوجد فيها اليوم طبيب واحد ولا مدرسة واحدة ولا صحيفة واحدة وسكانها لا يقلون عن سبعة ملايين من الأنفس البشرية تحمل أربعة عشر مليون عين وأربعة عشر مليون أذن ! !

ومن الملاحظات الجديرة بكل عناية وتفكير أننا — حتى المتعلمين منا فى المعاهد الأجنبية أو فى المعاهد الموضوعة حذو المعاهد الأجنبية الذين يحملون الشهادات العلمية العليا التى يحملها زملتهم من الأوربيين والأمريكيين — قد عجزنا عن اللحاق بالآخرين وعن مساواتهم فى الانتفاع بالشهادات العليا والدراسات العليا : فإن هؤلاء المتعلمين منا عندما يتخرجون من هذه المعاهد يبقون وقصارى أمرهم أن يكونوا مقلدين ناقلين محتذين مراجعين فاقدين كل ابتكار وتجديد وسير بالعلوم التى درسوها إلى الأمام خطوة واحدة ... وإن الذين يحملون الشهادات العليا عندنا فى العلوم المختلفة يتعدون الإحصاء ،

ولكن أى ابتكار علمى جاءوا به ، وأية نظرية لم يسبقوا إليها سلمها لهم العلم ، وأى اكتشاف فى ناحية من نواحى المعرفة وفقوا إليه ، وأية خطوة خطوها بالإنسانية القائمة على خطوات بنيها ؟ ؟

أما زملتهم الأوربيون والأمريكيون الذين خرجوا من المعاهد التى خرجوا منها ، والذين يحملون الشهادات التى يحملون فهم الذين يقدمون إلى العلوم وإلى الثروة الإنسانية العامة كل يوم شيئاً جديداً . وهم الذين يفتحون للبشرية كل حين باباً من أبواب المعرفة لم يفتح لأحد من قبلهم . وهم الذين ينفقون أوقاتهم جادين دائبين فى فرش الطريق وإزالة كل العقبات الموجودة فيها . وهم الذين على أجنحتهم طار الإنسان حتى سبق الخيال . وهم الذين تنتظر منهم الإنسانية أن يحققوا لها كل أغراضها وأن يقضوا على متاعبها وآلامها ! فما أعظم الفرق بين الفريقين ! فما هى العوامل الخفية التى قضت بهذا التفاوت المخزى المفزع ؟

هذه مناظر بشرية متكررة تؤلم كل نفس ، أو يجب أن تؤلم كل نفس ، ويقف عندها طويلا كل مفكر أو يجب أن يقف عندها كذلك . ولكننا — والأسباب خفية أو تكاد تكون خفية — نمر بها ممثلة أمامنا ، بل ممثلة فى أوطاننا وفى أنفسنا إذ نحن أشخاص الرواية — بل ومؤلفوها — غافلين معرضين لا نمنحها أقل التفات ولا أسرع نظر .. فمن منا فكر تفكيراً جاداً صادقاً فى هذه المشاهد الباكية متلمساً الأسباب ، باحثاً فى الأعراض والأمراض محاولا الوصول إلى مصدر الداء وإلى علة العلل ؟ ومن منا قال لنفسه أو لغيره : إن هذه ظاهرة غريبة ، وحالة اجتماعية مريبة ، كيف حدثت وكيف يمكن أن تعالج ؟

إن المطابع عندنا تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عده من الأسفار المؤلفة فى الآداب ونحوها ولكن أى كتاب أخرجته فى هذه القضية بل أى كاتب فكر فيها ؟ الظاهر أن الشعوب إذا مرضت أمراضاً اجتماعية خطيرة ضعف شعورها بالحياة ، ثم تبع ذلك ضعف شعورها بأمراضها وآلامها ، ثم تبع ذلك ضعف تفكيرها فيما أصابها وما يصيبها ! والإحساس بالآلام هو فى الحقيقة برهان الحياة الفياضة المتدفقة وبرهان القوة والعافية . . . ومن أجل هذا كان إحساس الإنسان أقوى من إحساس الحيوان ، وإحساس الحيوان أقوى من إحساس النبات ، ثم الجماد لا إحساس له لفقده

الحياة . بل إن الكبار أعظم إحساساً من الصغار لأن حياة هؤلاء أكبر من حياة هؤلاء!
وإذا عرفنا هذه الحقيقة لم يكثر تساؤلنا ولا استغرابنا لخضوع الشعوب والجماعات المنحطة القريبة فى معانيها من الحيوانات بصبر هو الرضا عينه لكل هذه الآلام المصبوبة عليها ولاستعباد الآخرين الأقوياء لها ، غير محاولة أن ترفع رءوسها أو تلق عن كواهلها شيئاً من هذا العذاب ، أو مفكرة تفكيراً صحيحاً جاداً فى أنها مظلومة مستعبدة أو أنها موضوعة فى غير الوضع الإنسانى الصحيح ... بينما نجد الشعوب والجماعات الأخرى ذات الحياة والشعور القوى والإحساس الفياض تقوم قيامتها على من أراد أن يصيبها بشىء ما من هذه المصائب التى تنزل كل وقت بالجماعات والشعوب الأولى ... فلا يجب أن نعجب إذن كثيراً إذا رأينا أمة من الأمم تسام كل ألوان الخسف غير قائلة : لا ، بل غير متألمة بل غير شاعرة بعذابها ، ثم رأينا أمة أخرى تعصف بكل ما أمامها إذا ما مسها ماس ... ومن هنا كان المتنبى حكيماً جداً حينما قال :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وليس بجميل منا أن نطالب الجماعات بأن تفكر فى حالتها المنكرة الخبيثة وتفكر فى محاولة تغيرها ونبذها حتى نستطيع أن نشعرها بآلامها ونشعرها بأن هنالك حياة إنسانية أرقى وأفضل من حياتها التى تحياها . هذه خطوة فى أول السلم لابد منها . . . فالسبب إذن فى أن قومنا لا يفكرون كما يجب فى دائهم العضال ، ولا يتطلبون أو يتلمسون له العلاج هو أنهم لم يشعروا به شعوراً قوياً يبعث على الإنكار أو الثورة لأن أمراضهم اشتدت بهم حتى صاروا لا يكادون يحسونها . ومن عجب أن يكون وجود الشىء وشدته باعثاً على عدم الشعور به ! ومن هنا أيضاً كان المتنبى حكيما خبيراً جداً حينما قال مبيناً عن هذا المعنى الدقيق الغامض :

وشكيتى فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء

أما أنا — وقد يكون هذا لسوء حظى — فلقد فكرت فى هذه المسألة تفكيراً شاقاً مضنياً ، وما زلت منذ ست سنوات أو تزيد ورأسى يلتهب بالتفكير فيها التهاباً ، مقلباً لها على كل الوجوه ، محاولا إنضاجها فى معمل الفكر . ومافتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية ، والحروب الجدلية ، بغية الإحاطة بها من كل أطرافها ، والإلمام بأسبابها ، حتى لقد ظننت بها شبه مريض ،

أشقى إذا تحدثت فيها وأمرض إذا سكت عنها ... وقد اجتهدت أن أدرس القضية درساً دقيقاً من كل وجوهها واحتمالاتها ، فدرستها فى الكتب التى ظننتها مصدر الداء ، ودرستها فى التاريخ الخاص والعام ، ودرستها — وهذا أبلغ الدروس — فى نفوس المسلمين : فى نفوس الخاصة والعامة المتعلمين والجاهلين ، الآخذين معارفهم عن الشرق أو عن الغرب ... وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج فى العام الماضى على أن أتصل بالمسلمين الذين جمعتهم هذه الفريضة اتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن أغوص إلى الأعماق وأن أستخرج الدفين الكمين ، وأن أصل من تلك النفوس الحائرة إلى مالم يوصل إليه قبلا ، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولا حتى بلغت — حسب ظنى — ما أردت . وقد كان كثيرون من الإخوان يعجبون من عنايتى بالصغائر المتصلة بهذه القضية إذا ما رأونى ملحاً فى السؤال ، ملحفاً فى طلب الاكتشاف ، وإذا ما رأونى أسأل وأكلم من لا يجوز — بادىء الرأى — أن يسأل وأن يكلم من دهماء الناس وعامتهم .

وقد خيل إلىّ أنى قد صدرت فى هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندى ، فجئت أعرضها هنا عرض مؤمن بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل .

أن التفاوت الذى ذكرناه بيننا معشر المسلمين وبين الأجناس والأمم الأخرى لا بد له من أسباب وعلل . وهذا ما لا ريب فيه . فليس من المعقول أن يكون تقدم قوم وتأخر آخرين مشابهين لهم فى ظاهر الخلق بل وباطنه مجرد صدفة من الصدف أو مجرد اتفاق لا تعليل له ، بل كل شىء قائم على أسباب وعلل .

والمسألة لها احتمالان أو فرضان من حيث النظر العام : أحدهما أن يقال : إن هذا التفاوت طبيعى فى أصل التكوين وجبلة الفريقين . وثانيهما أن يقال إنه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه .

أما الفرض الأول فليس من الممكن القول به ولا المصير إليه . وذلك أن تطور العقل البشرى فى جميع مراحله ومراحل وجوده — وأن التاريخ العام لقيام الأمم وسقوطها ولتوثبها وركودها — وأن تعاقب الأمم والشعوب على عرش الحضارة وتداولها الأخذ بيد المدنية — وأن اختلاط العناصر وتمازجها — بحيث لا يوجد عنصر نقى

حقيق لا تشوبه شوائب العناصر الأخرى التى فرضت متأخرة طبيعة أو فرضت متقدمة طبيعة — وأن ما ثبت ثبوتاً لا ينهض لهدمه شىء من استعداد كل إنسان — حسب ما يصادفه فى طريقه وحياته — لأن يكون إنساناً راقياً مهذباً أو إنساناً منحطاً فاسداً — إن ذلك كله — مضافة إليه أشياء أخرى كثيرة — لايبقى لهذا الافتراض فرصة لأن يكون مقبولا قائما . وهناك شىء آخر فى هذه المسألة هو أعظم مما ذكرنا وأظهر . ذلك أن علماء التشريح قد أثبتوا أنه لافرق يذكر بين جمجمة هذا الإنسان السيد الراقى اليوم وبين جماجم هذه الشعوب التى تشكو اليوم من ضعفها وهوانها لامن ناحية الحجم ولا من ناحية التلافيف والتعقيد والوضع . وأثبتوا أن المخ العام فى أممنا الواهنة المغلوبة على أمرها والأمم القوية المبتكرة المتحكمة فى مصاير العالم ليس له فروق يؤبه لها تقضى بهذا التفاوت العنيف البعيد ... فهذا الافتراض مفروغ إذن من بطلانه ، وإذن فالافتراض الآخر هو الصحيح الواجب المصير إليه ، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا .

وسنثبت فى الفصول الآتية أن المسأله لا تعدو أن تكون تفاوتا بعيداً فى فهم الحياة وفهم سنن الوجود وفهم ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط ، وفهم الإنسان نفسه وفهم صلات الإنسان بالإنسان وصلاته بالوجود وفهم كل ما يقع تحت الحس والوجدان ، وإن الحواجز والعوائق التى وقفت فى سبيل المسلمين لا تخرج عن أن تكون عوائق معنوية نفسية اعتقادية حملوها أنفسهم فوهنت ، ووضعوها فى طريقهم فحادوا عن الطريق ، وجللوا بها الوجود فلم يفهموه أو يعرفوه ولم يعرفوا حدوده وأرجاءه وقوانينه ، فتاهوا فيه وذهبوا إلى غير مذهب وسلكوا غير سبيل . فاعترض طريقهم من عرفوا الطريق وأخذهم بقوة سنن الحياة من علموا سننها .

شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضى الواسع الأرجاء الكثير الأخطار ، أحدهما فكر فى نواميس هذا الكوكب الذى هبطه وفى قوانينه ونظمه وفى نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص فاهتدى إلى كل شىء مما يتصل بذلك فسار تحت ضمان معرفته فى قوة لا يكبو ولا يضل ، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان ... وشعب آخر هبط غريباً فى هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه ، بل جاهلا نواميس نفسه ونواميس وجوده ، فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه ، ولم يعرف ما يقوده إلى النجاح والفوز

ولا ما يؤدى به إلى الفشل والدمار.. هذان شعبان فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما ؟ ليس هنالك أدنى ريب فى أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان ، وقد كانت حقاً ، وليس هنالك أقل تردد فى هزيمة الجاهل إذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة .

فمهمتنا إذن فى هذا الكتاب — بل مهمتنا العامة — أن نعمل على دلالة قومنا بأن الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سنناً لا تبديل ولا تحويل لها ، وأن هذه السنن تسير — وفق حكمته وعدله — سيراً دقيقاً موزوناً مقدوراً لا تشويش فيه ولا اضطراب كأنه مسألة رياضية لا يختلف فى حلها العلماء ، ولا تختلف نتيجتها لاختلاف العلماء الحالين لها . فالنتيجة هى هى واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر ، وسواء أحلها الشرقى أم حلها الغربى فإن الحقائق المجردة لا تتغير لاختلاف المتناولين لها أو لاختلاف أديانهم ومبادئهم . . . فإذا ما استطعنا — وذلك ما يجب أن نستطيعه — أن نفهم قومنا ذلك ، وإذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقاً — وذلك ما يجب أن يفهموه — كان من اليسير جداً بل ومن المحقق يقينا أن يسيروا سيراً سريعاً — لا إبطاء ولا تأخير — فى سبيلهم التى خلقهم الله وأعدهم وهيأهم وأمرهم للسير فيها — أى إلى الكمال وإلى الحياة القوية . فإن الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لأن تبلغ أقصى ما فى الحياة من قوة ونجاح . وذلك أن الله خلق الأشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، ولتبلغ أشدها فى وقت من الأوقات كما قلنا . فالحيوان — وعلى رأسه الإنسان طبعاً — والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعى الآلى والشوق الاختيارى الإرادى إلى الكمال ... وقد حدث العلماء أن هذه الشمس الباهرة الوضاءة ، وهذه النجوم المتلألئة ، وكل هذه الأفلاك التى تزين الظلام فى حلكة الليل الأصم — وهذه الأرض التى صارت من كمالها وقوتها تنبت الإنسان والحيوان وكل ما فيها مما يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الإنسان ويهبه الراحة والعيش الهنىء : حدث العلماء أن كل هذه الموجودات خلقت — أول ما خلقت — لا تصلح لشىء مما هى صالحة له اليوم وليست شيئاً له قيمة بالنسبة لما صارت إليه اليوم . ولكنها ظلت — لما وضع الخالق فيها من استعداد للكمال والتقدم — تدرج إلى غاياتها وتحبو فى طريقها جادة لا يعوقها عائق ولا يصدها صاد حتى أصبحت اليوم شموساً ونجوماً وكواكب لامعة تغمر الوجود بهجة وجمالا وحياة وضياء . . .

والإنسان بلا أدنى ريب وهب من الاستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها مالم يوهب مخلوق آخر ، ولكن الإنسان — لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه — جعل سيره نحو الكمال اختيارياً وآلياً معاً لا آلياً فقط — بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضاً نحو النقص والدمار . وكلا الأمرين بيده وتحت مشيئته لأن الله شاء له ذلك.

فكان من اللازم الضروري المحافظة حينئذ على خطواته كيلا يزل أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق . ولا جدال فى أن شيئاً من الأشياء لا يستطيع أن يصل إلى غايته المرسومة إلا إذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة فيه وألهبت استعداداته الطبيعية . ولكن يجب أن يفهم هنا — وهذا له شأن خطير كبير — أن فى استعداد المواهب البشرية وفى طاقتها أن تمضى فى سبيلها دون وقوف ، فعلينا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد ذلك لأن نلتمس مهمازاً تدفع به الإنسان إلى العمل بطبيعته بل هذا المهماز موجود فيه وفى طبعه . . . فارفعوا هذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والأغلال الاعتقادية ثم انظروا كيف يكون الإنسان .

وإن رجائى إلى كل قارىء لهذا الكتاب أن يشاركنى الاهتمام بهذه القضية الإنسانية الكبرى ، وألا يعتقد أن المسألة لا تخرج عن أن تكون أفكاراً تقرأ أو سطوراً تتلى ثم تنسى كما تنسى صغار الحوادث اليومية .

والله المسئول أن يلهم الصواب والحكمة ، وأن يعين على بلوغ الغرض المنشود ، وألا يجعل العمل باطلا ولا الجهد ذاهباً .

عبد الله القصيمي

لقد كفروا بالإنسان — الإيمان به أول

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه فى غمراته يتقمقم
ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم
[الزمخشرى]

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
[الرازى المفسر]

فيك يا أغلوطة الفكر ... حار أمرى وانقضى عمرى
سافرت فيك العقول فما ... ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا ... أنك المعروف بالنظر
كذبوا . إن الذى ذكروا ... خارج عن طاقة البشر
[ابن أبى الحديد المعتزلى]

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها ... وجولت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعا سن نادم
[الآمدى المغالف]

* * *

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين إلى مكان ما فى دولة ما للقيام بالبحث عن النفط ، وبعد القيام بالاختبارات اللازمة الأولية نفضوا أيديهم قائلين : إنه لا يوجد نفط فى ذلك المكان وإن وجد فمقادير ضئيلة لا توازى التكاليف والنفقات . فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاة . ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها إلى المكان نفسه ، للغرض نفسه ، فى الدولة نفسها ، فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون ، فأسرعت تلك الشركة إلى شراء تلك الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد ، ووضعت لها ولهم شروطاً اتفقوا عليها . فبدأت أعمالها وأخرجت الكنوز فأفادت هى وأفادت البلاد وازدادت بتلك الثروة العالمية العامة والتفت العالم إلى ذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد أن كان فى حساب النسيان والإهمال .

هذه حادثة وقعت سقناها هنا لنقول إن الإنسانية فى نظرها إلى نفسها وإلى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين فى اختلاف رأيهم فى وجود

النفط وفى اختلاف النتائج التى تلزم كلا من الرأيين والنظرين . . . ففريق من الإنسانية — بل أمم وشعوب — ينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأولى اليائسين من الحصول على النفط فى ذلك الموضع ، أى ينظرون إلى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة واستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية . بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدبين ، وسيبقون كذلك ضعفاء مجدبين ما بقوا ، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يعدوا طورهم ولن يقدموا نفطاً ولا غيره . فلا يحاولون القيام بعمل ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده ، فيظلون كما ظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا يأتون بشىء ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الإنسانية شيئاً ولا يضيفون إلى ثرواتها المختلفة قليلا ولا كثيراً . . .

أما أفراد آخرون وشعوب أخرى فينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب استنباطه فيرون — وهم ينظرون إلى أنفسهم — أنهم حريون بالاستثمار والاستغلال وأن مواهبهم الطبيعية حرية بأن تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية ، فينشطون إلى العمل ويأخذون بكل الوسائل ، فيصبحون ما شاءوا مجداً وضخامة شأن ، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية .

وهذا يلخص أظهر الفروق بين الشعوب ، وهو الذى يحدد اتجاهاتها ويضع لها طرقها ، فالشعوب والأفراد الذين لا يؤمنون بأنفسهم ولا بالإنسانية ولا بقواها يقفون فى مكانهم لا يتقدمون لأنهم يجهلون مصادر القوة التى يكون بها التقدم وهى الاستعداد الذاتى الذى لا ينضب ولا ينفد والذى لم يقيد بقيود ولم يحد بحدود . فيهملونها كما يهمل الجاهلون العاجزون الغافلون القوى الطبيعية الخصبة بدون استغلال ولا استثمار وهى تحت أقدامهم وبين أيديهم وأمام أعينهم ، وهذا هو شأن الأمم الهمجية والأفراد المنحطين . . . لكن الشعوب التى تؤمن إيمان علم واستيثاق بهذه الموارد البشرية والكفايات الإنسانية والطبائع الفنية ينهضون للاستنباط والاستخراج وللشحذ والصقل فيثرون ذلك الإثراء العظيم . فيصبح الفرق بين هؤلاء وهؤلاء مثل الفرق بين موضعين مخصبين غنيين بالمعادن وبالعناصر اللازمة لضروب المزروعات : أحد الموضعين استغل واستغلت كنوزه وطبيعته ، وترك الآخر مجهولا مهملا .

إن الشعوب الراقية تمتاز بالإيمان بالثراء الإنسانى الطبيعى ، ولهذا تحاول الظفر

بكل شيء والوصول إلى كل شيء ، والتغلب على كل شيء، وتجربة كل شيء ، فتسير إلى الأمام بالمدنية وتسير بالحياة خطوات واسعة ، وتدفع فى سبيلها كل عناصر الحضارة وتنقل الإنسان فى وجوده وحقيقته من طور إلى طور أعلى وأرقى . وما من شعب — سواء أكان فى الشعوب الحديثة أم فى الشعوب القديمة — أمكن أن يسود وأن يقتعد مقعداً ملحوظاً رفيعاً إلا وكان متزوداً بهذا الإيمان بقدر معلوم معين . وقد كان الإغريق والرومان والمصريون القدماء والعرب وأوروبا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم ممن أوجدوا التاريخ الإنسانى وصنعوا الحضارات مدفوعين — على أقدار مختلفة متفاوتة — بفيض من هذا الإيمان . وكل شعب يكفر بالإنسانية — الإنسانية المطلقة ، إنسانيته هو وإنسانية غيره — ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لا تتعداها ولا تتخلص منها ، وأنها ليست مطلقة القوى وليس متروكا لها الطريق — الطريق الذى ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها — نعم كل شعب يكون هذا رأيه وهذا إيمانه بالإنسانية لا محالة من أن تفتر هممه ويضعف عمله وأن يقف عاجزاً عن التحليق فى سماء اللانهاية ، وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير وبالنصيب اليسير ... ولو أن هذه الأمم التى ترهب العالم اليوم وتسوقه إلى غاياتها الخاصة فقدت هذا الحافز ورأت أن للتقدم وللعلوم وللقوى وللعلو والسير إلى الأمام غايات وحدوداً لا يستطاع قهرها ولا اجتيازها لأثر ذلك أعظم تأثير فى توثبها وفى حياتها ووجودها ، تأثيراً لا شك فى أنه يحد من سلطانها ويضعف من شأنها .

لماذا ينبغ العبقريون الذين يهدون إلينا المخترعات والمكتشفات ؟ بماذا يمتازون على الآخرين الذين لم ينبغوا نبوغهم ولم يكونوا مثلهم ؟ أيمتازون بالذكاء الخارق ؟ ليس هذا كل ما يميزهم ، إذ لا شك فى أنه يوجد فى من لم ينبغوا نبوغهم من هم مثلهم ومن هم يفوقونهم ومن هم قريبون منهم ذكاء . إذن أيمتازون بالهمم الوثابة التى لا تعرف الكلال ؟ لا ريب فى أن هذا من أعظم وأظهر ما يمتازون به ، ولكن لماذا يمتازون بهذه الهمم التى لا تمل العمل والإقدام ولا تكل من الإجهاد والإرهاق ؟ يغلب على الظن أن الذى يزودهم بهذه الهمم الخاصة الممتازة والذى يقدم لها الوقود حتى لا تقف والنشاط حتى لا تنصب هو هذا الإيمان بالمقدرة الإنسانية ، وإيمانهم بأنهم متمتعون بالقوى التى ستوصلهم إلى غاياتهم وأهدافهم والتى ستتمم لهم مخترعاتهم ومكتشفاتهم ... وليس من موضع للشك

فى أن أحد هؤلاء لو أنه فقد هذه الشعلة — وهو فى طريقه للمجد الخالد بل وهو يبنى مجد الإنسانية الأرفع — لوقف فى مكانه يحيط به اليأس ويغمره الكلال ...

وقد اتصف كل أولئك الذين جاءونا بالمخترعات والمكتشفات الكبرى التى نحيا اليوم هذه الحياة على حسابها بعمين من هذا الإيمان بالطبيعة البشرية لايعرف النضوب. وقد استطاع مكتشفو أمريكا وغيرها — بعدهم هذا الإيمان الفياض — أن يتخطوا عقبات وحوائل يعجز كل أهل عصرهم ومن قبلهم عن تخطيها، وقد خارت كل القوى والعزائم أمام المعوقات التى خارت هى أمام عزائمهم وقواهم المشبوبة بحرارة هذا الإيمان. وقد حاول تخذيلهم وترهيبهم وتعويقهم كل من عرضوا عليهم فكرتهم وإيمانهم ولكن لاشىء استطاع أن يثنى ذلك الإيمان الذى جاءنا بأمريكا الجبارة وبغيرها.

وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الإصلاحية التى سيطرت على مصير التاريخ وغيرت مسيره كانوا ممدين بهذا الإيمان الذى لا يتضعضع ... أن أعظم فرق — أو أعظم ما أوجد الفرق بين الأمم الهمجية والرجال الخاملين وبين الأمم المتمدنة والرجال المتوثبين — هو هذا الإيمان بالإنسانية. فالأمم والرجال الذين وثبوا امتازوا كما ذكرنا بهذا الإيمان، والأمم والرجال العاجزون القاعدون — وكذلك الأطفال — لم يرزقوا هذا الإيمان، بل رزقوا — وأخبث به رزقا — الإعتقاد اللازم المسيطر بأن الإنسان خلق عاجزاً محدوداً مهيناً حقيراً لاقدرة له على التحكم فى الطبيعة القاهرة الغالبة ولا يد له تستطيع الامتداد إلى تغيير هذا العالم الذى أوجده الله ولا إلى تغيير صبغته التى صبغه الله بها ... فعليه أن يعترف بعجزه وحقارته وضعفه وحدوده وألا يتجاوز قدره أو يتخطى طوره، بل عليه أن يفر أمام الطبيعة وأمام ظواهرها وأن يركع مستسلماً مستخذياً طالباً النجاة والعافية كما تصنع الشعوب الأولية البدائية، وكما يصنع الأطفال الأغرار وكما تصنع العجماوات إزاء كل ظاهرة طبيعية ومنظر كونى ومشكل خطير كبير وأزمة مجتاحة غالبة.

أن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الإنسانية الكبرى كمشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجدب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة ... ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل مشكلة من هذه المشاكل، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهيـة المقدس. وما عليهم إلا أن

ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون ؟ وكل ما يجب عليهم فى هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يحملوا الانتظار ... وهكذا تمر الأيام والشهور والسنون ، بل والقرون ، وهم يؤملون وينتظرون ما لن ينالوا لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفســه ، ولا ينصر من لا ينصرها كما قال القرآن : « إن تنصروا الله ينصركم » وفى الإنجيل : « أن الله يعين عبداً يعين نفسه » .

أما الآخرون المؤمنون بالإنسانية وبأنفسهم فيهبون لعـلاج كل مشكلة وينهضون لحمل كل عبء ، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى إلى أن يصيبوا فى النهاية النجاح الحقيق الأكبر . وهنا تصبح الإنسانية إنسانيتين : إنسانية راقية ناجحة عاملة قوية وأخرى ذليلة فاشلة جاهلة ضعيفة وقد أصبحنا — وا أسفاه — من الإنسانية الأخيرة .

أن أولئك يريدون كل شىء من السماء ومن الآلهة المتعددة الأخرى . أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل شىء وأن فى استطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه ... فيدعون فى الأعمال ويسيرون فى الطريق ، أما أولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل ، ثم الانتظار الطويل الممل ، ثم التسلى والاشتغال بذلك كله عن العمل وعن اقتحام الصعاب .

وإن أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والابتهالات الوقحة الذليلة — داعين على الآخرين — سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الأرض أو يجعلها عليهم ناراً ، وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذراريهم غنيمة باردة لهم ولأمثالهم من المسلمين العاجزين عن الحيـاة . ولكن الله لن يصنع ذلك أبداً ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، لا حتى تمتد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم .

ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقى بها عدو عدوه ، بل إنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة . وبيان ذلك أن إنساناً ما إذا غضب أو حنق على إنسـان آخر — أو أمة على أمة أخرى — لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان أو المنافسة والحقد والحسد — صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة، من الممكن ، أو من المؤكد، أن تدفع ذلك الحانق الغاضب إلى العمل أو إلى الانتقام

والبطش . ولا محالة من أن تندفع هذه القوة فى سبيل ما من سبل الاندفاع . والسبيل الطبيعى النافع لها أن تندفع فى سبيل الانتقام والبطش أو العمل والإنتاج — أى ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق أو يسبق منافسه الذى أضرم فى قلبه نار الغيظ . ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفساً وطريقاً آخر غير هذا الطريق الطبيعى انطلقت فيه فألفت فى انطلاقها هذا تعويضاً ومصرفاً عن الوجه الآخر . وهذا معروف فى كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع . وإن أعظم قوة تسير أعظم الآلات وأكبرها لتعجز عن القيام بوظيفتها هذه إذا وجدت لها طريقاً غير هذا الطريق أو متنفساً .

وقد كان المفروض فى هذه الشعوب والأفراد الحانقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والأغلال والفروق الظاهرة المخزية — تدفعها قوة الحنق أو قوة الحسد والمنافسة . ولكن هؤلاء سلكوا طريقاً آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفيسة ... أنهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والاتهام وسائر ألوان الكلام ، فوجدوا فى ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوى المتولدة من احتراق الانفعالات والعواطف المختلفة .

إنها فروض ثلاثة : إما أن تدفع هذه العواطف إلى العمل وإما إلى الكلام ، وإما أن تبقى هما مخامراً وغيظاً دفيناً ، تحتبس نيرانه المتوهجة فى النفس ..

أما العمل فهو ما يجب أن يكون أثراً لهذه العواطف وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والإبداع . وأما الكلام — أى السباب والدعاء والاتهام — فهو المصرف الخبيث لها والملهاة المفسدة المعوقة للبشر عن الإنتاج والعمل النافع . وأما الهموم ودفن الأحقاد فى حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية غير أنه لا ريب فى أن هذه العواطف والانفعالات هى من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا ، فلا بد أن تنتهى بصاحبها إلى أحد الأمرين الأولين : العمل أو السباب والتشفى الساذج . فلنحذر الأخير لنصير إلى الأول .

لقد رأينا — وإننا لا نزال نرى ، كما يرى غيرنا أيضاً — الحشود الكثيرة التى وجهت هذا التوجيه السخيف القاتل ، تظل تقتل أوقاتها وتجود بساعات نفيسة من ليلها ونهارها فى الدعاء على المتفوقين الناجحين ، وعلى الظالمين الذين يجب أن يقاوموا وفى السب والاتهام لهم ونثر الإشاعات عنهم ، وفى الآمال الباطلة الراجية من الله

أو من الزمان أن يتبرع بتدميرهم وبالقضاء عليهم — لا لشيء إلا لأنهم هكذا يشتهون ويريدون.. وإن هؤلاء البائسين ليشعرون بأعظم العزاء في هذا الأسلوب البدائي المنكر!! وهم لا يدرون أنهم بذلك يحطمون أمضى سلاح أودعه الله فيهم للانتقام أو للمنافسة والمباراة والتذاود حول مشرع الحياة.

وكم من الفروق بين أن تقوم بعمل ما — مهما كان هذا العمل صغيراً — إزاء منافس قوي أو ظالم جبار وبين أن تذهب تصطفي أبرع ألفاظ الدعاء وأجمعها، وأقبح الإشاعات والاتهامات وأشنعها، لتنتزعها من أعماق عاطفة محترقة مضطرمة لتصلي بها منافسك أو ظالمك فلا تصليه ولكن تصلي نفسك وتدمر حياتك، فلا تزداد إلا احتراقاً وهبوطاً بينما يزداد هو مجداً وارتفاعاً.

ولعله مما يبالغ ويضاعف في سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع في مساجدنا بالدعاء عليهم وبلعنهم وقذفهم لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله. وأن المثل الغربي القائل: « لا تلعنوا الظلام ولكن أوقدوا الشمعة » لخير ما يجب أن تنسج على نوله التربية والتوجيه العاطفي والعقلي.

وقد لونت الثقافة التي ما زلنا منذ ألف سنة تقريباً نطعم على مائدتها بهذه الألوان الدكناء ... فمن رأي هذه الثقافة — وهو الرأي الذي لا رأي لها سواه — أن الإنسان ما خلق ليكون يوماً ما عظيماً بل إنه خلق ضعيفاً في عقله وجسمه، وليس له مفر من هذا الضعف. وكل محاولة تبذل للفرار من هذه الحقيقة هي محاولة خاسرة. وعند هذه الثقافة أن الإنسان محدود وأنه ليس من المستطاع أن يخرج من حدوده إلا إذا كان من المستطاع أن يخرج من عبوديته ومخلوقيته. فإن هذا التحديد الذي زعموه وخالوه هو أحد معاني العبودية والمخلوقية وأحد ما يلزمها. وإطلاق القوى المختلفة من الحدود والقيود لا يكون — في رأي هذه الثقافة — إلا للخالق وحده. والأشعار التي أوردناها في مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة في هذه القضية أحسن إبانة: في قول الزمخشري أن العلم لله وحده أما من سواه من المخلوقين فهم في غمراتهم أو غفلاتهم يتقمقمون، وليس لهم أن يطلبوا علماً ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا، وذلك أنهم تراب: خلقوا من التراب ومصيرهم التراب، وما للتراب والعلوم. وهم إنما خلقوا ليعلموا وليعلم سواهم أنهم غير قادرين على أن يعلموا شيئاً وأن يكونوا علماء، وأن يفلتوا من أصفاد الجهل:

ما للتراب وللعـلوم وإنما يسعى ليعـلم أنه لا يعـلم

فالإنسان عند الشيخ الزمخشرى ما خلق إلا من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلا طبيعياً لا يمكنه التفلت منه . وهـذا بمثابة الحكم بالإعـدام على المواهب الإنسانية بل على الإنسانية فى كل معانيها .

وأما الشيخ الرازى فيرى أن أقصى خطوات العقل البشرى أن يعجز عجزاً مطلقاً وأن يقع فى عقال يمنعه التفكير والعمل والتقدم والتأخر . ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الإقدام فى مجالها ازدادت حيرة وضـلالا وضعفاً وجهلا وعجزاً عن المعرفة ! فمن الخير لهـا إذن أن تحجم وألا تقدم ، ومن الخير لهـا أن تبقى فى مكانها لا تبرحه لئلا تضل ولئلا تذهب بداداً ثم لا ترجع أبداً .

لكن ابن أبى الحديد يحكى أنه قد أضاع عمره كله فى تلمس الحقيقة — والحقيقة أغلوطة من أغاليط الفـكر — وأنه حار فى أمره . ويحكى أن العقول الأخرى أيضاً قد سافرت وجهدت قبل أن يسافر ويجهد عقله هو طلباً لهذه الحقيقة ، ولـكنها لم تظفر بها ولم تربحها ، وإنما ربحت مشقة السفر العقلى ! ثم ينحى باللائمة على أولئك الذين زعموا أن الحقيقة يمكن أن تعرف بالبحث والنظر والفكر ، ويدعو عليهم — مترفقاً بهم راحماً لهم من أجل جهلهم ومن أجل ما أصابهم من العناء والنصب . ثم يرسل حكمه الصارم قاضياً عليهم بأنهم فى زعمهم هذا قد كذبوا ، وزاعما أن عرفان الحقيقة خارج عن الطاقة البشرية . فليس فى إمكان البشر مجتمعين أن يدركوها وأن يعلموها ! فليقنعوا إذن بالجهـل الذى هم أهله ، وليدعوا تطلب المحال وما لا ينال .

على أن الشيخ الآمدى — بالبيتين اللذين نقلناهما عنه — قد رمى البشرية العامة بما أصمى فقد زعم أنه قد طاف بالمعاهد العلمية كلها طواف مختبر مستخبر ، وأنه قد جول بطرفه بين تلك المعاهد جميعاً تجويل فاحص مستقص ، راجياً أن يرى أو أن يعلم من نفعه بحثه ودراسته أو من هداه عقله وكتبه فاطمأن إلى عرفان ، أو برد كبده الحرى ببرد الإيقان . . . ولـكنه — وا أسـفاه — لم يجد أحداً من هؤلاء الذين طلبهم وإنما وجد من وضـع كفه على ذقنه من الذهول وشدة الحيرة ومن ذهب يقرع سـنة من الندم والأسف على ماأنفقه من الأعمال العقلية والفكرية التى كان أمله فيها أن تهبط به على ساحل النجاة فهبطت به فى ظلمات من الشك والريب والغواية .

وقد صنع أحد هؤلاء أنشودة قديمة يتناقلونها فى كتبهم ويترنمون بها فى مجالسهم ، ويزينون بها أحاديثهم ... قالوها فى مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا فى عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى فى بنيان هذه الحضارة ، وأن ينحتوا الأحجار التى قامت عليها المدنيات ساقاً بعد ساق ... وقد ظنوا أنهم بوضع هذه الأنشودة الظالمة يرضون الله إذ يخصونه وحده بالعلم ، ويرضون الأديان وأصحابها إذ يحسبون أنها إنما جاءت لتجرد الإنسان من كل القوى العقلية والمادية لتقدمها للخالق من غير أن يشاركه فيها مشارك ! وقد جاء فى هذه الأغنية قولهم متهكمين ساخرين :

من أنت يا رسطو ومن أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

يعنون بهذا أن هؤلاء الرجال الباحثين وغيرهم من الفلاسفة حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم الذى لم يهتك حجابه حكم الفراش الذى يرى النور المتوقد فيثب عليه ويدنو منه فيحترق فيموت ! وقدكان حكم العقل الراشد يقضى بأن يبعد عن السراج وعن نوره لينجو ، ولكن الفراش لا يهتدى لأنه لا عقل له . وكذلك هؤلاء الذين يطلبون المعرفة يحرقون أنفسهم بطلبها من غير أن يدركوها ويجهلون كما يجهل الفراش الهاجم على النار والنور . فالمعرفة إذن لا يمكن الوصول إليها ، ومن حاول هذا الوصول هلك فى طريقه .

هذه صور قليلة تنبىء عن مقدار سيطرة هذه الروح الخبيثة الشريرة على ثقافة هؤلاء الذين تعلق العالم الإسلامى منذ مئات السنين بركابهم فراحوا يجرونه وهو لايدرى أين هو ذاهب فأصابه من الجروح والقروح والأحوال المذهلة ما أعجزه حتى اليوم عن الإفاقة وعن الشعور بما هو فيه من الآلام . إن من كلامهم الذى سار مسار الأمثال : « العجز عن الإدراك إدراك » يعنون أن العجز عن العلم علم .

انظر إلى هؤلاء الواقعين صرعى فى معركة الحياة الرهيبة ، العاجزين عن النهوض وعن الحياة الصحيحة ، ثم سلهم فرداً فرداً : لماذا سقطوا ولماذا عجزوا تعلم أنهم قد سقطوا وأنهم عجزوا لأسباب ، وأن أحد هذه الأسباب هو شكهم فى أنفسهم وكفرهم بكفاياتهم الذاتية بل كفرهم بالكفايات الإنسانية .

نعم ، كل إنسان يحب النجاح غريزة ، ويعشق الكمال ، وكل إنسان فيه الاستعداد الطبيعي لهذا النجاح ولهذا الكمال ، بل كل شيء في هذا الوجود — سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان — سائر في طريقه الطبيعي سيراً آليا أو اختيارياً إلى النجاح وإلى الكمال النسبي اللائق به ، وكل شيء أعد إعداداً طبيعياً ليحيا حياة صحيحة بالنسبة لوجوده وحقيقته . وما من شيء ينحرف عن هذه الحياة الصحيحة ويعجز عن الاستمتاع بها إلا لآفة طارئة عاقته عن أن يصل إلى ما هيء له . فإذا عجز نوع من أنواع النباتات عن بلوغه الغاية المقدرة له من النمو والقوة والجمال فهل هناك من يرتاب في أن آفة من الآفات النباتية عدت عليه وأن هذه الآفة ليست طبيعية وإنما هي عارضة . والإنسان بلا خلاف أولى هذه الموجودات بالكمال وبالحياة القوية لأنه أرقاها ؛ فلماذا إذن لا يبلغ هذا الذي يحب ويعشق والذي جعل مستعداً لبلوغه ؟ لماذا لا يبلغ النجاح ولا الكمال مع أنه يحبهما ويعشقهما ومع أنه خلق وفيه الاستعداد والكفاية الفطرية الذاتية لبلوغهما ؟ لماذا لا يبلغ الصانع والتاجر والزارع والعالم والمتعلم وكل صاحب فكرة أو عمل الغاية التي يحب والنهاية التي يتصورها ؟ ولماذا يرضى من كل ذلك بالحظ التافه وبالحصة الحقيرة ؟؟ لهذا أسباب بلا ريب ، من هذه الأسباب الجهل والعجز وضعف الهمة . ولكن لماذا يبقى جاهلا بما يجب عليه من أجل النجاح فيما هو فيه وعاجزاً عن الأخذ بما يلزم من أجل النجاح ؟ لا تردد في أن من أسباب ذلك جهله بنفسه وكفره بما فيه من ذاتية عريقة ، في استطاعتها — إذا أحسن استخدامها والانتفاع بها — أن تحطم أصفاد الجهل وأغلال العجز والضعف . فالأمر إذن يرجع في كثير منه إلى الكفر بالإنسانية المشتركة . . . ثم ضعف الهمة ! ؟ لماذا يرضى الإنسان بالهمم الضعيفة الواهنة ولماذا لا يثب حتى يصير من ذوي الهمم الغلابة القهارة ؟ لهذا أيضاً كما لا يخفى أسباب . لأن رضا الإنسان بالدون ليس طبيعياً فيه ولا غريزيا ... بعض هذه الأسباب شكه أيضاً في مقدرته على أن يكون من أرباب الهمم العاتية العالية واعتقاده أنه عاجز عن صعود هذه القمة — أي جهله بما يكمن فيه من القوى وضروب الاستعداد وجهله بحقيقة الإنسان من حيث هو إنسان . وإلا فإن النجاح الحقيقي يغري ببذل الثمن مهما كان غالياً ، ومهما كان كثيراً . فالخوف في الغالب من بذل الثمن لن يكون مانعاً عائقاً ولكن الذي يمنع ويعوق ويقعد بالهمم والقوى عن النهوض هو الشك في النجاح ، وهو العجز عن الإيمان بالقدرة الشخصية التي تكفل الفوز وتبلغ الغرض البعيد .

• وأمور الناس كلهم قائمة على الإعطاء رجاء الأخذ وعلى التضحية من أجل انتظار الجزاء ، وكلهم مستعدون فطرة وطبيعة أن يعطوا وأن يبذلوا ، وإن آلم الإعطاء والبذل إذا آمنوا إيماناً لا شك فيه بأنهم سيأخذون أكثر وأفضل مما أعطوا وبذلوا ، سواء أكان هذا الإعطاء وهذا البذل ذهنياً أم جسدياً أم مالياً . . . ولولا هذا الاستعداد الإنسانى الشامل لوقفت كل الأعمال ، ولما استطاع الإنسان أن يتقدم ولا أن يتأخر ولا أن يفعل شيئاً . هذه طبيعة إنسانية لا يمكن ردها ولاتبديلها ، وهى فى خير الإنسانية بلا شك ، بل عليها قامت كل الحضارات والمدنيات والعمران ، بل وكل الأعمال الصالحة البارة التى يفعلها الأبرار الصالحون رجاء الجزاء الأخروى . ولو فقد الإنسان هذه الغريزة لما استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً . وعلى هذا فلا شك فى أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالأجزية والمكافآت فى دار البقاء وهم يصرون على المخالفات وعلى كسب السيئات وترك الحسنات غير مؤمنين حقاً لابالثواب ولابالعقاب وإلا لعملوا لما يؤمنون به . والمسألة مسألة شك أحياناً يكون ظاهراً ، وأحياناً أخرى يكون مقنعاً . ولو ارتفع هذا الشك لكانت النتيجة غير ذلك . فليس الفرق بين الصالح الورع المنقطع إلى عمل الصالحات وبين الفاجر المكب على الشهوات المحرمة هو أن الأول أحرص على الخير لنفسه وعلى البذل والإعطاء من أجل الأخذ والجزاء من الثانى ، كلا فإنهما يستويان فى هذه الناحية . بل قد يكون الفاجر أحرص على ذلك من الصالح إن كان فى هذا تفاوت . ولكن الفرق بينهما أن الصالح آمن بالأجزية إيماناً تاماً أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان ، وإنما شك شكا وظن ظناً أو كفر كفراناً أو نسى نسياناً ، فراح يأخذ ما استطاع أخذه ولم يجد إيماناً بالعاقبة يحمله على أن يعطى عاجلا ليأخذ آجلا . والحكمة المتبعة عنده قول القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به   فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فكل هؤلاء الذين تراهم عاجزين عن النجاح راضين من الأعمال ومن الحياة ومن أنفسهم بأحقر ما يمكن لا يجب أن نفهم أنهم قد رضوا بذلك وهم يرون أن فى استطاعتهم الحصول على أحسن وأفضل منه أو أجمل . وإنما يجب أن نفهم أن من أعظم ما حملهم على هذا الرضا أو هذه القناعة هو أنهم لم يعلموا أن فى قدرتهم أن يصنعوا شيئاً وأن يتخلصوا مما هم فيه وأن يظفروا بما يحبون ويشتهون .

أقنع إنساناً ما — تاجراً أو صانعاً أو زعيما أو من شئت من ضروب الناس — بأن فيه العناصر اللازمة لأن يكون أكبر وأعظم مما هو ومما كان ، ومكنه من أن يؤمن

بهذا إيماناً بمعناه الصحيح ثم انظر هل من المنتظر أن يتخلى عن هذه الفرصة وأن يقنع بحالته الحاصلة خوف البذل وخوف الإقدام إلا إذا كان من المنتظر أن يعلم إنسان بأن تحت قدميه كنزاً عظيما لا يحول بينه وبين الظفر به إلا العمل على إخراجه ثم يتركه لأنه لا يريد أن ينصب ولا يريد أن يقوم بعمل من الأعمال ولو فى سبيل إخراج الكنوز الموضوعة تحت قدميه . وإذا عقلنا سر هذا فى الطبيعة البشرية بل فى طبيعة الحياة كلها تجلى لنا عمق قول أبى الطيب وغزارته :

ولم أر فى عيوب الناس شيئاً   كنقص القادرين على التمام

من الصدق والحق أن يقال لاعيب أشنع من أن يقدر إنسان على الكمال والنجاح ويعلم من نفسه تلك القدرة ثم يأبى الكمال ويزور عن النجاح ؟ إن مثل هذا الإنسان إن وجد لابد أن يكون شاذاً فى قوانين الطبيعة الإنسانية شذوذاً هو المرض عينه .

من الواجب المفيد أن نعرف من أين جاء الإنسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته أو لماذا كفر بهما هذا الكفر ! يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذى تصوره . فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده . فالله يجب أن يعتقد بأنه كامل فى كل شىء قوى فى كل شىء ، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص فى كل شىء ضعيف فى كل شىء . ثم تصور أنه كلما بالغ فى تنقيص الإنسان والمخلوق وفى تضعيفه فقد بالغ فى تعظيم الله وفى الإيمان بكمالاته وأن كل ما يخلعه على الإنسان من النعوت الفاضلة والأوصاف المحترمة إنما ينتقصه من حق الله ومن نعوته وأوصافه . فإذا ذم علم المخلوق وقوته ووصفه بالجهل والضعف فقد كان ذلك بمثابة الثناء على الله وعلى واسع علمه وعلى اختصاصه بالعلم والقوة ، وتصور أن ذلك يرضى الله كل الرضا وأن خلافه يغضبه كل الإغضاب ، لأن الله لم يشأ لعباده أن يساووه ولا أن ينازعوه فى الكمال والعظمة أو السلطان العلمى أو المادى ، فحدد قواهم العقلية وغيرها بحدود صارمة معلومة لا يستطيعون تعديها : فعلومهم ومعارفهم وعقولهم محدودة بحدود ضيقة ، ليس لها أن تتجول فى باحات المعرفة كيف شاءت ولا أن تنطلق من أغلال الجهل والنقص كلما أرادت ، وإلا فما الفرق بينهم وبين الله ! ما الفرق بين صفة المخلوق وصفة الخالق ؟ وهل يرضى السيد العظيم أن يكون لعبيده الأذلاء من الصفات مثل ما له ، أو هل يرضى أن ينازعوه كماله ؟ ثم البرهان العقلى يقضى بألا يكون المخلوق الحادث مثل القديم الأزلى فى أمر من الأمور وإلا فلا فرق

بين القـدم والحدوث ولـكن المسألة كلها قائمة على التفريق بين الحدوث والقدم أو بين القديم والحادث . ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود ، ولـكن الديانات كلها مبنية على العبودية . ومن أجل هـذا كله ومن أجل غيره أيضاً فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجي المريرة الواصـفة للانسان بجميع أوصاف الانحطاط الذهنى وغير الذهنى . وقد رأوا — وما زالوا يرون — أنهم بهـذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون رضـاه ويتملقون ألوهيته ، لأنهم يذمون من عداه . فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث والمتصوف والمتفلسف — كل هؤلاء وغيرهم يرون أنهم لا يبلغون الثنـاء على الله وأنهم لا يحسنون الإحسان المطلوب منهم المفروض عليهم إلا إذا بدأوا كلامهم وختموه بهجاء الكفايات الإنسانية ، وإلا إذا حكموا على الإنسان بالموت وقالوا كما قال أحد شيوخهم — وهو الشيخ الزمخشرى كما سبق — : إن العلم للرحمن فقط وأما الإنسان فما خلق إلا من أجل أن يتقمم فى جهالاته وغفلاته ومن أجل أن يثبت له أنه لن يكون عالماً وأنه تراب وأن التراب لا يمكن أن يعلم شيئاً .

وقد أكثروا جداً من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة ومن هـذا التدين المدخول حتى أصبح الخلاف فيهما خلافا لديهم ولدى القطعان التابعة لهم فى إحدى القضايا المفروغ منها . وصار من العقائد الثابتة للخاصة والعامة أن الإنسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة التى لا يرتجى منها خير ولا علم ولا قوة . وصاروا كلما سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والخلقية والأدبيـة ، وسمعوا إمكان تغلب الإنسان عليها وحله لها ونهوضه بها ، وسمعوا ما ينتظر من وثوب الإنسان بالعلوم وكل نواحى الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التى قد تفضى إلى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنسانى : صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئاً منه اشمأزوا منه ومن قائليه واتهموهم بفساد الاعتقاد وبالزندقة والإلحاد . إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه — أى الإنسان — ترك غـير محدود القوى الذهنية وأن له أن يشارك الله فى عمله وأن يخرج من نطاق الإنسانية الضعيفة الواهنة إلى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد ، وهـذا عندهم نهاية الكفر والضلال . ولـكنهم لا يشمئزون الاشمئزاز البـالغ ، ولا يثورون الثورة الجامحة المجتاحة إلا إذا سمعوا أن علم الإنسان قد يتوصل إلى ما يظنونه غيباً . فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الإنسان قد يستطيع بآلاته الدقيقـة المحكمة وبأشـعته المختلفة القوية التى هتكت كل حجاب أن يعـلم

ما فى بطن الأنثى — أذكر هو أم أنثى — كما يعلم الأمراض الباطنة ويراها رأى العين ويعلمها علم اليقين ، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التى كانت من وراء المادة ، ومن الأشياء الغيبية قبل صنع الميكرسكوبات وغيرها من الآلات — أو أنه قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاءه ذكراً وإن شاءه أنثى — كما توصل إلى هذا فى كثير من النباتات والحيوانات ، بل كما قيل إنهم قد صنعوه فى الإنسان نفسه — : نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الإنسان قد يستطيع هذا أو أنه قد استطاعه لما آمنوا ولو سمعوا من يدعيه ويقوله لكان أقل ما يرمونه به التكفير .

وهكذا قد أصروا على اتهام الإنسان وعلى اتهام مقدرته ، وأصروا على أنه ما خلق ليعلم ولا ليتحكم بعلمه فى الكون ولا ليخضع الطبيعة ويسوقها إلى أغراضه ومصالحه ، بينما كان الآخرون جادين فى استغلال المقدرة الإنسانية مصرين على أنها قد تعطى الشىء الكثير إذا أحسن استخدامها واستغلالها ، وأنها قد تسمو حتى لا يعوقها عائق وتقدم حتى لا تجد مكانا للإحجام . فكانت النتيجة بالنسبة للفريقين مختلفة كل الاختلاف . وليس هنالك مجال للشك فى أن الفرق سيكون عظيما جداً بين أمتين أو إنسانين أحدهما يرى أنه صالح لأن يعلم ويعمل ويقهر كل صعب ، والآخر يرى أنه عاجز مهين لا يصلح إلا ليبكى نفسه وينشد الأناشيد فى ضعفه وجهله ، وإلا ليرتقب من الكون الذى يطبق عليه أن يرزأه بما يشاء ويصيبه بما يحب بدون أن يستطيع الدفع عن نفسه لأنه عاجز مخذول متخاذل أمام الطبيعة ، راكع أمام قوى الكون .

ومن غريب الاستدلال الباطل فى حقيقته ، العجيب فى مرماه أنى قرأت مرة فى كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته : إن القول بألوهية المسيح وإن كان باطلا فى نفسه إلا أنه مفيد فى نتيجته ،وذلك أننا إذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية ففهموا أن بشراً فى مظهره ومنظره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب إلى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده ، فقد فتحنا مجالا للتسامى وللرقى لا حد له ، يأخذ بالهمم والآمال فتتسامى هذا التسامى وتطمح بأبصارها إلى هذا المرتقى العظيم ... وفى هذا من الحفز للهمة والإغراء بالوثوب ما يعجز عن وصفه الواصفون . ولهذا فإن الفرق فى عظمة الآمال واتساع المطامع عظيم بين الأمم المسيحية وغيرها . . . هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه

المسيح ... وليس يخاف ما فى هذا القول من محاولة للتسامى بالمواهب الإنسانية والحقيقة الإنسانية ، وكم من الفرق بين هـذه الروح التى أملت هـذا الكلام وبين تلك الروح التى أملت قولهم (ما للتراب وللعلوم الخ ...) لقد عظم الفرق فى التوجيه والاتجاه فعظم الفرق فى النتيجة والغاية . ولا يفهمن أحد من سياقنا لهذا الاحتجاج أننا نرضاه . كلا وإنما سقناه لما فيه من الدلالة على رغبتهم الشديدة فى أن يتساموا بآمالهم وأعمالهم .

ومن الحسن أن يفهم القارىء أن هذه الفلسفة التى ذكروها فى ضعف الإنسان فلسفة باطلة ، يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة . . إذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك ، وأنه ينقص إذا نقص الشىء الذى يفعله ويوجده ويذم بذلك . فعلى حسب الشىء تكون الآثار والأفعال ، فالذى يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيما ، والذى يصنع الحقير التافه ولا يستطيع أن يصنع غيره يكون تافهاً حقيراً . وهذه قضية منطقية لاخلاف فيها. فإذا أثنينا على الإنسان الذى هو مخلوق لله فقد أثنينا على خالقه ، وإذا ذممناه فقد كدنا نذم خالقه — أو فقد ذممناه من حيث لا ندرى ولا نريد — ولهذا فإن الأديان كلها قد دأبت على لفت الأنظار والتوجيه إلى المخلوقات الكبيرة العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض لما فى ذلك من التعظيم لله ومن الإبانة عن سلطانه وعظمته ومن التدليل على أنه الإله الكبير المتعالى .

ولهـذا أيضاً فقد جعل المقربين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات إلى الكمال وأعظمها علماً وذكاء وقوة . فالنظر إذن يرشدنا إلى أنه يجب — إذا أردنا تعظيم الله — أن نعظم مخلوقاته وأن نعتقد بأنها قد خلقت مستعدة للكمال وأنها إذا لم تكمل فهى التى أبت لنفسها هذا الكمال الذى أراده لها خالقها ، إذ الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه .

وأما من ناحية النصوص فلنذكر فى هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الإنسان الأول إذ قال : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة — إلى قوله — وعلم آدم الأسماء كلها — إلى قوله: — قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . » الآية . فأخبر تعالى عن الإنسان

أنه مستخلفه فى الأرض . ومعلوم أن الخليفة فى العادة ينوب عمن استخلفه . ولا يستخلف الحكيم العاقل إلا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياماً صحيحاً لا يمنعه القيام بها — كما يجب — جهل ولا عجز ولا هوى . ولو كان الله يعلم أن الإنسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذى لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة له فى أرضه . ثم من المعلوم أيضاً أن الخليفة يكرم ويشرف بقدر شرف مستخلفه وكرمه . فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف ونهاية الكرم . ثم من العادة أيضاً أنه لا يبشر ولا يخبر بوجود الشىء قبل وجوده إلا إذا كان ذلك الشىء عظيما محبوباً مرضياً ، ولا يمكن أن يخبر ولا أن يبشر بوجود الأشياء التافهة الحقيرة . والإنسان إذا كان عظيما وكانت له قيمة فإنما ذلك بعقله وعلمه لا بشكله وصورته بلا خلاف . والله قد أنبأ الملائكة بوجود هذا الموجود العجيب قبل أن يوجد وبشرهم به . والعادة أيضاً قاضية بألا يخبر العظيم بالشىء إلا إذا كان ذلك الشىء شريفاً عظيما ، فلو كان الإنسان تافهاً حقيراً صغيراً فى قيمته الأدبية لما أخبر الله الملائكة به ولما جرى فيه حديث . وقد قالت الملائكة متعجبة مستفهمة بعد علمها بهذا النبأ : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » فقال الله معقباً على مقالتهم هذه ، دالا على الحكم والأسرار الكامنة وراء هذا الوجود ووراء سفك الدماء والإفساد الظاهرى الذى لابد منه لما جبل عليه هذا المخلوق الغريب من الطباع والغرائز : « قال إنى أعلم ما لا تعلمون » فكأنه تعالى قد قال للملائكة رداً على سؤالهم وتعجبهم : نعم هو يسفك الدماء ويفسد فى الأرض ولكن وجوده ينطوى على أسرار وفوائد وحكم تفوق أضرار هذا السفك للدماء وهذا الإفساد فى الأرض . وهذه الفوائد والحكم هى بلا شك نتيجة لما امتاز به من العقل والذكاء والاستعداد للترقى المطلق فى كل معنى من معانيه وأمر من أموره . فهو بمثابة أن يقال : حقاً هو يظلم ويشب الحروب ويفعل غير ذلك من الآثام القانونية والشرعية ولكن هذه الأفعال تتلاشى أمام فضيلته الحقيقية وميزته البارزة الظاهرة وهى موهبته العقلية والأدبية التى لا يقف ترقيها وتقدمها عند حد .

ثم فى هذا الرد الذى أجاب الله به الملائكة إشارة تكاد تكون جلية إلى أن هذا السفك للدماء فى الحروب وغيرها ، وإلى أن هذا الإفساد فى الأرض هو وإن كان فى ظاهره وفى ملمسه القريب ، وفى حكمه القانونى شراً إلا أنه ضرورى ، لأنه من أسباب تقدم الإنسان وأسباب نضجه وبلوغه رشده وأسباب وصوله إلى الدرجة الرفيعة التى هيىء للوصول إليها باستعداداته المختلفة كما أشار إلى ذلك الكتاب الكريم فى آيات كثيرة صريحة .

فلولا هذه الحروب وهذا التنازع والتسابق إلى الحياة وإلى سرقة الحياة — ولولا شحذ القوى الذهنية لخدمة الحروب والتنازع والسباق إلى امتلاك الحياة — ولولا هذه الغرائز والطباع التى ركبت فى الإنسان وساقته إلى سفك الدماء وإلى مظالمة الآخرين والعدوان عليهم — لولا هذا كله ولولا سواه أيضاً لما قدر الإنسان على أن يبلغ هذه الدرجة التى بلغ ، ولما ظفر بكل هذه الأشياء التى بها قد ظفر ، ولما برزت موهبته العقلية هذا البروز. فإن الحروب بل وكثيراً من هذه المظالم هى أعظم صيقل تصقل به القوى ، وأعظم موقظ ومنبه لما يكمن فيها وفى طبيعتها من معان سامية . فكأن هذه الشرور هى شرور فى الظاهر فقط ، وكأنها بمثابة العملية الجراحية القاسية الموجعة فى أولها ، المفيدة المصلحة فى نتيجتها — أو كأنها اقتصاص من أخلاق الإنسان الفاسدة أو التى يقال إنها فاسدة قانوناً وعرفاً . . والقصاص حياة كما قال الله فى كتابه : « ولكم فى القصاص حياة » . فأصبح هذا الجواب من الله للملائكة تنبيهاً واضحاً إلى فضيلة هذا الإنسان وإلى قيمته وإلى ما يشتمل عليه وجوده وأعماله — حتى سفكه الدماء وإفساده فى الأرض — من فوائد ومصالح . فمن ذم الإنسان واستصغر أمره أو قدح فى فضيلته من أجل بعض أفعاله كحروبه وتنازعه على البقاء الموجب للتظالم ، ومن أجل إتيانه ما يسمى فساداً أحياناً كان فاعلا قائلا مافعلته وقالته الملائكة لما أن تعجبت من جعله خليفة فى الأرض . ولكن الملائكة قد رجعوا عن هذا التعجب أو عن هذا الاستفهام أو الاعتراض لما أن دلهم الله على الحكمة البالغة فى هذا الجعل والاستخلاف . أما من بقى مصراً على مذمة الإنسان وقدحه فيه ، فقد بقى مصراً على ما رجعت عنه الملائكة ، ومقلداً لهم فى ما تركوا وتبرأوا منه ، ومصراً على ما أبان الله أنه غير صحيح وغير حق .

أما قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » فهو تصريح بعلم الإنسان كل شىء فقد وكده بقوله « كلها » فإن من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى لعلمه ولا فائدة منه ، والقصد المسميات لا الأسماء ، والأسماء لم توضع إلا لمسمياتها . فمن عرف اسم شىء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغواً وكان ذلك العرفان جهلا . على أن من عرف اسم أمر من الأمور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفاً ولا عالماً بذلك . فإن المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء . ولو أن إنساناً علم لغة من اللغات — أسماءها وأفعالها وحروفها — ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل إنه يعلم اللغة . وعلى كل حال فإن من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلا بمسمياتها ، بل إذا علم هذه فقد علم تلك .

وقوله « ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء » واضح فى أن المراد علم الأشياء لا علم أسمائها . ومن الواجب أن يعلم هنا أيضاً أن موضوع اللغات يجب أن يكون موجوداً قبل اللغات نفسها ، فالناس إنما يضعون لغاتهم — أفعالها وأسماءها وحروفها — ليدلوا بها على أشياء موجودة ماثلة أمامهم ، ولا يمكن أن توضع اللغة — لا أفعالا ولا أسماء ولا حروفاً — قبل وجود الأفعال والمسميات نفسها حقيقة . فكأن اللغات إشارات أو صفات . ولا تعرف الصفات ولا الإشارات إلا بمعرفة المشار إليها الموصوفات . فتعليم الإنسان الأسماء كلها وعلمه إياها صريح إذن فى سعة علومه وفى أن معارفه ليست لها نهاية ولا غاية بل هى قابلة للاتساع وقابل هو للتعلم والاستزادة حتى يعلم الأسماء كلها ويعلم دلالتها على مسمياتها . ومعنى هذا أن يعلم كل شىء . وقد دلت كشوفه العلمية الأخيرة ومعرفته كل ما أمامه — حتى استطاع أن يعرف عناصر الطبيعة وأن يعدها عداً ، وأن يعلم ما هى مركبة مكونة منه — على هذه الحقيقة القرآنية والنبوة الإسلامية .

وعرض الله الأسماء كلها على الملائكة وسؤاله إياهم إنباءه بها وعجزهم عن معرفتها ، واعترافهم بالعجز ، ثم أمره لآدم أن ينبئهم ، وأنباؤه إياهم بها يدل ذلك كله من وجوه كثيرة على فضيلة الإنسان العلمية . فإنه يثبت أولا أنه أعلم من الملائكة . ومن المفروض المعلوم أن الملائكة ذوو مكانة علمية ظاهرة ، فمن كان أعلم منهم كانت فضيلته العلمية لاتدفع . ثم فيه ثانياً أنه جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم . ثم فيه ثالثاً أنه أراد تعالى أن يظهر للملائكة أنفسهم فضيلته بهذا الأسلوب وهذه الطريقة التى لا يخفى ما فيها من التحدى والتعجيز لهم ومطالبة الاعتراف له بهذه الميزة الكبرى .

وقوله « إن كنتم صادقين » يشير إلى أن مذمتهم للانسان واستصغارهم شأنه وحكمهم عليه بسفك الدماء والإفساد فى الأرض ، وزعمهم أنهم هم خير وأحسن منه ، لأنهم يسبحون له ويقدسون اسمه : يشير إلى أن ذلك غير صواب وغير حق . ولهذا قال « إن كنتم صادقين » أى صادقين فى الاتهام والقدح والادعاء . ففيه دفاع جلى قوى عن الإنسان . وقوله بعد إنباء آدم لهم : « قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » إبطال ورد لقدحهم فى الإنسان ولزعمهم أنه مفسد مقاتل لا خير فيه ، وإثبات أن هذه الرذائل والشرور — أو ما حسبوه

رذائل وشروراً — تذوب فى غمار فضائله العقلية وترحض بتيار علمه .. فهذه أساليب متعددة أريد بها إظهار المكانة الإنسانية من الناحية الأدبية . وقد صدقت هذه المكانة وختمت بخاتم لا يقبل التزوير والادعاء وهو أمر الله للملائكة بأن يسجدوا له ، وسجودهم، وطرده تعالى لمن أبى السجود ، وحكمه الأبدى عليه بالكفر والهلاك . وأوامر الله العليم الحكيم ليست عبثاً وليست مجرد أوامر خالية من الحكمة والقصد والتعليل . فما أمر الله الملائكة — وهم المقربون لديه — بالسجود له إلا لفضيلة فيه ليست فيهم ولميزة ذهنية فضل بها عليهم . وكذلك ما طرد من امتنع عن السجود له إلا لأنه امتنع عن فعل شىء جميل واجب فعله . والله أعلم حيث يأمر وينهى ، وحيث يبعد ويقرب ، وحيث يضع رسالته .

ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . والمراد هنا بالتقويم الذى وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الإنسان — من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وضعاً مبدعاً يؤدى من حيث الأعمال والوظائف إلى الإبداع والإحكام . فالمخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والأذنان وكل ما ظهر وما بطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكويناً هو الإبداع والإحكام . ولا يمكن أن يقال بصدق وحق إن شيئاً من الأشياء قد قوّم أحسن تقويم إلا إذا كان يستطيع أن يؤدى وظيفته ويؤدى الغرض المنشود منه أحسن تأدية ، سواء فى ذلك الموجودات الجامدة والموجودات الحية النامية . فالإنسان إذن من ناحية آلات الفهم والعقل والشعور والإدراك فيه وآلات العمل كلها قد جاء فى أحسن تقويم وتكوين ، والإنسان إذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وإن كان هذا لا يحصل إلا بالتدريج والبطء كما تقضى نواميس التطور نحو الكمال والاستواء ، ذلك التطور الذى يبدو لنا أنه بطىء وأنه مسرف فى البطء وإن كان بالنسبة لعمر العالم سريعاً مسرفاً فى السرعة .

وليس من الممكن أن يكون الثناء على الإنسان بحسن التقويم عائداً إلى صورته الظاهرة ومنظره الخارجى فقط لأن فى المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصورة المجرد من الفضيلة فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة — إلى قوله :

قاتلهم الله أنى يؤفكون » ولأن الله قال بعد ذلك : « ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضاً أسفل سافلين لو كان المراد بذلك الصور والمظاهر .

وقال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ففى الأرض وفى نفس الإنسان آيات للموقنين ! فما هى الآيات التى فى نفس الإنسان والتى لفت الله الإنسان إلى نفسه من أجلها ودله عليها ؟ أعظم الآيات فى النفس الإنسانية هى القوى العلمية والأدبية والعقلية والخلقية . وإلا لو كان القصد هو البناء المادى المنظور لما كان هناك ما يميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت إليه خاصة وأن ينبه عليه وحده فى هذه الآية ، وهو مما فى الأرض من هذه الناحية . فلماذا ذكر تخصيصاً بعد التعميم إن لم تكن الإشارة إلى ميزاته الجليلة الكبيرة لا إلى ما يشاركه فيه كل شىء فى الأرض من المخلوقات .

وفى قوله « أفلا تبصرون » نعى على هؤلاء الذين لا يبصرون الآيات الكامنة فى أنفسهم وفى النفس البشرية العامة ولا يحاولون الانتفاع بها ولا استخدامها ، وعلى هؤلاء الذين لا يرون هناك من الكنوز الذهنية أعظم مما فى الأرض من كنوز الذهب والفضة والفحم والنفط وغيرها مما لا يقوم بثمن — تلك الكنوز التى لولا كنوز النفس العلمية لما أمكن إخراجها ولما أمكنت معرفتها ولما علم كيف تخرج ولا ماذا يصنع بها لو أخرجت .

ومن الجميل جداً ، البالغ فى جماله أقصى الغايات أن يجمع الكتاب بين الآيات الموجودة فى الأرض والآيات المستقرة فى النفس الإنسانية ، موجهاً إليهما معاً ، ناعياً على من لم يبصرهما ، وعلى ما لم ينتفع بهما . فإن فيهما كليهما كنوزاً هى آيات بل غايات . والفرق بينهما أن كنوز هذه مادية وكنوز تلك أدبية ذهنية ، وأن الانتفاع بأحدهما واستخراجه متعذر إلا إذا عرف الانتفاع بالآخر وعرف استخراجه . ومن عجز عن أن يبصر كنوز الأرض التى تحت قدميه أو كنوز نفسه التى بين جنبيه كان حقاً أخسر الخاسرين وكان حقاً ممن لا يبصرون وممن يجدر أن يقال لهم « أفلا تبصرون » .

ومن المصائب المؤلمة أننا معشر المسلمين الذين نزلت عليهم أمثال هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً لا نزال غير مبصرين لكنوز الأرض التى هى آياتها ، ولا لكنوز أنفسنا التى هى استعداداتها ، ولا نزال محتاجين فى هذه وهذه إلى الآخرين ليخرجوها

لنا وليبصروها ويروها ، ولا نزال عاجزين عن أن نبدى أقل عون ومساعدة صادقة فنية فى عملية هذا الإخراج والاستخراج بل وعملية الإبصار ، ولا نزال حريين بأن يقال لنا « أفلا تبصرون » مكررة علينا آية نزلت منذ ألف وأربعمائة سنة . فهذه الآية أقوى أمر لنا بأن نحاول إبصار أنفسنا وإبصار ما تنطوى عليه من القوى العجيبة . فأين من يبصرون ! وإن العمى قبيح ولكن أقبح أنواعه هو العمى عن النفس لأن من شق بعدم إبصاره لغيره كان أشق جداً إذا لم يبصر نفسه .

وقال تعالى : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » . البيان هو الإبانة عن الأشياء . وقد أطلق هذا البيان الذى يراد به الإبانة ليدلنا على أنه يعنى به الإبانة المطلقة العامة . ولا يبين عن الأشياء إبانة مطلقة عامة إلا من علم الأشياء وعلم حقائقها وتفاصيلها وخصائصها علما عاماً شاملا ، وعلم ما يجوز لها وما يستحيل عليها وما يناسبها وما لا يناسبها وما يصلحها ويفسدها وهكذا . وإلا فلن يكون مبيناً عنها إبانة صحيحة كاملة فالإنسان إذن معد مهيأ كى يكون مستطيعاً البيان عن هذا الوجود الذى يحيط به والذى لا يستطيع الانفصال عنه . وهذا لا يكون إلا إذا علمه علماً حقيقياً وعلم كل ما يتصل به . ونتيجة هذا هى الإحاطة العلمية الشاملة ... والآيات فى هذا كثيرة جداً من العبث محاولة استقصائها وجمعها وشرحها فى هذه الكلمة الاستطرادية القصيرة العجلى .

ومن الأحاديث التى يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسى هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قاله الله : « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ... » ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله — وهذا بلا ريب على غير ظاهره — فلابد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعياً وعمله موفقاً قوياً ، ولابد أن تكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد ألا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده إذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعاً أن يصنع مايشبه أن يكون خارجاً عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف إلى قسم المعجزات ، ولابد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لايمنعها مانع ولايهرب منها هارب ، ولايقال لشىء من الأشياء — كائناً ما كان — إن هذا فوقها أو إنه بعيد عن متناولها أو إنه ليس مما يدين لها . والله حينما خلق هذا الوجود العجيب

الجميل أراد له أن يبلغ فى الأجل المعلوم رشده وكماله وأن يخرج كل طاقته الكامنة على أحسن وجه وأجمله ، ولكنه تعالى أراد أن يبلغ ذلك بأسباب إذ قد ربط كل شيء بأسباب من ورائها أسباب ليكون كل شيء متحركا سائراً عاملا لاجامداً ولا ساكناً . ثم أراد تعالى أن تكون أسباب هذا النضج والبلوغ العقلى بواسطة أعظم وأفضل مافيه ، وكان أفضل وأعظم مافيه هو الإنسان فأراد تعالى أن يكون الإنسان هو الذى يبلغ به رشده وكماله ، فأطلق لعقله العنان ليظل متنقلا من طور إلى طور ومن سن عقلية إلى أخرى حتى يصل بنفسه وبالعالم معه الحد المعلوم المقدور على حسب السنة الموضوعة . وهو بتنقله هذا وبقيادته للعالم إنما يبصر ببصر الله ويسمع بسمع الله ويبطش بيد الله ويمشى برجل الله — أو أن الله يكون حينئذ سمعه وبصره ويده ورجله وقواه العقلية والبدنية . لأنه بتطوره وتنقله — سائقاً معه العالم — يقوم بدور المنفذ لنواميس الله ، العامل على إبلاغ سنته تعالى نهايتها بما أعطاه من الخصائص المختلفة . والحكيم إذا ندب أحداً للقيام بأمر جليل يريده ، أو ندبه لتأدية رسالاته أو إحدى رسالاته سلحه بكل مايلزم للمعركة وكله بأنواع الكمال الذى لابد منه لأجل إتمام الرسالة . والإنسان بلا نزاع هو سيد هذه الأرض وقائدها وسيد مافيها . فلا محالة من اختصاصه بخصائص القائد السيد وإلا كانت سيادته وقيادته باطلتين مرفوضتين قائمتين على الجور والظلم، ولكنهما سيادة وقيادة سلمهما الجميع بلا قيد ولا شرط . فلا محالة من أن تكون صلته — أى صلة الإنسان — بالسيد الأعلى ، أى بالله ، صلة الملهم المخصوص ، أو صلة من يكون السمع والبصر واليد والرجل ليحسن القيادة وفاق مايريده القائد الأعلى .

ولعل من أظهر الدلائل على هذا الاختصاص وعلى هذا القصد أن الله قد أهل الإنسان لتلقى رسالاته التشريعية ، وأهله لمكان وحيه ، وسما به وقربه حتى صار منه موضع النجى الكليم ، فصار المبلغ عنه ، وصار أنبياؤه ورسله منه . ومن كان هكذا فلا يمكن أن يكون محدود المدارك من حيث الإجمال ، ولا أن يكون محجوراً على تفكيره ونظره بنوع من أنواع الحجر ، ولا مضيقاً عليه بصورة من صور التضييق . فإن من استطاع أن يتلقى عن الله فقد سما إلى أبعد سماء وبلغ مكان الارتفاع فوق كل الوجود . وهذا الارتفاع على كل الوجود يجب أن يكون بحق وجدارة وهو لايكون كذلك إلا إذا كان ارتفاعاً من حيث المعنى والحقيقة كما كان من حيث الظاهر والصورة . ومن ارتفع على الوجود كله بمعناه كان معنى هذا إخضاع الوجود له ، وإخضاعه لا يمكن إلا بفهمه

وفهم أسراره . فالإنسان إذن يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل مافيه إدراكا وفهماً تامين صحيحين . وإذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود . ولكن يجب أن يعلم أن هذا الإدراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الأفراد . فإن معارف كل فرد محدودة مقدرة ، ومعارف الفرد دون معارف الجماعة ومعارف الجميع .

* * *

هل الإنسان غير عظيم ، أو هو أهل لأن يساء به الظن ويساء باستعداده الذاتى ؟ إن هذا السؤال لايمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ وإنما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملموسة .

إن للانسان حدين من حيث وجوده : حد هو وجوده الأول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض ، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا . وما بين هذين الحدين أو الطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعة التى يمكن أن تكون له ويمكن أن تكون عليه ، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم وأن تدل على أنه عظيم .

لامحالة من أن نتصور الإنسان فى بداية وجوده عارياً من كل معرفة كما كان عارياً من كل لباس . وعلمنا أن هذا التصور صحيح لايحتاج إلى عناء ولا بحث طويل . فإننا لانزال نشاهد الإنسان — بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم — يأتى إلى هذه الدنيا حينما يأتى عارياً من جميع المعارف . جاء إلى هذه الحياة — ولا مجال للجدل فى كيف جاء — كما يجىء الأطفال اليوم على أحسن تقدير . على أن من الواجب أن نعتقد أن هنالك فرقاً عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والإنسان الأول ، لأن أطفال اليوم يحملون فى دمائهم تراث الآباء والأجداد كله بخلاف الإنسان الأول الذى جاء لايحمل معه سوى ماورث من منبته إن كان فيه مايورث ... نعم جاء إلى الحياة كما يجىء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس : لايعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام ، ولا زراعة ولا صناعة ، ولاشيئاً مما هو ضرورى لذلك . فهو لايعرف أن يبنى بيتاً يسكنه ويأوى إليه اتقاء ما تأتيه به الطبيعة ولا أن ينسج ويخيط له ثوباً يلبسه ، ولا ناراً ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة . بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم ، والتفاهم هو أول الخطوات . فلايدرى ما يجول بخاطر من حوله بل لايدرى أن لهم خواطر تجول بالمعانى والأفكار والخطرات

لايدرك شيئاً مما يحيط به . فيفزع من كل ظاهرة كونية : يرى البرق فيفزع ، ويسمع الرعد فيطير له هلعاً ، وتهب الريح فيتقسمه الخوف والرعب ، وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم ، ويرى جريان الأنهار والمياه فيحسبها تجرى بالحياة والإرادة مثله ، ويحسبها قادرة على إيذائه ، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالأشباح المؤذية المهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر . . . أما طلوع الشمس وغروبها — وكذا النجوم والكواكب — فأعظم ما يملأ جوانحه روعاً ... وهكذا كان لايعلم شيئاً ولا يأمن شيئاً ... والخوف عادة وليد الجهل ، فإن من يجهل الشيء يخافه . وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن نمت فيه فكرة العبادة لهذه الظواهر الكونية ولهذه الأشياء المتحركة المضطربة . فإن الخوف يحدث التفكير فى دفع ما يخاف وفى اتقائه . والجاهل الضعيف إنما يدفع عن نفسه ويتقى ما يرهب بالملق ، والملق له صور كثيرة إحدى هذه الصور البكاء والضراعة — كما يفعل الأطفال . والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة ... فراح يعبد كل مايرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة . فكان الإنسان إذ ذاك يتلخص فى شيئين : فى الجهل المطلق بكل شيء ، وفى عبادة كل شيء متقلب مضطرب . ونعود فنقول مرة أخرى : إن أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمى وبدنى .

والآن لننتقل نقلة فكرية ، ولنرجع رجوعاً سريعاً خاطفاً من تلك العهود الموغلة فى القدم ، ولنمر بتاريخ ثلاثمائة ألف سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا من تاريخ هذا الإنسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحله حتى نقف وقفة طويلة ممعنة عند تاريخنا اليوم وعند الإنسان فى القرن العشرين . ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ولنجعله هو مجموع ما عمله الإنسان بفكره وجسمه . . . إن أول نظرة إلى صورتى الإنسان فى عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب إعجاباً بهذا الإنسان الصغير البدن ، المحدود بالحدود المادية الضيقة .

ماذا نرى الآن فى هذه الحياة التى تموج بأعمال الإنسان وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التى أوجدها هذا المخلوق وجعلها فى خدمته وملكا له ؟ كيف استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل إلى هذا العصر ، وكيف استطاع الوصول إليه فى سيره المتعثر واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة فى الظلام بدون أن يكون

له هاد إلا طبيعته ، ومرشد إلا حاجته ونور يبصر به السبيل إلا أمله ، وبدون أن يكون له قوة دافعة إلا استعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل أو توقف ؟ لقد بدأ فى إيجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والإعجاب معاً : فكر فى أنه محتاج إلى أن يتفاهم أفراده ، وفى أن هناك حاجات مشتركة يجب أن يعلمها كل فرد — أو على الأصح فهم كل فرد فى نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما فى نفسه وما عنده وما يضطرب فى جوانحه . ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم . فراح يحاول أن يتخاطب وأن يتفاهم بالأصوات التى لا مقاطع ولا معانى لها كالأطفال سواء حينما يلجون فى طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذى هو تصويت فقط . فظلت هذه هى وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزماناً يعجز التصور عن تحديدها تحديداً دقيقاً . ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم ، فذهب يتخاطب بالإشارات والحركات . . . وهذه طبعاً أفضل وأوضح من الوسيلة الأولى لأنها أدنى إلى التحديد والإفهام . وإن الأطفال ليتبعون طريقة أسلافهم فى التنقل من وسيلة إلى وسيلة أخرى محاولين الإفهام والإفصاح . فإنهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالأصوات المجردة يذهبون بعدها إلى الاستعانة بالإشارات والحركات . ومن العجيب أن محاولة الإفصاح عن الغرض بالإشارة والحركة والتمثيل البدنى لا تزال ملازمة الإنسان اليوم . . . ثم غبر أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحاً متواصلا عنيفاً ، ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج إثر النماذج ، مستعيناً بوسيلتيه الأوليين : الإشارة والحركة حتى ظفر بعد ما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة إنسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة ... وهنا يجب أن يقال بحق وصدق : لقد استطاع الإنسان أن يخرج بغنم عظيم وأن يمضى أشواطاً هائلة فى طريق أهدافه وفى طريق هذه الحضارة الحاضرة التى يتمتع الإنسان اليوم بها . إذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلا بين عهود الطفولة — أو الحيوانية على رأى آخرين — وبين العهود الإنسانية ، وأن يخلى الطفولة والحيوانية وراءه بحيث لا يخشى عليه الرجوع إليها مرة أخرى . ويجب أن يسمى هذا العهد أول تاريخ للانسانية وأول نقطة استطاعت الوثوب منها . ولو أن الإنسان بقى عاجزاً عن الظفر باللغة لبقى عاجزاً عن بلوغ كل ما بلغه ، ولبقى عاجزاً عن أن يصنع له تاريخاً يفوق تاريخ الحيوان .

ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة اللغة ومقدار ما أنفق فى سبيل الحصول عليها إلا إذا تصورنا جمعاً من الأطفال الذين لم يسمعوا حرفا واحداً من حروف اللغات المختلفة ألقى بهم فى إحدى الجزائر التى لم يقطنها الإنسان بعد ثم تركوا وشأنهم على أمل أن يتوصلوا فيما بينهم إلى لغة بها يتفاهمون ويتخاطبون ، وتصورنا كيف يخفقون وكيف يعجزون عن تحقيق هذا الأمل وعن الوصول إلى هذه الأمنية .

أما بعد اللغة فقد أمكن أن تتلاقح الأفكار وأن يغذى بعضها بعضاً وأن يصبح كل فكر ملكا مشاعاً ورأيا إنسانياً عاماً ، فى استطاعة كل فرد من أفراده أن يصيره ملكه وفكره . لهذا كله ولشدة الوثبة التى وثبها الإنسان وبعد الخطوة التى خطاها فى مجموع قواه الذهنية والشعورية والجسدية وعظم النقلة التى انتقلها والمسافة التى قطعها راحت معارف الإنسان وأعماله تتسم بسمات النضج والتقدم المستمر العجل . فعرف أشياء من الزراعة والصناعة ولكنها كانت بلا ريب أولية ، وعرف أشياء أخرى كثيرة غير الزراعة والصناعة مما عد مميزاً للانسان عن المخلوقات الأخرى . . . وبعد أشواط فى مضمار الحياة الإنسانية البحتة لا يمكن تحديدها تحديداً تاماً استعملت فيها الخطوط والرسوم والصور التافهة والأشكال المشوشة والتجارب العديدة المضنية ظفر الإنسان باختراع آخر لا يقل عن اختراع اللغة وسيلة ونتيجة . . . هذا الاختراع هو اختراع الكتابة ، أو ما يمكن أن يدعى كتابة صحيحة . وهذان المخترعان : اللغة والكتابة هما أعظم الأسس التى شيدت عليها المدنية البشرية كلها ، بل هما الشرطان الأولان اللازمان لها . ولولاهما لظل البشر حتى اليوم فى جهالاتهم الأولى النكراء . . . ولا يقل اختراع اللغة والكتابة عن أكبر مخترع نالته الإنسانية فى كل عهودها . بل كل المخترعات التى جادت بها عقول القرن العشرين والقرن التاسع عشر تتضاءل قيمها وفوائدها إزاءهما وإزاء فوائدهما وقيمهما . . . وعلى هذا لا يمكن أن يعد مخترعو القرن العشرين والقرن التاسع عشر أجل خدمة للانسان وأسرع خطوا به إلى الأمام من مخترعى اللغة والكتابة .

أخذت المعارف والعلوم والأعمال الصناعية والزراعية وغيرها تتساوق وتتدافع بعد هذا بسرعة عظيمة ، وأخذت كلما تقدمت خطوة ازدادت سرعتها واتسع المجال أمامها إذ كأن الخطوات التى تخطوها والمكاسب التى تكسبها ، والفتوحات التى تفتحها تصيرها

قوى وطاقات تمنحها قوة الدفع وقوة الاندفاع وقوة الاستمرار . . . ولا شك فى أن المخترعات التى تمت فى القرن التاسع عشر أكثر من المخترعات والكشوف التى تمت فى تاريخ الإنسان كله ، وفى أن المخترعات والكشوف التى تمت والتى ستتم فى القرن العشرين ستفوق فى كثرتها وضخامتها مجموع المخترعات والكشوف — وفيها مخترعات القرن التاسع عشر وكشوفه — التى تمت فى جميع العصور الخوالى . وهكذا

وسيكون لهذا نتائج طبيعية : إحدى هذه النتائج أن الإنسان كلما تقدم وكلما ازدادت علومه تضاعفت قدرته على التقدم وعلى السير فى سبيله وعلى إدراك العلوم تضاعفاً مقدراً بمكاسبه العلمية والكشفية والعقلية تقديراً رياضياً لاتختلف نتيجته . والشأن فى هذا كالشأن فى سائر القوانين الرياضية . فإنه إذا ضرب عدد ما فى عدد آخر ثم ضرب العدد المضروب فى الناتج من عملية الضرب مرات عديدة فإن الناتج من آخر عملية يفوق الناتج من جمع جميع النواتج فى العمليات الأولى كلها ... ونتيجة هذه النتيجة أن تقدم الإنسان سيبقى مستمراً مضروبة سرعته فى كل الخطوات التى خطاها فى تاريخه كله . ومعنى هذا أن تقدمه لن يتوقف البتة ، بل يأخذ فى طريقه حتى يبلغ أقصاها ومنتهاها إن كان لها منتهى . ولو ضرب عدد فى عدد مهما كانا صغيرين على أن يضرب العدد المضروب فى كل ناتج لاستغرقت هذه العملية كل الأعداد الموجودة بل والمفروضة . وهذا برهان رياضى قاهر على أن أشواط الإنسان ستنهى المعركة كلها وستوصله إلى كل أهدافه وستضعه فى أقصى الطريق وستجعله يتقدم حتى لا يجد متقدماً ويعلم حتى لا يدع مجهولا إلا أن توقف هذه العملية الرياضية الإنسانية ، ولكن لاسبيل إلى وقفها إلا بوقف الحياة فيه لأن هذه العملية هى عملية الحياة ، فما دام الإنسان حياً فلن يقف عمل حياته شىء لأن الله القدير العليم قد أراد هذا كله لحكمة عليا .

غير أن من الممكن أن يوجه إلى هذه النتيجة الصادقة فى ظاهرها ومقدماتها اعتراض بأن يقال : إننا نشاهد — كما نعلم — أن سير الإنسان إلى الأمام يقف أحياناً كثيرة وقوفاً قد يكون الجمود نفسه حتى يبدو أنه لن يسير مرة أخرى وينام حتى يخيل إلى من يفكر بأنه لن يستيقظ . بل قد يأخذ فى الرجوع إلى الوراء والسير القهقرى ... وقد تنتاب هذه الحالات وهذه الأعراض الرجوعية أحياناً الإنسانية جمعاء وتنتاب أحياناً أخرى أمة دون أمة وفريقاً دون فريق وتكاد توجد هذه الأعراض فى كل زمان .

ولكن من السهل أن يقال إجابة عن هذا الاعتراض السليم فى ظاهره : إن عملية التقدم مستمرة بلا توقف وبلا رجوع إلى الوراء بحال من الأحوال . أما ما يشاهد مما يظن توقفا أو تأخراً فليس سوى هدوء ظاهرى — أى إن الحالة لا تعدو أن تكون طوراً من أطوار الكمون الذى يصيب كل شىء ويوجد فى كل شىء . ومثل هذا قطعة من الأرض تزرع وتستغل فإنها فى حالة زراعتها واستغلالها لا يظن ولا يقال إنها فى حالة تأخر وضعف فى الظاهر ما دامت غلتها غير متناقصة . أما إذا تركت هذه القطعة من الأرض بدون زراعة وبدون استغلال فإنها فى الظاهر لا تعطى شيئاً ولا تأخذ شيئاً أما فى الحقيقة فإنها إذا تركت كذلك تقوى وتتفاعل العناصر الكامنة فيها مع أشعة الشمس ومع الهواء ومع كل عوامل التعرية حتى تصير بعد مدة من الزمان فى قوة تمكنها من الإغلال والإثمار الكثير القوى إذا ما زرعت بحيث يتبين بعد زراعتها وبعد تمكينها من إظهار طاقتها أنها ما كانت فى حالة تأخر ولا فى حالة جمود وإنما المسألة مسألة هدوء فى الظاهر فقط . بل نقول : إن كل شىء له كون وظهور . فالظهور هو مظهر يدل على الكامن ولكن عدم الظهور لا ينفى الكمون أو لا ينفى الكامن . فقد يكون تقدم الشىء مهما كان هذا الشىء ظاهراً وباطناً أى ظهوراً وكوناً ، وقد يكون كوناً فقط . وليس من الممكن أن يكون ظهوراً صرفاً . فإن الشىء الذى لا حقيقة له لا يمكن أن يكون له مظهر من المظاهر . ونحن إذا رأينا أرضاً هادئة لا يصح أن نقول إنه لا براكين ولا زلازل فيها تتوثب للانطلاق والانفجار والخروج بمجرد الهدوء الذى نشهده . وإذا حصلت هذه الانفجارات والهزات ، أى البراكين والزلازل وجب الاعتقاد بأنها أثر من آثار الداخل أى الكامن قبل حدوث الظاهر ، وإذا لم نر نفطاً نازاً على وجه الأرض ومتدفقاً جارياً لم يجز لنا أن نقول إن الأرض خالية من هذا السائل النفيس . ولو قلنا هذا لكان مثلنا كمثل من قال إن الإنسانية قد تقف وقوفاً تاماً أو ترجع القهقرى لأنها تتخلى أزماناً كثيرة عن إخراج الكامن من قواها والساكن من استعدادها ... فالتقدم الإنسانى الذى نتحدث عنه ونذكر أنه مستمر بدون توقف هو التقدم فى المدارك والعقول وكل ما يسمى معانى إنسانية وأخلاقاً إنسانية وقوانين إنسانية . ولكن هذا التقدم الإنسانى قد يكون بارزاً لوجود عوامل الإبراز ، وقد يكون كامناً كما تكمن قوى الطبيعة المختلفة : كما تكمن الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية وكما تكمن طاقة الحديد والفحم فيهما . وهكذا ... بل كما تكمن صفات الإنسان العليا فيه كالشجاعة والمروءة والنجدة

والكرم والذكاء وسواها حتى يوجد ما يظهرها .. فالتقدم الإنسانى إذن مستمر لا يتوقف فكيف الرجوع إلى الوراء . والاعتراض المذكور اعتراض يرد على هذه الحقيقة العلمية .

والنتيجة الثانية أن هذا التفاوت الموجود العظيم بين الأمم والشعوب سيظل مع تقدمها كلها باقياً مع حفظ النسبة — بمعنى أن الأمة التى قطعت ألف شوط إلى المدنية أو فى المدنية ستبقى النسبة بينها وبين الأمة التى قطعت مائة شوط فقط كالنسبة بين رجل يملك ألف جنيه وبين رجل آخر يملك مائة جنيه إذا اتجر بالألف وبالمائة وكان الربح السنوى أو الشهرى يساوى الأصل وما يجد من الأرباح السابقة . ومعلوم أن النسبة تبقى كما هى مهما تقادمت السنون . هذا على افتراض تساوى نسبة الربح السنوى أو الشهرى فى الألف وفى المائة . ولكن يجب أن يراعى أن الأموال الطائلة أقدر على رفع نسبة الربح من الأموال القليلة وعليه فإن الفرق سيتعاظم كلما كرت الأعوام بين صاحب الألف وصاحب المائة كما سيتعاظم هذا الفرق بين من قطعوا ألف شوط فى الحضارة وبين من قطعوا مائة فقط . وإذن فالفجوة بين الفريقين صائرة إلى الاتساع والتزايد .

هذا معنى قد أشار إليه بعض كتاب الغرب مستحسنين له واجدين فيه الضمان الكافى لأن تظل أممهم وشعوبهم سيدة حاكمة ، وتظل هذه الشعوب والأجناس التى نحن أحدها محكومة مسودة مهما تقدمت ووثبت وتعلمت وأخذت كل ما يستطاع أخذه من العلوم والصناعات التى بها ساد الغرب وحكم وتحكم . ولكن يجب أن يقال هنا : إن هذه النتيجة قد تكون صحيحة صادقة لو كان رقى الأمم ونضجها يقاس بما يظهر منها وبما تعمله فقط دون ما يكمن فيها وما يمكن أن تعمله وأن تظهره . غير أن الذهاب إلى هذا والتزامه يشبه أن نحكم على إنسان قد تعلم بأنه أرقى وأنضج طبيعة وأعظم استعداداً من إنسان آخر لم يتعلم ، لأننا شاهدنا المتعلم يفعل ويعلم ويحسن ما لا يفعله ولا يعلمه ولا يحسنه ذلك الإنسان الآخر الذى لم يتعلم . مع أننا نعلم جميعاً بأن ذلك الذى لم يتعلم قد يكون فى استعداده الطبيعى أعظم وأذكى من ذلك الذى تعلم وأنه لو تعلم لفاقه وسبقه فى كل شىء .

ويشبه أن نرى إنساناً غامر وقام بأعمال معينة تجارية أو صناعية أو زراعية أو غيرها فنجح نجاحاً رائعاً فنسرع إلى الحكم بأنه أرقى وأعظم فى استعداده من إنسان آخر معين لم يغامر ولم يقم بعمل من الأعمال فلم يصب نجاحاً ولا شيئاً مما أصاب ذلك المغامر المخاطر ، ونسرع إلى الحكم بأن ذلك الذى ترك مواهبه راكدة كامنة لا يمكن

في يوم من الأيام — مهما حاول وناضل — أن يكون مثل ذلك الناجح ولا أعظم منه ...
أو يشبه أيضاً أن نرى جوادين ، أحدهما في الرباط والآخر في السباق ، فنزعم أن الذي
في السباق أصل من ذلك الذي في الرباط ، وأنهما لا يمكن أن يستويا ولا أن يفوق ويسبق
الذي في الرباط الذي في السباق ، بحجة أننا شاهدنا الذي في السباق يسابق فيسبق ويستعين
بأصالته فتنجده ، وأننا شاهدنا الآخر في رباطه محبوساً محكوماً ... أو يشبه أن ندعى
بأن أرضاً خير من أرض وأخصب ، ولا برهان لدعوانا سوى أن إحدى الأرضين
زرعت فأنبتت وأخصبت ، وأن الأخرى لم تزرع فلم تنبت ولم تخصب . مع أن الناس
يعلمون جميعاً بأن التي لم تزرع قد تكون في طبيعتها وحقيقتها أعظم وأقوى وأخصب من
الأخرى ... أو يشبه أن نحكم بأن بلداً من البلدان أغزر نفطاً — مثلا — من بلاد
العرب ، وحجتنا في هذا أن البلد الذي حكمنا بأنه أغنى بالنفط من بلاد العرب قد رزق
شركة قوية أو حكومة غنية فقامت بإخراج نفطه والانتفاع به ، وأن بلاد العرب ترك
نفطها في جوفها حبيساً سجيناً ... إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية الباطلة .

إننا معشر المسلمين — أو معشر الشرقيين إذا استثنينا أمة واحدة — متأخرون
عن الغرب في كل ما يهب السيادة والقوة ، وكذلك بلادنا متأخرة في الظاهر عن بلاد
الغرب : فهى لا تغل لا زراعة ولا معادن ولا مناجم مثل ماتغل بلاد الغرب . فهم — أرضاً
وأنفساً — أرقى وأعظم إنتاجا منا أرضاً وأنفساً أيضاً . فأرضهم تخرج أكثر مما تخرج
أرضنا إجمالا ، وناسهم ينتجون أكثر مما ننتج نحن أفكاراً وعلوما ومعارف وأعمالا .
ولا أحد يقدر أن يرجع السبب في تأخر إنتاج أرضنا عن إنتاج أرضهم إلى أن أرضهم
أغنى وأوفر طبيعة وخصباً من أرضنا . بل كذلك بحارهم تعطى لحوما وأشياء أخرى أكثر
مما تعطى بحارنا . وليس هذا بلا شك عائداً إلى اختصاص بحارهم بالثراء دون بحارنا .
وكذلك القول في عجزنا عن أن نفعل مثل أفعالهم وأن نعلم كعلومهم وأن نصنع ما يساوى
أو ما يفوق صناعاتهم . فهو عجز غير راجع إلى الطبيعة والاستعداد ، كما أن عجز أراضينا
وبحارنا عن أراضيهم وبحارهم غير راجع إلى الطبيعة والاستعداد . بل المسألة تتلخص
في أنهم هم قد أحسنوا استغلال أرضهم ونفوسهم وأخرجوا ما في الإمكان إلى الواقع
وما في الطاقة إلى القوة ، وأما نحن فقد تركنا الممكن في إمكانه والكامن في كمونه والطبيعة
في ركودها وسكونها ، وتخلينا عن الإظهار والإبراز لأسباب عارضة إذا زالت

— وستزول — زال هذا الركود العام وتماست الطبيعة وتحاكت فأخرجت ما فى الطاقة وصيرته قوة ...

والنفوس كما قلنا كنوز مدفونة كما دفنت جميع الكنوز ، تحتاج إلى الإخراج والاستثمار وإلا بقيت فى مدافنها كأنها غير موجودة كما يبقى الأموات فى أجداثهم حتى يؤذن لهم بالبعث والخروج .

لماذا لا يصير الحيوان مثل الإنسان فى فهمه وعلمه وإدراكه إذا ما علم كما يعلم الإنسان؟ ولماذا تقف معارفه عند حد معلوم لا تجوزه بحال من الأحوال ؟ ولماذا لا تقف معارف الإنسان عند الحد الذى تقف عنده معارف الحيوان ؟ إن السبب فى ذلك هو الاختلاف بين الحيوان والإنسان فى الطبيعة والاستعداد . فطبيعة الإنسان تبقى هى طبيعة الإنسان وفوق طبيعة الحيوان وإن ترك بدون تعليم ، وطبيعة الحيوان تبقى هى طبيعة الحيوان ودون طبيعة الإنسان وإن علم وأريد منه أن يبلغ أقصى نهاية النضج والكمال العلمى ... فكل شىء إذن تؤهله طبيعته واستعداده . فالإنسانية لها مستوى معلوم مقدور لا تهبط تحته ولا ترتفع فوقه قبل الأوان المحدود . وهذا المستوى يرتفع ويتزايد شيئاً فشيئاً على مر الزمن ويتكون ويستوى وينضج كذلك رويداً رويداً بتفاعل مهيأ كما تتفاعل وتتكون المعادن والأحجار الكريمة والخسيسة والعناصر كلها فى مواضعها ، بل كما تتفاعل وتتكون الطبيعة كلها . ولا شىء يمنع هذا التفاعل والتكون : لا يمنعه أنه لا ينتفع به أو أنه يجهل أو ينكر أو أنه فى أماكنه المجهولة ... فاستغلال الشىء والانتفاع به شىء ، وتكونه وتفاعله وسيره فى طريقه المرسومة وعلى سنته شىء آخر ... فمواهب الإنسان وطبيعته المقدورة الموزونة سائرة فى سبيلها وسبيل تحقيق غايتها ونهايتها وتكاملها ، سواء استغلت أم لم تستغل ، وسواء أبرزت أفعالها أم لم تبرز . وهذا لأن مواهب الإنسان العلمية والعقلية راجعة إلى استواء وتكافؤ وتكامل فى محل هذه المواهب وفى موضعها أى إلى تكوين المخ وتكوين ما به الإدراك والفهم تكويناً يهيئه ويؤهله لأن يبدى من المعارف والقوى العلمية والعقلية ما يقضى بالحكم له بالنضج والكمال والتكافؤ . ولن يقف فى طريق هذا المحل — أى محل المواهب — إهمال الانتفاع بها ، ولن يعوقها عن نموها وأخذها فى سيرها الجهل بها أو الجهل باستغلالها . . . وهذه ليست فروضاً نظرية بل هى حقائق واقعية يشهد لها جملة تاريخ الإنسان وجملة تدرجه فى مدارج الاستواء

والنضج . فإننا لو انتزعنا طفلا من بيت عريق غريق فى الأمية والجهالة المتوارثة القديمة ، حيث لا نجد فى آبائه وأجداده من استطاع أن يخرج من نطاق الأمية ثم وضعناه فى معهد على فيه أطفال أشتات من بنى جنسه ، منهم من كان آباؤه وأجداده وأسلافه يتوارثون العلم حتى عدوا سلسلة من المتعلمين لا يوجد بين آحادها جاهل لكان من الواقع المشاهد الكثير أن يتفوق ذلك الطفل على من فى المعهد جميعاً ولكان من الممكن الواقع المشاهد أن يتفوق على أطفال قد توارثوا العلم والتعلم آباء وأجداداً ... ومعنى هذا أننا نستطيع أن نخرج المواهب الكامنة من ذلك البيت العريق الغريق فى الأمية بتعليم أحد أطفاله وبتعريض مواهبه للخروج وللاشتعال مرة واحدة من حيث الظاهر وحيث الإبراز . أما من حيث الحقيقة والواقع فإن مواهبه كانت تنمو وتتكامل وإن كانت لم تجد ما يخرجها ويوقدها ويشعل مصباحها ... وهذا الحكم يصدق فى الأمم كما صدق ويصدق فى الآحاد . فإن التاريخ القديم والحديث قد عرف أمماً أخرجت مواهبها من الكمون والإمكان بسرعة محيرة . وأحسن مثل يذكر لهذا الأمة العربية فى التاريخ الأوسط ، والأمة اليابانية فى التاريخ الحديث . وهذا يصدق عكساً أيضاً ، أى إن مواهب الأمم البارزة قد تختفى وتلجأ إلى الكمون فجأة ولكن بأسباب ولأسباب . وقد يكون هذا الاختفاء واللجوء بطيئاً حتى يبدو للنظر الأول أن هذه الأمم التى انطفأت نار مواهبها فسكنت وركدت أقل جداً من أمم برزت فجأة فى الميدان وظهرت مواهبها أعمالا وحقائق مشهودة تملأ الحياة حياة وقوة وضجيجاً ... ومن هذه الأمم التى أصيبت مواهبها وأزمت بالانكماش والكمون الإغريق والرومان والعرب . ويخشى — على احتمال بعيد جداً — أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية . غير أن هذا الاحتمال بعيد جداً لأن الأمم أو الأمة إذا بلغت شأواً معيناً من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن المحتمل النزول عنه حتى ولو أرادت هى بل ولو أراد العالم كله لها ذلك . إذ يكون مثلها فى رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب إلى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلا عليه هو وعلى العالم كله أن ينزل به من تلك المنطقة أو أن يزحزحه عنها . ويجب أن يكون معلوما أن للمعانى مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس . والعزة للأقوى الأغلب فى المعانى وفى المادة معاً .

***

أما معارف الإنسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الإنسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال . لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيـد ولا شرط لعلم الإنسان وعقله وكادت — أو قد فعلت — أن تضع فى يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب .

أى شىء عجز عنه هـذا المخلوق الصغير العجيب ؟ لقـد هاجم كل شىء فى معقله وغزاه فى مكمنه بانتصار مبين ساحق . فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الإنسانية — بل وغير الإنسانية من الحيوان والنبات — وهو المرض فقهره . لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذى لازم الإنسان منذ وجد بل لازم الحيـاة وعرف وسائل مقاومتها : عرف كيف ينشأ وم ينشأ ، ثم عرف كيف يحارب ويقضى عليه . لقد غزا جيوشـه الميكروسكوبية الخفية التى يصح أن يقال إنها لولا الآلات الدقيقة القوية التى هتكتها من عوالم ما وراء المادة وما فوق الطبيعة ! فعلم كيف تعيش هـذه الجيوش وكيف تتكاثر وتنمو وكيف تموت وتبيد ثم كيف تتق قبـل هجومها وكيف تطرد وتقتل وتؤسر إذا هجمت واحتلت الأجسام ! لقد صنع لها الأسلحة الفتاكة والأطعمة السامة المهلكة ووضع لها الأرصاد والآلات الحساسـة التى تعرف أين توجد وأين تحل وأين تعسكر ! لقد علم من شأن هذا العدو ما يجعلنا نوقن بأنه عن قريب جداً سيخر صريعاً بين يدى هذا الإنسان وأمام علمه وستستسلم له كل جيوشه استسلام مهزوم مقهور ، وسـيصنع بهذه الجيوش الطاغية الباغية ما أراد : إن أراد أبق وإلا أفنى على ألا تضر منه أحداً لما سيوجده من أسلحة المقاومة وأسباب الحماية الثابتة المتقنة .

لقد تلفت هذ المخلوق الضئيل العجيب ، مفكراً صادق التفكير ، فوجد أنه أسرة واحدة كبيرة كثيرة مفرقة تفصل بينها الأبعاد والمسافات ووجد أن هذه الأسرة تسكن بيتاً واسعاً جداً — هو الأرض — ووجد أن هذه المسافات والأبعاد والسعة والتفريق تفيت عليـه أغراضاً جلى ، وحاجات لايستغنى عنها . فهب يستنجد فكره : كيف يزيل المسافات والأبعاد ، وكيف يجعـل الإنسانية كلها حقيقة كأنها أسرة واحدة تقطن بيتاً صغيراً لا أبعـاد له ولا مسافات ... فماذا فعل وما عساه يستطيع أن يفعل ! إنه أوجد ما جعل الأرض ومن فيها وما فيها كأنها كرة صـغيرة فى يده يقلبها صباح مساء بين يديه ويعلم مايحدث فيها بلا عناء ولاخفاء ولاتعب .. فطوى الأبعاد والمسافات . وكان له ما أراد .

وراح أفراده يتخاطبون فى أطراف هذه الأرض كما يتخاطب أفراد البيت الواحد الصغير بل أسرع وأروع ! إنه يستطيع أن يبعث برسالة من رسائله الصغيرة أو الكبيرة ، العظيمة أو الحقيرة فتطوف حول الأرض فى أقل من ثانية ! ثم ما ثانية ؟ إنه هو الذى أوجدها أيضاً وحددها وعرفها .

إن أحقر وأصغر إنسان فى أى مكان كان ، فى مجاهل الصحراء ومضارب البدو ، أم فى أحضان المدن والمدنية ليضع أصبعاً من أصابعه الضئيلة العليلة على زر كهربائى فيديره فيسمع ما يشاء من لغات ومن أصوات ومن كلام ومما يشاء . ويضع أصبعه أيضاً على زر من هذه الأزرار المسحورة بقوى العلم السحرية فيقول ... ماذا يقول ؟ يقول ليكن نور فيكون له ما يشاء .

لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسما — سماعاً ورؤية وانتقالا أيضاً — أى إنه صار يرى ويسمع وينتقل بدون أن يكون للأبعاد سلطان . لقد هزمت الأبعاد المكانية إذن . أما الأبعاد الزمانية فكانت معركتها لاتقل عن معركة الأبعاد المكانية ولاعن غيرها من المعارك العلمية التى اقتحم الإنسان غمارها بعلمه روعة وانتصاراً ! إنه استطاع أن يطير على أجنحة العلم وأن يرجع إلى الوراء الزمانى آلاف الملايين من السنين ، وأن يوجد نفســه قبل أن يوجد بما يفوت الأعداد أو يكاد ... إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد : كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور ، ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس ، ثم كيف راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين ليحيطوا بها وليحفوا من حولها : يدورون ويتحركون ولكن لايستطيعون الخروج من قبضتها ولا الانفصال عنها أو الابتعاد ولا الاستغناء عن سلطان جذبها ... فكأنها بينهم أب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا مايحب ويشتهى . وراحت هى تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل مايفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الإيمان وقوة الرجولة .

انظر ! إنه مشهد من مشاهد العلم التى لايقدر على إبصارها والاستمتاع بها إلا هذا الإنسان . فياله من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه .

ثم راح يحدث كيف راحت هـذه الأتباع توجد الأتباع ، وكيف راحت الأبناء

تصير من الآباء . فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات . فكأن السنة واحدة لاتختلف ، فى الجماد ، كما هى فى النبات ، كما هى فى الحيوان .

ثم رجع يشهد كل العصور التى مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والأحفاد . وطفق يحكى حكاية العلم المستثبت الأدوار المتقلبة التى مرت بها والتطور البديع المنظم الذى ظل يسوقها ويدفعها إلى الكمال . ويحكى كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها إن كان لها قبل إلى حالة التكاثف والتكتل ، ومن حالة الاضطراب والقلق إلى حالة الاستقرار والهدوء ، ومن العصور الجليدية والنارية إلى عصور الاعتدال ، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التى لا تمكن من سكناها ومن الانتفاع بها إلى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذى جعل منها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل مانشهده اليوم فيروعنا منظراً ومخبراً . وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة فى كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة . فحضر بشغف واهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية — وهو فصل ظهور الحياة ، وهى اللغز المعقد الذى لايزال العلم الدائب واقفاً أمامه حائراً دائباً على محاولة حله . فحضر وجود الإنسان ووجود غيره من أنواع الأحياء . فلازم هذه الموجودات الطريفة — وعلى رأسها الإنسان — فتدرج معه ومعها وهو وهى يحبوان فى مدارج الحياة والوجود ، فوصف الإنسان ووصف أيضاً غيره منذ وجوده البدائى الشقى إلى وجودنا هذا ، المتحضر المهذب السعيد . فكتبه فصلا من أعجب الفصول ، يصف وصفاً يكاد يكون تصويراً لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو يتنقل من طور إلى طور ومن حالة إلى حالة ، من حالات النعماء والبأساء ، حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التى منحت الحياة كل هذه الألوان الزاهية من ألوان السعادة والترف والعيش الرخى ... ثم لم يقف بعلمه عند هذا بل ذهب مسرعاً يسابق الوجود فيسبقه وذهب يخبرنا عما بقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذى سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه ، وعما بقى من عمر هذا الإنسان وغيره من الأحياء ، ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لاتزال فى طريق الوجود والتى لاتزال تترقب لتثب وثبتها .

ياللعجب ! إنه قد فرغ من علم الأرض وما فيها وما سيكون فيها ومن دراستها ودراستهم ثم رنا ببصره الحاد الطموح إلى ماهو أسمى وأعلى موضعاً وأوسع وأكبر مخرج

من كوكبه هذا الذى لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية إلى رحاب الفضاء بآلاته وأرصاده ورياضياته وخياله يجوبه جوباً ويرود مافيه روداً : يعدد مافيه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها ، ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود . بل يحللها حتى يعرف ماهى مركبة منه وماهى عناصرها وما مادتها وما غير ذلك . ثم لايقضى هذا كله وطر شهواته العلميــة بل يجمع أمره على ما هو أعظم وبعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهذه السماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية اللاسلكية وإما بالانتقال إليها على متن سفن سهمية تطلقها قوة العلم وتوجهها حيث يريدون .. نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يوماً ما فقد أساء إلى نفسه .

وهكذا لاينتهون عند حاجة من حاجات النفس يظفرون بها فكأنه لانهاية لحاجات هذا المخلوق وكأنه لاشىء يرضى طموحه العلمى إرضاء يحط لديه رحاله وكأنه خلق ليمضى بسنة الله حتى يبلغ بها غايتها القصوى وحتى يوجد الكمال المنشود الذى أراده الله الكامل لعالم صنعه بيديه ... فمن أراد لهذا الإنسان ألا يستمر فى رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله ألا تمضى فى سبيلها . ومن أراد ذلك فلا شك فى أنه عاجز عن بلوغ مراده .

لا أدق كلاماً من الله العلى حينما قال « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولاخلق أنفسهم » فالإنسان حقيقة لم يشهد خلق هــذه العوالم الكبرى لا السماوية ولا الأرضية ولا خلق فرده الأول لأنه إنما وجد بعــد ذلك إذ البيت يوجد قبل السكن فيه . فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة . ولكنه لم يقل « ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » بل اختار نفى الإشهاد على نفى الإعلام وكأنه إنما أشارا بهذا الاختيار إلى أن الإنسان بمداركه الفكرية قد يعلم خلق السماوات وخلق الأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شىء كما علم بذلك سائر العلوم التى علمها والتى صارت حقائق مشهودة منظورة . أما شهوده أو إشهاده لوجود العوالم التى خلقت قبله فغير ممكن . والشهود والإشهاد غير العلم والإعلام . فالإشهاد هنا يراد به إشهاد الحضور . ولو أن الله قال ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون فى معارف الإنسان

وينكرونها عليه ويدّعون أن القرآن قد أنكرها . فالشهود قد نفى بهذه الآية ... وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فالرؤية هنا رؤية العلم أو الرؤية البصرية بواسطة العلم وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال : إن الله سيريهم إياها . وآية الله فى الآفاق التى أخبر القرآن أنهم سيرونها هى هذه الكشوف والمخترعات أو الآيات الكونية التى يراها الإنسان بوسائله العلمية والتى لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها . فالجديد هو المرئى أو الرؤية هى الجديدة لأمور قديمة أو هما معاً جديدان : المرئيات والرؤيات . ولابد من القول بأن الآية تشير أو أن فيها إشارة إلى العلوم الحديثة وإلى آياتها وإلا لما كان لها معنى مفهوم بيسر . (!!!)

وأما الآيات فى الأنفس فهى الحقائق النفسية التى اكتشفها العلم ، وهى أيضاً الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التى تفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية مما كشفه العلم وأعان عليه ومما لم يعلم إلا أخيراً .

والآية دالة على أن معارف الإنسان ومرائيه ورؤيته للأشياء متجددة متطورة كما يقرر العلم ، وعلى أن الإنسان يسير دائماً إلى الأمام ولا يرجع إلى الوراء . لأنه إذ رأى الآيات التى لم يكن رآها من قبل فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى قواه العقلية المبتكرة التى أوجدت مالم يكن موجوداً وعلمت ما لم يكن معلوماً — أى التى جددت فى مخترعاتها وأحدثت فى موجداتها ، أو راجعاً إلى مقدرته الذهنية التى جددت فى خيالاتها وإدراكاتها ... والتجديد فى العلم أو فى المعلومات إنما ينشأ عن التطور . ولو كان الإنسان لازماً حالة واحدة من الناحية العقلية والخيالية — أو لو كان يرجع القهقرى — لما حصل جديد لا فى علمه ولا فى معلوماته بل ولا فى خيالاته .

***

وصل الإنسان وقت نزول القرآن إلى طور معين من التدرج نحو الحياة ونحو الرشد العقلى . وكان هذا الطور لايعدو النظرة السطحية والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها . فكان يرى رؤية قد يضبطها الاستقراء بعض الضبط ، وقد تفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب ، فكانت أحكامه على الأمور ، وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهرى الصادر عن الرؤية الناقصة . وكانت هذه المرحلة من وجود

الإنسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لا يبعد جداً عن الطور الحيوانى الذى كانت وسائل إدراكه تنحصر فى الحواس الغليظة المجردة مع شىء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذى له بعض القيمة . . . فأنزل الله فى كتابه متحدثاً عن هذا الطور قوله تعالى « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فعلومهم كلها كانت ظاهرية : يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية وسواها ولكن لايدرون لماذا هى ولا ما هى ! ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب : يرون الشمس والقمر وغيرهما معلقة فى الفضاء متحركة ذاهبة آيبة دائرة سائرة بنظام ومواعيد لاتختلف ولا تتخلف . ويرونها تبعث بالحرارة والأشعة ولكن لايدرون لماذا ولا كيف هذا ! بل لعلهم ما كانوا يفكرون فى هذه الظواهر والمشاهدات ! لماذا لاتقع علينا وعلى الأرض ! ما الذى يمسكها ويمنعها من الوقوع ! ما الذى يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها ! ما الذى يمدها بهذه الأنوار والحرارة التى لاتنفذ ! كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء وإن سألوا فلا أجوبة صحيحة . وكل مايمكن أن يقولوا فى هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا : أن الإله – أو الآلهة – هى التى تفعل ذلك أو أنها – أى الشموس والكواكب – هى التى تفعله بنفسها لأنها آلهة أو لأنها كائنات حية متحركة بالإرادة والاختيار ، إذ قد ظل الإنسان أحقاباً متمادية فى الطول يعتقد أن كل متحرك إما إله وإما حى عاقل . فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب مايرى آلهة فى أزمان عند أقوام ، وأحياء فى أزمان أخرى عند أقوام آخرين ... والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبداً صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين . والأطفال حتى اليوم إذا رأوا شيئاً يتحرك ويسير حسبوه حياً وحسبوا حركته وسيره بإرادته وقصده مثل ما يصنعون هم . ولا تزال بقايا هذه الإنسانية الظاهرية السطحية موجودة .

وكانت تلك الإنسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الأرض وترى كل ما رأى مكتشف قانون الجاذبية ولكنها لم تستطع أن تفطن إلى ما فطن إليه نيوتن فى هذه المسألة . وكانت ترى كل ما رأى مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التى قلبت حياة الإنسان . غير أنها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير ما يرى الأطفال من مظاهر الأشياء ... وهكذا كانوا أمام جميع مظاهر الكون .

وكانوا أيضاً يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ومظاهرها ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئاً كثيراً من أنواعها على حسب اختلاف أعراضها

ولكنهم كانوا جميعاً جاهلين بأسبابها جاهلين بما وراء الأعراض ... فلا يدرون من عوالم الميكروبات شيئاً فهم لذلك لايدرون من وسائل مقاومتها شيئاً أيضاً فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيبصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هي لأنها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر .. فكانت دائماً منتصرة عليهم وكانوا أبداً مهزومين أمامها بدون قتال .

وكانوا أيضاً يرون كل الظواهر التي تؤيد قانون الوراثة وتشرحه والتي تدل على ماكان عليه الإنسان الأول من أخلاق وطباع ووحشية ، والتي تعطي مباحث علم النفس ما شاء من مواد لبنائه وتثبيته ووضع حدوده .. غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الأطفال إلى القمر : يرونه كل ليلة يجيء ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيا ويموت ويغمرهم بضيائه الباهر وهم في بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئاً سوى هذه المرائي ... إنهم رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الأطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الأخلاق وأظلم الطباع وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن إثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئاً حسناً من أجل أنه حسن أو لأن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن ... ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات — أو الميل لفعل الحسنات والخير — لم يولد مع الأطفال وإنما لقنوه تلقيناً وارتاضوا عليه بحكم التقليد والتربية والمشاهدة والتعليم بعد الولادة ... وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ولكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال — بطبيعتهم — ملائكة وأنهم مجبولون مجبورون على الخير وحب الخير مع أن الواقع أنهم بطبيعتهم شياطين أشرار .

وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يفطنوا لواحدة منها ، من هذه الدلالات أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الإنسان الأول كان كذلك في كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار ... أما الخير والإحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التي يتصف بها الإنسان والتي يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهي مكتسبة اكتسابا من الأديان ومن التربية التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والأنانية أيضاً . فإن الخير قد تدفع إليه الأنانية كما سيجيء بيانه في فصل مقبل ... وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت إلى الوراء بقصد الاقتداء

والاحتذاء . وإنما يجب الهرب دائماً من الماضى والتطلع إلى المستقبل الباسم راغبين آملين أن يمحو كل وراثات ذاك الماضى وأن ينزع تأثيرها وسيطرتها على الإنسان المقبل . فالحنين — من أجل هذا — إلى الماضى والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ عنهم بلاهة .

ومن هذه الدلالات الإيمان بأن الإنسان يتقدم ولا يتأخر وأنه خلق متطوراً من شر إلى خير ومن نقص إلى كمال .

ومن هذه الدلالات أيضاً العلم بأن ترك الأطفال لطبائعهم بدون تعليم ولا تربية إنما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة فى كل ألوان العدوان وأنهم إنما يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية ، ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات ... وعليه فالرجل والمرأة أيضاً اللذان يتركان من غير تعليم وتربية إنما يتركان لهذه الوحشية العاتية فلا أمل فيهما — أى فى الرجل والمرأة الموكولين لطبيعتهما من حيث الإنسانية بل هما من أعداء الإنسانية التى بنتها التربية والتعليم والأخلاق المكتسبة .

ويجب التنبيه هنا إلى أن الإسلام قد نبه إلى هذه القضايا كلها تنبيهاً صريحاً فمن نصوصه الصريحة قوله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » أى لا تعلمون شيئاً من هذه الأصول المعلومة فى الأخلاق وفى التربية وفى الأديان وفى التعاليم المختلفة . وهذه الأمور إنما تعلم بالتعليم فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون منها شيئاً وبقوا أشراراً ظالمين لأنهم لا يعلمون الأصول المنافية للشر والظلم ، الناهية عنهما .

فالأطفال — ذكوراً وإناثاً — يكبرون وتكبر معهم هذه الطبائع العدوانية إن لم يعلموا .

ومن هذه النصوص قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » وقوله « قتل الإنسان ما أكفره » وقوله « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » وقوله « وأحضرت الأنفس الشح » . والآيات فى هذا كثيرة معلومة . وفى الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم فى كل نص يقع بين أيديهم . ولا التفات إلى ما قالوه فيه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة ... والمعنى الذى

يجب أن يفهم : هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى . والفطرة الأولى معروفة وهى الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الإنسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى ، فهم لا يعلمون شيئاً من هذه التعاليم بسجاياهم وطباعهم لأنها تعاليم اكتساب وتلقين ، وإنما يعلمونها إذا لقنوها وعلموها . وكل طفل وما يلقن ويعلم — أى إنه يتجه على حسب التوجيه الذى يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه . فإن كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانياً جاء نصرانياً ، وإن كان يهودياً جاء يهودياً ، وإن مجوسياً فكذلك ، وإن كان مسلماً فلا بد من أن يكون مسلماً كما يشاهد فى كل زمان ومكان .

ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه . ولو تركوا لم يعلموا شيئا لا يهودية ولانصرانية ولامجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين . وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط . والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست ممدوحة وليست خيراً . وإذا قيل : الأم الفطرية كان يعنى بذلك تلك التى تركت بعيدة عن التعليم والتهذيب فهى جاهلة مجرمة . والفطرة مأخوذة من الفطر وهى فى أحد معانيها الخلق . فالرجل الفطرى هو الذى ترك لخلقته الأولى التى لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه .

والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال . ونحن نفهم أنه إنما رد شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء . أما قول بعض الفقهاء — أو قولهم كلهم — إنه رد شهادتهم لأمور أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب موجا من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية .

وهنا يجب أن يفطن القارىء إلى أنه لا تناقض بين دعوتنا إلى الإيمان بالإنسان ومواهبه العديدة ، وبين قولنا هذا فى جبله على الظلم والعدوان . فإننا نريد بالقولين معاً : أن الإنسان خلق ناقصاً شريراً ظالماً جاهلا ، ولكن خلق إلى جانب ذلك معداً للتطور وللسير بالتدريج نحو الكمال ونحو البلوغ العقلى والخلقى . فهو شر بالنسبة للماضى خير بالنسبة للآتى . وهذا يحملنا على أن نعمل لتدمير الماضى الفاسد وبناء المستقبل الصالح .

ولا يظن أحد من القراء أنه يدخل فى هذا الأصل الخبيث الشرير الظالم آدم أو غيره من الأنبياء الذين جاءوا برسالة الإصلاح العامة ، وجاءوا لنقل البشر من ماضيهم الخبيث

إلى رسالاتهم الطيبة الهادية التى تعمل على إبلاغهم طور الفضيلة المبتغاة ... وإنما نعنى بذلك تلك الإنسانية المتروكة لجهالاتها ولطباعها غير الطيبة . وكلامنا لا يحتاج إلى مثل هذا التنبيه . ولكن التجربة دلتنا على أنه يجب الحساب لما هو أبعد من هذا عن القصد . والإنسان — كما هو موضوع كلامنا — شرير بحسب الأصل والطباع الأولى . فاحتياجنا إذن لهذا التنبيه راجع إلى هذا الأصل وإلى محاولة اتقائه .

هذه كلمة استطرادية فلنرجع إلى أصل البحث الذى أردنا به التدليل على أن الإنسان كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيراً طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن فنقول :

وكانت الإنسانية أيضاً إذ ذاك تعلم وترى أن أمماً تسقط وأمماً أخرى تقوم ، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط من يسقط ولا لماذا ينهض من ينهض ويسود من يسود . وكل ما كان يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة — أو الإله — قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية فخفر لها فأسقطها ، ورضى — أو رضيت أى الآلهة — على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها . أما الأسباب الاجتماعية أو النفسية أوغيرها من الأسباب التى صارت اليوم معلومة مدروسة فى قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم وكانوا عنها بعيدين ، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى .

هكذا كانت الإنسانية يوم نزل القرآن : ترى ولا تعلم — أو تنظر ولا تبصر كما جاء فى الكتاب الكريم « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . وما أجمل هذا النفى والإثبات مجتمعين ، وما أروعهما متواردين . وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم إلى هذا المعنى فى آية أخرى أوضح وأجلى وهى قوله تعالى « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وقد كان القرآن ناعياً على الإنسان نقصه وحاله حينما قال : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » لأن الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد . وهذا لا يكون إلا بعلم البواطن والنفوذ إلى إدراك الحقائق . أما الوقوف عند الظواهر فهو شأن الطفولة . والطفولة بلا ريب ليست هى القصد من الوجود وليست هى غايته وإنما هى طريقه وبدايته .

وجاء فى الكتاب فى سورة أخرى : « وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ولا يمر بالآيات مع الإعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوز الطور النظرى البصرى المجرد ، لأن الحاسة العقلية عندهم التى تنفذ فى الأشياء متجاوزة

مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكوناً يمنعها تأدية وظيفتها . ويشترك فى هذا النظر الظاهرى ثلاثة أصناف على ثلاث درجات مرتبة : الحيوان ثم الأطفال ثم الأمم البدائية أو الأمم التى أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت .

كان هذا الطور الذى بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن . وقد عمل الإسلام أعمالا باهرة لاتكفر لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده اليوم ماهو معروف . فقد خطت الإنسانية بعد ذلك الطور الذى نعاه القرآن عليها خطوات فاتت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن ... فالإنسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر ، وأصبح لايقنعه ولا يشبع نهمه إلا أن يعلم كل شىء علم ظاهر وباطن : إنه لم يكتف بأن يعلم كل نواميس هذه الطبيعة بل ذهب يقسمها إلى خلايا وإلى عناصر وإلى ذرات ، وذهب يعلم خصائص كل ذلك بل ذهب يتحكم فى هذه الخلايا والعناصر والذرات . إنه لم يرض بأن تقدم إليه مائدة عليها ألوان الطعام الشهى الواهب للجسم ما يحتاج إليه ، بل رأى أنه لابد أن يعلم العناصر التى يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها . ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق فى جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية ... إنه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه فى عناصر عينها وعددها فجاءت حوالى اثنين وتسعين عنصراً ، فكان هذا كالانتصار فى معركة فاصلة ، ترتب عليه كل ما يترتب على الانتصار فى المعارك الفاصلة . وقد طفق من أجل ذلك يبارى الطبيعة ويساميها فى كل أفعالها وعجائبها . وصار من المألوف المعروف أن يقال : هذا طبيعى وهذا صناعى ، أى طبيعى وإنسانى . وأصبح البترول الصناعى والمطاط الصناعى والخشب الصناعى والصوف الصناعى واللؤلؤ الصناعى وكل شىء صناعى لايقل فى منظره ومخبره عن أخيه الطبيعى ... وإننا لنخشى أو نرجو — وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن — أن يأتى الزمن الذى يقال فيه : الإنسان الصناعى والحيوان الصناعى ... وهذا ما لايزال العلم أمامه حيران عاجزاً . ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر فى الاستسلام للإخفاق ، بل مافتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة . ومحاولة صنع المادة الحية أو إيجاد الحياة فى المادة لاتزال من المعارك الملتحمة التى لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها . إذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التى لم يرفع عنها العلم الأستار . ولكن الإنسان يقول : إنه قد انتصر فى نضال هو أشد من

هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها . وعلينا نحن أن ننتظر وأن نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر .

لقد لون الإنسان اليوم كل وجوه الحياة بألوان مشرقة لامعة بعد أن كانت مغبرة مكفهرة : لقـد حسن كل شىء فيها بعد أن وهبه النظام وجعل له الأصول والقوانين . كان كل شىء مضطرباً ، وكان كل شىء مشوشاً لا نظام له ولا قاعدة، فأصبح اليوم يرى عالماً كله النظام وكله الترتيب فى كل ناحية من نواحيه ومعنى من معانيه .

ولنذكر هنا مثلا واحداً لنعرف به قيمة ما بلغه الإنسان وقيمة ما أعطى الحياة من جمال وروعة وراحة ونظام : كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها أشـد الرهبة ، وكان لا يخطر على باله أن يجىء يوم يخاطر فيه بحياته فيركب متن هذا العـدو الجياش الصاخب . ولقد لبث على هذا أحقاباً وأحقابا . ثم بعد مالا يعرف الآن على وجه التحقيق من الدهور وفق أن يتوصل إلى نقر جذوع النخل والأشجار الأخرى فيطفو بها على سطح المـاء مزهواً أو مذعوراً . ولنرسم فى أذهاننا صورة لذلك الإنسان وهو على ظهر سـفينته تلك وكيف كان منظره ومنظرها ... ثم لم يزل يسوقه التطور شيئاً فشيئاً ويدفعه حتى تهيأ له أن يركب هـذه المدن الجميلة الطافية اليوم ساخرة من البحر ومن أمواجه ومن صخبه ونصبه ، غير منتظرة ريحاً تسوقها أو حظاً يخدمها ! ولنفكر فى الجهود العقلية والصناعية التى بذلت للانتقال من ظهور تلك الجذوع إلى هذه السفن التى تزهى بها البحار فى هذا العصر .

إن كل ضرب من ضروب الحياة الإنسانية قد أدخل عليه من التجميل والتحسين والتـكميل مثل ما أدخل على صناعة السفن وتصميم السفن . إذا علمنا هذا ثم ألقينا نظرة فاحصة على عالمنا اليوم وعلى ما غمره من صناعة الإنسان وعلم الإنسان ونظم الإنسان أيقنا حينئذ بعظمة هذا المخلوق ، وأتينا بالجواب الصحيح الذى يجب أن يجاب به السؤال السابق : (هل الإنسان غير عظيم) .

***

إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدون الأناشـيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات ، مؤكدين لنا بأن الإنسان ماخلق ليكون عالماً ، ولاليكون شيئاً كبيراً ، ولاليغالب الطبيعة

والحياة ، ولا لينازع الله فى علمه وقوته وقدرته ، ولا ليخرج من طبيعته .. وإنما خلق عبداً ضعيفاً جاهلا ليبقى أبداً ضعيفاً جاهلا . وإنما خلق من التراب وسيبقى أبداً فى التراب ! وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم ...! إنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضى على الأزمات ولا ليدخل التغير الكبير على شىء من هذا الوجود الجبار الذى منحه الله نظامه .. وإن من السخف المبين أيضاً أن نظل خاضعين لهذه الثقافة الميتة التى حكمت علينا وعلى مواهبنا الإنسانية بالإعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل فى نصها أو روحها ، حتى لنسمعها كل يوم جمعة — بل كل يوم — تلحن وتعاد فوق منابرنا وفى جمعياتنا وفى كل ما يقال وما يكتب عندنا : نعم إن من السخف كل هذا بينما الآخرون الذين نسميهم أعداءنا جادون ماضون فى استغلال مواهب الإنسان ومواهبهم الإنسانية حتى استطاعوا أن يصنعوا كل هذه الحضارة وكل هذه المدنية وكل هذه الحياة ، وحتى استطاعوا أن ينقلوا هذه الحضارة وهذه المدنية وهذه الحياة كل يوم خطوات إلى الأمام ، وأن يضيفوا إليها كل حين جديداً . وحتى عجزنا نحن أن نشاركهم أقل مشاركة أو أن يكون لنا فى مافعلوا أضعف أثر . نعم ! إن هذا من السخف المبين ومن الغبن الفاحش أيضاً .

إن أقل ما يجب أن نفعله الآن هو أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة ، وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح الإيمان بالإنسان وبمواهبه التى لاتحصى ، ليتسنى لنا بعد هذا الإيمان الاتجاه إلى استغلال هذه المواهب وإلى الانتفاع بها . ثم أن نعد هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان مجرمين لايستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادىء الهدامة .

إنه لو اعتقد إنسان اعتقاداً قائماً على الوهم بأنه مقيد بقيود لايستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقى قاعداً مستسلماً لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير ، ولو اعتقد بأنه مقعد وأنه لايقدر على القيام لظل قاعداً ، ولو وضع فى مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لايمكنه الخروج منه بحيلة من الحيل لألزمه ذلك الإغلاق الوهمى مكانه ، ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والإفلات إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به . وكذلك الجماعات والشعوب التى تعتقد — خطأ — بأن قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الأوهام ما دامت خاضعة للإيمان بها .

وأخيراً لقد زعم هؤلاء الهدامون أن الرسول الكريم قال (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ثم زعموا أن معناه : من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات الله ، أى بالجهل والغباء والحقارة والضآلة والضعف والافتقار والفقر والموت وبكل الصفات المرذولة المقوتة فقد عرف ربه بالعلم والقوة والغنى وكل صفات الكمال ، أى إن العبد يجب أن يكون على الضد من أوصاف الله ، أى على الضد من أوصاف الكمال ، أى يجب ألا يكون كاملا وألا يدعى أنه كامل ، ويجب أن يبالغ فى انتقاصه وتحقيره وبالحكم عليه ... وهذا من شروحهم وتفاسيرهم المضللة التى ملأوا بها الكتب بل زعموا بها الطريق — وأى طريق ؟ إنه طريق العقل وطريق الحياة الصحيحة ... والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحاً أن المراد : من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة ، وعرف سننه العامة العادلة ، وعرف مايجب له تعالى وما يجب أن يبرأ منه ، وعرف بطلان ما ينسبه إليه الجاهلون الأغبياء الذين لم يعرفوه معرفة صحيحة لأنهم لم يعرفوا أنفسهم هذه المعرفة . وكل الذين ينسبون إلى الله الجهل والعبث والسفه والفوضى فى الأحكام وفى الأوامر والنواهى وفى القضاء والقدر ، وينسبون إليه الحقد وحب الانتقام وكل ما لايجوز — وكل الذين يعبدونه عبادة باطلة سخيفة ويريدون منه شيئاً سخيفاً ، ويسألونه ما لا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يقع — وكل الذين يعبدون سواه ويظنون أن هذه العبادة ترضيه وتقرب لديه — إذ هى عبادة المقربين عنده : كل هؤلاء ما صنعوا هذا إلا لأنهم لم يعرفوا أنفسهم على حقيقتها لأن معرفة الشىء إنما تكون بمعرفة صفاته ، ومن جهل صفات شىء فليس عارفاً له ، والذى يعرف صفات نفسه لابد أن يستفيد من هذه المعرفة ، وأعظم فوائدها أن يقدر الأمور تقديراً صحيحاً . وإذا قدرها هذا التقدير الصحيح فلا بد أن يكون قد عرف الله معرفة صحيحة بعيدة عن الأباطيل وعن الترهات الاعتقادية التى ينساق إليها الجاهلون . والله يعرف بالعلم لا بالجهل ، وعند هؤلاء المخربين أنه إنما يعرف بالجهل ! ولهذا فإنهم يقولون من عرف نفسه بالجهل فقد عرف ربه بالعلم . وإذا عرف نفسه بالجهل — وكانت هذه المعرفة صحيحة ، ثم كان ذلك سبباً فى معرفة الرب كان المعنى والنتيجة أن الله يعرف بالجهل وأن الجهل من أسباب معرفته ! ولكن لايدعى هذه الدعوى إلا قوم لانصيب لهم فى العقل ولا فى الدين .

العلم حجاب — الجهالة أم الفضائل — أكثر أهل الجنة البله

هكذا قالوا :

روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال (لاتنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغزل وسورة النور) .

ورووا أن عليّ بن أبي طالب مرّ بامرأة تعلم الكتابة فقال (أفعى تسقى سماً) .

ورووا أن النبي عليه السلام قال (إن البيان والبذاء من النفاق ، وإن العى والبذاذة من الإيمان) وأنه قال (إن الله يكره البليغ من الرجال) .

ورووا أنه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غضباً وقال : (أمتهوكون أنتم) الحديث . .

ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والإنجيل ويعاقب على ذلك ، وأنه كان يقول فى كل كتاب يحاولون قراءته : (أيوافق مافيه القرآن) إن كان يوافقه قال فالقرآن يغنينا ولا معنى حينئذ لقراءته ، وإن كان يخالفه قال : لاخير فى شىء يخالف القرآن . وهنالك الرواية المشهورة التى ذكرها بعض هؤلاء مستحسناً لها ومفتخراً بها ، منهم المقريزى ومن لايقلون عنه ، وهى الرواية التى قيل فيها إن عمر أمر بتحريق مكتبة الإسكندرية قائلا : إن كان ما فى المكتبة موافقاً للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا إليها ، وإن كان مخالفاً له فلن نبقى على شىء يخالف القرآن ، وإنها أحرقت . وقد طار بهذه الحكاية المختلقة بعض من يحملون على العرب والإسلام فرحاً .

وقد تكلموا كثيراً فى تحريم المنطق والفلسفة وألفوا فى ذلك كتباً منها كتاب الأسيوطى المشهور (أقوال أهل المشرق فى تحريم تعلم المنطق) وقد حكى فى هذا الكتاب الإجماع — أو شبه الإجماع — على تحريمه . ومن العبارات المشهورة عندهم فى هذا قولهم (من تمنطق فقد تزندق) . وفى الكتب المدروسة فى الأزهر : (فابن الصلاح والنواوى حرما) أى حرما تعلم المنطق . وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذين وجهوا عنايتهم إلى تعريب كتب الأقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بنى العباس ، لأنهم فى زعمهم نقلوا إلى المسلمين علم الكفار ، وساعدوا الزندقة والإلحاد على الانتشار .

وجاء فى كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جداً قال : « كل ما يسمى علماً مما ليس فى الكتاب ولا فى السنة ومما ليس من علوم المسلمين فهو لايخلو من أحد احتمالين : أحد الاحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجهل بالعلم خطأ ، وثانيهما أن يكون علماً حقيقة ولكنه علم ضار غير نافع . فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله » .

وجاء فى أحد الكتب الدينية المشهورة المحترمة جداً فى معرض تقسيم الأفكار إلى جيدة وإلى رديئة مانصه : « منها — أى من الأفكار الرديئة الضارة — الأفكار فى الصناعات الدقيقة التى لاتنفع بل تضر كالفكر فى الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير ، والفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالا ولا شرفاً كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى وأكثر علوم الفلسفة التى لو بلغ الإنسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه — إلى أن قال — فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها . ويكفى فى مضرتها شغلها عن الفكر فى ما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلا وآجلا ... »

وكتب ابن عربى والشعرانى وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم ، ومن الأقوال المشهورة فى هذا قولهم : (العلم حجاب) .

ومن البلاء حقاً أنهم لم يقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا — ببلاهة كثيفة — يمتدحون الجنون والبَلَه والبُلْه والمجانين ، فرووا أنه عليه السلام قال : (أكثر أهل الجنة البُلْه) وأنه قال (المؤمن غر كريم ، والمنافق خب لئيم) وأنه قال (إن الله يدخل قوماً الجنة كأن قلوبهم قلوب الطير) أى فى السذاجة والسلامة من المكر والخبث ، ومن الدهاء والذكاء . وراحوا كالمصروعين ينشدون فى امتداح الجنون والمجانين :

مجانين إلا أن سر جنونهم عظيم على أبوابه يسجد العقل

وجاء فى النهاية لابن الأثير — مفسراً البله الذين هم أكثر أهل الجنة — :

« البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة » . وهكذا قال غير ابن الأثير .

وهم يقصدون أن المؤمنين حقاً الذين يخصون بدخول الجنة هم الذين يكونون

بالأوصاف المذكورة من العباوة بالشؤون الدنيوية وبما يلزم لها . وقال أحدهم فى تفسير الأبله : (الأبله هو الأبله فى دنياه ، الفقيه فى دينه) .

وفى النهاية لابن الأثير أيضاً :

«المؤمن غر كريم ، أى ليس بذى نكر فهو ينخدع لانقياده ولينه وهو ضد الخب . يريد أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه . . . ومنه حديث قول الجنة : يدخلنى غرة الناس ، أى البله الذين لم يجربوا الأمور فهم قليلو الشر ينقادون . فإن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غراً فى ما قصد له ولا مذموماً بنوع من الذم . . . »

ومما ذهب كالمثل قولهم (العجز عن الإدراك إدراك) ، يعنون امتداح الجهل وأن الجاهلين هم العلماء حقاً لأنهم عرفوا قدرهم وهو الجهل فوقفوا عنده .

وهنالك قسم كبير من الأولياء عند الذين كتبوا فى الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب . وقد أورد الشعرانى فى كتابه (طبقات الأولياء الكبرى) أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين . وهكذا صنع غيره .

* * *

لقد تبين بهذا أن الفساد الفكرى عند هؤلاء كان فساداً عاماً وكان فساداً أصيلا . فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سيأتى ، بل امتدحوا كما رأى القارىء الجهل والغباء ! ثم لم يكتفوا بهذا أيضاً ، بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف فى الحياة ! وهم لم يقصروا عند هجاء الثراء والصحة والعافية بل هبوا — بكل ما أوتوا من بله — يهجون العلم والمتعلمين والعقل والعاقلين ! فهم إذن قد قصدوا إلى كل مقومات الإنسانية ، وإلى كل عناصر الحضارة والمدنية ، محاولين هدمها وتدميرها .

لقد سرت هذه الأفكار والآراء وغيرها فى البيئات الإسلامية سرياناً عجيباً ، وغزت معقل الاعتقاد ومعقل التوثب الفكرى ، حتى أضحت روحاً عامة للخاصة والعامة — إذا استثنينا من استثنى الله — مدى ألف سنة تقريباً ! وظل المسلمون الذين يعيشون بهذه الروح طوال هذه العصور ينظرون إلى العلوم التى لا تتصل بالعبادة الحرفية الشخصية

بعين الجفاء والاشمئزاز بل والبغضاء ! ولبثوا ينظرون إلى من يحاولون الاتصال بهذه العلوم ودراستها أو ترجمتها نظراً كله الكره والمقت والاتهام ! ولبثوا يعدون من اشتغل بها ملاحدة وزنادقة أو فساقاً إلى عهد قريب جداً ، بل لا يزالون كذلك حتى اليوم فى بعض البلاد التى لم يغمرها نور العلم والتى لم تستطع الخروج من أكمام الجهل .

فقد عدوا من شغلوا بعلوم الإغريق — سواء أكانت طبيعية أم رياضية أم فلكية أم فلسفية أم طبية — ملاحدة، وألفوا كتباً فى ذمهم وإكفارهم وتبيان أضرارهم ! وكذلك حسبوا من درس شيئاً من هذه العلوم من المسلمين والعرب . وقد اجتهدوا فى تحامى هؤلاء وتحامى كتبهم وتحامى النظر إليها وعملوا على قتل هذه الكتب وعلى دفنها ... فأمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبى بكر الرازى والكندى وسواهم — ممن قاموا بتجارب ودراسات لها قيمة صادقة فى الكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والطب والفلسفة — محاربون مكروهون متهمون فى دينهم وأخلاقهم . وهم لا يذكرون حينما يذكر علماء الإسلام وأعلامهم ورجالهم البارزون . أما كتبهم التى بحثت فى هذه العلوم فلا توجد فى المكتبات بل ولا يسمع بها ولا تذكر إذا ذكرت كتب المسلمين . ومن المؤسف حقاً أن الذين شهروا هذه الكتب وشهروا مؤلفيها وأخرجوها وأخرجوهم من ظلمات القدم والنسيان هم علماء أوربا أو من أخذوا عن علماء أوربا . أما المسلمون فقد أجمعوا على رفض هؤلاء ورفض مؤلفاتهم وعلومهم وعلى تجنبها وتجنبهم . ومن أجل هذا لم يوجد بعد هؤلاء من ينهضون بإتمام ما بدأوه أو بتوسيعه أو للسير فى الطريق التى اختطوها ونهجوها . بل ما كان مثل هؤلاء العلماء العلميين فى هذا التاريخ الطويل المظلم الظالم إلا كومضات لمعت فى ليلة حالكة ثم تلاشت وتلاشى مصدرها من غير أن تعود مرة أخرى إلى أن غمرنا بل وغمر العالم نور النهار الذى خرج من جانب آخر .

ومن أجل هذا كانت مقاومتنا للعلوم التى غزت العالم كله مقاومة صادقة طويلة ، وكان نفورنا منها نفوراً حقيقياً ، وكان إباؤنا إياها إباء مصمماً ، وكان اتهامنا لها اتهاماً معززاً بالبغضاء والتشنيع .

لقد قامت أوربا — قارة الضباب والثلج والظلام — منذ ثلثمائة سنة — بل تزيد — تحاول بكل الوسائل الخروج من ظلامها وجهلها . فما زالت كل هذه القرون تناضل هذين العدوين نضالا مراً عنيفاً حتى ظفرت هذا الظفر العجيب . وكنا نحن إذ ذاك نأبى

أن نبصر أو أن نفكر أو أن نستيقظ بل أو أن نقلد ، ونأبى أن ننظر إلى من حولنا وما حولنا . بل كنا لا نبغى بجهلنا ولا بليلنا بديلا من العلم أو من النهار والنور . فلقد كنا مأخوذين متأثرين بل مخدرين أو مسحورين بأقوال هؤلاء الشيوخ المدمرين الذين كتبوا لنا وخلفوا وراءهم هذا العداء الكريه المرير للعلوم ، ولاسيما علوم الكافرين والآخرين من الأمم الغربية .

وكنا إذا ما طاب لهذه القارة أن تغزوا بلداً من بلادنا وأن تنتقص جانباً من جوانبنا بقوة علومها التى كرهناها وذممناها ، فغزت ماشاءت غزوه ، وغصبت ما أرادت غصبه بدون عناء أو مقاومة — لأن الجهل لا يقدر على مقاومة العلم — فغرنا أفواهنا بدون أن نتكلم ، وشخصنا بأبصارنا ولكن من غير أن نبصر ،واستكت آذاننا فلا نسمع . لأن الحجب والموانع كانت تحول بيننا وبين أن ننظر أو نسمع أو نتكلم أو أن نستفيد مما يحيط بنا . كانت حجبا وموانع كثيفة أقامتها ونسجتها هذه التعاليم وهذه الآراء المخربة التى غبرنا نلقنها ونطعم بسمومها القرون بعد القرون .

لقد بقينا نحن وبقوا هم هكذا : يعلمون ونجهل ، ويقوون ونضعف ، ويأخذون ونعطى ، ويزيدون وننقص حتى قامت هذه النتيجة المروعة المخزية ، وهى أننا فقدنا نحن كل شىء وأخذوا هم كل شىء . والسبب فى هذا كله يتلخص فى شىء واحد : هو أننا تعلمنا كيف نبغض العلوم وكيف نأباها وننفر منها ، بينما كانوا هم يتعلمون كيف يبغضون الجهل ، وكيف ينفرون منه ، بل وكيف يقاومونه ويدمرونه ويهزمونه .

ولقد كانت آثار هذه التعاليم التى ورثنا إياها هؤلاء القوم قوية فعالة . فإننا عملا بهذه الوصايا بقينا محافظين بأمانة على عداوة العلم حتى اللحظات الأخيرة ، وظللنا مغمضين أعيننا خيفة أن تبهرنا أضواء العلم فى كل بلد من بلادنا وكل ركن من أركاننا . وما قبلنا من فتوح العلم إلا ما يدخله علينا هؤلاء الغزاة الغربيون اضطراراً وإكراها . وكنا ننظر أيضاً إلى العلوم أو أطراف العلوم التى تنتقل معهم أو ينقلونها معهم نظرات يشوبها الشك والريب والحذر . وكان بودنا لو أنهم أبيدوا هم وعلومهم وذهبوا إلى غير رجعة . ومازلنا نسمع هذه الأمانى والآمال تنشد فوق منابر المساجد ومنصات الخطب والمحاضرات فى النوادى والجمعيات . وما زلنا حتى اليوم نسمع من يرفعون عقائرهم جاهدين يدعون على هذه العلوم وعلى أربابها ويسألون لها الدمار والفناء ، ويضرعون إلى الله طالبين إليه

ألا يبقى منهم ولا منها باقية ، لأنها فى زعم هؤلاء الواعظين الناصحين الباكين أو المتباكين علوم لا تجلب سوى الشر ، ولا تحدث سوى الفساد والإلحاد . ولا شك فى أن روح هذه الكراهية إنما هى بقية من بقايا هذه التعاليم وأثر من آثارها وصوت من أصواتها .

ومما يدل دلالة قاطعة على مبلغ تأثرنا بأقوال هؤلاء المشايخ فى بغضة العلم وذمه أننا أبينا — حتى اليوم — فى بلادنا المستقلة التى لم يغزها هؤلاء الأعداء العلميون بجيوشهم ولا بشركاتهم وأموالهم وأعمالهم أن نقبل هذه العلوم أو نفتح لها باباً من أبوابنا أو أن نرضاها مهما بذلت لنا الشروط . ونحن نرى الآن بعض البلاد تأبى إباء تاماً أن تقبل عندها لوناً من ألوان العلم أو مظهراً من مظاهر الحضارة التى صنعها العلم ، على زعم أن هذه العلوم هى علوم قوم كافرين لا تليق إلا بالكافرين ، أو أنها علوم لاخير ولا فائدة فيها ، لأنها دنيوية لا تفيد فى عبادة الله ولا فى طاعته ، أو على زعم أنهـا تدخل معها الفساد والفسوق أو تدخل معها أهلها ، أو على زعم أنهـا علوم مخربة مدمرة . . . تعددت الأسباب والمنع لابد منه .

وما استطاعت البلاد الإسلامية الأخرى أن تقبل بعض هذه العلوم أخيراً إلا إكراها لأن أهلها أدخلوها معهم كذلك أو لأسباب قاهرة ليس لهم فيها اختيار ولا يد ... وظنى أن أكثر المسلمين الآن لو رجعوا إلى اختيارهم الخاص فى قبول هذه الحضارة وعلومها وفى رفضها لكان الرافضون الآبون هم الأكثرين ، والأدلة على ذلك كثيرة مشهودة حسية . وكلنا يعلم أن ملكا شرقياً مسلماً سلب عرشه وطرد من بلاده لأنه أراد — بعد رحلة فى أوربا — أن يدخل على قومه الحضـارة والعلوم الحديثة . وكلنا يعلم أيضاً أن بلداً إسلامياً مستقلا لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى ...

وقد ظل المصريون المسلمون إلى عهد قريب جداً يرفضون تعلم الحساب — دع غيره من العلوم — متأثرين بهذه الروح المعادية للعلم . وكانت الأعمال الحسابية من أجل هذا موقوفة على الأقباط . حتى إن أصحاب الأموال والأعمال كانوا مضطرين إلى هؤلاء للقيام بأعمال دوائرهم . وكانت أكثر الوظائف — إن لم تكن كلها — التى تحتاج إلى حساب وإلى كتابة مقصورة عليهم خاصة بهم. وإلى اليوم لايزال شىء كثير من هذا عالقاً بالأذهان

وقد تجلى أيضاً أثر هذه الروح فى لبنان . فإن المسلمين هناك قد بقوا مجانبين للمعاهد الأجنبيـة الموجودة ، ثم ممتنعين عن دخولها . أما غير المسلمين من اللبنانيين

فقد أقبلوا على هذه المعاهد بشغف ، فأخذوا منها العلم والتربية وحب الحيـاة . فأصبحوا هم الطليعة فى نهضة لبنان العلمية والأدبية ، بل فى نهضة كل البلاد العربية ، فقد تعلم الناس منهم فن الصحافة والأدب والشعر ، وأشياء أخرى . نعم من الممكن أن يقال إن التعصب الدينى هو الذى حمل المسلمين فى لبنـان على اجتناب تلك المعاهد . ولكن الصحيح أن التعصب جزء السبب وليس كل السبب ، وكذلك كراهة العلم والدعوة إلى كراهته ليست بالسبب كله . بل التعصب وروح العداء للعلم سببان من أسـباب وليسا كل الأسباب كما يجب أن يقال .

لماذا هذا كله وما أسبابه وعوامله ؟ إن أعظم أسباب هذا وأظهر عوامله هو هذا الميراث الثقيل الوبيل الذى ورثناه عن هؤلاء الشيوخ الذين لم يوفقوا إلى شىء كثير من العقل أو العلم أو النظر السديد أو الاستقراء النافع .

نعم كل ما ذكر صحيح ، ولكن لماذا كره هؤلاء العلم ولماذا كتبوا فى كراهته وفى مذمته ؟ إن لهذا أيضاً أسباباً ، منها الظاهرة الجلية ومنها الباطنة الخفية . وإن أظهر وأكبر هذه الأسباب هى سيطرة الفكرة الزهدية القاضية بذم الدنيا ونبذ كل ما يتصل بها وكل ما يعين عليها وما ييسر من أسبابها . فإن الزهد فى الدنيا وفى الحياة المترفة المنعمة يفضى إلى الزهد فى ما هو من عواملها ومقوياتها .

إن أساس أكثر أخطاء هؤلاء الدعاة هو أنهم اعتقدوا أن العبد لا يكون عبداً لله حقاً مخلصاً خالصاً له إلا إذا كان ضعيفاً فى كل شىء عاجزاً عن كل شىء : ضعيفاً فى ماله وفى جسمه وفى صحته وفى علمه بل وفى عقله . فالقوة للعبد فى كل شىء مذمومة لأنها عنوان الجبروت، ولأن القوة يجب أن تكون لله وحده . أما العبد فله الضعف، لأن الضعف أدل على العبودية ، ولأن الضعيف أقرب إلى الخضوع والاستسلام والإقرار لله بالعبادة . فالمال مذموم ، والقوة مذمومة ، والصحة مذمومة ، والعلم والعقل مذمومان ، وكل ما هو من صفات الله مذموم إذا كان صفة للعبد ! ومن أجل أن يحققوا هذه العبودية الضعيفة المستسلمة الخاضعة ذموا العلم وذموا الذكاء النادر والعقل الجبار ، وذموا الفصاحة والبيان وذموا كل ما يهب صاحبه القوة أو الكمال ، وامتدحوا الجهالة والغبـاء وضعف العقل والجنون والعى والفهاهة وكل ما يهب صاحبه ضعف الشخصية وخور الإرادة والعجز عن المقاومة : رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف

والقوة : الضعف فى المخلوق والقوة فى الخالق . ورأوا أن أحدهما لا يصح أن يتصف بصفة الآخر . فالخالق لا يصح أن يتصف بالضعف والمخلوق لا يصح أن يتصف بالقوة . فكل ما هو ضعف هو كمال فى المخلوق ، وكل ما هو قوة هو كمال فى الخالق . والعلم والذكاء والعقل والبيان والبلاغة من أوصاف الأقوياء القادرين ، فاتصاف المخلوق بها عند هؤلاء الأدعياء يخرج به عن طوره وحدوده . أما الجنون والغباء والجهل والفهاهة والبله فمن صفات الضعف والضعفاء ، فحسن إذن قيامهما بالمخلوق مثل ما قالوا فى الصحة والمرض والثراء سواء .

وهذه الفكرة الفاسدة إنما انتزعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم . وهو أنهم وجدوا أن الإنسان أحياناً كثيرة قد يأنف من قوة عبده وخادمه وممن هو تحته ، ومن ذكائهم وعقولهم وعلومهم ، ويغار ويحقد ويحسد ويخاف من ذلك . وكذلك كثير من الملوك والأمراء والزعماء والرؤساء قد يغارون من رجالهم الموصوفين بهذه الصفات : فقد يحسدونهم ويحقدون عليهم ويخافونهم ويتمنون لو كانوا متصفين بالصفات الأخرى التى تضمن لهم انقيادهم واستسلامهم وضعفهم أمامهم . وقد روى التاريخ العدل أن بعض قادة الأمم — بل كثيراً منهم — كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون امتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا . وحتى فى هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم . ومما يؤلم أنه يوجد اليوم فى إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة .

وجدوا هذا قد يقع ويصدق فى أخلاق الإنسان وفى أعماله الضعيفة ، فذهب إلى أوهامهم أن الله أيضا كذلك ، لأن الإنسان دائماً يفهم إلهه فهماً متأثراً بالنظام الاجتماعى الذى أمامه وبالبيئة التى هو فيها . هكذا فهموا أن الله يرضيه ويعجبه من عبيده ألا يكونوا موصوفين بصفات القوة الخاصة به ، بل أن يكونوا موصوفين بعكسها أى بالضعف بكل ضروبه .

ثم رأوا أيضاً باستقرائهم الناقص أن الغباء والعى والفقر العقلى قد يقارنه الصلاح والانقطاع للعبادة ، وأن الذكاء والعقل والنبوغ والعبقرية قد يقارنها التمرد والشرود والريب ، فاستخرجوا هذه النتيجة — وهى أن الأذكياء والعقلاء والعلماء يضلون

ويكفرون ، وأن البله والأغبياء والجهلاء قوم يتصفون بالصلاح والطاعة والاستقامة وسلامة الطوية والاستسلام لله ولقضائه وقدره ولكل ما يطلب منهم ويحكم به عليهم دون أن ينبض لهم عرق بالإباء والامتناع ... ثم لم يحتاجوا لكثير من التفكير ليحكموا وليروا من أى الفريقين يجب أن يكون المسلم . هذا شيء .

وشيء آخر ، وهو أنه لا ريب فى أن كثيرين من الذين قالوا ما قالوا فى مدح هذه النقائص إنما حملهم على ذلك رغبتهم فى أن يضمنوا لأنفسهم السيادة والزعامة ونصف الألوهية أو كلها ، لأنهم يدركون بداهة أن الأغبياء والجاهلين والبله هم الذين يسهل عليهم أن يسلموا لهم وأن يكونوا بين أيديهم كالأموات بين أيدى الغاسلين كما يعبرون ! أما أهل الذكاء والعقل والعلم فمن العسير انقيادهم وتسليمهم . فنهضوا يدعون بإخلاص إلى ما يعطيهم السلطة وما يهبهم ملك القلوب ، بل وملك الجيوب . ومن هنا قال الصوفية فى تعاليمهم (العلم حجاب) وقالوا (الجهالة أم الفضائل) وقالوا (اللهم ديناً كدين العجائز) وقالوا (العجز عن الإدراك إدراك) .

ويحكى الشعرانى فى كثير من كتبه كما يحكى غيره أن مشايخ الطريق وأساطين الصوفية كانوا إذا رأوا من يقرأ ويتعلم زجروه وقالوا له : لا تأخذ علمك عن الأموات ولكن خذه كما نأخذه نحن عن الحى الذى لا يموت ! والأموات عندهم هم المخلوقون سواء أماتوا أم كانوا أحياء ، لأن الخلق كلهم فى لغتهم ميتون وإن كانوا لما يموتوا بعد ! وهم يريدون بهذا منع التعليم ومنع الأخذ عن الكتب وعن الأساتذة محافظة على سلطان الجهل الذى يرعى لهم سلطانهم ويحافظ عليه .

وقال ابن عربى فى كتابه (الفتوحات المكية) ونقله عنه الشعرانى فى كتاب (اليواقيت والجواهر) : « إن المنكرين لما تعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولى تعليمهم فى سرائرهم ! إذ هو المعلم الحقيقى للوجود كله وعلمه هو العلم الصحيح . وكان أبو يزيد البسطامى يقول لعلماء زمانه : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . وكان الشيخ أبو مدين إذا سمع أحداً يقول أخبرنى فلان عن فلان يقول : لا تطعمونا القديد » كل هذا كلام الشعرانى وابن عربى .

وقد أرادا — أعنى الشعرانى وابن عربى — أن يفرقا بين المجانين والمجاذيب الذين هم فى رأيهم أكبر الأولياء فقالا ما نصه : « إن الفرق بينهما أن المجانين سبب

جنونهم فساد المزاج عن أمر كونى ، وأما المجاذيب فسبب ذهاب عقولهم التجلى الإلهى الذى جاءهم على بغتة فذهب بعقولهم ! فعقولهم مخبوءة عند الحق منعمة بشهوده عاكفة فى حضرته متنزهة فى جماله ، فهم أصحاب عقول بلا عقول ! والمجاذيب ثلاثة أقسام : الأول من يكون وارده من القوة . وكان أبو عقال المغربى من أهل هذا المقام . الثانى من يمسك عليه عقله فى حضرة الله ويبقى عليه عقل حواسه فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية ويتناول العيش الطبيعى كسائر الحيوانات ...» ثم ذكرا القسم الثالث قائلين : « واعلم أن أكبر من جذبه الحق إلى حضرته الرسل ... » وأى تضليل أكبر من هذا ؟

ومن الأوهام العظيمة أيضاً التى جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم ولا سيما العلوم التى لا تتصل بعلوم الدين والعبادات اعتقادهم أن الإنسان إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته فى العبادة ، أما ما سوى ذلك فالاشتغال به من الاشتغال بالباطل الذى يؤاخذ الله ويعاقب عليه ، واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التى تفيد فى الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل ، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها . ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا . فمن أعظم الضلال فى رأيهم إنفاق شىء ما من القوى والأوقات والأعمال — التى إنما أوجدت لتصرف كلها فى خدمة الله — فى خدمة الدنيا أو خدمة ما يخدم الدنيا ... لهذه الأوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل ، وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل ، حتى صار الناس الذين قضى عليهم بقراءة كتبهم والإيمان بها ينظرون إلى العلوم نظراً هو الخشية والحذر ، وينظرون إلى الجهل والغباء ونقصان القوى الفكرية نظراً كله الثقة والاطمئنان ، حتى أضحى الجنون والبله وأعراضهما عنوان الولاية والإيمان العميق لدى هؤلاء المضللين ولدى المضللين بما كتبوا وقالوا ! وحتى رأينا من يسيرون وراء المجانين العراة فى الطرقات العامة يبتغون عندهم علم الغيب وهتك أستار المستقبل وقضاء الحاجات بما لهم من قوى الولاية وقوى أهل الله المقربين الممتازين المدللين لديه ! وحتى رأينا من يكتبون فى أولياء المجانين والمجاذيب وفى كراماتهم وخوارقهم ومن يكذبون الكتب فى مناقبهم وفضائلهم ! وحتى سمعنا من ينشدون ثملين فى الثناء على المجانين :

مجانين إلا أن سر جنونهم   عظيم على أبوابه يسجد العقل

وحتى وجدنا من يجرؤون ممن يعدون محدثين وأئمة دين أن ينسبوا إلى رسول الإنسانية الأكبر عليه السلام أنه قال (أكثر أهل الجنة البله) ! وحتى طار على كل لسان مدح الجهل والغباء وهجو العلم والعلماء . وراح الجماهير وغيرهم يقولون فى عباراتهم المتوارثة التقليدية : كان الشيطان أعلم العلماء وأعلم الملائكة !! يقصدون بهذا اتهام العلم وأنه من حيث هو علم لاقيمة له وأنه من أسباب الغواية والضلالة كما كان علم الشيطان سبب غوايته وكفره وتمرده ! وراحوا يقولون أيضاً : إن العلم غير مقصود ولكن المقصود هو العمل فإذا وجد العمل فلا حاجة إلى العلم ! وصار الكلام الموحى بالخشية من العلم وإساءة الظن به فائضاً على كل لسان متمثلا به فى كل مناسبة . وحتى عز الإقبال على العلم وعجز المسلمون فى العهود الأخيرة ، عهود النهضة العلمية أن يشاركوا أضعف مشاركة فى وضع قواعد العلم ووضع قواعد الحضارة ، وحتى عجزوا عن أن يضيفوا إلى بنائه لبنة واحدة أو ينقلوه إلى الأمام خطوة واحدة ، وحتى صار من العسير جداً تخليصهم من آثار هذه الأفكار الهدامة وخروجهم من نطاق الجهل والغفلة الذى ضرب عليهم بإحكام هؤلاء المشايخ ، وحتى ضعف كل الضعف تأثرهم باهتزازات العالم ورجفانه من سرعة السير إلى الأمام بخطواته الثابتة القوية ، وحتى فسد نظرهم إلى الأشياء وإلى الحياة فساداً يحتاج إصلاحه إلى جهاد مرير عنيف .

إن طريق العلم ليس بالطريق القصير ولا بالسهل الاجتياز . وإن ما ركب فى الإنسان من طباع مختلفة متباينة ليعمل من جهة على جذبه إلى أرض الجهل وحضيض الغباء إن لم توجد من جانب آخر قوى أدبية ومبادىء جليلة إنسانية تعمل بقوة على رفعه إلى أفق العلم وسماء المعرفة . فالإنسان تتنازعه أشياء كثيرة طبيعية ومبادىء أخرى أدبية بينهما اختلاف . فإذا وجدت الطباع المثبطة المعوقة من التعلم والتلقين ما يعينها على تثبيطها وتعويقها انتصرت على المبادىء والميول الأخرى الداعية للنهوض والوثوب والإقدام ، وإن وجدت هذه الأخيرة ما يعينها كانت هى المنتصرة الظافرة بالإنسان . والإنسانية بمجموعها ملزمة بأن تعمل على إيجاد المبادىء والتعاليم الأدبية والدينية والشعرية والاجتماعية التى يكون عملها استنهاض الطبائع والميول المتوثبة، ونصرها على الأخرى المثبطة المعوقة . فإذا أوجدت أمة من الأمم مبادىء وتعاليم فيما بينها تشجع غرائز الركون والإخلاد إلى الجهل وحضيض الغباء وتوحى بالرضا بهما وتعطل ميول النهوض والوثوب كانت القاضية ، وكانت تلك الأمة مقضياً عليها بأن تبقى جاهلة غبية . وإن كانت الأخرى كانت الأخرى .

فهؤلاء المشايخ الذين دعوا إلى الجهل ، ومدحوا الجنون ونقصان القوى المدركة قد عملوا على إبقاء من ابتلوا بالإيمان بأقوالهم فى شرك الجهل وأغلال الغفلة دون أن يستطيعوا النجاة والهرب إلا بقوى أخرى أدبية تنتزعهم انتزاعاً . وهذا ما نعمل له إن شاء الله فى هذا الكتاب .

فالواجب علينا إذن أن نحطم هذه الأقاويل وأن نحطم أصحابها إن كان لابد من تحطيمهم بلا شفقة ، وأن نضع من جديد أقاويل صارمة ومبادىء قوية تدعو إلى العلم المطلق بلا قيد أو شرط ، وتمدح العلوم كلها وتمزق الجهل وكل ضعف فكرى تمزيقاً لايبقى باقية ... يجب أن تكون تعاليمنا وثقافاتنا كلها قائمة على أنه لايوجد علم يضير ولاجهل ينفع ، وأن كل شر إنما يرجع إلى الجهل ، وكل خير إنما يصدر عن العلم . والعلم هو العلم المطلق ، العلم بكل شىء ، وأننا لايمكن أن ننال بالجهل شيئاً ، ولا أن يفوتنا بالعلم شىء وأنه لارجاء فى أخلاق ولا فى دين ولا فى شىء من الأشياء الجميلة إلا بالمعرفة ، وأن ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة لايعود إلى فساد فى الأخلاق، ولا إلى خلاف فى الرأى والقلوب ، ولا إلى شىء مما يحسبه الجاهلون ... وإنما يعود إلى شىء واحد فقط : يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين ، أى إلى الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ...

كيف نصبر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والطبية والفلسفية ، وينشدون الأناشيد فى مدح التصوف والزهد والدجل والشطح والرقص الدينى ومدح القذارة والأمراض والجهالة والجنون والبله ؟ كيف نحترم هؤلاء ؟ أم كيف نرجع إلى كتبهم ونجعلها مرجعاً من أهم مراجع الدين والثقافة والعقل ثم نطبعها وننشرها وندعو إليها وندرسها فى معاهدنا ومدارسنا لنخدر بها من بعدنا كما خدرنا بها من جاءوا قبلنا لتكون السلسلة متواصلة ، وليكون الشقاء مضموناً .

إن الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع وحكمه هذا الحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب بالعلم به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره . وإننا نحن أيضاً لن نحكمه أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئاً فيه إلا بهذا العلم أيضاً . وإن أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها أو ننظمها إلا بالعلم الطبيعى ، أى بعلمها من ناحيتها الطبيعية . وشىء هو وسيلة المولى عظم شأنه لحكم العالم وتنظيمه كيف نذمه وننكره أم كيف نستطيع أن ندرك نظاماً وحكماً بدونه ؟.

***

ومن اللازم هنا أن نعلم أن القرآن قد أشاد بفضل العلم والعقل أعظم إشادة ، وعلق عليهما الخير والسعادة والفلاح ، وامتدحهما بكل أساليب الامتداح ، وذم الجهل والضعف العقلى بكل عبارة ، وجعلهما شعار الخيبة والفساد والفسوق والكفر والضلال ... وأن نعلم أنه قد وصف المؤمنين بالعلم والفكر والتدبر وبالألباب والنهى والاستبصار والاعتبار وبكل لفظة تؤدى هذه المعانى ، ووصف الكافرين والفاسقين والضالين بالجهل والغباء والغفلة وبكل عبارة تعطى هذا المعنى ... وقد حكى عن أصحاب السعير أنهم حكموا على أنفسهم بأنهم ما كانوا من أصحاب النار إلا لأنهم لم يكونوا من أصحاب العقول قائلا : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » فسجل الله عليهم فى كتابه بأن فقدهم العقل والسمع — والسمع هنا يراد به سمع الاعتبار لا سمع الأذن — هو ذنبهم الحقيق فقال معقباً على قولهم هذا « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » وذنبهم الذى اعترفوا به هو أنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون . وليس هناك تدليل أعظم من هذا التدليل على جلالة شأن العقل وسماعه ، وعلى ما فى ضعفه ونقصه من شقاء وسوء عقبى . وقد أراد الله أن يذم الإنسان فى موضع وضع فيه نفسه وضعاً جرّ عليه الوبال وعلى من معه فيه ومن حوله فلم ير تعالى أبلغ فى الذم والإنكار عليه من نعته بالجهل فقال : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ... » بل حكى فى موضع من مواضع الإشادة بالعلم قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة وأن من ليسوا علماء فلن يخشوه لأن تركيب هذه الآية اللفظى يرجع إلى : « لا يخشى الله إلا العلماء » . والقرآن بالإجمال قائم على جملتين : الثناء على العقل والعلم ، وذم الجهل وضعف العقل . ومن العبث محاولة إثبات هذه القضية بالشواهد، فإنها قضية مسلمة لاخلاف فيها ولا خفاء . ولكن الخلاف قد يقع فى المراد بالعلم حينما يطلقه القرآن . فقد يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شىء أن المراد به هو العلم الدينى فقط ، أى العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة : هذا حلال وذاك حرام وهكذا ... ولكن لاريب فى أن هذا المصير فى فهم العلم القرآنى خطأ فاضح ، بل المراد بالعلم — حيث أطلق — ما هو أعم وأشمل ، أى يراد به المعرفة من حيث هى معرفة بلا نظر إلى موضوعها . فكل معرفة علم . والقرآن قد أطلق العلم ولم يقيده بالعلم الدينى ، فمن قيده فقد قيد إطلاق الله وإطلاق كتابه . بل إن مساق ألفاظ العلم فى الكتاب ووضعها

فى موضعها صريح فى أن المراد به ما هو أعم وأشمل ، وهذا جلى عند من تتبع موارد الآيات ببصر نافذ . ولينظر القارىء إلى قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . وليس من الممكن أن يدعى بأن المراد بالعلم هنا هو الدينى ، بل المراد علم الاجتماع وعلم النفس ، فهو الذى يدل على أن الحروب وإن كانت فى ظاهرها وفى أوائلها القريبة شراً وبلاء إلا أنها قد تكون فى عواقبها ونتائجها الأخيرة خيراً . إذ قد تقدم الإنسانية وتخدم المعارف والعلوم والمخترعات التى تبقى فوائدها ... وقد تكون إصلاحا وتطهيراً لكثير من أخلاق المتحاربين ورداً وردعا لمطامعهم ، ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والاجتماع والتاريخ ... وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب التى لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا تنطوى على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تحصى ... وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحروب المقبلة . ومن هنا كان قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ... » الآية من الناحية الاجتماعية العلمية فى غاية من السمو وصدق الدلالة . وإن مما يدخل فى دائرة الإعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية فى الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان، فلا مفر من الإذعان لمنزله .

ثم لينظر القارىء إلى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم المواريث : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً . فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما » . ولينظر ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا وما المراد بالعلم المثبت لله ! لاشك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية والعلم الدينيين .

وقال تعالى إنباء عن يوسف الصديق : « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » . وعليم هنا لا يقصد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية . ولكن هو العليم بالشئون الاقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية ... بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط : إن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين ولا الجهل والبله فيه ، وإنما يراد شىء آخر أعم وأشمل .

وما من ريب فى أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم ، وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من

غير حكمة . وأيهما أحق بوصف العليم ؟ آلذى يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية التجريبية والاستقرائية ، أم الذى يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهى ؟ وأى الرجلين أقرب إلى اجتناب هذه الخبائث وتركها لأنه مقتنع بخبثها ؟ وأى الناس أولى بنعت العلم : آلذين يتركون الشرك وعبادة الأصنام والمخلوقين لأنهم علموا فساد ذلك ومضاره الاجتماعية والنفسية والعقلية ، أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقيناً مجرداً من الإدراك الحقيق ؟ وأيهم أجدر بهذا الوصف الجميل : أقوم وهبهم الله عقولا ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها فى اختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت ، وقدمت إليها أموراً كانت محرومة منها أيضاً منذ وجدت ، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية ، عكفوا فى زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهذون ويكتبون ، وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة : راحوا يكتبون فى تكفير من يصنع كيت وكيت ، وفى تفسيق أو تضليل من يأتى كذا أو كذا ، وفى تقسيم الأحزاب والأوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعديدها ، وفى تقسيم البدع الدينية إلى واجبة ومستحبة ومباحة ومكروهة وحرام ، وفى سرد طبقات الأولياء وحشد كراماتهم وخوارقهم ومخاريقهم وغير ذلك من الأمور التافهة التى شغلت أكثر الرءوس ؟ لا أرى أن العقلاء يختلفون فى الجواب عن هذه الأسئلة أو يختلفون فى من هم أولى بأوصاف العلم والعرفان . فالذين يزعمون أو يظنون أن العلم والعقل الممدوحين فى الإسلام هما الخاصان بالأمور الدينية فقط قوم واهمون .

ومن الأحاديث المشهورة الدالة على أن العلم فى إطلاق الشرع غير ما ذهب إليه هؤلاء قوله عليه السلام فى قصة تلقيح النخل (أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

ومما يجب التنبيه إليه هنا — لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهة المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه — ان العلم لا يمكن أن يكون شراً ولا أن يكون داعياً إلى الشر والفساد والإجرام والطغيان . وذلك أنهم هبوا — وخاصة فى هذه الأيام التى تفاقمت فيها ويلات الحرب — يصرخون منادين بسقوط العلم زاعمين أنه هو الذى شب هذه الحرب ، وهو الذى يقدم لها الوقود فيزداد اضطرامها والتهابها ... وقد نادى كثيرون من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات فى هذه الأيام بمقاطعة علم أوربا والبراءة

منه ! وسألوا الله مخلصين — على ما زعموا — أن يخلص العالم والإنسانية من هذا العلم ومن أهله ! ثم ختموا دعاءهم وادعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع إلى الدين ونبذ كل شيء سواه . فكأن الدعاية ضد العلم لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول لهذه الحلقة ، وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها .

والذى يجب أن يقال وأن يعلم رداً على هؤلاء وبياناً للحقيقة : أن العلم ليس هو الذى أوقد هذه الحروب ، ولاهو الذى أمر بها ، ولاهو الذى دعا إلى إلقاء القنابل على المدن وعلى غيرها ... ولكن الذى أمر بذلك كله هى الأحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثة عن عصور الجهالة ... فالعلم لم يأمر معلنى الحرب بأن يعلنوها ولم يأمر ملقى القنابل أن يلقوها . وإنما أمرهم أغراضهم ومصالحهم وحفائظهم الذاتية أو ما اعتقدوه مصالح وأغراضاً ... ووظيفة العلم والعقل هى إنارة الطريق وفتحه فحسب . وهذا كقوله تعالى « وهديناه النجدين » أى الطريقين : طريق الخير والشر . وقوله تعالى « فألهمها فجورها وتقواها » . وقوله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » . والعلم والعقل لايفعلان غير ذلك . وطباع الإنسان الأخرى هى التى تعين سلوكه واتجاهه ... وهما لا ذنب لهما ، بل إنهما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الأحقاد والطباع الظالمة من شقاء وعذاب . وكم للعلم والعقل من وقاية وحماية وخدمات فى هذه الحرب وغيرها ولولاهما لكان الشر أعم وأتم . فالعلم خير كله والجهل لاشيء منه خير . ولو كان العلم هو الذى يشب الحروب لما وجدت فى عصور الجهل مع أنها كانت فى تلك العصور أكثر . فالعلم مثلا هو الذى صنع الطائرة والقنبلة والمدفع ولكنه ليس هو الذى أشار باستعمالها فى الشر والظلم كما أن الله هو الذى خلق الإنسان وخلق عقله وقواه وخلق الوجود كله وخلق المواد الأولية التى تصنع منها الطائرة والقنبلة والمدفع والمتفجرات وسائر المهلكات . ولكنه ليس هو الذى أمر باستعمال هذه الأشياء فى الإهلاك والتدمير والتخريب والإبادة . ومن قال إن العلم يلام على هذا لزمه أن يلوم الذات العلية لإيجادها هذه الأشياء ولإيجادها الإنسان وإعطائه العقل والذكاء الذى يستعمل فى الشر ! .

***

أإنسان هى أم سلعة؟

أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهى من أغرب القضايا التى تمر بالتاريخ البشرى. وهذا التحريم يشبه فى معناه ومرماه تحريم النظر عليها بانتزاع آلته منها. بل لاريب أن عمى الجهالة أفتك وأشد ضرراً من عمى الحس. ولو أن قائلا قال: إنه يجب إبطال الحواس كلها وغيرها من أعضاء المرأة، فلا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تذوق ولا تلمس ولا تمشى ولا تفكر ولا تعمل — أى بأن تبطل فيها جميع الأعضاء التى تكون بها الرؤية والسمع والشم والذوق واللمس والمشى والتفكير والعمل والحركة لئلا تستعمل إحدى هذه الحواس والأعمال فى فساد أو فجور أو خروج على الآداب المحترمة فى عين الرجل: لو أن قائلا قال هذا لما كان مبعداً فى هذا القول ولا ظالماً أكثر من إبعاد وظلم هؤلاء الذين يقولون بتحريم تعليم المرأة وتحريم الكتابة عليها، لأن هذا التعليم فى زعمهم قد يكون سبباً فى فسادها أو فجورها أو شرودها أو عملها شيئاً يغضب أنانية الرجل الظالم المستبد الأنانى.

إن تاريخ قضية المرأة مع الرجل تاريخ طويل مملوء بالظلم والأنانية والجهل. ويمكن أن يقال إجمالا إن الرجل والمرأة وجدا — أول ما وجدا — بدائيين فطريين ليس بينهما شىء يذكر من تمييز أحدهما على الآخر ومن التفريق بينهما من الناحية الاجتماعية، حالهما تشبه إلى حد كبير حال المخلوقات الأخرى الآن التى هى دون الإنسان مباشرة. وما حكاه القرآن عن آدم وحواء يدل دلالة تكاد تكون صريحة على أنه لم تكن بينهما الفروق الموجودة اليوم وقبل اليوم بين الرجل والمرأة، بل لم تكن بينهما فروق تذكر من ناحية الاتصال بالحياة وناحية اتصال أحدهما بالآخر واتصالهما بالآخرين. ثم بعد هذا الوجود البدائى راحا يتطوران فى الوجود، وراح يتطور نظر أحدهما إلى الآخر، وبدأ التعقيد والتمييز يدخلان على حياتهما ويدخلان عليهما، كما هى العادة والسنة الطبيعية الإلهية فى وجود الأشياء بسيطة غير معقدة ولا متمايزة ثم وقوعها تحت سلطان التعقيد والتمييز. ومن المشاهد أن التعقيد والتمييز والتفريق فى وجود الأطفال أقل كثيراً منه فى وجود الكبار، وإن هذه الأشياء تنمو مع نمو الطفولة ودلوفها إلى الأنوثة والرجولة... ثم أخذت تتعاظم وتتكامل مطامع الرجل وشهواته فى المرأة، كما أخذت مطامعها وشهواتها هى أيضاً تتعاظم وتتكامل فيه. فصار تلهبه عليها وتطلبه لها قوة طاغية، كما كان كذلك

تلهيها هى وتطلبها إياه . فأضحى كل منهما طالباً مطلوباً محباً محبوباً . وكان من المظنون أن يتساويا فى العرض والطلب وفى القوة والضعف ، وأن يكون خضوعه لها كخضوعها هى له . ولكن قوة طبيعية ، ووظيفة إلهية ، وحالة لامرد لها تدخل فى هذه المسألة فتقضى على المرأة بأن تكون موضع الإخصاب ، وأن تكون الحامل المرضع الحاضنة ، وأن تكون الحائض المتعبة ، والوالدة المجهدة ، وأن تكون هذه العمليات كلها شاقة مرهقة قاضية بأن تكون المرأة أقل فى ميدان الحياة والعمل من الرجل وأكثر تبعات ، لاتصال الأولاد الصغار بها دون الآباء ولحوقهم إياها . فكانت من أجل هذه الأمور وغيرها مضطرة محتاجة للاستعانة بالرجل . فعلم الرجل حاجتها واضطرارها إليه ، فأدخل المسألة فى باب المساومة ، ووجدها فرصة مواتية دانية لفرض سلطانه وفرض حكمه المطلق . فلم تجد المرأة بدأ من الاستسلام والخضوع لعجزها عن الحرية والاستقلال . وقد وجدت فى هذا الاستسلام والخضوع فى البدء بعض الراحة والاطمئنان ، لأنها بذلك تخلت عن كثير من التبعات وألقت بها على الرجل وأعانها عليها ... وبهذا تم تسليم المرأة تسليما يكاد يكون بلا قيد أو شرط للرجل ، وجاءت شروط هذا التسليم بأن يكون الرجل هو الملك المالك وهى العبد المملوك ، وأن يكون الآمر الناهى وأن تكون المطيعة المنفذة ، وأن يكون إجمالا بيده مصيرها وتصريفها والحكم عليها كيف شاء وكيف شاءت شهواته وأنانيته ورجولته البدائية غير المهذبة . فراحت هذه الطباع والميول تتحكم وتبتكر وتخترع من الفروض والواجبات على المرأة ما أرهقها وأعجزها وقعد بقواها عن العمل ، وما أورثها هذا العجز الذى يشبه أن يكون طبيعياً فيها ، وهذا الفرق المبين بينها وبين الرجل فى المدارك وفى كل شىء ... وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكماً عجيباً وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية . فكان له — على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال — أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى ، وتوهب وتستوهب ، وأن يستمتع بها كيف أراد ، بالزنا القهرى ، أو المتراضى عليه ، بالجعل والأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجاً وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التى كلها إرغام .

وكان نظره إليها إجمالا وحكمه فيها مثل نظره إلى ما يتحصل عليه بالبيع والشراء ومثل حكمه فيه . وكان له أن يفعل كل ما يرضى غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع ويحاكم أو يعاقب . فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر البتة وأن يوضع على عينيها حجابان كثيفان يحولان بينها وبين الإبصار خيفة أن تنظر إلى رجل آخر

وهذا يغضب غيرة مالكها وسيدها . والحجاب الكثيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذاك الحجاب . وكان أيضاً من بعض أحكامه أن يضع رجليها فى القيود طول حياتها أو زمناً طويلا من حياتها ، وأن يمنعها الخروج مهما كانت الأغراض، وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء ، وألا يبيح لها الكلام ولا الملكية — أى ملكية الأموال والعقارات — وأن يأبى عليها إبداء الرأى والتعليم ، وأن يقضى عليها بأنها ليست إنساناً وأنها إن كانت إنساناً فليس لها روح ...

وفى القانون الرومانى أن للرجل على المرأة السيادة المطلقة حتى إن له أن يقتلها إذا شاء ، وليس لها معه حق التملك . وعند اليونانيين أن عليها حقوقاً وليس لها حقوق . ويرى الرومان واليونان أنها كشىء امتلك مثل جميع الأشياء التى تمتلك بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل ، فهى عند الرجل — أى زوجها — كفرسه أو كسلاحه ، له أن يؤجرها ويقرضها ويبيعها . وكانت عندهم أمة شرعية ، لزوجها عليها الحقوق التى له على ماشيته وعبيده . ويرى أفلاطون فى كتاب الجمهورية أن الواجب تداول المرأة كسائر الأشياء .. ومن الدعاوى التى ادعاها الرجل على المرأة أنها لا تدخل الجنة مهما عملت من الصالحات .. إلى أحكام كثيرة طويلة فرضتها قوة الرجل على ضعف المرأة ... وقد بقى كثير من هذه الأحكام .

ولقد جاهد الإسلام جهاداً عظيما فى سبيل المرأة لإنقاذها من هذه المظالم وللنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت : ففرض لها حقوقاً عظيمة، ورفع عنها آصاراً وأغلالا، وعمل أعمالا جليلة لإعطائها النور والحياة الصحيحة ... وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة فى القرآن ، تتلى فى الصلوات وفى كل مكان ، وأمر بتعليمها وتعلمها ووجه إليها الخطاب والأمر والنهى كما وجه إلى الرجل سواء . ورفع عنها كل إكراه وقهر فى كل صلاتها وحياتها — رفع عنها إكراه الأب والأخ والأقارب، كما رفع إكراه الزوج وأقارب الزوج . وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل وأكثر من وصاياه بها ولها . وقد صنع لها وفى سبيلها كل شىء جميل طيب . وكان من النصوص القاضية الفاصلة فى هذه القضية قوله تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . وليس هنالك إنصاف وإنقاذ يخطر فى التصور أفضل وأكبر من هذا الإنصاف وهذا الإنقاذ اللذين أنزلهما الله فى كتابه المقدس تخليداً لحقوق المرأة ووضعاً لها فى موضعها الطبيعى .

وقد بقى من مظالم الرجل وأنانيته النكراء — فى ما بقى — تحريم التعليم على المرأة وزعمه أنه يجب أن تظل محرومة من كل سلاح قد ترفعه فى وجهه، ومن كل قوة قد تقاوى قوته . وإنه يعلم أن أعظم سلاح وأقوى قوة هو العلم، فذهب يحرمه عليها،ثم ذهب كدأبه يتهم الأديان بهذا التحريم . ولا ريب فى أن من أسباب هذا التحريم غيرة الرجل وجهله .

بماذا يعللون تحريم هذا التعليم، وما هى الأسباب التى يدعون أنها هى الموجبة لهذا التحريم ؟ يقولون فى ذلك : إن المرأة خلقت للبيت لا للوظائف ولا للمتاجر ولا للدواوين وغيرها، وما دامت كذلك فما فائدة التعليم ! ويقولون إن المرأة إذا تعلمت طغت أخلاقها وخرجت عن طورها وأضحت مخلوقاً طاغياً باغياً ! ويقولون أيضاً إن تعليمها يوجب اختلاطها بالرجال واتصالها بهم . وهذا حرام وإجرام ! ويقولون بعد ذلك: إنها إذا علمت وفهمت كالرجل راحت تنظر إلى الرجال نظرة المساواة، وراحت تكبر فى نفسها وتتكبر . وإذا ما نظرت إلى حقيقتها هذه النظرة فلن تذل للرجل ولن تخضع له الخضوع المطلوب المبقى على المودة وعلى الحياة بينهما مستقرة مقبولة... هذا كل ما يذكرون أو كل ما يمكن أن يذكروه فى هذه القضية .

وهذه الأمور التى عدوها أسباباً وبراهين مستدلين بها على أن من الخير إبقاء المرأة جاهلة، هى فى الحقيقة تدل على عكس ما أرادوا .

أما أن المرأة خلقت للبيت فيقال : إذا صح هذا وصح أنه يجب بقاؤها كذلك بحيث تنقطع صلاتها بالخارج وأعمالها فيه — وليس من الممكن أن يكون صحيحاً — قيل فى الجواب : إن هذا مما يوجب أن تكون متعلمة مثقفة لا أمية غبية . وذلك أن وظيفتها إذا كانت فى البيت وللبيت فمعنى هذا أنها مسئولة عن سعادة البيت ومن فيه من الأولاد والزوج وغيرهم، وعن التنظيم والتدبير والتربية والإرشاد والتوجيه والتمريض وعن كل ما يلزم فى هذا من بناء أجسام الصغار وبناء أرواحهم، ومن سياسة الكبار وتوفير أفراحهم وعن حل جميع المشكلات والأزمات التى تتعقد بين الصغار والصغار، وبين الكبار والكبار وبين كل أحد... وبالإجمال مسئولة عن كل ما يتصل بالبيت ومن بالبيت : فمسئولة عن دراسة أولادها وعن مواظبتهم على الذهاب إلى المدرسة وعنايتهم بدروسهم وعن نجاحهم وسبقهم واستمرارهم، وعن المحافظة على صحتهم ما داموا أصحاء، وعن معالجتهم وتمريضهم

إذا مرضوا ، وعن غذائهم وما يصلح من ذلك وما لا يصلح فى حالة الصحة والمرض ، وعن نومهم — متى وكيف ، وعن ملابسهم — ما هى وكيف هى ، وعن لعبهم ولهوهم وجدهم ودخولهم وخروجهم ، وعن مراقبة نمو أجسامهم ونفوسهم وعن كل شيء له صلة بهذه المسائل ... ومسئولة عن الزوج — عن تخفيف أزماته ومساعدته فيها إذا نزلت وعن توجيهه وتشجيعه على الإقدام وعلى إدراك النجاح ، وعن سياسته ورضاه وإبعاد كل ما يمكن أن يؤذى نفسه أو جسمه وما قد يشكو منه من قرب أو من بعد ، وعن محادثته بالأحاديث التى تجلب الرضا والغبطة ، وتبعد ما يجلب الهم والكآبة ، وعما يجب فى هذه المحادثة من اللطف ودقة الحس وشفوف النفس ، وعن مجانبة كل الألفاظ الجارحة أو التافهة أو المنكرة أو النابية أو التى قد تحدث نوعاً من أنواع الاشمئزاز أو الغضب .

ومسئولة عن نفسها — وأعظم بهذه من مسألة — كيف تهذب ظاهرها وباطنها ، ثم كيف ترى وتسمع وتبدو وتشم ، وكيف تظهر لنفسها ولزوجها ولأولادها ولأقاربها وزوارها ولكل أحد ، وكيف يكون سلوكها العملى والقولى والفكرى أمام أطفالها وأبيهم وأمام كل الناس ، وكيف تروض نفسها وتروض أخلاقها وطباعها على كل حسن جميل ، وكيف تصلح أفكارها وعقائدها ودينها وتبعد عنها الفساد والخطل والبدع والشناعات وصنوف الترهات والعادات القبيحة ، وكيف تستطيع أن تتخلص من التقاليد الباطلة السخيفة ، وكيف تجد الشجاعة والحذق والبراعة فى هذا التخلص ، وكيف تتطور مع ما يجد على مر الزمان من الآراء والعلوم والعادات والأشياء الجميلة الحسنة المفيدة ... وكيف وكيف ... وكم تقول من كيف وكيف .

إذن هى مسئولة عن كل مافى البيت وعن كل ما يدخل فيه وما يخرج منه . . . والأمة كلها لا تخرج فى مجموعها عن أن تكون مما يدخل ويخرج من البيت وفى البيت . وأفراد الشعب قاطبة أبناء البيت . فهى مسئولة عنهم إذن جميعاً : فهى مسئولة عن الأمة كلها ، وعن إسعادها وتربيتها وتوجيهها وسوقها إلى الخير والكمال ، وعن بناء أجسامها وتكوين أرواحها .

وإذا كان هذا كله حقاً — وهو بلا ريب حق — قيل كيف يمكن للمرأة الجاهلة المحرومة من كل تعليم ومن كل تهذيب ، بل المحرومة من مبادىء الكتابة والقراءة أن تقوم بكل هذا ؟ بل كيف يمكن المرأة المتعلمة نصف تعليم أو بعض تعليم أن تقدر

على القيام بهذه الأعمال الجلى ؟ بل لو قيل كيف تستطيع المرأة المتعلمة أفضل تعليم وأ كمله أن تفي هذه الأغراض حقها ، وقيل إن هذا غير مستطاع لكان قولا حقاً .

أليس معنى هذا أنه يجب أن تكون المرأة عالمة بكل علم إن كان ذلك مستطاعاً أو أن تكون ملمة بمبادىء العلوم كلها إلماماً كافياً ، وأن تكون عارفة بأصول التربية ، وأصول علم النفس ، وأصول علم الاقتصاد والفلسفة والآداب ، عارفة بطرق التغذية وأصناف الأغذية وبالصحة والتمريض وبشيء كثير مما يسمى الفنون الجميلة ، عارفة بالمحادثة وأصولها ، عارفة بكل ما يلزم لصلات الناس بعضهم ببعض .

لو أن قائلا قال : إن تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكرنا ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلا ولما كان قائلا غير الحق . ولو أن قائلا قال : إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا أمل في نهوضها ووثوبها — أو قال إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا رجاء في أن يتعلم رجالها تعلماً صحيحاً مجدياً — أو قال إن الأمة التي تتعلم نساؤها — ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر — فلا محالة أن تدفع رجالها إلى التعليم وأن تعد شعباً متعلماً — أو قال إن من أظهر الأسباب في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجزهم في كل الميادين جهل المرأة — أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها دون رجالها لأفضل من الأمة التي يتعلم رجالها دون نسائها — أو قال علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئاً — لو أن قائلا قال هـذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون : أخطأت ... فهذا الذي ذكروه إذن هو برهان على وجوب تعليمها لا على وجوب جهلها .

إننـا لو جمعنا هؤلاء المصابين بالعاهات الدائمـة الذين تغص بهم الطرقات في كل مكان ، ثم حاولنا أن نقوم بتحقيق دقيق لتاريخ إصاباتهم وكيف أصيبوا لعلمنا أنهم أصيبوا كلهم من جراء الإهمال ، وأن أسباب الإهمال ترجع كلها إلى جهل الأم لأنها غير متعلمة ، فهي لا تعلم عقبى التفريط ولا تعلم كيف تؤدي الأسباب لا محالة إلى نتائجها ! بل إنها لا تدري ما الأسبـاب وما المسببات : فليس المرض عنـدها هو الذي يحدث الموت أو العاهة ، وليس العـلاج والوقاية هما اللذان يمنعان ذلك ! وهي تعالج مرض العين مثلا بالتميمة والرقيـة ، كما تعالج جميع الأمراض بالطلاسم والسحريات ! بل تعالج الأمراض النفسية أو الفساد الخلقي بهذا . وليس للطب ولا للعلم لديها قيمة . ولو أنها آمنت بعض الإيمان بفائدة بعض هذا وحاولت الأخذ به لما عرفت كيف تفعل .

إن أعظم النفائس البشرية والكنوز الإنسانية — وهى الأطفال وصحتهم — لتوضع بغباء ليس له مثيل وبلاهة ليس لها ند فى يد المرأة الجاهلة، فتفسدها وتضيعها وتبددها ... إنه ليس فى القوانين غلطة أكبر من ترك هؤلاء الأطفال ضحايا جهل هؤلاء الجاهلات بدون أن يوجد فيها ما يحميهم وينقذهم وينقذ صحتهم وحياتهم من هذا القتل والتشويه العلنيين.

من البعيد أو من المستحيل أن يصاب طفل امرأة متعلمة تعلما كاملا بإحدى هذه العاهات المنتشرة بين أطفال النساء الأميات ... ومن الملاحظات التى تقررها الإحصاءات الصحية الرسمية أن نسبة الوفيات فى أطفال الوطنيين أرفع جداً من نسبة الوفيات فى أطفال الأجانب. ويجب أن يكون معلوما أنه لاسبب لهذا سوى تعلم الأجنبيات وجهل الوطنيات المسلمات. وهذا السبب طبعاً لا يعرفه ولا يعترف به الجاهلون ولا الجاهلات. إذ قد يحسبون أن الله يتقصد المسلمين دون غيرهم بقتل أولادهم وتشويههم لأنه يحبهم أو لأنه يريد أن يبتليهم ويمتحنهم أو يعذبهم من أجل أن يجازيهم فى الآخرة! كأن الله عندهم لا يحسن إلا إذا عذب وأساء أولا! ولو أن إنسانا صنع هذا لكان أبخل البخلاء وأسفه السفهاء! تعالى الله عما يقول الجاهلون.

وأما قولهم: إن التعليم يفسد أخلاق المرأة وطباعها ويجعلها طاغية باغية — فهو قول لو وصف بأنه من أفسد الأقوال لكان ذلك أقل ما يستحق! إذ كيف يفسد العلم الأخلاق! وهل يفسدها سوى الجهل والغباء؟ ولو كان من طبيعة العلم الإفساد لكان مفسداً للرجل أيضاً ولما كان مأموراً به فى الأديان والآداب والقوانين! ولا يدرى كيف يمكن أن يكون النور سبباً فى العثار، وأن يكون الظلام سبباً فى النجاة وفى إبصار الطريق وإبصار ما فيه؟

نعم قد يلاحظ على بعض المتعلمات عندنا وعند غيرنا أيضاً شىء من الاعوجاج والكبر والجور عن السبيل؛ ولكن ليس هذا راجعاً ولا ناشئاً من العلم والتعليم، ولكنه راجع وناشىء من البيئة الجاهلة ومن مخلفات الجهل الراسبة فى النفوس وفى الأعماق، ومن عدم نضج التعليم ومن أشياء أخرى بلا شك. ولهذا فإننا نرى أن الشعوب المتقدمة فى تاريخ تعليم المرأة أصلح نساء وأصلح تعليما لهن وفيهن. وإذا علمت المرأة وهى من بيئة جاهلة ثم أصاب سلوكها ونفسها وشمائلها شىء من الوضر والضرر لم يكن العلم مسئولا وإنما المسئول ما ذكرنا.

ثم لو كان هذا قاضياً بتحريم التعليم على المرأة لكان أيضاً قاضياً بتحريمه على الرجل فإن الرجال كثيراً ما يلاحظ عليهم بعض هذا الذى يلاحظ على المرأة إذا تعلموا ، وقد يلحدون ويكفرون . والعلم بلا شك غير مسئول لا فى هذه ولا فى هذه .

أما قولهم إن تعليمها يوجب اختلاطها بالرجال وهو غير جائز ، فيقال إن الكلام فى مطلق التعليم : أخير هو أم شر لا فى طريقته ، فهذا موضوع وذاك موضوع آخر ، وليسا متلازمين لا واقعاً ولا عقلا .

ثم يقال يحسب بعض الجاهلين أن مطلق وجود المرأة فى المكان الذى فيه الرجل محرم ديناً وعفة . وهذا وهم وجهل . والأديان كلها بخلافه ، وحسبنا الإسلام فيصلا وقاضياً فى هذه المسألة : إن الإسلام قد جاء بالاختلاط المحترم العفيف : فالحج فيه هذا الاختلاط ، والصلوات فيها هذا الاختلاط ، والحرب فيها هذا الاختلاط ، والمواعظ فيها هذا الاختلاط ، والتعليم فيه هذا الاختلاط . هذه أمور مجمع عليها بين علماء الإسلام لا يختلف نقل التاريخ فيها ولا فى شىء منها . وقد كان الرسول عليه السلام يعلم الرجال والنساء جميعاً ويعظهم ويعظهن جميعاً ويجاهد بهم وبهن جميعاً . بل كان يأمر بخروجهن إلى المصلى أيام الأعياد ليصلين مع الرجال فى الصحراء . وكانت النساء أحيانا يقفن فى دروس الرسول ويسألن ويستفهمن فى حضور من الرجال فيرد عليهن الرسول الكريم . وكان يأمر بلالا وغيره بجمع الصدقات منهن فى الاجتماعات التى تقام للمواعظ والتعليم . وهذا كله معروف . وهكذا كان الأمر فى عهد الخلفاء الراشدين . ومن الحوادث المشهورة المنقولة فى هذا حادثة المرأة التى قامت تعترض على عمر وهو ينهى عن المغالاة فى مهور النساء فقال عمر حينما ردت عليه المرأة واحتجت بالقرآن : كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء ، وهذا كثير جداً .

وفى الأحاديث أن أصحاب الرسول كانوا إذا صلوا معه الجمعة انصرفوا إلى بيت امرأة من الأنصار فأطعمتهم وناموا عندها . وفى حديث صحيح أن رجلا دعا الرسول الكريم إلى الطعام فاشترط الرسول عليه أن يأخذ عائشة معه ، وبعد المراجعة رضى الرجل فخرج الرسول وعائشة يتدافعان . وفى الحديث أيضاً أن الرسول وأبا بكر وعمر خرجوا ذات يوم وهم جياع إلى حائط لأحد الأنصار مستضيفين فلم يجدوه ووجدوا زوجه فقابلتهم وأدخلتهم حتى جاء زوجها . وفى حديث صحيح أيضاً أن أحد الأنصار تزوج فدعا الرسول وأصحابه إلى طعامه فكانت الزوج هى التى تخدم على القوم . وفى الحديث الصحيح أن

٩٨

أسماء امرأة الزبير كانت تجمع النوى من ضواحى المدينة لناضح زوجها ، فمر بها الرسول وهو راجع هو وأصحابه من إحدى سفراته فرآها فأناخ لها ناقته ليردفها معه ، قالت أسماء فذكرت غيرة الزبير فأبيت . ومن الروايات الصحيحة والحوادث الشهيرة أن النساء كن يتعرضن لرسول الله عليه السلام فى حجة الوداع يسألنه عن الحج وأحكامه أمام الناس ، وأن امرأة جاءته تسأله وكانت وسيمة جميلة وكان مردفاً معه الفضل بن العباس فأخذ الفضل ينظر إليها فراح الرسول عليه السلام يصرف وجهه ونظره إلى الناحية الأخرى . وفى حديث صحيح أن ضيفاً نزل على عائشة فاحتلم فأصبح يغسل ثوبه فقالت عائشة إنما يجزئك أن تغسل مكانه . ومشهور وخبر صحيح خبر قصة المرأة اليهودية التى دعت الرسول وأصحابه فى فتح خيبر فقدمت إليهم طعاماً وضعت فيه سماً . وفى أحاديث كثيرة صحيحة من العسير جمعها أن النبى ومعه أصحابه كانوا يذهبون أحياناً كثيرة إلى النساء المسلمات ويطعمون عندهن ويستريحون . وهذه أشياء تعز على الإحصاء والجمع .

والتاريخ الإسلامى العملى والقولى مجمع على هذا . وفى الحديث الصحيح أيضاً أن امرأة جاءت إلى الرسول وهو فى مجلس أصحابه فعرضت عليه نفسها للزواج فنظر إليها طويلا مصعداً نظره ومصوبه ، ثم أخبر أنه لاحاجة به إليها فقام رجل من الحاضرين وطلب إلى الرسول أن يزوجه إياها فزوجه .

وفى القرآن الكريم الفاصل فى كل خلاف : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما ! قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء ... — إلى قوله — فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ... » الآية .

وفى سورة أخرى : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ... » الآية .

فهاتان بنتا شعيب النبى كانتا ترعيان غنمهما فى الخلاء وتسقيانها وتروحان بها وتجيئان صباحاً ومساء بأمر والدهما وقد رآهما موسى النبى كذلك فلم ينكر عليهما بل كلمهما وسألها وسقا لهما ووقف معهما وواقفهما ... ثم ذهبتا إلى أبيهما النبى وأنبأتاه بذلك فلم ينكر عليهما بل أمر إحداهما بالذهاب إليه ودعوته إلى أبيهما فى منزله ومكانه ، فجاءته ماشية مستحية وأنبأته أن أباها يدعوه فذهب معها وفى صحبتها ودلالتها ... ولو كان فى شىء من هذا إثم أو ريبة لما رضيه هذان النبيان . وإحدى هاتين اللتين كانتا ترعيان وتسقيان

والتى ذهبت لدعوة ذلك الضيف الغريب وإحضاره وهدايته إلى البيت كانت بنت نبى وزوجة نبى : بنت شعيب وزوج موسى .

وقد أمر الكتاب الكريم بالاستشهاد بالمرأة وبتأديتها شهادتها ، وأمر لها بالحقوق التى للرجل . وهذا لا يكون ممكناً إذا كان من الحرام الممنوع أن تجتمع هى والرجال فى مكان واحد كما يحسب بعض المتشددين .

لا شىء يفيد مثل الفهم للأشياء ، ولا شىء يضر مثل جهلها : لهذا أرانى مضطراً إلى أن أحاول محاولة صادقة فهم هذى المسألة لنفسى وللقراء . ولست أريد سوى الحق اصبت أم أخطأت . وما من شىء يقف فى طريق الشعوب والأفراد مثل الجمود والتعصب للموروث المألوف بلا برهان سوى القدم والإلف ... وكم من التجار والصناع والعلماء والموظفين وغيرهم من صنوف الأحياء العاملين ظلوا حياتهم كلها حلفاء الضراء لأنهم عجزوا عن أن يغيروا فى تجارتهم أو صناعتهم أو وظيفتهم أو طريقتهم أو أسلوبهم ، لأنهم فى الحقيقة عاجزون عن الخروج عما ألفوا وورثوا . وإن الناس على درجات متفاوتة جداً فى هذه المسألة ، مسألة القدرة على مفارقة المألوف ، بل القدرة على امتحانه لينبذ إن ثبت أنه غير صالح أو أن غيره أصلح منه . فبعضهم يضع قدميه فى أسفل السلم وبعضهم فى أعلى السلم وبعضهم يقف بعيداً جداً ... وليس الأفراد وحدهم هم الذين يتفاوتون فى هذا ، بل الشعوب كذلك تتفاوت تفاوتاً بعيداً . وكلما عظم حظ الشعب من النضج العقلى ومن استواء الآلة الفكرية عظمت قدرته على التحرر من أغلال الماضى الذى يظهر تحت الاختبار فساده أو نقصه ، وعظمت قدرته على اختباره ووضعه تحت التجربة الحرة المطلقة ... ويمكن أن يقال : بل كلما تعلم الشعب الجراءة على هذا التحرر وهذا الاختبار وهذا النبذ عظم نصيبه من الحضارة والرقى والحياة ، فإن الشعوب كلها إنما تأخذ من الحضارة ومن الحياة والعلم بقدر مالديها من استعداد لهذه الصفات ، صفات المرونة والامتحان والانتقال والتحرر والأمم التى تصاب بالجمود والركود والاستمساك بالمعروف المألوف يتضاءل حظها جداً من الحياة ومن القوة بل ومن المعرفة ، ويذهب العالم كله من حولها يسير ويتحرك ويسعى وهى متجمدة متبلدة فى مكانها عاجزة عن مسابقته ومتابعته ، وتبقى أمام كل مايجد ويحدث من الآراء والعلوم والصناعات وأساليب الحياة المختلفة داخل سور قوى من ذاتها وجمودها لايمكن اقتحامه ولا اجتيازه ، وفى حماية قوية شديدة من الثبات والبقاء ، لاجئة إزاء كل

مفاجىء جديد رائع إلى نصوصها المقدسة وإلى أديانها الكثيرة ، متهمة لها بأنها تأبى هذا الجديد وتنكره . ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية ، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين من أممهم بجواز ذلك ! ولكن أنى لهم هذا !

ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التى تحتاج إزاء الحقائق السافرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها . وإذا مارأيت أمة تثير غبار الجدل الدينى أمام ما يجد من مبتكرات العقل الإنسانى — مجوزة أو مانعة ، محللة أو محرمة — فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها ... والجمود شأن من شؤون الجماهير الجاهلة وشؤون النساء الجاهلات ، وشؤون الأمم الهمجية . فكل هؤلاء حراس على ما ألفوا وورثوا ، مقاومون لكل من يريدون دفعهم إلى الأمام والخروج بهم نحو النور. وأقدر الناس على التحرر والسير فى السبيل هم أولئك الأقوام الممتازون الذين يهبون الشعوب ماهى فيه من أديان ومعارف وصناعات ومخترعات ومكتشفات ... ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشىء مما تنعم به اليوم من وجوه هذى الحياة المشرقة الواضحة ، ولما استطاعت أن تدرج عن وجودها الأول الفطرى البليد ... فلكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعودونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع .

والقدرة على هذا التحرر هى برهان السمو الفكرى ، فإن من استطاع أن يترك ما ورث وألف هو وآباؤه منذ آلاف السنين أو مئاتها إنما يصنع ذلك لأن عقله قد أصبح قادراً على التمييز بين الأشياء مألوفها ومالم يؤلف منها ، بل ومالم يوجد — وأصبح قادراً على الامتحان والسبر الذى هو وظيفة العقل الكبرى .. والذين يعجزون عن ذلك هم فى الواقع لا يزالون عاجزين عن الارتفاع على العجماوات فى فهمها للأمور ودورانها حولها ، وتناولها لها ، فإن العجماوات إنما تهتدى وتتصرف بحواسها المجردة دون أن تشعر أو تفكر فى أن مالم تحسه وتعتده خير وأفضل مما رأت وأحست وألفت ، بل دون أن تدرى أن هنالك شيئاً غيره . فهى قانعة راضية بما ألفت واعتادت لا تعرف سواه ... وكذلك هذه المخلوقات البشرية التى تأبى مفارقة إلفها واعتيادها إنما تصر هذا الإصرار لأنها إنما تعيش أيضاً بحواسها المجردة ، فما رأت وأحست واعتادت فهو الحق الذى لاحق وراءه، ومالم تر وتحس وتألف فهو الباطل الذى لاخلاف فى بطلانه ! فما بها إذن حاجة إلى تجربة

أو موازنة أو تفكير أو حتى اختبار . فهى ثابتة قائمة مناهضة لكل من يريد لها الخير الذى لم تره . وهؤلاء هم الذين يقاومون الأديان والعلوم والإصلاح وكل جديد مفيد : فهم الذين يصرون على الشرك والوثنية لأنهما مألوفان ، ويرفضون التوحيد لأنه جديد ، وهم الذين يصرون على الجهل لأنه مألوف ويرفضون العلم لأنه جديد . ويصرون على الدمامة والقبح لأنهما مألوفان معروفان ويرفضون الجمال لأنه جديد ، وعلى الظلم لأنه المألوف ويرفضون العدل لأنه جديد ... وهكذا هم فى كل جديد وقديم . وإن الحرب لم تزل مستعرة بين قديم هؤلاء وجديد المصلحين منذ كان الإنسان ، وأعظم الناس فى هذا هم الانبياء ثم الأدنى فالأدنى على درجات متباعدة .

***

بعد كل هذا الذى تقدم نقول : إننا لا نرى مانعاً من أن نحكى آراء وحججاً يذكرها هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة فى موضوع المرأة وموضوع الاختلاط والحجاب والسفور . ولسنا فى حكايتنا لهذا ملتزمين القول والإيمان بكل مافيه . وإنما نحن حاكون وعارضون لا غير . وحاكى الضلال ليس بضال إن كان فى شيء مما نحكى ضلال . فليرح جماعة الأتقياء وأدعياء الأتقياء أنفسهم ، وليمسكوا بعنان ثورتهم وغضبهم وورعهم ، فما نحن غير ناقلين .

قال هؤلاء : إن أمامنا فى هذه المسألة احتمالين أو طريقين : أحدهما الزعم أنه يجب أن يحال بين الرجل والمرأة حيلولة شاملة بحيث لا يرى أحدهما الآخر أو يخالطه أو يشاركه فى عمل من أعمال الحياة العامة . فالمرأة للبيت لا تغادره إلا إلى قبرها ، والرجل للأعمال كلها خارج البيت ، لا عدوان لأحدهما على الآخر . هذا احتمال أو طريق .

والاحتمال الآخر أن يقال : كلا ، فإن النساء شقائق الرجال ، وإنهما سواء فى هذه الحياة وفى القدرة عليها والحاجة إليها وفى أعمالها ومطالبها . وإن ما فيهما معاً من أعضاء وغرائز وميول متشابهة متساوية ، ومن عقل وفكر وروح وحياة وتكوين عام لينادى بسقوط هذه الفروق المدعاة بينهما ، وبألا يقضى على أحدهما بضد ما قضى به على الآخر ، فإن ذلك تفريق بين متساويين متماثلين وهذا باطل فى قانون العقل وقانون العدالة العامة بل وفى كل القوانين حتى فى القوانين الطبيعية العمياء . ولو كان لأحد الجنسين عمل خاص به لا يصح أن يقوم به الجنس الآخر لفرق بينهما فى الطبيعة العامة وفى الوظائف

العضوية والروحية والفكرية والعاطفية ، ولأعطى أحدهما من الأعضاء والغرائز والطباع والقوى الذهنية ما يناسب عمله فقط ، ولحرم مما لا يناسبه ، ولكن كلا ، فإن هذا الفرق — أو التفريق — لم يوجد : لم يوجده الله تعالت قدرته . والتسوية بين الآلات مع اختلاف وتفاوت القصد بها والغرض والغاية منها لا يقع إلا من الجاهلين السفهاء .
وما من شيء يمكن أن يقال إن الرجل يصلح له بطبعه إلا والمرأة تصلح له أيضاً بطبعها ، وما من شيء يمكن أن تعجز عنه المرأة بطبعها إلا ويمكن أن يعجز عنه الرجل كذلك .
فالذين يقولون بعد هذا كله : إنه محرم على المرأة ما أحل للرجل — بل ما أوجب عليه — يتهمون الله بالعبث والفوضى العملية والتشريعية .

إن للاحتمال الأول القائل : بدفن المرأة فى منزلها حية لأضراراً كثيرة اجتماعية ونفسية وعقلية وصحية وخلقية أيضاً .

إنه لا بد أن تتزوج المرأة ويتزوج الرجل — أى لا بد أن يجتمعا بعد هذا الافتراق ويقترنا بعد هذا الابتعاد المفروض ، ولا بد أن تقوم بينهما المعاملة الفكرية والروحية واليدوية والقولية ، ولا بد أن يكون أحدهما ملائماً للآخر عدلا له منطبعاً به موافقاً مواتياً وإلا صارت الحياة بينهما مستحيلة أو بغيضة لا تحتمل . وإذا كانت هذه الأمور لا خلاف فيها بين الناس ولا خلاف فى اشتراطها للحياة الزوجية الصحيحة فكيف يكون من الممكن الحصول عليها إذا كان أحدهما يجهل الآخر ويجهل طباعه الخاصة والعامة ، ويجهل ميوله ويجهله كله جهلا عاماً ، لأنه لم يتصل به ولم يره ولم يعرفه !! إنه حينئذ يدخل عالماً لا يدرى منه شيئاً ، فسيكون الاصطدام به هائلا مستمراً ، وسيكون التوافق بينهما مستحيلا بعيداً ، وستبنى الحياة على أساس الجهل المطلق بها ، وسيتهدم كل شيء من أركان هذى الحياة أو تظل خطراً دائماً قائماً فوق رأس الزوجين . لقد أكثر الفقهاء من الكلام على بيع المجهول — أو بيع الضرر — وذكروا أن ذلك مما يحرمه الدين ، وأوردوا دلائلهم ونصوصهم . فالدين يحرم أن يشترى المرء شيئاً مجهولا ببضعة قروش لأن مثل هذا الشراء مظنة للغش والخداع وعدم الرضا حين الاستلام والرؤية ، ويوجب أن يكون المشترى معلوماً معروفاً ، ثم يحل هذا الدين نفسه — على رأى قوم — أو على الأصح يحلون هم ، بل يوجبون — أن يقدم المرء على ربط حياته ومصيره ومصير أولاده وكل ما يملك بامرأة يجعلها سيدة بيته المطلقة وسيدة ما فيه ومن فيه كل حياته

أحياناً دون أن يدرى من أمرها شيئاً سوى أنها امرأة !؟ فأعجب لها من قضية لا شهود لها غير الجمود والجهل والتعصب الأعمى .

للمرأة حقيقة باطلة فى ذهن الرجل وتصوره ، وكذلك للرجل فى ذهن المرأة وتصورها : فالمرأة مخالفة للرجل فى جميع أخلاقه وطباعه وعاداته وميوله — هكذا يقول الرجل ، لأنه هكذا يفهم : فهى غادرة ماكرة جاهلة جهلا طبيعياً ، شهوانية ، لا ضمير ولا أمانة ولا عقل ولا فضيلة واحدة لديها ، لا خلقية ولا روحية ولا عقلية .. أما الرجل فهو على نقيض لها فى هذه الأمور كلها . وكل ما يعرفه الرجل عنها أنها معين لا ينضب من الشهوة الجنسية الطاغية ، وهى لا تصلح لشىء سواها ولا تتصور غيرها ، ولا تطلب إلا إياها . وإذا أريد منها شىء آخر فذلك هو العبث والجهل ... هذه هى صورة المرأة فى ذهن الرجل وخياله . وهذا هو رأيه وقوله فيها — وهكذا تضع المرأة أيضاً صورة الرجل وتطبعها فى ذهنها وخيالها : فهو مخلوق خصه الله بجناحين للطيران بهما من فنن إلى فنن ومن شجرة إلى أخرى لأكل ثمرها ثم تركها بل ثم اجتثاثها واجتثاث أصولها : فهو لا يلتمس لدى المرأة سوى الشهوة البهيمية ، وهو يتنقل ويطير وراء هذه الشهوة أينما تنقلت وطارت ، وهو غادر لا يرعى عهداً ولا ذمة ولا ماضياً ولا إخلاصاً ولا خلقاً ... فلتعامله المرأة على مقتضى هذه الحقيقة التى لونتها له وطبعتها فى نفسها ..

وهاهنا — ومن أجل هذا كله — توجد خصومة حادة قديمة مستمرة بين الجنسين لا تهدأ ولا تخف : فكل منهما يريد افتراس الآخر والإيقاع به قبل أن يصنع به خصمه ذلك ، وكل منهما يواجه الآخر على هذا النحو من الخوف والحذر والريبة والتربص ، وكل منهما يعمل على تعجيز الآخر وقهره وإضعافه ... فما هى أسباب هذا ؟ إنها هى بلا ريب جهل أحدهما بصاحبه . ولكن ما هى أسباب هذا الجهل ؟ إن أسبابه — أو من أعظم أسبابه — هو ما يوجد بينهما من تباعد وعدم اختلاط حقيقى صريح من أجل الظن أن الاختلاط والتقارب يوقعان فى الفساد والمنكر ، إذ كل منهما يرى — على حسب ما لقن وورث — أنه يجب عليه أن ينأى عن الآخر وأن يخاف الاتصال به والقرب منه فى الحياة العامة وفى كل مكان ، وإذا حصل شىء من الاتصال واللقاء فإن التكلف والتصنع والتخفى والاستحياء المقصود يفسده ولا يبقى له فائدة ما .

إن الذين يعرفون المرأة معرفة صحيحة تامة ليتعجبون ويندهشون إذا قرأوا ما خطته

أقلام الكاتبين من هذا الصنف عن خلائق المرأة وما تشتمل عليه من ميول وغرائز ليست إنسانية بالمرة ، وإنهم ليعلمون أن تلك الأقلام إنما كانت تستمد مدادها من الجهل كل تلك العصور ، وأن مآب هذه الأخطاء الشنعاء إلى أن هؤلاء الكاتبين والمؤلفين والشاعرين وغيرهم من الواصفين كانوا يصفون مخلوقاً لم يعرفوه لأنهم لم يروه ولم يخالطوه .

وقالوا : إن لوجود المرأة بين الرجال فى حياتهم العامة فى المصانع والمتاجر والمعاهد والنوادى والمستشفيات وسواها لفعلا سحريا : فهى تشيع النشاط الروحى والعقلى والقلبى أينما وجدت ، وهى تلهب أجهزة الحياة وتبعث فيها الحرارة والحركة والقوة وتزيل عنها السأم والكسل والركود والجمود ... والإنسانية — أفراداً وجماعات — إنما ترقى وتأخذ من الحياة والوجود والعلوم كلها بقدر ما لديها من نشاط فى الروح والعقل والقلب والحياة وبقدر ما تطرد عنها السأم والكآبة والركود والتبلد والميل العام إلى النوم فى هذى القوى الأبدية . ولن تحيا أمة حياة صحيحة إلا إذ كانت مستيقظة نشيطة متوثبة تفيض سروراً وحركة وحرارة وحماسة فى جميع قواها البدنية والروحية والعقلية ... إن الحياة لتبدو كئيبة شوهاء أحيانا كثيرة فى أعين الكثيرين ، فلا بد لها مما يجملها ومما يجعلها حلوة مستساغة ، ولا شىء فى هذا الوجود يستطيع أن يعطيها ذلك مثل المرأة . إن الحياة لاتهب إلا بقدر ما توهب من الإخلاص ، ولكن ذلك لن يكون إلا بقدر الحب لها ، فيجب أن يكون حبها عند طالبيها ومريديها حباً صادقاً حاراً . والمرأة هى الكفيلة بأن تصير حبها هكذا ... هذى حقائق لا ريب فيها كما أنه لا ريب فى أن وجود المرأة بين الرجال يؤدى إلى هذا النشاط العام فى هذى القوى العامة .

قالوا : وقد ثبت بالتجربة والاستقراء أن المصانع التى تؤلف بين الجنسين يكون إنتاجها أعظم من إنتاج المصانع التى يكون عمالها من أحد الجنسين فقط .

قالوا : وإن المدارس التى تجمع بين الطلبة والطالبات يجىء مستوى النشاط الذهنى فيها أسمى بكثير من المستوى الآخر الذى يمثله أحد الفريقين فقط ...

قالوا : وقد قامت البينة على أن وجود المرأة فى المستشفيات بين المرضى والممرضين والأطباء أيضاً قوة لا تنكر ، وأن الحياة فى هذه المستشفيات تنشط جداً فى الجميع : فى الطبيب والمريض والممرض وفى كل شىء حتى الصحة والعافية تنشطان فيها وتسيران سيراً فيه قوة وفيه سرعة . وإنه من المستحيل أن تحصل هذه النتيجة فى المستشفى الذى يضم الرجال فقط أو يضم النساء فحسب .

قالوا : وأما فى ميادين القتال والبطولة فالأمر فيها لايحتاج إلى تدليل : فهى تعطى المقاتلين والزاحفين إلى الموت مالا يوصف من الفتوة والصبر والاحتمال ، بل والسرور فى أحفل الساعات بالأحزان والأوجال ، وهى تهبهم الابتسام والإقدام ، بدل العبوس والذعر والإحجام ، وتخلق منهم رجالا يسمون على المخاطر والمخاوف . ومما لا يحدث أن يقاتل الرجال المفردون المحرومون من هذه القوة وأن يصبروا فى ميادينهم ويكونوا كما يجب .

قالوا : وإن الفروسية القديمة إنما وجدت وظهرت بدءاً بفعل المرأة وتأثيرها ، وإن الفارس إنما كان فارساً لأن المرأة كانت تراه وكان هو يريد أن يريها من صنيعه ومن نفسه ما يرضيها ويعجبها ويملأ جوانحها احتراما وإكباراً وحباً له وثقة به . ولهذا فإن الأمم القديمة كانت تخرج النساء فى ميادين حروبها لتلهب الفرسان وتدفعهم إلى الوغى بقلوب لا تهاب . والعرب أنفسهم كانوا فى جاهليتهم وفى إسلامهم أيضاً يرون هذا الرأى ويعرفون هذه الحقيقة ويحضرون النساء الشريفات وغير الشريفات مواطن قتالهم ، وكثيراً ما كن ينشدن الأناشيد فى تلك الأوقات يحمسن المقاتلين ويبعثن فى نفوسهم الجراءة والبسالة . هذا حسان بن ثابت شاعر الرسول الكريم يقول فى إحدى قصائده :

تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء

هذا معروف . وهكذا المرأة فى كل شىء وفى كل فن من فنون الحياة .

قالوا : ولم يحدث أن عالماً أو أديباً أو شاعراً أو غير هؤلاء استطاع أن يكون شيئاً عظيما إلا والمرأة من ورائه تدفعه وتلهمه وتلهبه وتعطى حياته الوقود والحرارة . ولهذا فإنه لم يقع فى التاريخ قط أن أمة أبدعت فى الحياة ونساؤها مقبورات فى المنازل ، مبعدات عن المجامع وعن الشئون العامة : فأوربا وأمريكا واليابان اليوم لم يبلغوا هذا الشأو البعيد فى الصناعة والعلم وفى كل شىء إلا ونساؤهم من ورائهم وأمامهم وإلى جوارهم . وكذلك كان العرب والإغريق والرومان وكل الناس . فالمرأة هى القوة المحركة لقوى الحياة وقوى النبوغ فى الرجل .

قالوا : وقد دلت التجارب أن تباعد الجنسين أحدهما عن الآخر يقضى بشدة التطلب : تطلب كل منهما لصاحبه وتلهفه عليه ، وأننا كلما غالينا فى الحجاب وفى التفرقة ازدادا هتكا للحجاب واقتحاما على المخبوء المكنون ، وتفكيراً فيه وفى الطرق الموصلة إليه ، وإبداعا وابتداعا فى الموصلات المقربات ، وأننا كلما تناسينا هذه الفروق بينهما وجمعناهما

وأدنينا أحدهما من الآخر ، فتعارفا وتلاقيا خفت شدة الطلب وهبطت حرارة الغريزة الدافعة الدافقة ، وأصبح الاجتماع والافتراق عاديين مألوفين ، لايحدثان عدوانا ولا مبارزة بين الغرائز المكبوتة المتأججة المتوهجة ، ولا احتراقا ذاتياً داخلياً خطيراً — قالوا : وقد علم أن اعتياد الشيء يصيره إلفاً لايجلب ضرراً ولاخطراً — وعلم أن الإنسان يكون أحرص ما يكون على الممنوع المحرم البعيد ، وأزهد ما يكون فى المبذول المباح القريب ، وأن هذه الغريزة الطاغية إنما يتجلى جبروتها المروع حين يكون ما تطلب مجهولا محاطاً بالأسرار والألغاز ، وأن ذلك كلما عرف وفهم تضاءل سلطانه وهان شأنه . والإنسانية محتاجة حاجة ظاهرة لأن تعمل — ما وسع العمل — على التخفيف من وطأة هذه الغريزة الشيطانية والحد من فعلها ، لأن أكثر قوى الإنسانية ومواهبها ضائعة ، منفقة فيها وفى ما يتصل بها وفى إضرام نيرانها . ولا شيء يستطيع القيام بهذا الغرض الجليل مثل ما ذكرنا — وهو محاولة إزالة الفروق بين الرجل والمرأة بمحاولة الجمع بينهما ما استطيع إلى ذلك السبيل .

لقد كتب شيخ من شيوخ الإسلام المعروفين فى كتاب له معروف منذ ثمانمائة سنة تقريباً يقول : لو كان لرجل من أهل بغداد نساء بغداد كلهن ثم جاءت امرأة من خراسان محجبة لاشتاق إليها ولظن أن تحت حجابها شيئاً ليس عند واحدة من النساء اللواتى فى بيته وفى ماكه . وهذا صحيح وسببه الحجاب والبعد والجهل بهذه المطلوبة المشتهاة الخراسانية ... إن الرجل ليترك زوجه البارعة الحسن ويذهب يتلمس من هن دونها فى كل شيء من النساء القصيات الممنوعات المحرمات ، والسبب هو ما ذكر أيضاً . وتجرد أحد الجنسين من ملابسه أمام الآخر مألوف فى اليابان . وقد أضعف هذا جداً من قوى شيطان الشهوة المتبادلة .

قالوا : وقد علم علماً ليس بالظن أن الفساد الجنسى فى البلاد الآخذة بالحجاب وبالتفرقة بين الجنسين أعظم جداً من الفساد فى البلاد الأخرى الآخذة بالسفور وبالجمع بينهما ، وعلم أن الحجاب والتفريق لم يستطيعا أن يقوما فى سبيل هذه الغريزة العاتية المجتاحة المحتالة — وعلم أيضاً علماً تقرره المباحث النفسية الدقيقة أنه يكثر فى الشعوب المحتجبة المفرقة بين رجالها ونسائها الشذوذ الجنسى ، أو عشق الجنس لجنسه ، ويقل جداً فى الشعوب الأخرى الآخذة بغير ذلك . والإحصاءات كلها تثبت هذا . وعشق الجنس من أشنع ما تصاب به الأمم .

قالوا : وعلم أيضاً أن الحجاب والحرمان والحجر الخلق يصيب الجنسين معاً بالعقد النفسية وبالاضطرابات العصبية التي يعز شفاؤها . وبدعة الزار إنما وجدت عند المحجبات المقصيات المحرومات من غشيان المجتمعات ، وهى لا تعرف عند الأمم الأخرى ولا عند النساء البارزات المشاركات فى إيجاد الحياة . ولا ريب فى أن كثيراً من هذه الحالات النفسية التي يبتلى بها الكثيرون والكثيرات إنما مردها إلى هذا الحرمان الشنيع وإلى هذا الحجر الخلق القاسى . وعلماء النفس والأطباء يعرفون اليوم ذلك جيداً .

قالوا : ولا معنى للريب فى أن الاختلاط يهذب من أخلاق الفريقين ويرقق من شمائلهما ويسمو بهما مادياً ومعنوياً ، ويحمل كلا منهما على أن يظهر وأن يعتاد الظهور فى أحسن الحالات وأجملها ، وأن يشذب من عيوبه ويخفيها أو يطرحها وأن يروض نفسه على الأخذ بالكمال فى الظاهر والباطن ، فى مخبره ومظهره . ولا شيء فى قدرته حمل كل منهما بقوة على التجمل والتكمل مثل وضع أحدهما أمام الآخر وجهاً لوجه ومراقبة كل منهما لصاحبه . والجمال والكمال إنما يبلغان بتطلبهما ، أى بالتجمل والتكمل .

قالوا : وإن من أعظم المسائل التي تجب عناية التربية بها مسألة ارتباك أحد الجنسين إزاء الآخر واستحيائه منه وعجزه عن مواجهته مواجهة سليمة قوية ثابتة . فإن الارتباك أو الحياء أو الاضطراب الذى يسيطر على موقف كل منهما من الآخر وعلى شعوره عقدة من أعظم العقد التي تؤدى إلى الخيبة والإخفاق فى الحياة وعند مقابلة الأمور التي لا مفر من مقابلتها . ولا ريب فى أن العلاج الصحيح الوحيد لرفع هذا الوهم القائم بينهما المتحكم فى علاقاتهما هو التقريب بينهما وتناسى الفروق التي صنعها الوهم وغالى فيها الخيال المحروم المجدب .

قالوا : والجنسان إنما تصلحهما المعرفة ، وتفسدهما الجهالة . ولا معرفة حقيقية مع الانزواء والابتعاد . فالمرأة التي تحرم من المجامع ومن الاتصال بالعالم الخارجى وبأهله من الرجال والنساء أيضاً كيف يمكن أن تكون لها معرفة نافعة ؟ قد تكون أضعف وسيلة لهذه المعرفة هى القراءة المجردة والاكتفاء بالكتاب وبالدرس والمدرسة ، وقد يكون أعظم وسيلة لذلك هو الاتصال بالعالم ولقاءه والأخذ عنه بدون وسيط . وإننا إذا فرضنا إنساناً ما قد أكب على كتبه فى منزله وابتعد عن الحياة الخارجة وعن أهل هذى الحياة فلا محالة من أن نفرضه جاهلا بأكثر ما تجب معرفته ، عاجزاً عن مسايرة هذه الحياة

ومعايشة أهلها متى خرج إليها وقضى عليه بهذه المسايرة وتلك المعايشة . فالجنس الذى يقول قوم إنه يجب أن يظل حياته كلها قصياً محرمة عليه المجامع والحياة الخارجة الدائرة حول منزله أنى يمكن أن يكون له علم تجريبي صادق وعقل واسع نافع ودراية هادية حقيقية ؟

قالوا : وإن من شر ما تصنع الأمة بنفسها أن تتخلى عن أحد نصفيها وعن مواهبه وأن تفرض عليه البيت ما بقى حياً ليظل حليف الجهل والغباء والتصورات الرديئة الضارة والأوهام المختلفة التى يصنعها الفراغ المملول والانطواء على النفس ، والتى يخلقها الوقت المجدب المحروم من الحركتين : الفكرية والبدنيـة ... إن الأمة لتضيق ذرعاً وفكراً ببضعة آلاف من أبنائها يعجزون عن أن يجدوا لهم فى هذه الحياة عملا ، وترى أن ذلك من الأمور المخيفة الخليقة بالعناية والعلاج والاهتمام الصادق ، فكيف بأمة — بل بأمم — تفرض هذا العجز على مئات الملايين من بناتها ، زاعمة أنه لن تستقيم أخلاقها ولا حياتها ولن يقوم مجدها ودينها إلا بذلك ؟

قالوا : ومن غير المستطاع أن توجد حيـاة صحيحة أو مجد أو علم أو ذكاء خارق عبقرى إلا لدى من صحت أبدانهم ووهبت القوة والنماء الحقيق ، فهذه الصحـة والقوة هما واهبتا هذه الأمور ، بل إنهما أيضاً واهبتا صحة الأرواح ... ولكن هذه الصحة لن يظفر بها من لزم البيت ، ولم ينعم بالضياء والهواء ، ولم يعمل أعضاءه إعمالا صحيحاً منظما يمنحها الاتسـاق والانسجام والمرونة والقوة والحياة المتجددة . . . فالمرأة اللازمة للبيت لن تمنح هذه الصحة ، ولن تمنح الجسم السـليم القوى الحامل المثمر الأولاد الأقوياء الأذكياء ، ولن توهب البدن الجميل الرائع ، بل لابد أن تكون مريضة عاجزة واهنـة شوهاء المنظر والتركيب ، ولا بد أن يجىء أولادها وأفكارها كذلك مرضى عاجزين مشوهين ، فإن المريض العاجز الضعيف لا يعطى إلا مريضاً عاجزاً ضعيفاً مثله ، ولا رجاء فى مثل هذا الشعب : لا رجاء أن يكون شعباً عظيما فى ناحية من نواحى العظمة . فسلامة الأبدان وقوتها هى الشرط الأول لعظمة الأمم وارتفاع مجدها . وقد لوحظ — بل ثبت ثبوتاً قاطعاً — أن النساء اللواتى استطعن الإفلات من هذا السجن القديم المخيف وانغمسن فى الضياء والهواء — وأعطين أجسامهن الحركة والنشاط اللازم — لوحظ أن هؤلاء النساء قد جمل فيهن كل شىء : أجسامهن وأفكارهن وعقولهن وبل وأبناؤهن .

قالوا : ولا ندرى ما هى الجريمة التى أتتها النساء البائسات حتى عوقبن من أجلها

بالسجن المؤبد . والسجون إنما فتحت وبنيت للمجرمين الذين يفعلون ما تحرم القوانين والشرائع . فإيداع النساء هذه السجون ، ومعاقبتهن هذه العقوبة النكراء يجب أن يكون لها مادة قانونية أو وجه من الوجوه ، وإلا فإنه يحسن — بل يلزم — أن تقام دعوى عامة من جانب النساء ضد الرجال الذين فرضوا عليها هذا العذاب والعقاب بدون ذنب جنته — كما لا ندرى ما الذى أباح للرجال ما حرم على النساء : ما الذى أباح لهم الخروج والتصرف فى الحياة والعمل تحت الشمس والهواء كما يشاؤون ، وأباح لهم أن يعطوا أجسامهم ما تطلب وتشتهى من حركة وتنقل ودخول وخروج ، وذهاب ومجىء : ما الذى أعطاهم حرية العمل المطلقة فى البيت وخارج البيت ، ثم حرم ذلك كله على المرأة وهى محتاجة إليه ، مستفيدة منه ، مستعدة له احتياج الرجل واستفادته واستعداده ؟ إن كل ما يمكن أن يذكر للاحتجاج به على وجه حرمان المرأة من هذا يمكن أن يذكر للاحتجاج به أيضاً على حرمان الرجل ، وكل ما يذكر للتدليل به على جوازه للرجل يمكن أن يذكر للتدليل به على جوازه للمرأة بلا فرق . ومن المسلم به أن الخطر الذى يخشى من شرود المرأة وخروجها خطر مشترك لا يمكن أن يتصور ولا أن يتحقق إلا من الجانبين معاً : فلولا المرأة لما فسد الرجل ولولا الرجل لما فسدت المرأة ... فإذا قيل إنه قد حرم الخروج على النساء والاختلاط بالرجال فى مجرى الحياة خيفة أن يتصل بهن الرجال اتصالا غير شريف ، وخيفة أن يغرينهم ويفتنهم قيل : إن العكس صحيح وممكن أيضاً : أى بأن يحرم خروج الرجال من أجل هذا الاتصال وهذا الافتتان . وكلاهما يصلح للداخل كما يصلح للخارج فما الفرق ؟ يقول قوم : إن الرجل أقدر من المرأة على العمل والتفكير بدليل أن النساء لم يستطعن أن يساوين الرجال فيهما — أى فى العمل والتفكير — فى البلاد التى أطلقت لهن الحرية بأوسع معانيها ... غير أنه من الممكن أن يقال : إن هذا غير صحيح : أما عجزهن عن هذى المساواة فهو راجع إلى عدة أمور : منها أنهن قريبات عهد بعصور الاستعباد والإذلال ، فلا تزال سجون الماضى ذات آثار واضحة فى مواهبهن وجميع قواهن ، ولا يزلن حتى اليوم عاجزات عن التحرر من بقايا تلك العصور ، وقد يحتجن إلى جهاد قد يكون طويلا لإتمام هذا التحرر ... ومنها أن الأمم كلها ، حتى التى أعطت المرأة حريتها لم تقدر حتى اليوم على التخلص الصحيح من أوهام الماضى ، فلا تزال المرأة والرجل معاً فى هذه الأمم يريان أن المرأة دون الرجل وأنه يجب أن تظل دونه — ولهذا فإنها لا تقوم بكل الأعمال التى يقوم بها الرجل . ولهذا — بلا شك — تأثير لا يقل عن

تأثير قول الغربى للشرقى : إنك لا تصلح للحكم مع عمله على إبعاده وتنحيته عنه . ومنها أن المرأة والرجل لا يزالان — أو لا يزال جمهورهما — فى الشعوب كافة يعتقدون أن أعظم عمل للمرأة فى هذه الحياة أن تعد نفسها بشتى الأساليب لإغراء الرجل وجذبه إليها وإيقاعه فى شرك حبها ... فهى لذلك تصرف أكبر اهتمامها وتفكيرها ووقتها فى صنع نفسها بحيث تصبح مطمح الأنظار وملتقى الشهوات . وهذا يشغلها عن الأعمال الجسيمة .

وينهض قوم آخرون ينادون بأن ما خصت به من وظائف الحمل والرضاع والحضانة يقوم مانعاً طبيعياً من هذه المساواة ، فإنها وظائف مرهقة شاغلة ... ولكن الطبيعة — الطبيعة التى طبعها الله — تدلنا على فساد هذا القول ، فإنها ترينا أن الفرس والناقة وغيرهما من إناث الحيوانات لم تعجز عن القيام بالأعمال التى يقوم بها الحصان والجمل وغيرهما من ذكورها مع قيامها بهذه الوظائف .. بل من الممكن القول بأن هذه الوظائف الطبيعية تقضى بأن يكون للمرأة أعمال فيها بعض الجهد والمشقة ، وذلك لأنها فى حاجة ظاهرة إلى القوة البدنية — ولا سيما أعضاؤها التى لها اتصال بهذى الوظائف — والأعمال تقويها وتعدها لأن تكون قادرة شديدة الاحتمال . ومن غير الممكن أن يهمل عضو ويترك فى الكسل الدائم والسكون المتواصل ثم يجىء صالحاً لما يراد منه قادراً عليه . وقد شوهد أن الريفيات وغيرهن ، اللواتى يعانين الأعمال الشاقة أقدر على الحمل والولادة والرضاعة والحضانة من المنعمات المحبوسات فى المنازل بدون حركة ولا عمل ... فهى إذن من أجل ذلك أخلق من الرجل بالأعمال .

وقد يزعم زاعمون آخرون أن النساء يجب أن يلزمن البيوت لخدمتها وللقيام بشؤونها ، لأنه لايصلح للبيت ولا يصلحه سوى المرأة ...

ولكن هذا خطأ أيضاً ، لأننا نشاهد اليوم أن الطهاة وغيرهم من المختصين بخدمة المنازل والقيام عليها هم من الرجال دون النساء . وكل الأعمال التى قد يظن أنها من خصائص المرأة دون سواها ثبت أن الرجل يصلح لها ويصلحها ...

يقول بعض علماء النفس : إنه من الخير والصواب ألا يميز بين الرجال والنساء فى الزى ولا فى العمل ، لأن هذا التمييز يشعر كلا منهما دائماً بأنه طالب أو مطلوب ، أو طالب مطلوب ، وهذا الشعور يظل موقظاً أبدا للغريزة الجنسية ، وهذا يشغل كلا منهما ويرهقه ويحمله على الاحتيال وعلى القيام بعملية القنص ... والإنسانية محتاجة جداً إلى تناسى هذه الأمور ما أمكنها ذلك .

وإذا كان هـذا من الخير والصواب فمن الخير والصواب أيضاً ألا يميز بينهما بأن يكون أحدهما للبيت والآخر للأعمال خارج البيت ؛ فإن هذا التميز ينشط جداً فى تنبيه الشهوة وفى الإغراء بالطلب . فإن المرأة التى تحجز فى المنزل وتفهم أنهـا محجوزة لأنها فى عين الرجل صيد مطلوب كلما رئى ووجد وأمكن اصطياده تبقى دائماً متنبهة لهذا المعنى شاعرة به ، مفكرة فيه . ولا يخفى على أحـد ما لهذه الإحساسات من نتائج وآثار ومعان فى نفسها ... إذ كأن هاتفاً يهتف بها فى أعماقها الخفية يقول لهـا : أنت مشتهاة مطلوبة ، فهل تقبلين هـذا الطلب ، وهل تجيبين إلى مبادلة الشهوة بشهوة مثلها ، وهلا تقومين بالتجربة ؟ ما المانع من ذلك ، ولماذا تحرمين على نفسك وعلى طالبك ومحبك أمراً شهياً لديك ، هيناً عليك ... وهكذا تدور فى رأسها مئات التصورات من هـذا القبيل ... وكذلك الرجل الذى تبعد عنه المرأة ويفهم أنها إنما أبعدت عنه لأن فيها رغبته ، ومعها مفتاح شهوته ولذته ، ولأنه يحبها ويشتهيها ، ولأنها كذلك تحبه وتشتهيه ، وأنه من أجل هـذا الحب وهذه الشهوة حيل بينهما ... إلى آخر هذه الأفكار التى لا بد أن تتراكض فى خياله ، وتتأجج فى أعصابه ...

ومن المعلوم أن إتيان شىء ما لا يمكن أن يقع إلا بعد التفكير فيه : فالقتل والسرقة والزنا وغيره لا يحتمل أن يحدث لو لم يحدث التفكير فيـه . فالتفكير سابق العمل . وإذا وقع التفكير فقد يقع العمل . فإذا فرقنا بين الرجال والنساء فلا محالة من حصـول هذه الأفكار والخطرات . وما بعد التفكير إلا الخطر الحقيق ، وهو محاولة الوصول إلى المفكر فيه ، وهو من ناحية أخرى عذاب المفكر إذا لم يدرك ما يفكر فيه ، فهما خطران . ولهذا فإن مما يشبه المستحيل أن يجتمع رجل وامرأة — إذا كانا ممن لم يعتادوا الاختـلاط — إلا وشغل كلا منهما التفكير فى الآخر . إن أساس كل شىء الفكرة .

لماذا لا يحاول الرجل أن يلتمس شهوته ولذته عند الأمهات والأخوات والبنات ويلتمسها عند النسـاء الأخريات الغريبات ؟ السبب فى ذلك أنه لا يفكر فى الأوليات ، لأن سلطان العرف يصرفه عن هذا التفكير — ولا تقول إن الذى يصرفه عن ذلك هو التحريم أو الشرائع الدينية — لأن التشريع والتحريم لم يكونا فى يوم من الأيام ما نعين من غشيان المحرمات . ولولا هذا العرف وهذا الصرف — أى لو أنه وجد مجالا للتفكير — لما وجد فرقاً بين الأم والبنت والأخت وبين سواهن . فإن هذا الفرق ليس

طبيعيا . ولو قدمت إلى رجل أخته أو أمه أو بنته بدون أن يعلم ذلك لنظر إليها نظره إلى الغريبات الأجنبيات ، ولو قدمت إليه الغريبات الأجنبيات على اعتبار أنهن إخواته أو بناته أو أمه لحسب ذلك صدقاً لنظر إليهن كما ينظر إلى الأخوات والبنات والأمهات الحقيقيات . فالمسألة إذن ليست طبيعية وإنما هي وليدة العرف والاعتياد . فعلينا إذن أن نجهد جهدنا على إبعاد هذا التفكير وعلى تناسيه . وهذا إنما يكون بمحو الفروق المتكلفة المكذوبة ، وعلينا أن نقضى على فكرة الحيلولة بين الجنسين من أجل خيرهما معاً وخير الإنسانية أجمع .

قالوا : وإننا لسنا ممن يحاولون أن يحجبوا ضوء النهار بأكفهم ، إذ لا ندعى أن الاختلاط مبرأ من العيوب والذنوب ، ولا أنه ليست له عواقب قد تكون أليمة ، كلا ، فإن كل شيء فى هذا الوجود — مهما كان حسنا جميلا — لابد أن توجد أحياناً فى أعقابه وثناياه أضرار وشرور . وما من شيء يمكن أن يكون خالصاً وخيراً محضاً فى أوله وآخره ، ووسيلته ونتيجته ، وبدايته ونهايته . وأعظم وأجمل ما فى هذه الحياة — كالصحة والجمال والشباب والعلم والقوة والشجاعة — لم يخلص الخلاص كله ، ولم يبرأ كل البراءة من الذنوب والعيوب والعواقب المؤسفة . فطلب هذا الخير المحض هو من طلب المحال ، ومن ظن أن كل ما قد يحمل فى طواياه ما ليس بالحسن وجب رفضه واعتباره قبيحاً محرماً لزمه ألا يرى فى الدنيا حسنا ولا جميلا ولا مباحاً ... أو ليس التلاقح نفسه — الذى هو أصل وجود الحياة ووجود الإنسان — قد يجلب شروراً وآلاماً ومفاسد ومظالم ؟ بل إن كل ما فى هذا الوجود من الجرائم البشرية إنما تسبب عن هذا التلاقح والتزاوج . فالخير إذن ليس هو الذى لا شر فيه ، وكذلك الشر ليس هو الذى لا خير فيه . إذ هذا النوع من الخير والشر لا وجود له فى عالم الواقع . وفعل الحكيم القادر المنزه عن كل نقص وعيب قد ترتب عليه وجود الأشقياء والسعداء ، والمؤمنين والكافرين ، والخير والشر ، والجنة والنار ، وكل ما نراه من المتضادات . ولكن يراد بالخير أو بالحسن ما غلب خيره شره ، وحسنه قبحه ، أو ما غلب حسنه وخيره خير ضده وحسنه . ويراد بالشر ما غلب شره خيره وقبحه حسنه ، أو ما غلب شره وقبحه قبح ضده وشره ... فكل الأمور مأخوذة بالموازنة والمقارنة : فإذا وجدنا أمراً له وجهان واحتمالان أو نتيجتان أحدهما ما يسمى خيراً وثانيهما ما يدعى شراً ، وجب علينا أن ننظر أى الاحتمالين أو الوجهين أو النتيجتين أعظم ، فإذا وجدنا الخير هو الأعظم قلنا إن هذا الأمر حسن وجميل ، وإن جدنا العكس قلنا بالعكس ، وهكذا . والوجود كله قائم على هذه الحقيقة

والاعتبار . وإذن فهذه المسألة التى هى اختلاط النساء بالرجال يجب أن يشملها هذا القانون . ومن غير المستطاع أن يقال إنها خير صرف أو شر صرف . بل فيها خير وفيها شر كما سبق . ومن شرها أنها قد توقع فى الفساد الخلق — ولاسيما فى أول تجاربها وبداية الأخذ بها . وهذا ما لا ينكر . ولكن الخطر لا يتقى بالإبعاد والفرار منه ، وإنما يتقى بالتعلم كيف يتقى وكيف يراض ويوجه إلى الخير والفائدة . وإلا فإن هذا العلاج يشبه الفرار من الطبيعة ومن ظواهرها ومن الوجود كله خيفة ضرره وأذاه . ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذى ترمى به الأنهار ، ومن خطر الأمطار التى تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعنا فى الجهل والغباء ، وكان كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التى توجد فيها هذى المخازن، وكمن حاول النجاة من الفساد المرتقب من اجتماع الرجل والمرأة بالحيلولة والتفريق بينهما . . . والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيله للنجاة مما تخاف وترهب إلا بالهرب : فهى تولى مذعورة جافلة من كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون : من البروق والرعود والعواصف والقواصف والسيول والنيران والأمراض والوحوش والأعداء المغيرين ، ومن اللصوص وغيرهم ، ومن اختلاط النساء بالرجال ، لا تجد حيلة سوى هذا . أما الشعوب والأفراد المتعلمون فإنهم لا يفرون أمام شىء من هذا ، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة كما تراض الوحوش العاتية . وهكذا يجب أن يكون علاج هذى القضية . ولاشك فى أن محاولة حبس المرأة فى دارها كل حياتها خشية الفساد تشبه شبها كبيراً أن يلزم الغلمان منازلهم ، وأن يمنعوا الذهاب إلى المدارس ، والاجتماع بالرجال وغشيان الأماكن العامة بحجة أن خروجهم ودخولهم المدارس ووجودهم فى المواضع العامة قد يحدث منه أحياناً ضرر خلق !! بل إن اجتماع الرجال بالرجال والنساء بالنساء قد يحدث منه المؤامرات والغيبة والنميمة والإغراء والإغواء والتضليل وغير ذلك من أنواع الفساد الذى يتعلمه الناس بعضهم من بعض . فهل يمنع هذا الاختلاط بين الجنس وجنسه خيفة العاقبة المكروهة المرقوبة ؟ وقد مرّ بالإنسانية زمان كانت تلجأ فيه إلى فعل أشياء تعد اليوم من أشنع ضروب الوحشية والهمجية . وكانت تفعل هذى الأشياء بسبب الحرص على الفضيلة وحراسة الأخلاق ودافع الغيرة على حسب ماظننت وقالت ... من ذلك عملية الخصاء التى كانت إلى عهد قريب جداً شائعة ومستحسنة . ولعل إلزام المرأة البيت للأسباب المذكورة لا يقل جهالة وسخفاً عن هذه العملية الوحشية الشنيعة للأسباب

المذكورة أيضاً . والإسراف فى التخوف من عواقب الأشياء المحتملة يوقع لامحالة فى أشد ضروب الحرج والضيق ، ويحمل على الحذر والإحجام عن كل شيء أو عن أشياء كثيرة لا ريب فى فائدتها وحسنها ولزومها . فإن جميع الأمور — كما سبق — قد تحمل فى طواياها وعواقبها بعض ما يكره ، فهل يجتنب كل شيء من أجل هذا ؟

هذا بعض ما لقناه ونقلناه عن الآخذين بالاختلاط ، الذين يقولون إنهم وجدوا نفعه . وعلينا نحن أن نقرأ ونفكر ونوازن .

وقد جعل الله الإمساك فى البيوت عقوبة على الزنا فى طور من أطوار التشريع : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .

وهذا يدل على شيئين : أحدهما أنه لم يكن يمسك فى البيوت من النساء إلا اللواتى يأتين هذه الفاحشة ، وثانيهما أن الإمساك فى البيوت ما هو إلا عقوبة على جريمة من الجرائم الكبرى . فمن عاقب هذه العقوبة بدون جريمتها كان من الظالمين فى نظر الدين الإسلامى . .
وقد وصف الله النساء اللواتى سيختارهن أزواجاً لرسوله بالسياحة فقال : « عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات .. » وأين السائحات من القاعدات فى المنازل ؟

وأما قولهم : إن المرأة إذا علمت نظرت إلى الرجل نظرة المساوى فتكبرت وطغت وأن مثل هذا خليق بأن يفسد الوداد والحياة بينهما ، فقول لا صحة له أيضاً لأن العلم الصحيح الناضج يهذب الأخلاق ويشذبها ويمنع الغرور والكبر . لأن الغرور والكبر إنما يصدران فى الحقيقة عن الجهل بالنفس وعن الجهل بالعواقب والجهل بالقوانين الاجتماعية والخلقية والنفسية . لأن المتكبر حينما تكبر إنما أراد بكبره أن يرفع من نفسه وقيمته وحقيقته ولم يرد أن يضعها . ولو كان عالماً متعلماً لعلم أن التكبر على الناس يصيبه بعكس ما أراد لنفسه . فإن من طلب من الناس أن يرفعوه خفضوه لا محالة ! ومن حاول أن يفرض على الآخرين احترامهم له لم ينل منهم إلا الاحتقار والاشمئزاز — ولو فى الباطن — إن كانوا عاجزين عن أن يظهروا احتقارهم واشمئزازهم . وأما من تواضع وتودد إلى الناس وتجنب ما استطاع لمس شعورهم وإحساسهم بما يؤذى ولم يقابلهم إلا بما يرضون ويحبون فإنهم يحترمونه ويوقرونه فى مشهده ومغيبه ظاهراً وباطناً ... هذه مسألة نفسية خلقية اجتماعية لا شك فيها .

فالعلم إذن يهدى إلى التواضع وحسن الأدب ، والجهل يهدى إلى الغرور وسوء الخلق . فالواقع خلاف ما ذكروا .

على أن هذا الاحتجاج إذا كان لدى هؤلاء القوم صحيحاً لزم أن يحرم التعليم على الرجل أيضاً لأنه من المستطاع أن يقال : إن الرجل إذا تعلم تكبر وشاه خلقه وأدبه وساءت معاملته ولقاؤه للناس مثل ما قالوا فى المرأة المتعلمة . ولكن هذه كلها أوهام لا يسوغ أن تلقى فى طريق الحقائق لو كانوا يعلمون .

***

وليعلم أنه لا يوجد حرف واحد صحيح فى الدين ينهى عن تعليم المرأة ويأمر بتركها فريسة للجهل والغباء . بل الأوامر الدينية — روحها ونصوصها — كلها قواطع فى وجوب تعليم الناس جميعاً رجالا ونساء ، وكلها قواطع فى ذم الجهالة والغباوة سواء أكانتا صفتين فى الرجل أم صفتين فى المرأة .

وكلنا نعلم أن الدين بجملته بل الأديان كلها عبارة عن تعاليم وإرشادات وأوامر ونواهٍ ، وكلنا نعلم أن الدين موجه إلى الرجال والنساء وإلى الناس جميعاً . فالفريقان ملزمان مكلفان بعلمه وتعلمه . فهما ملزمان مكلفان بالتعلم وبتحصيل العلوم التى جاءت بها الأديان ، وهى أنواع بل وهى تتناول إجمالا كل علوم الإنسان . وقد كان الناس فى زمن الرسول وزمن خلفائه متساوين رجالا ونساء فى طلب العلم وفى العلوم التى تطلب ويؤمر بطلبها . فما كان هناك علوم يعلمها الرجل دون المرأة ، ولا كانت المرأة تؤمر بجهل شىء كان الرجل يؤمر بتعلمه ، فلا فرق من هذه الناحية . وكانوا — الرجال والنساء — يشتركون ويجتمعون فى تلقى هذه العلوم وتعلمها من الرسول ومن غيره من الواعظين والمعلمين . وقد شكت النساء مرة إلى النبى الكريم وقلن : إن الرجال غلبونا عليك وزاحمونا فزحمونا فاجعل لنا من نفسك يا رسول الله أياما معلومة فأجابهن إلى ذلك . وقد كان من نساء الرسول عالمات معلمات ، ومن أشهرهن عائشة ، وكذلك كان غيرهن من نساء المهاجرين والأنصار .

بل إننا نضع أمام القارىء البرهان الدينى على وجوب أن تكون المرأة معلمة لامتعلمة فقط ، أى على وجوب أن تعلم المرأة نفسها ثم على وجوب أن تعلم سواها من الرجال والنساء . وذلك قوله تعالى من سورة الأحزاب موجهاً الخطاب إلى أزواج الرسول : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس

أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفاً خبيراً » . فهذا أمر القرآن لزوجات الرسول بأن يذكرن للناس — أى يعلمنهم — ما يتلى فى بيوت الرسول من الآيات ومن الأحاديث ومن الحكمة . وكم تحت لفظ الحكمة من المعانى والعلوم . فقد أمرن أمراً صريحاً ملزماً بأن يعلمن الناس كل المعارف الموجودة فى بيوت النبوة — القرآن والحديث والأخلاق والآداب والتربية والسياسة والاجتماع وكل العلوم الإسلامية والعلوم التى جاء بها الرسول . وقد عملت هذه الزوجات وغيرهن من النساء المسلمات بهذا الأمر والإلزام ، فكن معلمات مهذبات ومربيات وواعظات ، وكان منهن خطيبات وأديبات ومؤرخات ... فالمحرمون للتعليم عليهن محرمون لشىء ألزم به القرآن وكلف به تكليفاً .

لا ندرى كيف نقول ولا كيف نصرف الدلائل على وجوب التعليم والتعلم . وإننا نعلم أن الدين الإسلامى لن يهجى ولن ينال منه بأبلغ وأنكى من اتهامه بأنه ينهى عن تعليم المرأة ويأمر بإبقائها — وهى نصف الأمة الإسلامية أو أكثر — غبية جاهلة . وأى دين هذا الذى يمكن أن يجىء بمثل هذا ؟

إن الإنسان — وسواء فى ذلك الرجل والمرأة — ابن هذا الوجود ، وأحد أجزائه ولبناته — وهو مضطر لأن يعيش فيه ويعايشه . وليس من الممكن أن يعيش فيه ومعه عيشة صحيحة مقبولة معقولة إلا إذا كان موضوعا فيه وضعاً سليما ، وكان مؤتلفاً ، وكان موجداً فى مكانه اللائق به المناسب له ، وكان آخذاً ومعطياً على مقتضى الحكمة والصواب ، وكان عارفا بطباع وخصائص ما هو جزء ولبنة منه وابن له ، وعارفا كيف يأخذه وكيف يتناوله وكيف يتصل به وكيف يباشره ويعاشره ... وهذا كله لن يكون ممكناً إلا لمن تعلم وعلم خصائص هذا الوجود وقوانين هذه الحياة بمن فيها وما فيها ، عالماً قوانينها الطبيعية والأدبية والخلقية . ومعنى هذا تحصيل كل العلوم البشرية ، وإلا فإن من حاول أن يتصل بشىء وأن يعاشره وهو لايدرى طبيعته ولاحقيقته ولا ماهو ولا كيف يؤخذ ولا كيف يترك هالك لا محالة . فالمرء الذى يوجد فى هذا الوجود وهو جاهل به هالك وقاتل نفسه وهو يظن أنه يحيها ، ومفسد لها ولغيرها وهو يظن أنه يصلح ، مثله كمثل من يضع النفط على النار حاسباً أنه يطفئها بذلك كالماء ، وكمثل من يتناول المركبات السامة ظانا أنه يتناول أدوية ... وهكذا . فالمرأة الجاهلة جهلا مطلقاً بجميع المعارف

العامة لا تصلح لشيء . ومن أراد منها أن ترعى له بيته وتربى أولاده تربية مرضية ، وأن تؤلف بين نزعاتهم وأغراضهم وغرائزهم المختلفة المتباينة وبين حاجات أجسامهم وحاجات أرواحهم ، وأن تؤلف لهم الأغذية النافعة وأن تفعل سوى ذلك ، كان مثله كرجل طلب من هذه المرأة الجاهلة نفسها أن تؤلف كتاباً قيماً فى الطبيعة أو فى الكيمياء أو فى الرياضة أو الفلك أو فى الفلسفة أو فى الشعر أو فى الأدب أو الفنون الجميلة أو فى الدين أو فى أحد العلوم العليا ... ومن تمنى هذه الأمنية كان مثله كمثل من طلب هذه الأغراض من الحيوانات والعجماوات !. ومن صار هذا المصير كان خليقاً بالمرحمة والرثاء .

***

ليفكر هؤلاء المناصرون للجهالة ، ولجهالة المرأة خاصة ، فى هذه الشعوب والأمم التى غلبتنا واغتصبت منا كل شيء ، وفى مكان المرأة منها وفى المناصب التى تشغلها والأعمال التى تؤديها فى الحرب وغيرها وفى كل الميادين — ليفكروا فى إحدى هذه الأمم كالأمة البريطانية مثلا ، هل كان من الممكن أن تبلغ فى تأدية هذه الحرب وسواها هذا المكان الذى بلغته ، وأن تظفر بما به ظفرت لو أنها فقدت هذا العنصر العجيب وفقدت وجوده فى الميدان العام لجهله ، ولأنه كان لايستطيع أن يخرج من ظلمات البيت لأنه غير لائق به الخروج ، لأنه غير متعلم ، وغير صالح للعمل فى الخارج — وهل كان من الممكن أن تجد هذه الأمة حينئذ من يسد سداد هذا الجنس ، ومن يقوم بالأعمال التى قام بها ، ومن ينفث الروح التى نفثها ، ومن يشيع الحماسة والقوى المعنوية التى أشاعها ، ومن يمنح الثقة والاطمئنان اللذين منحهما — وهل كان من المستطاع أن يصنع هذا أو شيئاً منه لو لم يكن قد أخذ النصيب الأوفر من الثقافة التعليمية ؟ ثم هل كان فى الإمكان أن يفعل الشعب العجائب والمعجزات ، وأن يجعل العالم كله يرنو إليه ببصره إعجاباً وإكباراً لما يأتيه من ضروب البطولة لو كانت الزوجات والأمهات والأخوات والبنات جاهلات ؟ إنهن حينئذ يكن بلا شك معاول هدامة يهدمن الرجال : الأزواج والأبناء والآباء والأخوة ، ويهدمن فيهم كل بطولة ، ويملأن نفوسهم جبناً وضعفاً وهلعاً ونقصاً دون أن يضعن فيها شيئاً من البطولة والشجاعة والقوة والكمال .

إنه لاخلاف بين طوائف الباحثين فى أن الرجال إنما يلهمون أرواحهم ويوهبونها — أو كثيراً منها — فى البيوت : أمام الزوجات والأمهات والأخوات والبنات ويصنعون

هنالك . فإن كانت هؤلاء الملهمات لا يجدن فى أرواحهن ولا فى أنفسهن سوى الجهالة وما تولده الجهالة من خور العزيمة وسقوط الهمة وقصر النظر والخوف من كل مجد فلن يلهمن سوى ذلك ، وسيأخذ رجالهن عنهن هذا كله أو جله ... وإن كن متعلمات ممتلكات همماً وعزائم وآمالا وحياة كان إلهامهن من هذا النوع ، فكان صنعهن لرجالهن صنعاً عجيباً ! فأى الإلهامين والصنعين يريد هؤلاء لأنفسهم ولأمتهم ؟

إن كثيرين من أبطال التاريخ السياسيين والعسكريين وغيرهم إنما أوجدتهم نساؤهم ، وإن كثيرين من أقطاب هذا العصر فى أوربا وأمريكا وغيرهما ـ ساسة وقوادا ـ إنما بلغوا ما بلغوا من ضخامة المجد وذهاب الصيت بتوجيه نسائهم وإرشادهن وتشجيعهن وعونهن ، وإنهم ليعترفون بذلك بل يفاخرون به .

والأمم الراقية فى هذا العصر تشترط فى زوجات بعض رجالها الرسميين أن يكن بصفات معينة معلومة من الثقافة وسمو المدارك والأفكار .

ولو أن هؤلاء الرجال الذين فرضوا مجدهم وسلطانهم على الزمن ، والذين قيل وقالوا : إن الفضل يرجع فى كثير من ذلك إلى زوجاتهم لم يوفقوا إلى هذه النساء المثقفات المستنيرات ، وسقطوا على نساء جاهلات غبيات ، لما كان من المنتظر أن يصيروا إلى ما صاروا إليه ، وأن ينالوا من الزمان ما نالوا ! بل أليس من المنظور أو المقطوع به أن يغيرن مجرى تاريخهم وأن يوجدن منهم رجالا آخرين ؟

ومن المستحسن أن يقال لهؤلاء — ولا سيما المتدينين منهم أو من يزعمون متدينين — : إذا لم تعلم المرأة تعلما كافياً لأن يوجد عندها ملكة علمية حقيقية تفهم بها حقائق الأمور فهماً عالياً صحيحاً ، فهل من الممكن أن تصل إلى فهم حقائق الدين وفهم مراميه وأغراضه وأصوله العالية ، وأن تبلغ منه الغاية المنشودة ، وأن تعصم من الوقوع تحت سلطان المخرفين والخرافات ، وتعصم من الدينونة للأوهام الدينية والبدع المنبوذة النكراء ؟

إن الإنسانية تحمل فى جوانبها وفى طيات وجودها جميع الخرافات والسخافات التى مرت بها فى تاريخها الطويل ، وفى تعاقب أجيالها الجاهلة ... وإن سلطان هذه الخرافات والسخافات متمكن راسخ ، وإن كل مولود يولد وهو يحمل معه جذورها وبذورها بين لفائفه ليستنبتها فى بيئته ... ولا يوجد شىء يقدر على إبادة هذه الجذور ويمنع نباتها واستنباتها سوى التعليم العالى ، وسوى العقل الذى يصنعه العلم .

لقد جرب التلقين اللفظى لمن لم يوهبوا الملكة العلمية — أى لمن لم يتعلموا حتى يملكوا هذه الملكة — فوجد غير مجد ولا نافع ... إن كل تلقين — إن لم يكن للملقن ملكة ناضجة — لقليل الجدوى بل قد يكون ضاراً . أى إنه يشترط أولا وجود المحل ، والمحل هنا هو النضج الفكرى والملكة الفكرية التى تكتسب بالتعليم .

حاول أن تشرح لإنسان غير متعلم نظرية فلسفية عاليــة ، أو فكرة اجتماعية أو اقتصــادية ، أو مسألة علمية تحتــاج فى فهمها إلى مقدمات وإلى مبادىء أولية — أو حتى مسألة نحوية أو صرفية ... وانظر هل يستطيع هــذا الإنسان الذى لم يتعلم أن يفهم عنك وأن يدرك حقيقة الموضوع إدراكا صحيحاً ! وكذلك حاول أن تفهم إنسانا غير متعلم وغير مالك الملكة العلمية أصــلا من أصول الدين العليا كمسألة التوحيد مثــلا — أعنى به التوحيد المبرأ من كل شائبة — وأسمعه ما شئت من النصــوص القواطع والبراهين العقلية المقنعة ! ثم انظر بعــد هل يستطيع هــذا الإنسان أن يدرك التوحيد وأن يؤمن به كما تريد وكما تحب ، وهل يقدر أن يهضمه الهضم النافع ، وأن يتكيف به التكيف المطلوب ، وهل يصــل إلى الحقيقة التوحيدية المطلقة المجردة ؟ من المشــاهد الواقع أن يقبل هذا التوحيد مبدئياً وأن يطيب به وأن يتخلص من بعض مظاهر الشرك وأن يأخذ بعض مظاهر التوحيد ، بل كثيراً منها . ولكنه يبقى بعد ذلك يحمل جراثيم الشرك ، ويحمل جذوره وبذوره ، بل يحمل كثيراً من صوره . وقد ينتقل من مظهر إلى مظهر ويترك صورة لصورة أخرى لأنه عاجز عن أن يخرج من جميع صوره ومظاهره لفقده الملكة الناضجة ... وكذلك البدع ، فإن من لم يتعلم تعلماً كافياً فلن يخلص منها مهما بذلت المحاولات والجهود ، ومهما بولغ فى التلقين والتحفيظ . وهــذا كله مشاهد مجرب معلوم .

وكما أن الإنسان عند ملاحظته مشهداً كونياً أو ظاهرة طبيعية لا يبلغ من فهمه أو فهمها إلا بقدر ملكته العلمية والعقلية ، فكذلك هو عند سماعه كلاماً ما فى مسألة ما — أى إنه لا يأخذ مما يسمع ومما يرى إلا بقدر اســتعداده . وقد كنت أتعجب دائماً من قول المتنبى :

ولكن تأخذ الآذان منه   على قدر القرائح والعلوم

يعنى أن الآذان إنما تأخذ وتستفيد مما تسمع على قدر اســتعداد عقلها وعلمها وعلى قدر ما بلغاه من نضج .. ومن المستحيل أن تتخلص امرأة من جميع صور الشرك

وضروبه ، ومن جميع البدع والخرافات إذا كانت غير متعلمة . وقد لوحظ أن بعض النساء الجاهلات أو المتعلمات تعلما ناقصاً قد تقبل ما يطلب إليها من توحيد ومن هجر للأوهام والخرافات ، ولكنها تبقى مستعدة للرجوع ولمعاودة شركها القديم وأوهامها الأولى لأهون سبب وأضعف مناسبة .

كل هذا صحيح والسبب فيه — أو من الأسباب فيه — أن الخرافات والجهالات قديمة عريقة فى الإنسان . وقد ورث من أجداده وآبائه فى دمائه فهم كل شىء على غير وجهه وصوابه ، فجاء الخطأ والضلال فيه موروثاً بل شبه طبيعى ... وكما ورث عن أسلافه القدماء الأخلاق والطباع الوحشية المعتدية — كما يلاحظ على الأطفال وعلى الشعوب الهمجية ، فإنه لا حد لظلمها وعدوانها ولا قانون له ، كما نرى هذا فى الأطفال إذا أعطوا حرية التصرف ، فإنهم حينئذ يأتون بأقبح وأشنع أنواع الظلم والعدوان : يفعلون ذلك فى الإنسان والحيوان وفى كل ما يقع فى أيديهم — كذلك ورث أيضاً منهم الوهم فى كل شىء والضلال فى كل أمر : ورث الشرك وعبادة غير الله ، وورث الأوهام فى كل صلاته واتصالاته بالله وبغيره . ولا علاج لنبذ هذه المواريث الثقيلة وللخلاص منها غير التعليم والتهذيب والتربية . . . ومن أراد أن يخلص من الأوهام وأن يدرك الأمور على وجهها بدون تعليم وبدون ملكة عقلية تعليمية كان كمن أراد أن يكون رساماً أو خطاطاً من غير أن يكون له يد ! ولقد أحسن الشاعر جداً فى قوله :

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب — فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

يريد أن غير العاقل لا يمكن أن يكون أديباً ولا مؤدباً ولا فاهماً ولا مميزاً بين الحسن وغيره ولا مدركاً للحقائق كما هى ، كما أن الحمار من غير رأس لا يمكن أن يكون له رسن ولا أن يقاد برسن .

فالشرط الأول لنجاة الأمم من خرافاتها هو التعليم العالى وإلا فإن الأمة ستظل ضحية للدجل والدجالين ، وستبقى تحت دينونتها لكل ما هى فيه اليوم من هذه المفاسد الاعتقادية المخزية ، وستبقى سوقاً عظيمة لصنوف المحتالين والمضللين . . . وما استطاعت أمة من الأمم أن تنجو من ذلك إلا بعد أن عظم نصيبها من المعارف .

ومن أجل هذا فلا ريب فى وجوب تعلم الشعب كله رجاله ونسائه وجوباً دينياً ، لأن أكبر أغراض الدين تخليص أهله من الجهالات الاعتقادية — من الشرك وأعراضه

ومن فهم الحياة فهما باطلا ، وقد علم أنه لا يستطاع الحصول على هذا الغرض الأعظم إلا بالعلم فكان العلم واجباً بحكم الدين .

والعلم فى الحقيقة هو مانع السقوط ومانع الفساد الدينى وغير الدينى ! إن كان فى الإمكان منع هذا . وليسمع هؤلاء مثلا واحداً : ماتا رجلان كانا يكسبان القوت يوماً فيوماً ، فترك أحدهما وراءه جمعاً من النساء والبنات المتعلمات ، وترك الآخر جمعاً منهن جاهلات لا يدرين شيئاً فى الحياة . وليس لإحدى المجموعتين كاسب ولا مورد للرزق بعد وفاة الرجلين . فما الذى حصل ، أو ما الذى يمكن أن يحصل ؟ أما المجموعة الأولى المتعلمة فإن تعليمها مكنها من أن تجد مكانها فى الحياة ، وأن ترى طريقها فى النور . أما المجموعة الجاهلة فما الذى يمكن أن تصنع إذا لم ترزق أزواجاً صالحين ؟ وهذا بعيد . ليفكر لهن أنصار الجهل وأعداء العلم وليقولوا بعد هذا إن شاءوا : إن الدين يحرم التعليم على المرأة وينهى عن تعلمها الكتابة .

إن هنالك فرقاً عظيما بين المتعلمة والجاهلة فى كل شىء حتى فى السقوط الأدبى وفى الزلل الخلقى إذا قدر . فالمتعلمة إذا سقطت وزلت قدمها سقطت سقوطاً محتشما محترماً — إن كان فى هذا ما هو محترم محتشم — وزلت زللا نصفياً أو جزئياً يرجى بعده القيام والنهوض والحياة . أما الجاهلة فإن سقوطها يكون سقوطاً جاهلا ، أى مدمراً مخرباً لا ينتظر بعده حياة ولا وجود ولا علاج .

***

من المحقق الذى لا خلاف فيه بين علماء النفس أن الجاهلة الساذجة التى فرغ رأسها من المعارف ومن التفكير الجدى ، وفرغت أوقاتها من الأعمال الجسيمة المجدية ، أقرب جداً من المتعلمة المثقفة ذات الأفكار والآمال إلى الركوع أمام سلطان الشهوات والغرائز الصغيرة . فالشهوات الجنسية تستبد جداً بالجاهلين الفارغين المنطوين على أنفسهم لجهلهم وضآلة تفكيرهم ، وتنأى بقدر ما عن المتعلمين المفكرين ، ذوى الطموح الإصلاحى الإنسانى البعيد ، وذوى الآمال العظيمة الجليلة التى يولدها العلم الواسع ويخلقها الخيال الممتاز الوثاب .

وذلك أن لكل إنسان قدراً معلوماً معيناً من القوى المادية والقوى الذهنية . وهذه القوى يتوزعها ويتنازعها فيه ميول وطبائع مختلفة كثيرة ، كل من هذه الميول

والطبائع يريد أن ينفق كل هذه القوى على حسابه وفى مصلحته . فمن الجائز أن تذهب القوى كلها فى إرضاء غريزة واحدة كالغريزة الجنسية ، ومن الجائز أن تذهب فى غريزة حب الاطلاع فيكون المرء حينئذ بحاثة عالماً مشغولا بالاستزادة من العلم والعرفان ، ومن الجائز أن تنفق فى غريزة الطموح . ومظاهر الطموح كثيرة متعددة ، فقد يكون طموحاً إلى جمع المال والثراء الكثير ، وقد يكون طموحاً إلى المجد السياسى أو المجد العسكرى أو المجد الصناعى أو غيره من ضروب الأمجاد . وقد تبذل هذه القوى كلها أو جلها فى ميول رياضية أو ميول إلى المغامرة والمخاطرة أو ميول أخرى ، أحياناً تكون طيبة فى نتيجتها ، وأحياناً تكون غير ذلك ... إلى غير هذا من الاتجاهات الإنسانية التى تصرف فيها قوى الإنسان الذهنية والجسدية كلها أو بعضها . ومن هنا اختلفت وتعددت وجوه الناس ومذاهبهم فى الحياة على حسب هذا التوزع بين هذه الغرائز والميول . ومن المعلوم قطعاً أن للتوزع بين هذه الأشياء المسيطرة على الإنسان أسباباً وعوامل تكسب وتدرك بالاجتهاد والتوجيه . فالإنسان — وكذا الإنسانة — الجاهل من المعروف أن مذاهب الطموح تضيق به وتسمو على تفكيره وتشرد عن خياله ، ويعلم أنه أقل وأعجز عن أن ينصرف إليها وأن يرصد نفسه وقواه فى سبيلها ، فيتضاءل فى نفسه وينطوى على قدره الصغير ، أو ينطوى عليه قدره . فتبرز فيه حينئذ الغرائز والميول التافهة الضارة إذا تركت وطريقها — كالمسألة الجنسية — وتعصف به الأحقاد وعوامل الحسد الخبيثة والغيرة القاتلة من الآخرين ، ويسيطر عليه التشاؤم والكآبة والكراهة والبغضاء ، ويصبح ويمسى تتقسمه هذه الآفات النفسية ، فينفق كل قواه البدنية والفكرية فى الاتصال الجنسى خيالا وعملا ، وفى الحقد والحسد والبغض والكره والتشاؤم والكآبة . فيقضى حياته كلها ، ويبذل ما وهبه الخلاق فى المعاصى والجرائم الدينية والقانونية والخلقية . فيكون نكبة على نفسه وعلى الأمة التى هو أحد أبنائها . والأمة التى يكثر فيها هذا النوع من الناس أمة مقضى عليها بالخيبة والهلاك وضآلة الشأن — وهى أمة متخاذلة متنابذة لا يرضى فيها أحد عن أحد مهما أحسن وأفاد ونفع .

أما المتعلم المثقف فإن آفاقه تتسع وآماله تتعاظم ويبصر سبيل المجد والطموح تتراءى له ممهودة مفتوحة ، فينطلق فيها ، فيشيد لنفسه ولقومه وللانسانية قاطبة المجد الضخم ، ويشغل بذلك عن تلك المعانى الأخرى الصغيرة ، بل لا يجد لها وقتاً ولا مكاناً عنده . فينصرف عنها وتنصرف عنه . ويندر جداً خروج مثل هذا الإنسان عن القانون الطبيعى

أو الاجتماعى أو الشرعى . وقد فهم أحد الشعراء — وهو الأخطل — هذه النظرية قديماً فقال يمدح أحد الخلفاء المشغولين بجسيمات الأمور هو وقومه :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهار

وفى أوصاف الرسول الكريم أنه كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان شغل بالعبادة وانصرف إليها وشد المئزر — كناية عن مجانبة النساء واعتزال المسألة الجنسية.

ومن المعلوم أن عظماء الأمم الذين توكل إليهم الأمور الجسيمة ينصرفون البتة — أو بعض الانصراف — عن هذه المسألة ، وقد ينسونها بحيث لا تخطر على بال أحدهم . وقد تمر أمام أحدهم أجمل مخلوقة تشيع الفتنة وتثير الخيال كما يمر أمامه أحد الأشياء العادية.

ولا يلتفت إلى هذه المسألة إلا اهتمام المرضى والفارغين المعرضين عن رسالة الحياة .

ومن هنا كان مسيئاً إلى مصلح الإنسانية عليه السلام من ذهبوا — وقائدهم الغباء — يجمعون الروايات المزعوم فيها أنه عليه السلام كان يعطى هذه المسألة — أى مسألة الوصال الجنسى — جانباً كبيراً من نفسه ووقته بل أعظم جانب ،حتى إنهم ادعوا أنه كان يجامع فى ليلة واحدة إحدى عشرة امرأة ثم يغتسل لذلك كله غسلا واحداً بدون فاصل ! وقد وهموا جداً فى فهم حديث الطواف على نسائه ، فالطواف غير الاتصال الذى يذهبون إليه [1]

والذين وصفوا الرسول الكريم بهذا ، وظنوا أنهم يمتدحونه به ويبالغون فى وصف قواه البدنية بما قالوا ، قوم كانت المسألة الجنسية أكبر شىء عندهم ، وأكبر ما يشغل خيالهم لفراغهم وضآلة رسالتهم فى الوجود وقلة طموحهم واهتمامهم بمسائل الإنسان الكبرى . ومن ثم حاولوا وصف الرسول بما أحبوا أن يوصفوا به وبما به اهتموا وله عظموا . ولو أن أحد الرجال — أرباب الرسالات الكبرى والآمال الجسيمة — أراد أن يصف النبى الكريم المبعوث لهداية الناس ولبعث العرب ولإيجاد دولتهم الفتية الغالبة لما خطر على باله أن يصفه بالانصراف إلى هذه المسألة ، ولما قبل ذلك البتة ، لأنه هو غير منصرف إليها

---

(١) ومن خطرات الهوس الجنسى ما زعمه ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى مستدلا بروايات لفقها من أنه عليه السلام قد أعطى فى الجماع وفى شهوة الجماع قوة أربعة آلاف رجل ! ويروى ابن سعد فى الطبقات وغير ابن سعد أن جبريل نزل على الرسول بقدر فيها طعام فأكل منه فأعطى هذه المقدرة على الجماع . ويشير كلام ابن حجر إلى أن قوة الأربعة الآلاف التى أعطيها ليست فى الجماع فقط بل فيه وفى الأكل والشرب والشهوة ! ويراجع كتاب الغسل فى فتح البارى شرح صحيح البخارى .

ولا معنى بها . والعادة أن الواصفين يحاولون أبداً أن يصفوا من يحبون ومن يريدون إظهار مزاياهم بما حسبوه مدحاً وثناء وإن كان فى الواقع غير ذلك ، وقد يصفونهم بما يحبون أن يوصفوا هم به .

ولكن الرسول الكريم أعظم جداً وأسمى مما توهموا وظنوا ومدحوا . ولن يستطيع وصفه إلا من قرب منه ومن سمت نفسه ومعانيه بحيث صار يبصره عليه السلام متألقاً فى سماواته ، محللا بكمالاته .

وليس هذا الذى نقوله شعراً ولا خيالا وإنما هو حقيقة يقررها علم النفس ويضمن صحتها الواقع والمشاهدة الأولية البسيطة . وعلم النفس يسمى هذا التوزيع بين الغرائز بالطريقة التى ذكرناها (التصعيد) .

أن مقداراً معيناً من الفحم مثلا تكمن فيه طاقة معينة أيضاً ، يمكن أن تكون حرارة ، وأن تكون ضوءاً ، وأن تكون حركة ، وأن تحرق وتدفىء وتهدى ، ويمكن غير ذلك . وكذلك القوة البدنية والعقلية الموجودة فى الإنسان يمكن أن تصرف فى الفساد والدمار ، ويمكن أن توجه إلى الإصلاح والتعمير والبناء — وهكذا كل قوة فى الحياة وهكذا كل قوة مادية . ولا سبيل إلى هذا غير التسامى ، ولاتسامى حقيق عند الجاهلين. وعلى هذا فلن ينتظر من المرأة الجاهلة — وكذا الرجل الجاهل — سوى الاستغراق فى الخيالات الجنسية ، وسوى التطلع الملهوف إليها ، وسوى الانصراف إلى الأحقاد والحسد والغيرة المشقية وكل تلك المعانى الحقيرة الذميمة التى تملأ أوقات الجاهلين وأفكارهم — وسوى الانقطاع إلى فن الدسائس للأزواج والأقارب والآخرين أيضاً — وسوى الذهاب مع الخيالات والخرافات بلا رجعة .

فإذا أردنا أن نعمل على تجنيب المرأة هذه المهاوى إلى حد ما وبقدر ما وجب علينا تمكينها من الأخذ بأوفر نصيب من المعرفة بل وجب علينا دفعها إلى ذلك دفعاً ... فتعليمها إذن يقربها من الله ويجنبها معاصيه ، وجهلها ينأى بها ويطوح بها مع الهالكين فى كل واد من أودية الهلاك .

والمسألة الجنسية هى كسواها من المسائل التى يأتيها الإنسان والتى تتصل به ، يصلحها العلم ويفسدها الجهل . فما من غريزة ولا طبيعة ولا عمل يعمله المرء إلا وهو محتاج إلى العلم وإلى هيمنته عليه ليقيه التخبط والزلل والخروج عن الطريق . وما من شىء

من ذلك ترك لطبيعته بدون أن يرعاه العلم وتحرسه المعرفة إلا كان مبيداً مدمراً ، وما من شيء قام عليه هذا الحارس الأمين وخفره خفارة صحيحة إلا جاء أدنى إلى الاستقامة والكمال وأبعد عن التهور والتهوك والضلال .

والناس كلهم — حتى العوام والهمج — إنما يتعايشون بالمعرفة والعلم والآداب التي يتوارثونها جيلا بعد جيل والتي يتلقونها بطرق التلقين المعروفة . أما لو تركوا ونزعاتهم دون أن يأخذوا عن البيئة وعن البيت وعن المدرسة علومها وأخلاقها وتقاليدها وتربيتها وقوانينها القائمة على التعليم — سواء أكانت تعاليم صحيحة أم كانت باطلة — لكانوا وحوشاً ضارية بل لكانوا شراً من الوحوش بأعمالهم وأحقادهم وغرائزهم المتفجرة بالجبروت ، ولما أمكن أن يتعايشوا تعايشاً يبقى على العمران ويرعى القوانين ، ولظلوا كذلك إلى أن تنهض العقول من جديد فتضع التعاليم والقوانين والأخلاق والآداب والتقاليد ... ولاريب في أن الإنسانية لو تخلت عن هذا كله لكانت مضحكة في كل أعمالها ولكان إملاء الغريزة الجنسية عليها متحللا من كل قيد أدبي أو خلقي ، ولارتفع هذا البرقع الشفاف الذي يجلل هذه الميول والنزعات بشيء من الحياء والاعتدال والقصد .

فالعلم إذن هو المهذب المنظم لأعمال الإنسان وغرائزه ، وكلما عظم سلطان هذا المهذب المنظم عظم التهذيب والتنظيم ، وكلما ضعف هذا ضعف ذاك . فالمرأة والرجل محتاجان إلى العلم بكل ألوانه وضروبه لئلا يضلا في متاهات الغرائز احتياجاً يجب ألا يكون فيه خلاف إلا إذا صح أن يزعم أن هناك عملا من أعمال الإنسان يصلح بدون العلم ويستغنى عنه.

والغرائز البشرية لا يصلحها الردع والكبت وإنما يصلحها التصريف والتنفيس . وكل شيء يكون منطلقاً مندفعاً أمام طبيعته يراد وقفه بالضبط والردع دون التصريف والتنفيس يحدث ضرراً محققاً . قف في وجه قذيفة منطلقة وانظر ماذا يكون ! أو حاول أن تقيم حاجزاً في طريق ماء جار جارف لا ينقطع بدون أن توجد له منصرفاً آخر وانظر ماذا يكون ! اقصد إلى غريزة جنسية ملتهبة مندفعة إلى غايتها واعمل على منعها بالضغط لا بالتوجيه والتوزيع والعلاج ثم اسأل علماء النفس ما الذي يمكن أن يكون ! إنهم ينبئونك أنه لا بد أن يحدث حينئذ إما أمراض جسمية أو أمراض عصبية أو نفسية أو خلقية خبيثة ، أو غير ذلك من الأضرار المحققة .. فإذا كان الذين يأبون تعليم المرأة إنما حملهم على هذا الإباء هو خشيتهم غوايتها وانطلاقها مع داعي الغرائز وتصريفها إياها

تصريفاً ضاراً سيئاً فليعلموا أنهم واهمون أكبر وهم ، وليعلموا ثانيـاً أن الخوف يجب أن يكون من الجهل والغباء اللذين يقضيان على المرء بأن ينطوى على نفسه وأن يعجز عن السير فى غير سبيل النزعات البدائية الأولية المدمرة . فالعلم واتساع أفق المعرفة هو الكفيل بتنظيم هذه النزعات وتوجيهها الجهات الحسنة النافعة على حسب إرشاد علم النفس . وهو الكفيل بالتسامى بها واستخدامها فى أحاسن الأشياء وأجداها على الهيئة الاجتماعية .

***

من الضرورى أن نسأل هؤلاء : ماهى وظيفة المرأة وما مكانها الطبيعى الذى يجب أن يضعها فيه استعدادها وأعمالها المطلوبة منها والذى تضعها فيه الشرائع ؟ أهى لا تعدو أن تكون أرض إخصاب وموضع بذر ثم لا شىء بعد ذلك ؟ أم إنها يجب أن تكون مخلوقاً مفكراً عاقلا فاعلا بالارادة والاختيار ؟ أما الاحتمال الأول فلا يمكن القول به ولا الذهاب إليه . وأما الثانى فهو الذى لابد من المصير إليه . وإذا كان ذلك كذلك فهل من المستطاع أن تؤدى هذه الوظيفة وهى جاهلة ؟ قد يقال إن من الممكن أن يعهد إلى جاهل جهلا مطلقاً بكل شىء باستنبات نباتات غريبة ويعهد إليه بزراعتها واختيار الأرض لها وحمايتها من جميع الآفات ، ومقاومة هذه الآفات إذا نزلت بها ، والعلم بها إذا حدثت ، وتقديم مايلزم لها من الماء ومن المقويات المخصبات، وبالقيام عليها قياماً صحيحاً كفيلا باستنباتها على أحسن وجه وأ كمله — نعم قد يقول جاهل بإمكان هذا ولكن هذا الجاهل لا يمكنه أن يدعى أن من المستطاع أن تقوم امرأة جاهلة على تكوين أولادها قياماً صحيحاً كفيلا بأن يكونوا كما يجب أو قريباً مما يجب . وذلك أن النبات إذا كان محتاجاً إلى رعاية شىء واحد فيه ، وهو الجانب المادى ، فإن الأطفال محتاجون إلى رعاية جوانب كثيرة فيهم أحدها الجانب المادى ، وهو أبدانهم وبناؤها بناء قوياً وتكوينها تكويناً سليما . وأبدان الأطفال تحتاج فى بنائها وتكوينها إلى أكثر جداً مما يحتاجه النبات لأنها معقدة أكثر منه ، ولأن هندستها أدق من هندسته ، ولأن فيها من العدد والآلات أعظم مما فيه . والفرق بينهما ليس أقل من الفرق بين بارجة حديثة وسفينة شراعية بدائيـة . هذا من الناحية المادية فقط وهى الأجسام — دع الأرواح والأخلاق والتقاليد والنزعات والعقول وكل ما يمتاز به الإنسان عن النباتات . فهل يقول إنسان إن المرأة الجاهلة تستطيع أن ترعى جانباً واحداً من هذه الجوانب رعاية صحيحة وأن تقوم عليه قياماً صحيحاً يقربه من النجاح وهل هناك جناية اجتماعية قانونية أكبر من أن يترك الأطفال ضحايا بريئة فى أيدى الجاهلات؟

الأميات : يدمرن أجسامهم وأخلاقهم وعقولهم وكل شيء فيهم ، وينمين فيهم الميول الأولية والخرافات الموروثة عن عصور الإنسان الأولى الجاهلة ، ويبعثن فيهم الضعف والخور والأوهام والفساد الاعتقادى والعقلى العام ، ويصغنهم بقوالبهن المعنوية والمادية الملتوية المشوشة ويخلقن فى خيالاتهم العوالم والأشباح والأرواح التى لا وجود لها !؟

ماذا تصنع هذه الجاهلة فى حالة واحدة من حالات الحياة تواجهها وتفرض عليها حلها ومواجهتها فرضاً ! ليفكر هؤلاء فى هذا تفكيراً عميقاً ولينظروا كيف يكون الجواب!

إننا نعتقد بحق أن الإسلام دين خالد عام ، فهل من الممكن أن يكون كذلك إذا كان يحرم تعليم المرأة ويقضى عليها بالجهالة الأبدية .

ونحن حينما نذكر العلم نريد العلم الناضج لا الناقص ، فإن هذا العلم النصفى أو الجزئى قد يكون عاجزاً عن أن يوصل إلى الأغراض المنشودة من التعليم ، بل قد يكون صاحبه شراً من الجاهل أحياناً .

ولسنا بعد هذا فى حاجة إلى التوكيد بأن كل الروايات الذامة لنوع من أنواع العلم أو الناهية عنه روايات باطلة مكذوبة . فجميع الروايات الواردة فى أول هذا البحث كذب ، ورواية النهى عن إنزال النساء الغرف وعن تعليمهن الكتابة هى رواية — على رغم تصحيح بعض الرواة لها — منكرة . وكذلك الرواية التى فيها إنكار على بن أبى طالب تعليمها الكتابة ، وكذلك جميع الروايات السابقة .

ولهؤلاء الناس الذين فرضوا علينا وفرضت علينا إمامتهم آراء عجيبة ، وفروق لا يؤيدها شيء من مراجع الحقيقة يذكرونها بين الرجل والمرأة : فى التعليم وفى الكتابة وفى غيرهما ، مثل ما ذكروه فى البخل والشجاعة والعى والفصاحة . فقد زعموا أن الفصاحة والشجاعة والكرم صفات محمودة فى الرجل مذمومة فى المرأة ، وزعموا أن نقائضها محمودة فى المرأة مذمومة فى الرجل ! وهذا هراء كله . فإن المحمود فى الرجل محمود فى المرأة ، والمذموم فيها مذموم فيه . فهذه الأمور المذكورة هى محمودة فى الرجل والمرأة معاً ، ونقائضها مذمومة فيهما .

وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتى : هل العلم خير وفضيلة ، أم شر ورذيلة ! فإن كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة ، وإن كان الحق هو الثانى فلماذا يباح للرجل ؟ ولا جواب عن هذا .

وليس من شك فى أن من يقدمون لأمتهم نساء جاهلات : بنات وأخوات وقريبات ليسوا بأقل إثماً ممن يقدمون إليها الشرور والمفاسد الخلقية والجرائم الشرعية — كلا بل إن الشرور والمفاسد والآثام هى بعض أفعال النساء الجاهلات .

وإننا نعلم أن الأجيال الآتيـة ستعجب وتسخر منا إن قدر لها أن تقرأ أو تعلم خلافنا فى هذه المسألة ومحاولتنا التدليل على جواز أحد الجانبين منها ، والتدليل على بيان فضيلة العلم وبيـان جواز أخذه والاتصاف به ، وتقول : أفى مثل هذا يختلف المختلفون ويتنازع المتنازعون ، ويحتاجون إلى حشد الحجج والبراهين !! ولكن لاعتب ولا لوم! فلولا سير الماضين فى طرقهم المظلمة أكثر الأحيان المضيئة أقلها — ولولا تعثرهم — ولولا تنازعهم وخلافهم فى ما هو من الضرورات المسلمة اليوم — بل ردهم وإنكارهم لذلك — لما استطاع إنسان هذا العصر أن يسير فى طريقه التى يسير فيها .

كراهة الحياة الدنيا : امتداح الجوع والفقر والمرض

الدعاية الواسعة للزهد المخدر ، هل جاء الدين لمحاربة العمران ؟

اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء ، ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره .

[زعموه حديثاً نبوياً صحيحاً]

نزل على جبريل بأحسن ما كان يأتينى صورة فقال إن السلام يقرئك السلام يا محمد ويقول إنى أوحيت إلى الدنيا أن تمررى وتنكدى وتضيق وتشددى على أوليائى حتى يحبوا لقائى ... وتوسعى وتسهلى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى فإنى جعلتها سجناً لأوليائى وجنة لأعدائى .

[زعموه أيضاً حديثاً نبوياً]

جاء رجل فقال يارسول الله إنى لأحبك ، فقال انظر ما تقول! فقال والله إنى لأحبك ثلاث مرات ، فقال إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه . وعن أنس قال جاء رجل إلى النبي فقال إنى أحبك فقال استعد للفاقة . وفى حديث آخر : اصبر أبا سعيد فإن الفقر إلى من يحبنى منكم أسرع من السيل من أعلى الوادى ومن أعلى الجبل إلى أسفله .

[زعموها أحاديث نبوية]

***

كانت العرب فى جاهليتهم — ولا سيما قريش — تنظر إلى الحياة الدنيا بعين المشوق المتيم ، وكانوا يحبون المال حباً جما ويأكلون التراث أكلا لما ، كما أخبر القرآن عنهم ، وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الاستمتاع به منها ، وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك ، كما كانوا يمقتون الفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروءة . ومن أمثالهم السائرة فى هذا (القبر ولا الفقر) . وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية

الاستمتاعية تجاراً كلهم ، ولاسيما أشرافهم وساداتهم . وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف وعنوان السيادة . وفي دلائل النبوة : (كانت قريش قوما تجاراً ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء) ، حتى لقد قيل إن كلمة قريش معناها التاجر .

ومن أعظم الدلائل على شأن التجارة عند قريش وشأن المال فى أنفسهم أن أم المؤمنين خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله — وهى فى مكان عظيم من المجد وشرف البيت والأرومة فى قومها — كانت فى حياة أبيها خويلد تتاجر وتستأجر الرجال من قومها ليقوموا على تجارتها فى الشام وغيرها . وكان قومها ينظرون إليها من أجل هذا نظرات الإعجاب والإجلال ، ويتمنى كثيرون من ساداتهم أن يظفروا بها زوجا . وقد استأجرت محمداً عليه السلام وعمره خمس وعشرون سنة للخروج بتجاراتها قبل زواجه بها . فلما رأت ما رأت من نجاحه عليه السلام ، ورأت تضاعف أرباحه وأرباحها أحبته حباً شديداً ثم رغبت فى الزواج منه . وقد سافر به عليه السلام — وهو غلام صغير — عمه أبو طالب إلى الشام ليروضه على أساليب التجارة ، وليحبب إليه الرحلات والأسفار فى سبيلها ، وليمرنه على الكسب وعلى الاتجاه نحو الثراء .

ومن الدلائل على تمكن هذه الروح فيهم — أى روح الاحتيال على الكسب والمال — أنه عليه السلام فى طفولته قد أجر نفسه لقريش ليرعى لهم أغنامهم . حدث بهذا عن نفسه الزكية وقال : (ما من نبي إلا رعى الغنم) قالوا له وأنت يا رسول الله قال : (وأنا ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) .

وقد كان لأهل مكة رحلات سنوية إلى الشام واليمن وإلى جهات أخرى متاجرين مصدرين وموردين : كانوا يجمعون حاصلات بلاد العرب وتجاراتها فيحملونها إلى الشام والبلاد الأخرى فيبيعونها هناك ، رابحين أرباحا طائلة مغرية ، ثم يرجعون بحاصلات الشام وبما فى الشام من ألوان التجارات وألوان العروض المطلوبة فى الحجاز وفى أنحاء البلاد العربية فيبيعونها على أهل الحجاز وعلى غيرهم من أهل الجزيرة ، ويخرجون بالأثمان الطيبة الكثيرة ... فكانت مكة بذلك محطة تجارية هائلة بالنسبة لذلك العهد ، وكانت ملتقى الصادرات والواردات من بلاد العرب وإليها . وكان لهذه الرحلات ولهذا التصدير والتوريد ولهذا الوضع شأن عظيم فى نفوس القرشيين ونفوس العرب أجمعين ...

وكانت قريش ترى أن هذه الحالة إحدى فضائلها وخصائصها التى امتازت بها وفضلت بها من أجل البيت ومن أجل سدانتها له .

ولا أدل على منزلة هذه الرحلات التجارية من أن الله أنزل فى شأنها سورة كاملة تدعى سورة قريش وهى قوله تعالى «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » أى إن هذه الرحلات فى الشتاء وفى الصيف من النعم العظمى التى تستوجب الشكر وتستوجب عبادة من وفق إليها ومن هيأ الأسباب لها وهو رب هذا البيت الذى كان لوجوده فى هذه البطحاء وفى هذا الوادى الأجرد الضيق فضل كبير ، بل الفضل كله فى إنماء هذه التجارات وتنظيم تلك الرحلات . وقد أطعمهم بها من الجوع ، فكان الناس من حولهم يجوعون وهم آمنون من هذا المرض الاجتماعى المخيف لمكانتهم التجارية الممتازة ، وآمنهم من خوف الكساد وخوف الفقر والفاقة وسائر ألوان الخوف لأنهم كانوا أقوياء وأغنياء ، والأقوياء الأغنياء يكونون دائماً مرهوبين محروسين لأنهم يستطيعون بقوتهم المالية — والمال مصدر القوات — أن ينالوا ممن يحاولون الاعتداء والبغى عليهم . فكانوا فى ضمان وأمان من هذه الناحية ... بل كان الناس فى الجزيرة وغيرها ينظرون إليهم بأبصار ملأى بالاحترام والحب والغبطة الظاهرة ، وقد يشوب هذا شىء كثير من الحسد الذى ينشأ عادة من وجود الامتياز والتفوق فى أحد الأمور . وقد عرضت هذه الحالة التى كان أهل مكة بها يتمتعون فى قوله : « ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ومما يشهد شهادة ظاهرة لحب القوم التجارة ما حكاه الله عنهم قاصاً موقفاً من مواقفهم الدالة على أنهم يذهبون كل مذهب فى هذا الحب ، وذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » وذلك أن الرسول عليه السلام كان يخطب أصحابه يوماً خطبة الجمعة فقدمت إلى المدينة قافلة تحمل تجارات مختلفة فعلموا بها فخرجوا إليها وتركوا الرسول يخطب ولم يبق معه إلا القليل ، وجاء فى الرواية أن الذين بقوا معه كانوا اثنى عشر رجلا .

ولما أثنى الله فى الكتاب على جماعة من المؤمنين أثنى عليهم بأن التجارة والبيع لم يلهياهم عن الله وعن الصلاة فقال « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من الدلائل على حبهم البيع والتجارة والمال .

وقد كانوا يعتقـدون — وهكذا يعتقد كل جماعة صبغت بالروح التجارية — أن الكسب والقدرة عليه والحذق فيـه برهان النبوغ والعبقرية والذكاء والسيادة . وكانوا يرون ماحكى الله فى كتابه عنهم « ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى » وقال « ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيتـه على علم ... » إلى آيات أخرى فى هذا المعنى ... يريدون بهذا أن الغنى إنما ينال الغنى بعلمه وذكائه واستحقاقه لصفاته الذاتية . وهذا غير مايراه الكسالى والعاجزون من أن المسألة لاتعدو أن تكون حظوظاً عمياء . وما من عبارة تبلغ مبلغ هذه الآيات فى مدح القادرين على الكسب وذم العاجزين عنه : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لايقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً . هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعـدل وهو على صراط مستقيم » . والله إنما يخاطب القوم ويحتج عليهم ويضرب لهم الأمثال بما استقر فى نفوسهم وبما عرفوه وصدقوه .

وقد أراد الله أن يعدد مناً امتن بها على رسوله فعد منها منة الغنى بعد الفقر كما عد منة الهداية بعد الضلالة ومنة الإيواء بعـد اليتم والشتات فقال : « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى . » فالامتنان بالغنى قرن بالامتنان بالهـدى . وأى برهان يساوى هذا فى أن العرب كانوا ينظرون إلى الغنى وتحصيل المال مثل ما ينظرون إلى سائر الكمالات كالصحة والكرم والشجاعة والنبل والمروءة والعلم وغيرها ، وأنهم كانوا ينظرون إلى الفقر مثل نظرهم إلى سائر العيوب والنقائص كالمرض والعجز والضعف والجبن والبخل والدناءة والجهالة والضلالة وسواها . ولا ريب فى صـدق هذه النظرات ، فإن الغنى المكسوب يدل على صدق الذكاء وصدق الإرادة وصدق التصرف فى الحياة وعلى النشاط والدأب وعلى حب الجمال . وهذه كلها كمالات إنسانية ... أما الفقر فإنه يدل على نقيض هذه الشمائل : على الغباء وضعف الإرادة والعجز عن التصرف وعلى الكسل والهوان والرضا بالقبح ... وهذه جمعاء من شر الخـلال . والثراء المكسوب مما يدخل تحت الطاقة الإنسانية بدليل أن من يعملون له بقوة وصدق وذكاء ينالونه . فمن عجز عنه ورضى بالفاقة واستسلم لها كان معنى هذا أنه قد فرط فى استخدام قواه القادرة رغبة منه فى الكسل وركوناً إلى الضعف . ومن كان كذلك كان حرياً بالملامة .

وقد كانوا يرون أن من الدلائل على قرب الإنسان من الله وجدارته بحمل رسالته

م — ٩

أن يكون غنياً مفرط الغنى ، وأن تكون له كنوز وجنات تجرى من تحتها الأنهار وتتفجر خلالها الينابيع كما كانوا يرون من جهة أخرى أن الفقير السيء الحال ليس خليقاً بأن يكون نبياً ولا أن يؤمن به الناس ويتبعوه ... وقد حكى الله عنهم قولهم : « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ... » « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً — إلى قوله — أو يكون لك بيت من زخرف ... » ... وهذا خلاف رأى الزاهدين القانعين ... ولا غرو أن يقتحم شعب — هذا رأيه وقوله — سدود الحياة ، وأن يلبى من دعاه إليها بذلك العزم الذى تناثرت أمام وثباته العروش . وحب الحياة وحب طيباتها أساس كل نشاط وإبداع ونبوغ ... وقد كانت قريش — من أجل هذا وغيره — فى مدينتها المقدسة ، فى تلك الأيام الجاهلية — يوم أن كانت ترى فى الحياة هذى الآراء — منعمة متفضلة على زوار مدينتها ، لقدرتها المالية ونشاطها الاقتصادى ، فكانت تطعم الحجيج وتسقيهم وتؤويهم بدون أن تتقاضى منهم أجراً ، بل كان أشرافها يتنافسون على ذلك ، وكان الفائز بإطعامهم يعد فائزاً بسنام المجد وضئضىء الشرف .

ومن المصائب أن الناس هنالك لما أن تغيرت أفكارهم ونظراتهم إلى الحياة وآمنوا بالزهد والقناعة صاروا هم ينتظرون حياتهم من الحجاج ، وأصبحوا فى مكان المنعم المتفضل عليه بعد أن كانوا فى مقام المنعمين المتفضلين ! فلننظر كيف تهبط الأفكار بالأمم وكيف تصعد بها !

ومن براهين منزلة المال فى نفوسهم أيضاً أنهم كانوا يتعجبون — بل ينكرون — أن يهتدى الفقراء ويضل الأغنياء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الغنى لا بد أن يكون ألمع ذهناً وأقدر على معرفة الحق وأعظم كرامة على الله من الفقير بدليل نجاحه فى الدنيا . فلو كان عقله وتفكيره دون عقل الفقير ودون تفكيره — ولو كانت أيضاً منزلته عند الله دون منزلته لما أمكن أن يخص بالثراء ، لأن الثراء إما أن يكون بالحيلة أو بالفضيلة ، وعلى الاحتمالين معاً فالغنى الوجيه أولى بمعرفة الهدى ! ومن قولهم — كما حكى القرآن — : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه ... » .

ومن حديث القرآن عنهم أن التكاثر بالأموال والأولاد قد ألهاهم وشغلهم حتى زاروا المقابر ، أى حتى ماتوا كما فى قوله : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » .

وكما فى آيات أخرى معروفة . ومعنى هذا أن الحياة قد شغلت وجودهم كله وملأته بأسباب طلبها .

وقد كان حب الجمال دائماً هو مبدأ حب الحياة — ومن الممكن أن يقال على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال — فأنت صادق إن قلت : أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت : أحب الحيـاة فأحب الجمال ... وقد بلغ العرب — أيام الجاهلية — فى حب الجمال مبلغاً جعلهم يكادون يصيرونه — أى الجمال — ويصيرون التغنى به موضوع شعرهم وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق ... ونحن لو جمعنا كل ما خلفوه من شعر وأدب وقصص ثم قسمناه أقساماً لوجدنا أن ما قالوه فى الجمال وحده وفى أوصاف الجميل الجسدية والروحية أضعاف ما قالوه فى كل مواضيع الحياة الأخرى ... وقد كانت المرأة عندهم — وهى كذلك عند الأمم كلها — مجلى هذا الجمال ورمزه ومبعثه وصورته البارعة الفاتنـة ، فأكثروا من القول فيها وفى أوصافها وأوصاف أجزائها ، ولم يجدوا غضاضة — لاسوقتهم ولا أشرافهم — فى ذلك ، بل لم يجدوا غضاضة فى أن يتقدم أحدهم ليمدح ملكا من الملوك فيبدأ مديحه بالمرأة وبجمالها ومحاسـنها الظاهرة والباطنة ، بل اتفقوا — المادح والممدوح — على أن ذلك هو ما يجب أن يصنع حتى قالوا فى هذا : « إذا كان مدح فالنسيب مقدم » . وقد أبدعوا كل الإبداع — أو أغرقوا أجمل الإغراق — فى تحديد صـفات الجميل المادية والمعنوية ، وأنجدهم فى إبداعهم وإغراقهم خيال وثاب ، فسموا بالحب والمحبوب بل والمحب سمواً لا يزال حتى اليوم — وقد يبقى الأبد كله كذلك — فوق المتناول . فألهبوا خيال أمتهم ، وحلقوا بها فوق كل سماء وكل وجود ، وطافوا بها فى عوالم كلها النور والبهجة والسرور . فكان هذا كله إعداداً لها لأن تثب وثبتها التاريخية الكبرى ، يدفعها ذلك الخيـال المشبوب المرهف ، وذلك التصور للجمال الذى أبدعوه وابتدعوه . وشعر العرب خليق من أجل ما ذكر بأن يسمى شعر الجمال ... وقد ثبت فى تاريخ كل الأمم التى أوجدت التاريخ أنها كانت تذهب هذا المذهب فى حب الجمال وتصوره — على درجات متفاوتة — فالمصريون والهنود والإغريق والرومان والعرب — وكذلك الغربيون اليوم — كانوا هكذا . وقد يدلنا على هذى الحقيقة ما تركته لنا هذه الأمم من آثار وبنايات ورسـوم وتماثيل وأشعار وآداب — كما ثبت من جهة أخرى أن الأمم التى لا تكون كذلك تعجز عن أن تبدع فى الحياة وعن أن توجد لهـا بين سطور التاريخ حديثاً يقرأ فيشوق . ومن الواجب أن نعتقد أن الأمم أجمع إنما هى صنع خيالها ،

وأن خيالها إنما هو هبة رجالها الذين استطاعوا أن يسبقوها فى التصور والتصوير وأن يحدوا لها على أنغام المثل العليا . فإن الأمة تتخيل فتفكر ثم تعمل .

ولكن كل أسلوب وكل كلام فى محاولة التدليل على فضل المال وفضل القدرة على كسبه عند العرب لايبلغ مبلغ هذين المثلين اللذين نثبتهما هنا : أحدهما ماجاء فى حديث بدء الوحى ، وذلك أن الرسول عليه السلام لما أن تجلى له الملك أول ما تجلى وأمره بالقراءة ونزل عليه ببعض القرآن رجع إلى زوجه خديجة مذعوراً وهو يقول (زملونى زملونى) ثم قص عليها الخبر وقال لها (لقد خشيت على نفسى) فقالت له خديجة : كلا والله لايخزيك الله أبداً — وفى رواية لايحزنك الله أبداً — إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . والمثل الثانى أن أذى المشركين حينما ألح على المسلمين خرج أبو بكر قاصداً الهجرة كما خرج غيره فلقيه أحد أشراف قريش وهو فى طريقه مهاجراً ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومي فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى . فقال له ذلك الشريف المشرك : إن مثلك يا أبا بكر لايخرج ولايخرج . إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار .

والشاهد فى الروايتين قوله (تكسب المعدوم) أى تكسب الشيء الذى لايستطيع سواك أن يكسبه لبعد مناله ،ولأن كسبه يحتاج إلى وسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هى القوة والمهارة ، وإلى نفس متوثبة طموح ... وهذا يساوى أن يقال (كلا والله لا يخزيك الله ، إنك لرجل تاجر ماهر) ، وأن يقال (إن مثلك لايخرج ولايخرجه الناس لأنك رجل تفوق الرجال جميعاً فى القدرة على كسب المال وعلى النجاح فى التجارات) وهذا آية فى أن قريشاً كانت ترى القدرة على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة .

وقد ألهمت هذه الروح عمرو بن العاص قولته المشهورة : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ذكرها عنه الجاحظ فى كتاب البخلاء — وقد رويت حديثاً أيضاً . ويعنى بذلك أن الواجب على العاقل أن يدأب فى طلب الدنيا دأب من يظن أنه لن يموت وأن حاجاته ومآربه لن تموت ولن تنتهى . ومعنى هذا بذل كل ما فى طوق القوة العقلية والبدنية رجاء الظفر بأثمن ما فى هذا الوجود من جمال . ومثل هذا القول لن يوجد

إلا لدى أمة استطاعت أن تفهم الحياة وأن تستمتع بها استمتاعاً بريئاً من العقد النفسية ومن العلل الاجتماعية ، ومن العقائد الصوفية الزهدية ... وقد تلفتت المنافسة اليهودية العنيفة إلى هذا المجتمع الاقتصادى ، فلم تر لأقدامها هناك موضعاً ، فرجعت مشيحة بوجهها تلمس الأماكن الضعيفة فى الجبهة التجارية العالمية ، فوثبت على المدينة المنورة وعلى ماحولها من القرى والواحات ، فأنشأت لها ثمة مراكز عديدة حصينة لأن أهل المدينة كان وجههم واهتمامهم إلى الزراعة دون التجارة . أما مكة ، وقد كانت أعظم سوق تجارية فى البلاد العربية كلها ، فقد كانت بمنجاة من هذا الخصم الشديد المنافسة القوى الضغط على من يحاول مجاراته ومناوأته . وهذا لأن القرشيين كانت لديهم حينذاك مناعة اقتصادية تفوقت على البراعة اليهودية . ومثل هذا يقل أن يوجد فى شعب من الشعوب مهما علا شأنه وسمت روحه المالية ، لأن اليهودى قد استطاع بمهارته وبأساليبه التجارية الرائعة الخفية المدارك والمسالك أن يهاجم المعاقل الأوربية والأمريكية وأن ينال منها مايريد — هجوماً ودفاعاً — وحسبك بالأوربى والأمريكى منافساً .

وقد يطيب للقارىء هنا أن يسأل : ما السر فى تمتع قريش ومن معهم بهذه الروح الاقتصادية القوية ، وما العوامل الحقيقية العاملة على تنميتها وعلى حفظها من الانهيار والدمار وقد يطيب لنا نحن أن نحاول الجواب على هذا السؤال فنقول :

إن الشعوب والأمم لها دائماً حالتان : حالة طبيعية سليمة ، وحالة أخرى تتواثب وتتوافر عليها الأمراض الاجتماعية والنفسية والاعتقادية .. أما الشعوب والأمم التى تكون فى الحالة الأولى ، أى الحالة الطبيعية فإنها تنظر إلى الحياة نظرات صحيحة سليمة وتتناولها تناولا صحيحاً سليما ، وتأخذ بها أخذاً صحيحاً سليما ... وهذه النظرات والتناول والاستمتاع توجب أن تتناول الحياة بأجمل وأحسن صورها وبأبرع وأقوى احتمالاتها وتقلباتها . لأن الحياة لها جوانب مريضة وجوانب أخرى سليمة — أى جوانب عادية طبيعية وجوانب أخرى تكيفها الأمراض والأسقام . والشعوب السليمة أو القريبة من السلامة إنما تقبل من الحياة جانبها السليم ووجهها المشرق الباسم . أما المريض فإنها ترفضه وتنكره بقوة مزاجها وتفكيرها وصحتها لأنه غريب عن طبيعتها ... وأما الشعوب التى تكون فى الحالة الثانية — أى حالة الاعتلال والانحلال — فإنها تحرم هذه النظرات الصحيحة للحياة وهذا التناول والاستمتاع الصحيحين السليمين ... وحينئذ تصوغ فلسفتها

النظرية والعملية أيضاً صياغة فاسدة ، فتهب تنشد الفقر والمرض والجوع والذل والموت الاجتماعي وكل ضروب الشقاء بكلامها وأعمالها ، كالذي حدث عند كثير من الأمم الشرقية وعند المسلمين في عصور انحلالهم .

وقد كان العرب — ولاسيما قريش — متمتعين بالحالة الأولى أو القريب منها — وهذا مقصود به جانب التفكير والفهم للحياة لأن الجوانب الأخرى كانوا فيها كغيرهم مرضى . والسبب في نجاة العرب في هذا الوجه من وجوه الحياة أن أسباب فساد النظر إلى الوجود تتلخص في أمور : منها الحرمان والفاقة الناشئة من فساد الحكم وظلمه وطغيانه . ومنها الظلم الأدبي الذي ينصب على الشعوب بغزارة باسم الدين أو على حساب النظم الاجتماعية أو التقاليد البالية الجائرة . ومنها الاضطرابات التصورية التي تتولد في العادة عن حالات خاصة تصيب المجتمع المضطرب وتصيب أهله بألوان كثيرة من الشذوذ . ومنها شيوع المذاهب الفلسفية والدينية المختلة . ومنها جور الطبيعة الجغرافية — أي بأن تكون طبيعة البلاد غير مستقرة ولا ثابتة ولا مأمونة المفاجآت . فإن مثل هذه الطبيعة توحي إلى أهلها بالكثير من الأفكار التي لا تكون في العادة عادية ولا سليمة من ناحية التصور والتصوير إلا إذا كان أهل مثل هذه الطبيعة قد اجتازوا جميع مراحل الطفولة الإنسانية وبلغوا سن النضج والاستواء .. والكائنات الحية بل والجامدة هي بلا ريب أبناء طبيعتها والأبناء على رغم كل خلاف في سنن الوراثة وقانونها لا بد من أن يأخذوا من آبائهم شيئاً بل أشياء . ومنها غير ذلك مما عليه الظلم أو فقد العلم ، مما يجعل النظر إلى الحياة نظراً غير صحيح وغير سليم .

والعرب كانوا في جاهليتهم وفي جزيرتهم بعيدين عن جميع هذه الأسباب ، فكانوا ينظرون إلى الأشياء بعين الصحيح السوي في تفكيره وعقيدته وغريزته ، فكانوا يستمتعون بها بكل الأساليب استمتاع من عداه المرض بكل أشكاله وصوره : بحياته وقواه.

هكذا كان العرب في جزيرتهم وجاهليتهم بينما كان العالم كله شرقيه وغربيه تنوء كواهله الواهنة المحطمة بالمذاهب الصوفية ، وبالآراء الباطلة الفلسفية ، وبالتقاليد والقوانين المستبدة وبكل ما يوهي ويوهن . . . حالة لو أن أحد علماء النفس والاجتماع التفت إليها بعين علمه لرأى العرب في جزيرتهم بين الأمم يشبهون واحة خصبة خضراء ، وسط صحارى لا حدود لها جدباء . وهذا كما لا يخفى إذا استطاع ألا تخدعه المظاهر المزيفة ، ولا السمعة

القديمة المكذوبة ، ولا السلطان الواسع المهلهل ، ولا الضعف المجلل بالدعايات ، ولاغير ذلك مما يصرف عن الحقائق .

مما يجب أن يلاحظ هنا — ولا أدرى ألاحظه أحد أم لا — أن الأمم حول جزيرة العرب كانت إذ ذاك تتلوى تحت أعباء الملكية المستبدة الطاغية التى كانت تأخذ كل شىء من الشعب ثم لا تعطيه شيئاً . ولكن العرب قد استطاعوا بأخلاقهم العجيبة الأبية وبتربيتهم التى لم يمسسها الذل المميت أن يرتفعوا فوق هذا النظام وأن ينجوا منه ويأبوه . فلم تستطع الملكية — وكل الملكيات فى تلك العهود ملكيات طغيان واستبداد — أن تجد لها بينهم مكانا . وقد عد المؤرخون الجاهلون الذين تولوا الكتابة والتأليف عن العرب وأحوال العرب هذا من دلائل انحطاطهم وطبعهم على الفوضى وبغض النظام. غير أن علماء النفس والاجتماع لا يشكون اليوم — لو سئلوا — فى أنه من براهين سموهم وسمو تربيتهم وتحليقهم فوق ما يجلب الهون والاستعباد . وقد رأينا الأمم فى العصر الحديث لما أن بلغت الرشد الخلقى والقانونى والاجتماعى — أو كادت — تعصف بتلك الملكيات الجائرة ، وتنطلق بسرعة وشغف إلى النظام الجمهورى . ولم تبق من الملكيات إلا ما كان اسمياً فقط ، وما يجرد الملوك من الملك ، وما يسلبهم كل سلطة سوى سلطة الموافقة والتوقيع . وقد عد هذا من حسنات العصر الحديث وفضائله وتسامى عقله . وقد أبى الرسول الكريم وخلفاؤه الأولون أن يكونوا ملوكا ، وما استطاع العرب أن يصبحوا ملوكا حقيقيين إلا فى دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من العواصم خارج بلاد العرب . وقد أشار الله إلى هذه الفكرة بقوله: « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكذلك يفعلون » فالملوك إذن كانوا يفسدون ، وكانوا يذلون الأعزاء . وهذا ما يأباه العرب وما يرفضونه . ومن هنا جانبوا النظام الملكى .

ومن رأى جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، ورأى ترفعه على أخلاق الملوك وعلى كبريائهم ، وشاهد تواضعه وقربه من الشعب وقرب الشعب منه علم كيف تنأى أخلاق العرب — جبلة وطبعاً — عن جبروت الملوك وعن مراسيمهم التقليدية المعقدة التى تزرع الأحقاد والعداوات فى الصدور — وعلم أنها عند العرب إمامة أصدق منها ملكية . وقد قيل إن بين العرب وبين الانجليز توافقاً فى الأخلاق ، ولو قيل إن أظهر دليل على هذا هو نظام الملكية عند الأمتين وتجردها من الطغيان والاستبداد

واختصاصها بالحب المشترك المتبادل بين الشعب والملك ورفع التكلف ، لكان قولا صادقاً .
ومن حضر مجلساً من مجالس جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود آمن بصدق هذا كله .

وليس بعث محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية لمجرد الصدفة أو لمجرد الاختصاص أو حب الاختصاص الذى لاسبب له ، أو بمجرد القضاء والقدر اللذين يتصورهما العامة وأشباههم من الخاصة ، أو لنسب وانسجام بين القدرة الإلهية وبين هذه الجزيرة وأهلها . كلا لا شىء من ذلك . ولكنها الشمس إنما تشرق فى مكانها وأوانها ، والنجوم إنما تدور فى مداراتها وتطلع فى أوقاتها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . وهذه قضية فى حكم البدهيات عند علماء الاجتماع لا يختلفون فيها وإنما يختلفون فى أسبابها وعللها . ولو أن العرب لم يكونوا كذلك لما استطاعوا أن يحملوا هذه الرسالة ولا أن يقوموا بحقها لو أنها فرضت عليهم فرضاً .

والنهضات والقيادات الدينية تشبه من وجوه كثيرة النهضات والقيادات السياسية من حيث وجوب التهيؤ والاستعداد والصلاحية لها . ولن يبعث الله رسالته إلى أمة فاقدة لعناصر النهوض والاستعداد للنهوض بها ، كما أنه لن يسود شعباً على الشعوب وهو أقل منها علماً وعقلا وأخلاقا وصفات بل ولا وهو مثلها . بل لابد من الامتياز ليكون سبباً للسيادة ومقتضياً للتفوق ... بل القيادة الدينية بمعناها الصحيح العام تلزمها القيادة السياسية والإدارة العامة وكل ما هنالك ... وهذه الكفايات لا يمكن أن تهبط على الشعوب من السماء : فالسماء كما أنها لا تمطر ذهباً ولا فضة فإنها لا تمطر أيضاً سيادة ولا مجداً ... ولا يمكن أن توجد فيهم طفرة بدون أسباب وعلل ... كل هذا صحيح ولكن ما الذى حدث ؟

حدث أن أرسل الله إلى عبده ورسوله محمد عليه السلام فى الأوان المهيأ المعلوم وعند استجماع الشروط ، يأمره بأن يبعث قومه العرب ويبعث العالم معهم بعد أن علم أنهم قد تهيأوا لهذا البعث والانبعاث . فوثبوا وثبتهم فدخلت الأمم والشعوب برمتها فى دينهم ودولتهم ... ولكن من سوء حظ الإنسانية — والحظ مهما نطلقه نقصد به غير الحظ عند العوام ونظرائهم — أن كل حادث مهما كان سعيداً لا بد أن يحمل معه نتائجه ... هذه الحضارة والكشوف العلمية الحديثة وفوائدها تجل عن الإحصاء قد جرت معها نتائجها — أو على الأصح ما عد نتائج لها — حملت معها هذا التدمير المروع وهذه

الحروب العلمية المهلكة ، وكذلك هذان البعث والانبعاث العربيان قد حملا معهما نتائجهما وذلك أن الشرق كان – وهو لا يزال كما كان – يتثاقل تحت هياكل الأديان والمذاهب وتحت بقاياها المحطمة — والأديان كلها كما هو معلوم كان مهبطها الشرق وحده . فهناك أديان الهند والصين وسائر أجزاء الشرق الأقصى . وهذه الأديان والمذاهب كلها تقدس الألم والعذاب والحرمان والتجرد من اللذائذ المادية ، وتقدس الاستسلام والمسكنة والهوان والذل وسائر هاتيك المعانى ، ذاكرة أن العناية بالروح والروحانيات هى السبيل إلى الكمال وإلى السعادة الأبدية . وما فتئت الهند وسواها حتى اليوم تتمزق تحت سياط هذه المذاهب وتئن تحت أثقالها ... وهناك بقايا الديانة المسيحية المحرفة الملفقة وما تدعو إليه من الرهبانية ومن الانقطاع والانفصال عن الدنيا ومن الحث لأتباعها وللمؤمنين بها على أن يعملوا لأن تكون أموالهم وتجاراتهم ومنازلهم وأجران قمحهم وكل ما يطلبون فى السماء ، حيث لا سوس ولا لصوص ، على تعبير الإنجيل ، وحيث لا فساد ولا كساد — ثم ما تنادى به من الخضوع للظالمين المعتدين وإعطائهم ما يريدون من ضرب الخدود والجلود وأخذ الأردية والأزر ، وغير ذلك من فروض السخرة ، حتى إن من سخر للسير ميلا وجب عليه أن يسير ميلين — كما تقول نصوص هذه الديانة .

ومن المعقول المفروض أن يكون كل هذا مما يدعو إليه هذا الدين ، لأنه نشأ فى كنف قسوة أعدائه الأقوياء على أيدى أهله وحوارييه الضعفاء . ولا بد من استسلام الضعيف الآتى بالمبادىء الجديدة لمن يسوده ويحكمه ، ولا بد أن يحض الرؤساء من أهل هذه المبادىء أتباعهم على الخنوع وأن يكون شعارهم : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » أى اعطوا إله الأرض كل ما يطلبه منكم كما تعطون إله السماء ذلك . ولو لم يدعوا إلى ذلك لدمروا .

وهنالك الديانة اليهودية والمجوسية وسواها من الديانات الفارسية — وهناك ديانة الصابئة ... إلى أديان أخرى كثيرة يموج بها الشرق إذ ذاك موجا وينوء بأعبائها نوءا .

وكانت هذه الديانات والمذاهب تكاليف باهظة تدفع ثمنها رجولة هذا الشرق وسعادته وقوته وحياته . وكانت الحالة الاجتماعية والقوانين الاجتماعية تعمل بدأب وإخلاص على تنمية هذه الآراء والتعاليم عملا حثيثاً متواصلا . فالحكومات ورجال الدين وغيرهم وما فرضوه وخلفوه ونشروه من يأس وقنوط وحرمان وإذلال وجهل وظلم

وأشياء أخرى كانت إحدى نتائجها فساد التصور وفساد الذوق وفساد الحكم على الأشياء . بل كان إحدى نتائجها المرض الأدبي العام ... وكان كل ما يرى ويعلم هناك حينئذاك يوحي لهذا الفساد بالبقاء والاستمرار .

ولكن بينما كان كل شيء في هذا الشرق ، بل وفي الغرب ، كما ذكرنا وفوق ماصورنا إذا بالخيول العربية تنساب في سهول هذا الشرق انسياب النور بعد ليل اشتد ظلامه وطال مقامه . وإذا بهذه الشعوب والأمم تتفلت من تلك الأصفاد والأغلال أو على الأصح تحاول أن تتفلت . ثم تعلن مختارة راضية دينونتها لدين العرب ودخولها في دولتهم . ولكن كان ما ذا ؟ دخلت هذه الشعوب والأمم في الدولة العربية والديانة العربية والثقافة العربية تحمل معها بقايا أصفادها وأغلالها وتصوفها وزهدها ورهبانيتها واستسلامها وكل ما كانت فيه . فوجدت العرب الأحرار — أبناء الحرية وأبناء الصحراء الحرة ، الحر ما فيها — لايعرفون سوى التساهل والإخلاص وسلامة الضمائر وحسن الظن والسرور بكل من يفد عليهم معلناً قبوله ما جاءوا به ... وهنالك في تلك البيئة العربية الحرة المتساهلة راح أبناء هذه الشعوب والأمم ينفثون تلك الآراء والعقائد والجراثيم الاعتقادية على حساب الإسلام وعلى أنها لباب الديانة الإسلامية — وراحوا يؤلفون ويقصون ويعظون ويرشدون ويفسرون ويحدثون ويتصوفون ويزهدون ... فامتلأ الجو بالدخان وغامت السماء الصافية الصحراوية ، واحتجبت بالغيم الذي يمطر الشقاء والعذاب ، وأخذ يتلاشى ذلك النور المشرق من فوق جبال مكة وأخذ يخالطه الظلام ويطغى عليه ... فتمت المصيبة وأطبق الظلام ثم رجعت هذه الشعوب إلى ماكانت عليه تتخبط في دياجيرها وتتهاوى في عذابها ، ولكنها هذه المرة راحت تتخبط ومعها قسم كبير من العرب أنفسهم الذين رفعوا المشاعل ، فكان الخطب أفدح .

احترف هؤلاء الأبناء صناعة الدين والعلم ، وصار أكثر من يدعون العلماء والشيوخ منهم . وأسباب هذا معقولة طبيعية . فعمدوا إلى القرآن والسنة وإلى مبادىء الإسلام يحاولون فهمها أو يحاولون الكلام فيها ، وراحوا يفسرونها بالروح التي دخلوا بها . وكانوا عاجزين عن أن يدركوا إدراكا صحيحاً شرائع الإسلام وأوامره ونواهيه ونصوصه وأهدافه لأمور : منها أنهم كانوا لا يعرفون اللغة العربية معرفة صحيحة كاملة لأنهم غرباء عنها ، ومن تعلمها منهم لم يستطع النفوذ إلى أسرارها نفوذ الخبير . ومن جهل اللغة جهل ما أنزل فيها بلا شك . ومنها أنهم دخلوا يحملون في نفوسهم وعقائدهم جراثيم

ذلك المجتمع الفاسد الذى خرجوا منه : يحملون مبادىء خبيثة ورثوها عن عهود الاستبداد والحرمان والظلم ، وعن العبودية لغير الله ، وعن تلك السياط التى كانت تتلهب على ظهورهم ، وتنتزع جلودهم ، وتعلو وجوههم ، وعن ذلك الكذب والدجل الكهنوتى ، وعن تلك العقد والعلل النفسية التى ولدها ذلك الشر الشامل المستطير فى تلك العهود وعن تلك النزغات الصوفية الزهدية المخدرة ... فكان من العسير أن يتخلصوا منها لمجرد أن أعلنوا الدخول فى الديانة الجديدة ، وكان من العسير ألا تكون تلك البقايا والمخلفات مسيطرة على ما يكتبون ويقولون . بل كانوا يلفظونها زاعمين أنها الإسلام حاملين عليها مؤولين ما لا يمكن حمله عليها من نصوصه ، مختلقين الروايات والأحاديث والأقاصيص ليؤيدوا بها ذلك الباطل .

وقد حاول هؤلاء أن يتقربوا إلى أصحاب الدين الجديد وأن ينالوا رضاهم والحظوة لديهم ، فوجدوا بدون عناء كبير من التفكير أن أعظم وأضمن وسيلة إلى ذلك هو التدين والتظاهر بالدين والعكوف على التأليف والكتابة وعلى نشر الغرائب ونشر ما لم يسمع به أهل هذا الدين من أعاجيب الكلام فى الزهد والرقائق وامتداح الآلام وصنوف العذاب بل وامتداح الذل والمهانة وضآلة القدر وخمول الشأن ، بل وامتداح الأمراض والأسقام بل وامتداح الجهل والغباء ، بل وامتداح الجنون والعته والخبل ! !

وقد يذهب بعض الباحثين المفكرين إلى أن طوائف من أولئك الأبناء إنما حملهم على ما فعلوا وكتبوا وقالوا هو سوء القصد وإرادة الكيد لهذا الدين وأهله المنتصرين .. من الممكن أن يكون هذا المذهب والاحتمال صحيحاً فى نفسه وأن يكون غير ذلك ، فهذا محل للخلاف . ولكن الذى لاخلاف فيه هو أنهم أغرقوا العالم الإسلامي بطوفان من الكتب والمقالات المخدرة المدمرة التى تدعو بلا حياء إلى كل هذه الآفات والتى تمتدحها وتدعوها أسمى ما فى الأديان من مبادىء .

وإنى أستطيع أن أقول هنا — ولست أشك فى صدق ما أريد أن أقول — إننا لو حشدنا جميع المؤلفات التى تركها هؤلاء لنا ثم جهدنا على أن نخرج منها كتاباً واحداً أو رسالة واحدة لاتمدح الفقر والشقاء ولا تذم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب ، ولما وجدنا تلك الرسالة .

وقد أطالوا الكلام جداً ولونوا الحجج والأساليب فى الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها

— أعنى الفقر — وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوى تحت هذه اللفظة ، وأنه أى الفقر هو كل شىء ! فحكوا عن البسطامى — أحد شيوخهم المعبودين — قال أوقفنى الله بين يديه وقال لى : بم جئت يا أبا يزيد ؟ فقلت يارب جئتك بما ليس فى خزائنك منه شىء ! فقال وما هو يا أبا يزيد ؟ قلت : الفقر والإفلاس ! فقال جئتنى بكل شىء !! وقد زوروا هنا روايات لايحصيها المحصون . والروايات التى ذكرت فى بداءة هذا الفصل هى نموذج صغير لما زوروا فى هذه المسألة . ومما ذكروا أن الرسول قال لبلال : (الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً وإلا فالنار) . وقيل يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال (الأغنياء) . وقال (لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا) . وحكوا أنه عليه السلام دعى مرة للصلاة على رجل من أصحابه فقال (انظروا هل ترك وراءه شيئاً) فقالوا نعم ترك دينارين أو درهمين فقال عليه السلام (كيتان فى النار أو جمرتان) . وقيل له فى رجل آخر إنه ترك ثلاثة دنانير فقال عليه السلام (ثلاث كيات) وأنه قال (من ترك ديناراً فهو له كية) . وحكوا أن رجلا من أهل الصفة توفى فوجد فى مئزره دينار فقال عليه السلام (كية) ثم توفى آخر فوجد أيضاً فى مئزره دينار فقال (كية) كما حكوا أنه عليه السلام أبى أن يصلى على من ترك شيئاً . ورووا أنه قال : (إن الله إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء) . ورووا أنه قال (الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لاعقل له) وأنه قال (اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين) . والمساكين هم الفقراء البائسون اليائسون ، كما دلت موارد هذه الكلمة كلها فى القرآن . وأنه قال (الدنيا ملعونة ملعون مافيها) وقال (الدنيا جيفة وطلابها كلاب) ، (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء) وأنه قال مرة لأحد أصحابه (أما ترضى أن تكون لهم — يعنى الكفار — الدنيا ولنا الآخرة) فقال الصحابى بلى ، فقال (فإنه كذلك) (ما ذئبان جائعان ضاريان أرسلا فى غنم بأسرع فساداً فيها من امرىء فى دينه يحب الشرف والمال) . بل رووا أنه عليه السلام قال (المؤمن لايخلو من ذلة وقلة وعلة) — ذكره العجلونى وابن علان حديثاً ، وذكره الغزالى فى الإحياء على أنه من كلامه .

والروايات فى مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جداً لايخلو منها كتاب ! بل ادعى جماعات من هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات : إحداها كلمة : (ازهد فى الدنيا يحبك الله) ونظموا ذلك شعراً قائلين :

غاية الدين عندنا كلمات   مسندات من قول خير البرية

ثم عدوا الكلمات الأربع وذكروا منها الزهد . ولهذا قال الشيخ الغزالى فى كتابه مكاشفة القلوب وفى غيره من كتبه : إن الأنبياء ما جاءوا إلا لذود الناس عن الدنيا ! ومثل قوله هذا قال سائرهم .

ومن السهل أن يأخذ القارىء ما شاء من الكتب ثم يفتحه ثم يقرأ الأبواب فسيجد فى كل كتاب من هذه الكتب قولهم مثلا : (باب مدح الفقر) ، (باب مدح الفقراء) ، (باب مدح الزهد) ، (باب مدح الزاهدين) ، (باب ذم الدنيا) ، (باب ذم أهل الدنيا) (باب ذم الغنى) ، (باب ذم الأغنياء) ، (باب الترغيب فى ترك الدنيا) ، (باب الترهيب من الدنيا) ، (باب فضل الخاملين والساقطين) ... وحتى كتب الحديث الصحيحة تجد فيها هذه الأبواب ولا تجد ما يخالفها . وهذا أمر قد وقع عليه إجماعهم .

وهذا الشيخ النووى ألف كتابه (رياض الصالحين) لهذا الغرض — أى غرض الذود عن الدنيا والتنفير منها — وقد صدر الكتاب بأبيات من الشعر الميت جاء فيه :

إن لله رجالا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا إليها فلما علموا	أنها ليست لحى سكناً
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفناً

ولا يخفى على القارىء ما يرمي إليه هذا الشعر الذى بقى منذ قيل إلى اليوم أنشودة المنشدين ، وترنيمة الواعظين ، وخمرة الشاربين ! ولا يدرى هؤلاء القائلون لمثل هذا أن الرجال الفطناء إذا طلقوا الدنيا تزوجها بعدهم الأشرار والأغبياء فحكموا بها عليهم وعلى فطانتهم وقادوا العالم — وفيه هؤلاء الفطناء — إلى ما يريدون ويحبون ، وأنهم إذا ما طلقوها فقد هلكوا ولابد .

وقد وجدنا كتباً كاملة قد وضعت لهذه الأغراض ، فوجدنا ابن أبى الدنيا — وهو أحد الحادين بالفقراء — يؤلف كتاباً يسميه — من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئاً — (ذم الدنيا) ! ووجدنا كتباً كثيرة تسمى كتب الزهد . وهذا كله معلوم لافائدة من الإطناب فيه .

ومما لانزال نذكره بكثير من الألم والأسف أننا قرأنا فى كتاب قيم لإمام من أئمة الإسلام الأعلام أجللناه عن ذكر اسمه فى هذا المقام قال فيه : سئل أحد أئمة التابعين — وهو الحسن البصرى — عن رجلين : أحدهما عمل فى الدنيا بقصد أن يصيب منها

ليصرف ما يصيب فى مصارف البر ووجوه الخير وفى الطاعات وضروب الإحسان ... فأصاب منها ما أصاب فوضع كل ما أصاب كما أمر الله أن يوضع بإخلاص وصدق نية ... هذا رجل ، ورجل آخر أعرض عن الدنيا إعراضاً كاملا ، فلم يعمل فيها شيئاً وأصبح كلا على المجتمع ... أى الرجلين أفضل ؟ فقال : بعيـد والله مابينهما : بينهما كما بين المشرق والمغرب — الذى ترك الدنيا أفضل ! وقد نقل هذه الرواية والحكاية والفتوى الغزالى فى إحيائه مسروراً بها .

ولما أن كان رأى هؤلاء الشيوخ هو ذم الدنيا بكل وجوهها وفروضها ، وذم كل الأغنياء : من كانوا وكيف كانوا ! فقد ارتكبوا إثماً عظيما هنا لما قيل لهم : إن كثيرين من الصحابة كانوا أغنياء وأنهم لم يحاولوا أن يطلقوا الدنيا — أمثال عبد الرحمن ابن عوف والزبير وطلحة بن عبيـد الله وآخرين كثيرين — فقد ذهبوا يخلقون روايات فى ذم هؤلاء الصحابة الأغنياء ! وثلبهم ! وقد ذكر بعض هذه الروايات الحارث بن أسد المحاسبى والشيخ الغزالى وصاحب مجمع الزوائد وسواهم .

***

ولقد تطورت هذه الأعراض الجنونية عنـد هؤلاء تطوراً مخيفا ، فذهبوا — مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض — كل مذهب فى طرق السخف والعماية : فلم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك وقاموا يمدحون الأمراض والأسقام ! وقد جدوا أبلغ الجد فى خلق الروايات ونسبتها إلى من جاء لشفاء الإنسانية من جميع أمراضها ! ومن أقبح ما رووا هنا ما نقله الغزالى فى الإحياء وما نقله غيره أيضاً ، قال : جاءت امرأة إلى الرسول فقالت : يارسول الله إن عندى فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة ، فقال (قبلتها) ثم قالت يارسول الله إلا أنها لم تمرض فقال عليه السلام (إذن لاحاجة لى بها !) وذكر أيضاً أن رجلا بايع رسول الله على الإسـلام ثم قال إنى لم أشك ولم أدر ما الشكو فأشار إليه رسول الله قائلا : (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا) ! وحكى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقهـا ! وذكر الروايتين الأولين صاحب (مجمع الزوائد) فى كتاب الجنائز ... وذكروا روايات كثيرة جاء فيها أن الرسول دعا الله بأن يخص أصحابه والمؤمنين به بالحمى وسائر العلل وأن يهلكهم بالطعن والطاعون ! وأنه سـأل الله أن ينقل الحمى من أماكنها البعيدة والقريبة وأن

يجمعها على أصحابه المخلصين فى المدينة ... وروايات أخرى فى إمساك الحمى فى المدينة وإرسال الطاعون إلى الشام ! ومن المصائب أنهم صححوا هذه الروايات ولم يشكوا فى أنها من كلام محمد عليه السلام .

ولكن كل هذا لا يبلغ فى الشناعة مبلغ ما رواه الطبرانى عن أنس بن مالك قال لقد رأيت أصحاب النبى عليه السلام حوله يتباكون يريدون أن تذهب أبصارهم وأن يصبحوا عمياناً ! وأى قوم هؤلاء الذين يبكون لأن الله خلقهم مبصرين ولم يخلقهم عمياناً . . . ! وقد ساقوا أكاذيب متعددة جاء فيها أن الطاعون لما وقع فى الشام أخذ كبار أصحاب الرسول يسألون الله أن يصيبهم به ! وأن من أصيب به منهم خفق قلبه سروراً .

وإن أعظم برهان نضعه فى يد القارىء على أن الجنون قد بلغ بهؤلاء الشيوخ كل مبلغ أن نذكر أن الشيخ الأسيوطى ألف كتاباً عنوانه هكذا (كشف المعمى فى فضائل الحمى) وأن الشيخ ابن حجر العسقلانى – وهو من الحفاظ المشهورين – وضع كتاباً أسماه (بذل الماعون فى فضل الطاعون) ، وللسيوطى كتاب آخر اسمه (الحبر المبثوث فى فضل البرغوث) ولمؤلف آخر كتاب اسمه (الطرثوث فى فضل البرغوث) . وقد أكثروا جداً من الروايات التى قيل فيها إن المؤمنين والأتقياء الصالحين يخصهم الله بالأمراض والمصائب وأنه على قدر إيمان المرء ودينه يكون بلاؤه وعذابه ، وأن من يرد الله به خيراً يصبه ويصب منه ! والروايات فى هذا مشهورة يلوكها كل لسان وتكذب فوق جميع المنابر .

وهذه الروايات على قسمين : قسم صحيح ولكن معناه غير ما ذهبوا إليه ، بل المراد منه أن الذين يقومون بوظيفة الإصلاح الكبرى محاولين هداية الناس وإنقاذهم من الفساد والجهل والظلم والضلال الذى لا يخلو منه جيل من الأجيال لا بد أن يشقوا وأن ينصبوا وأن يبتلوا ... لأن الهمم الكبيرة والنفوس التواقة إلى الإصلاح تشقى ، ولأن الناس يتألبون عادة على من يريدون إخراجهم مما ألفوا واعتقدوا ... وقسم آخر منها غير صحيح .

وعند هؤلاء القتلة أن الفقر الذى مدحوه هو الفقر فى كل شىء . ومن ثمة جاءوا بأحاديث وروايات تنهى نهياً عاماً شاملا عن العمران وعن البناء وتأمر بهدم كل ما بنى مهما كانت الأغراض والمقاصد ! وقد سددوا إلى الإسلام وإلى نبى الإسلام طعنة نجلاء يوم نقلوا أن رسول الله خرج ذات يوم فرأى بناء مشرفاً فقال (ماهذا ؟) فقيل هذا بناء لرجل من الأنصار ، فسكت وحملها فى نفسه حتى جاء صاحب البناء فسلم عليه فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام ، صنع ذلك مراراً حتى عرف الغضب فى وجهه والإعراض عنه !

فشكا ذلك إلى أصحابه فقالوا له إن رسول الله خرج فرأى بناءك ... فرجع الرجل إلى بنائه فهدمه وسواه بالأرض ثم خرج رسول الله فلم ير البناء فسأل عنه فأخبر أن صاحبه هدمه فقال (إن كل بناء وبال على صاحبه) ورووا أن رسول الله رأى عبد الله بن عمرو يصلح كوخاً قد وهى فقال (إن الأمر أسرع من ذلك) — يعنى بهذا أن الدنيا أقصر عمراً وأقل شأناً من أن يحاول العاقل إصلاح شيء فيها ... ورووا أنه عليه السلام قال (يؤجر الرجل فى نفقته كلها إلا التراب والبناء فلا خير فيه) ! وأنه قال (إذا أراد الله بعبد شراً حسن له البناء) ! وفى حديث آخر : (إذا أراد الله بعبد سوءاً أنفق ماله فى البنيان) ! ونقلوا أنه عليه السلام قال : (من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة على عنقه) . ورووا أن العباس بن عبدالمطلب بنى غرفة فقال له النبى (اهدمها) فقال العباس أهدمها أو أبيعها وأتصدق بثمنها ؟ فقال (بل اهدمها) ! وأنه عليه السلام نهى إطلاقاً عن البناء. ورووا أنه قال :(إذا بنى الرجل المسلم سبعة أذرع ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين !) ورووا فى روايات كثيرة أن البناء إحدى أمارات الفساد والفسوق والهلاك.

وحكوا عند تفسير قول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون فى غوطة دمشق من البنيان ونصب الأشجار قام فى مسجدهم خطيباً ونادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه ! فحمد الله ثم قال : ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لاتدركون! إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطلبون ... فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ! ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركاباً فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين !

ورووا عن عبد الله بن عمر أنه قال — شاكراً الله على ما فعل — : والله ماوضعت لبنة على لبنة ولا غرست نخلة منذ قبض النبى .

ثم لم يقصروا عند هذا بل ذهبوا بعيداً فادعوا أنه عليه السلام قال — وهذه إحدى الطامات — : (إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته) ! نقله صاحب مجمع الزوائد من رواية الطبرانى . . هذا بعض ما رووا من الأحاديث والروايات فى النهى عن العمران والبناء .

ثم حاولوا أن يتناولوا جانباً آخر من جوانب الحياة بالتدمير والهدم ، فراحوا كالمجانين ينقلون روايات فى النهى عن الزراعة وفى ذم الزارعين : فنقلوا أنه عليه السلام

قال : (ما من أهـل بيت يغدو عليهم فدان — أى ثور الزراعة أو آلة الزراعة — إلا ذلوا) وأنه رأى يوما آلة الزراعة أمام بيت رجل من الأنصـار فأشار إليها وقال : (إن هذه لا تدخل بيتاً إلا أدخل الله فيـه الذل إلى يوم القيامة) كما ذكروا أنه عليه السلام نهى عن المزارعة وعن كراء الأرض ، وأن جماعة من الصحابة كانوا يكرون أرضهم فتركوا إكراءها من أجل هذا الحديث تاركيها بوراً — إلى روايات كثيرة .

***

ثم أخذت هـذه الأمراض أشكالا أخرى حينما قاموا ينقلون لنا روايات وأخباراً وآراء فى مدح القـذارة ووساخة المظهر وفى ذم النظافة ومحبى النظافة ! من ذلك أنهم نقلوا فى شمائل مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام أن ثوبه كان كأنه ثوب زيات ، وأنه قال : (إن العى والبذاذة من الإيمان !) والبذاذة هى قذارة المظهر وسوء الحال . ونقلوا أنه عليه السلام علم أصحابه أن يبصقوا وأن يخرجوا ما فى أنوفهم وأن يضعوه فى أكمامهم وأرديتهم ! وحكى الغزالى فى إحيائه — أو على الأصح فى إماتته — أن المسلم إذا كان ممن يميلون إلى النظافة فى البدن والثوب رباه شيخه ، وأن أحسن ضروب التربية لمثل هذا أن يلزم بكسح المجارى والاتصـال بالقاذورات ليعتاد اتساخ المظهر فلا يعنى بنظافة بدنه وثوبه ... وما من شىء يذكر فى هذا يمكن أن يكون برهانا على عظم إساءة هؤلاء إلى الإسلام مثل ما نقلوا عن الحسن بن على أنه أصاب لقمة فى مجرى الغائط والبول فأخذها وغسلها ثم دفعها إلى غلامه فلما توضأ قال للغلام : ناولنى اللقمة ، فقال الغلام أكلتها ، فقال اذهب فأنت حر لوجه الله ! فقـال الغلام يا مولاى لأى شىء أعتقتنى ؟ قال لأنى سمعت فاطمة بنت رسول الله تذكر عن أبيها أنه قال : (من أخـذ لقمة أو كسرة من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر فى بطنه حتى يغفر له) ! فما كنت لأستخدم رجلا من أهل الجنة ! قال الحافظ الهيثمى : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات ... وذكروا أنه عليه السلام ذكر مرة حوضه ومن يرده عليه أول الناس فقام عمر بن الخطاب وقال يا رسول الله من هم ؟ قال : (هم الشعث الرؤوس ، الدنس الثياب ، الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد) قال فقال عمر بن عبـد العزيز أنا والله قد نكحت المتنعمة فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى السدد ! لا جرم والله لا أدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى يلى جلدى حتى يتسخ .

ومما يقرب من هـذا ، وإن كان ليس منه ، ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا : إذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيـه ثم يتوضأوا منه ! وذكر صاحب القاموس فى مادة (قمل) قال : خذ قملة رأس ثم ضعها فى ثقبة فولة ثم أعطها المريض يشف . مُجرّبٌ هذا !!! ويذكر داود الأنطاكى فى تذكرته الشهيرة أشياء كثيرة من هذا ! وكثيراً ما يوصى بأكل القمل والحشرات وهى حية .

***

هذه نماذج قليلة صغيرة لما يرويه هؤلاء ولما يرونه من سوء الحال ومن الشقاء الذى كان عليه رسول الله وأصحابه على حسب زعمهم ، مما يجب أن يدعى إليه المؤمنون بالرسالة المحمدية ، وأن يلزموه وأن يأخذوا به ليكونوا مؤمنين حقاً .

وجملة هـذه الآراء أن المطلوب من المسلم أن يموت أنواع الموت كلها بكل معانيه ومظاهره وغرائزه ولذاته ليحيا فى الآخرة ! وأنه بقدر موته فى الحياة تكون حياته فى الآخرة ، وبقـدر حياته فى الدنيا يكون موته فى الأخرى ! وقد صرحوا بهذا تصريحاً ونظموه شعراً فقالوا — ولهم الويل : —

موت النفوس حيـاتها من شاء أن يحيا يموت

فالواجب على المسلم عند هؤلاء الهدامين المخربين أن يموت فى مظهره وفى ملبسه وفى بطنه وفى صحته وفى ماله وفى صناعته وزراعته وتجارته وفى كل أعماله وأموره وإلا فلن يكون مسلماً حقاً ولا مقتديا بالرسول وبالسلف الصالحين الأولين الزاهدين !

وقد بالغوا جداً فى وصف الرسول ومن معه بالفاقة والشقاء وبالفقر وبموت الشهوات والغرائز الدافعة إلى العمل ، المتدفقة بالابتكار ، المنشطة المبدعة وبالجوع وبسوء المظهر والحال وشظف العيش ! وبالغوا فى وصف تطلبهم هذه الأشياء قصداً وعملهم على أن يتصفوا بها عمداً ، حتى صار فقر الرسول ومن معه مضرب الأمثال على كل لسان . فالخطباء والواعظون والصوفية وسائر أصناف المتكلمين والمؤلفين بل والعامة والشعراء يضربون الأمثال إذا شاءوا أن يجيئوا بأبلغها وأعظمها بفقر محمد عليه السلام وبفقر من معه من الصحابة وفقر من كان قبله من الأنبياء والمرسلين ، حتى جرى على ألسنة العامة والنساء : (الفقر على باب النبى) ! وراح أحد الشعراء وهو البحترى يصف فقر نفسه وشقاءها ذاهباً كل مذهب فى المبالغة فقال :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصبابة ؛ ليس البلاء بواحد

وليس القارىء فى حاجة إلى أن نؤكد له بأن هذا كله كذب وجهل وخلاف للواقع ، وأنه من الهون والهوان بالإسلام والمسلمين أن يحكى هذا على أنه من الشريعة المحمدية ... ولسنا هنا بصدد من هذا وإنما غرضنا أن نذكر الأسباب والعوامل الهدامة الحقيقية التى تألبت على هذه الديانة وعلى الدائنين بها كل هذه الأحقاب الطوال فأورثتهم هذا الجمود الذى تحتاج إزالته عنهم أو — إزالتهم هم عنه — إلى زلازل عنيفة وهزات متوالية متواصلة ، بل إلى من ينفخ فى الصور حتى يزلزل مضاجعهم .

***

إن الفقر والمرض والجهل هى أعداء الإنسان منذ وجد ، وستبقى كذلك ما بقى . وقد وجد هذا المثلث مع وجوده ، وحبا معه فى جميع مراحل تاريخه ولم يفارقه فى طور واحد من أطوار حياته . فقد لزمه حينما كان يهيم فى الغابات ويأوى إلى المغارات قبل أن يعرف المساكن والبيوت ، وحينما ترقى إلى سكنى النقر فى الصخور ثم بعد أن عرف الأكواخ ، ثم لزمه بعد أن سكن القصور وشاد العمارات وناطحات السحاب ... وقد عرف الإنسان منذ عرف الحياة هذا المثلث ، وعرف شدة فتكه وما يصبه عليه من الخراب والشقاء والدمار . وقد علم وهو فى بداية تاريخه أن من الواجب عليه أن يقاوم هذا العدو وأن يواثبه ، وعلم أن مقاومته مما يقع فى الإمكان وحدود القدرة . فهب لهذه المقاومة منذ عشرات الآلاف من السنين التى لا يدرى عددها على وجه الضبط اليوم أحد من البشر فبذل من المقاومة والمناهضة ما لا تتصوره عقولنا . وإن كل ما نتمتع به فى عصرنا هذا من ثمرات الحضارة وخيرات المدنية إنما هو نهاية كل تلك الجهود التى بذلت وأنفقت لمحاربة هذا العدو اللدود ... وإن تلك الجهود لتسر وإنها لتحزن ! أما أنها تسر فلأنها قد توجت بنصر الإنسان أو بما يقرب من النصر ، إذ قفزت به إلى هذه المدنية وإلى هذه الحياة الصحيحة أو التى تقرب من الصحة ، ومكنت من اجتناء هذه الثمرات . ولولاها لما فعل ولما كاد . . . وأما أنها تحزن فلأن الإنسان قد لقى فى هذا الجهاد من الآلام والعذاب ما لم يلقه وما لا يمكن أن يلقاه فى شىء آخر .

ولولا محاولات الإنسان المتواصلة الهرب من الفقر ومن جميع أعراضه ونتائجه لما استطاع أن يحسن الصناعة والزراعة حتى تصبحا بهذا الشكل الرائع المبدع الذى نشهده — بل لما عرفها ولما فكر فيها ، ولما وجد ما يدفعه إلى هذه المعرفة وإلى هذا

التفكير ... ولولا محاولاته الفرار من الأمراض ومن بلاياها ورزاياها لما اهتدى إلى هذه الكشوف والمخترعات الطبية التى تعد من أكبر النعم التى أفيضت على الإنسانية ... ولولا هذا وهذا لما استطاع أن يرتفع على الجهالة التى كانت تغمره من كل جانب ، والتى كانت تقف له فى كل مرصد ، والتى كانت تملأ عليه الفجاج بالظلام وتسد كل طرقه بالآلام .

ولو أننا فكرنا فى كل حادثة من حوادث هذا الوجود الصغيرة والكبيرة ، وفكرنا فى أسبابها وعللها القريبة والبعيدة ، الظاهرة والباطنة ، لما أمكن أن تخرج عن أن تكون أحد هؤلاء الثلاثة أو أن تكونها جميعاً .

إن أعظم حادث يشغل الإنسان اليوم ، وشغله قبل اليوم ، وسوف يشغله ما بعد اليوم وسوف يبقى مالئاً لجوانحه بالرعب والفزع والاشمئزاز هو الحرب ! ولو أننا تلمسنا أسبابها من قرب ومن بعد ، وعملنا على حصرها وإحصائها ، وحرصنا على أن نجد هذه الأسباب أو بعض هذه الأسباب فى غير الفقر والمرض والجهل لما وجدناها ولما أمكن أن نجدها... ولو أنا بحثنا كل مشكلة من مشاكل هذه الحياة ومشاكل هذا الإنسان وجهدنا أن نعرف كيف نشأت وكيف يمكن أن تعالج وأن تحل لعاد بنا البحث إلى هذا المثلث ولقال لنا : هنا الداء ، وهنا يجب أن تلتمس أسباب الشفاء .

لنسأل الآحاد والجماعات والأمم والأفراد : ما الذى تشكون ، وما الذى تريدون ، أو ماذا ينقصكم وماذا تحبون أن يرد إليكم ؟ إنهم حينئذ لن يذكروا لنا إذا حاولوا أن يجيبوا عن أسئلتنا هذه سوى المرض والفقر والجهل — إما بالنص وإما بالمعنى .

إن أصوات البشر المتحضرين لتنطلق اليوم من كل مكان وبكل لسان ، منادية مبشرة بأن مواهبهم كلها وأعمالهم أجمع ستعبأ وستحشد للقضاء على هذه الشرور الثلاثة ، وأنهم سيقضون عليها أو يخففون من فعلاتها وويلاتها ما أمكن التخفيف . وقد علقوا سعادة الإنسان كلها — كما تعلق الإنسان — بهذا الفوز ... وهم لا يرون أن هنالك خيراً يمكن أن يفعل ، ولا شراً يمكن أن يقاوم أفضل من إعلان الحرب الشعواء العامة الحاشدة المطلقة على هذا المثلث ... وقد بشروا بعد الحرب الماضية ، وهم يبشرون اليوم بعد هذه الحرب بما سيقومون به فى هذا السبيل وبما سيلقون من النجاح والظفر .

هذه كلها حقائق لا يسمو إلى جوها غبار من الشك ، بل هى حقائق عرفها الإنسان يوم أن كانت معارفه ضئيلة تافهة ، وعمل على قدر تلك المعارف التافهة الضئيلة .

بل هذه المعارف هى الإنسان ، أوهى الفارق بينه وبين مادونه من الكائنات الحية الأخرى.
على أن هذا ليس على إطلاقه ، فإن أحياء أخرى هى دون الإنسان ومع هذا أدركت بمداركها الصغيرة أو بغرائزها الفطرية أن هذه الأعداء الثلاثة — التى هى أعداء الإنسان حقاً — هى أعداؤها أيضاً الفاتكة بها المعذبة لها . فراحت بقدرتها القليلة واستعدادها النزر تحاول الخلاص والفرار منها . وإن فصائل كثيرة من فصائل الحيوان لتعلم أو لتدرك أو لتشعر مافى المرض والفقر والجهل من عذاب وما فى الخلاص منهما من سعادة ! وإن تصرفها كله وحياتها كلها المقودة بالغرائز أو بالإلهام قائمة على مكافحتها لها ومجانبتها إياها ! بل إن الكائنات الميكرسكوبية لتدرك ذلك — أو على الأصح تتصرف وتحيا تصرف وحياة من يدركه .

وإذن فهؤلاء الذين نشروا فى العالم الإسلامى ، والذين ما زالوا ينشرون ، أن الفقر والمرض — بل والجهل كما سبق — فضيلة من الفضائل وعبادة يطلب رضا الله بها قوم أقل ما يجب أن يقال فيهم انهم أعظم من قطعوا الطريق على الإنسانية وانهم أفتك أعدائها وخصومها وجلاديها . وإن الواجب أن ننظر إليهم على هذا الاعتبار وأن نحاسبهم على أنهم كذلك .

إن الحضارة التى يفخر بها الإنسان ، والتراث الذى ورثه عن أسلافه منذ الإنسان الأول حتى الإنسان الآخر لا تخرج فى مجموعها عن هذا النضال الطويل القاسى الذى صرف فى مكافحة هذا المثلث ومكافحة هذه الويلات والشرور التى قام هؤلاء الناس يؤلفون الكتب والمقالات ، ويزورون الخطب فى امتداحها ونشر فضائلها وتبيان مافيها من القربى إلى الله والإزلاف لديه ... فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم !

* * *

لما أراد القدماء من الفلاسفة أن يعرفوا كيف نشأ هذا العالم بنظامه العجيب المبدع استلهموا خيالهم وعقولهم وذكاءهم ومعارفهم طويلا جداً ثم خرجوا بنتيجة رأوها صحيحة قيمة — هذه النتيجة هى أنهم زعموا أن العالم إنما نشأ وإنما ينشأ بدافع من العشق والغرام ! فقد اعتقدوا أن كل حركة فى هذا الوجود سببها العشق : فالأفلاك السيارة إنما تسير بعامل من هذا العشق — وهكذا كل تحرك وكل سير وكل تفاعل .. . وقد قسموا الوجود إلى عاشق ومعشوق ، فالعاشق إنما يتحرك ويسير ويتفاعل تشبهاً بالمعشوق وشوقاً إليه — إلى فلسفة لهم طويلة لا طائل اليوم تحتها .

ولكن غرضهم من هذا هو تعليل حدوث الحوادث ووجود الأشياء بعضها من بعض وتوالدها . وهذا لأنهم يعلمون — كما يعلم جميع العقلاء — أن كل حادث أو كل حدوث أو كل فعل وحركة لابد له من هدف ومن دافع ، وإلا فإن الأشياء لا تحدث بدون أهداف وغايات ... لماذا تتحرك الشمس والقمر والنجوم وكل ما يرى متحركا — ولماذا لاتبقى ساكنة بدون سير وحركة ودوران إذا لم يكن لها غاية وفائدة فى سيرها وحركتها ودورانها ، فإن السير والحركة والدوران أعمال تنفق وطاقات تصرف وأعمال تؤدى ! وهل يمكن أن تبذل الجهود وتؤدى الأعمال وتبدد الطاقات بدون ثمن وبدون ربح يفيده الباذل المؤدى ؟ وهذا كله على حسب رأى القدماء .

والذى نريد أن نستفيده من هذه الفلسفة القديمة هو الإشارة إلى أن من الثابت المركوز فى جميع الأذهان والعقول أن الأهداف والغايات والآمال هى التى تحمل على العمل وعلى السير والحركة والدوران فى هذه الحياة . ومن فقدوا هذه الأهداف والآمال والغايات فليس من الممكن أن يكون لهم فى وجودهم اضطراب ولا حركة ولا عمل يمكن أن يحدث فى الحياة حدثاً باقياً أو حدثاً جليلا — وكذلك من صغرت وضؤلت آمالهم وغاياتهم ... والذين ينتظر منهم ولهم أن يؤدوا الأعمال الكبيرة الخالدة وأن يبتكروا ويبتدعوا ، وأن يتقدموا بالحياة وأهلها وبالوجود ومن فيه ، وأن يحرصوا على السير والدوران هم أصحاب الغايات والأهداف السامية العظيمة التى لا تعترف بالحدود ولا بالقيود — هم أولئك الذين ينشدون دائماً الكمال ويرون أن الكمال أمر يطلب ولكنه لايبلغ ، إذ يعلمون أنه مامن كمال إلا وبعده كمال . فهم يطلبون أبداً الكمال فى كل شىء ؛ فى الثراء وفى الجاه ، فى العلم ، فى الصناعة ، فى الزراعة ، فى التجارة ، فى الصحة ، فى الجمال ، فى الحب ، فى القوة ، فى كل شىء يتناولونه .

وليس من الممكن أن يكون إنسان أكبر من أهدافه وآماله ولا أن تكون أمة من الأمم فوق أهدافها وآمالها . فإن من غير المعقول أن تكون أهداف المرء صغيرة ثم هو يكون كبيراً عظيما ، أو أن تكون أهداف الأمة صغيرة تافهة ثم تصبح هذه الأمة كبيرة عظيمة ، بل لابد أن يكون الإنسان — فرداً أو جماعة أو شعباً — إما دون أمله وغايته ، وإما أن يكون مثلها وعلى قدرها . . . وهذا يكاد يكون نادراً أو مستحيلا .

والأمم التى تنهض إنما تنهض لأن آمالها نهضت ، والتى تهبط وتبقى فى الرغام والتراب إنما كانت كذلك لأن آمالها لم تسم على التراب والرغام ... فالذين يدخلون فى هذه الحياة

وهم لا يقبلون لهم أهدافاً سوى الثراء المطلق أو الكمال المطلق أو الجمال المطلق ، قد يبلغون يوماً ما أهدافهم لأنهم يعملون لها لا محالة إن لم يقف فى طريق العمل ما لا يمكن غلبه ، ولا شىء يغلب التصميم غلباً مطلقاً .

أما أولئك الذين لا يريدون من الحياة سوى الفقر والبؤس والضراعة والجوع والمرض وكل هاتيك النقائص فلن يرتجى لهم سواها لأنهم لن يطلبوا سواها .

ونحن لو نظرنا إلى الأفراد والجماعات وجدنا الفرق بين فرد وفرد ، وبين جماعة وجماعة هو الفرق بين هدف هذا وهدف هذا ، وبين أهداف هذه وأهداف تلك ، ووجدنا أن الأفراد الذين يسمون وينبغون ، والأمم التى تسمو وتنبغ وتسود هم أفراد وأمم عظمت آمالهم وغاياتهم ، وأن الأفراد والأمم التى تذل وتهون هم أفراد وأمم لا غايات ولا آمال لهم . فالآمال الكبيرة هى التى تقتحم بأصحابها الأهوال وتهون عليهم أشق الأعمال ، بل تهبهم اللذة والسرور فى تناولهم الأعمال الشاقة وفى اقتحامهم المخاطر ، لأن الأمل الباسم الحار ينسى كل ألم وكل تعب ... أما الآمال الصغيرة الفقيرة فإنه ليس فيها القوة الدافعة ولا الروح الملهمة ، ولا الحرارة الملهبة ، ولا الإشعاع المضىء للطريق ، ولا الوقود اللازم للطيران أو الدوران أو للاستمرار فى العمل الكبير .

فالذين يرون أن أقصى ما يبغون هو الفقر والجوع والمرض والعرى والزهد واجتناب كل طيب وكل عظيم والازورار عن كل جمال وجميل — الذين يبغون القناعة المطلقة — الشقاء المادى العام المطلق — الذين يبغون ما يذكره هؤلاء المهداموين المدمرون — لا يمكن أن يكونوا أكثر ولا أكبر مما كانوا ، ولا يمكن أن يكونوا سوى هذه القطعان الآدمية التى تساس بما زعمت أنه هدفها وغايتها من الحياة — أى تساس بالفقر والجوع والمرض والجهل وكل النقائص الاجتماعية ثم لا تزداد على هذه السياسة إلا تمسكاً بأهدافها ولصوقاً بغاياتها وإيماناً بشعارها ، رافعة أيديها وأبصارها إلى السماء قائلة : (اللهم زد وبارك) مادة أعناقها النحيلة المعروقة إلى الذين يسوسونها هذه السياسة قائلة : شكراً لكم أيها السادة فإنكم أنتم الذين تبلغوننا درجات القرب والرضوان ، لما نلق لديكم من الشقاء والحرمان !

***

إن أساس كل كمال ونهوض وخير فى هذا الوجود هو حب الجمال — ونعنى بالجمال الجمال فى كل شىء . فإن الثراء جمال ، والقوة جمال ، والحب جمال ، والصناعة والزراعة

والتجارة وإتقان ذلك جمال ، وإن حسن المظهر والرواء وفخامة المسكن — وإن الشرف والجاه والعلم والجهارة : كل ذلك جمال ، وإن أضداده كلها قبح ودمامة . لأن الجمال — مهما اختلف الناس فى تحديده وتعريفه — لايخرج عن أن يكون تناسق الطبيعة وانسجامها وتكافؤها — ولأن الدمامة والقباحة لاتخرج عن أن تكون تنافر الطبيعة وتناكرها وتباينها .

فمن الأمور الأساسية لخير الإنسان وسعادته وشحذ مواهبه وبعث استعداداته ، ليأتى بأفضل ما أودع الله فيه من كمال كامل — هو تحبيب الجمال إليه ، بل جعل الجمال ، جزءاً منه ، بل جعله هو الحياة ، ثم صياغة التربية فى المنزل وفى المدرسة وفى الشارع وفى كل ميادين البيئة بهذا التحبيب وبهذا الجمال ... ويجب أن يعلم بأن قبح الفقر أو قبح الضعف أو قبح الخمول لا يقل عن قبح الآفات البدنية المنكرة — بل لايقل عن قبح الأخلاق الفاسدة المنبوذة فى المجتمع ، والتى يعاقب عليها القانون ، وأن يعلم أن جمال الثراء والسيادة وغيرها لايقل عن جمال المروءة والشجاعة والصدق وسائر تلك الفضائل — ولانقول : لا يقل عن جمال الخلق والوجه ... وإننا إذا فكرنا جيداً وعلمنا لماذا كانت هذه الأخلاق — كالكذب والجبن والدناءة والسرقة والقحة وسواها — نقائص وجرائم وقبائح ، ثم علمنا الأسباب التى كانت بها كذلك علمنا بلا شك أن هذه الدمامات الاجتماعية — نقصد الفقر والجوع والضعف والمرض وكل ما مدح هؤلاء المادحون — هى كذلك نقائص وجرائم وقبائح ، وأن مادحها لا يقل خطأ وفساداً فى ذوقه عن مادح هذه الجرائم الاجتماعية والنقائص الخلقية ... ويجب ألا نجد فرقاً بين مادح الفقر وبين مادح الكذب — لا ، بل يجب أن نجد فرقاً ، وهو أن مادح الفقر أشد جرماً وأعظم عماية لأن الكذب أحد نتائج الفقر أحياناً كثيرة !

إن الإنسانية لاتزال مثقلة بكثير من أعباء القرون الماضية وجهالات الوجود القديم الأول ، ولا تزال مصفدة مغللة بما صنع الجهل والضلال من أصفاد وأغلال . وإن الواجب علينا باعتبارنا بعض البشرية أن نتعاون على تحطيم هذه الأصفاد والأغلال .

من الأحاديث الطيبة الجميلة فى هذا الباب أن رجلا سأل النبى الكريم قال : إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل فى هذا بأس أو كبر ؟ فقال عليه السلام : (إن الله جميل يحب الجمال) . كلمة تقوم على معناها

الحضارة الإنسانية كلها ، بل التاريخ الإنسانى أجمع ، بل الوجود كله ... إن جميع ما كتبه علماء الاجتماع والفلسفة وغيرهم فى تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل مايتناوله الإنسان لايبلغ مبلغ هذا الحديث فى القوة وفى الحث والتحريض ... لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية ، مايرى منها بالعين المجردة وما لايرى منها إلا بالآلات الدقيقة المقربة ، وما لايرى منها البتة — لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال — ولماذا خلق الليل الجميل ، والنهار الجميل ، والألوان الجميلة ، والأصوات الجميلة ، والمناظر الجميلة ، والإنسان الجميل ، والحيوان الجميل ، وكل هذا الوجود الجميل ؟ خلقه كذلك لأنه يحب الجمال . ولماذا يحب الجمال ؟ يحبه لأنه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شىء جميلا — لأنه تعالى جميل فى حكمته وفى حكمه وفى تدبيره وفى قضائه وقدره وفى ذاته وفى كل صفاته ... فهذا الكون الجميل له مصدران فى وجوده وفى وجوده جميلا . أحدهما كون خالقه جميلا ، وثانيهما أنه يحب الجمال لكونه جميلا . فالذى يحب الجمال جميل ، والجميل يحب الجمال — كلتان وجملتان صحيحتان . ثم حذار من الاعتراض بأن تقول : إن القبيح قد يحب الجمال كما أن الجميل قد يكره الجمال ... فإن هذا الاعتراض غير وارد . وذلك أن القبيح الذى يحب الجمال هو جميل فى ناحية ذوقه التى بها أدرك الجمال والتى بها أحب الجمال . والجميل الذى يكره الجمال هو قبيح فى ذوقه الذى لم يدرك الجمال ولم يحبه . لأن نواحى الحسن والجمال ونواحى القبح متعددة كثيرة . فالذى يكون جميلا فى جميع نواحيه لا بد أن يحب الجمال ، والذى يكره الجمال لايمكن أن يكون جميلا فى كل معانيه . فالقضية صحيحة صادقة . فالجمال والحب هما مصدر كل خير وكل فضيلة وكل نبوغ وعبقرية ، وكل هناءة فى الحياة ... فأساس النهضات كلها ، وأساس التقدم كله ، وأساس المدنية بكل صورها وحقائقها ، وأساس الكشوف والمخترعات هو جمال الأهداف والأغراض ثم حب هذه الأهداف والأغراض الجميلة حباً دفع إلى الإقدام والتضحية بل إلى الشعور باللذة والسرور فى هذا الإقدام وهذى التضحية .

وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو الجمال المادى . وذلك لأنه ذكر فى جواب السؤال عن جمال النعل والثوب . فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شىء ... والله يحب من عبيده أن يحبوا هذا الجمال الذى يحب وأن يكرهوا ضده ، وهو القبح فى كل لون من ألوان حياتهم ووجودهم .

ولهذا الحديث رواية أخرى ولفظها : (إن الله كريم يحب الكرم ، جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة) . وكلمة النظافة تحمل كل معانى الرخاء وهناءة العيش ، فليس الفقر نظيفاً ولا نظافة ، وليس الجوع ولا الجائع نظيفاً ولا نظافة ، وليس شيء من صور الشقاء وعلامات الفاقة بالنظيف ولا بالنظافة ... فالنظافة التي يحبها الله كما أخبر على لسان نبيه لا تخرج بكل تفاسيرها عن الكمال المطلق — أي الكمال في الماديات وفي المعنويات — والكمال هو بلوغ ذروة الشيء أو مقاربتها أو الحصول على أحسن فروضه ومعانيه . فلا تعد الحياة الإنسانية نظيفة وهي تتلوى تحت ضربات الفقر والجوع والمسكنة والعوز والمرض والارتباكات المادية ... ولا تعد نظيفة وهي عاجزة عن بلوغ حاجاتها الضرورية — بله الكمالية . فتكاد كلمة النظافة تكون مرادفة من حيث المعنى العام لكلمة الجمال وإن كان يبدو في الظاهر أن بينهما فرقاً كبيراً .

ومن الروايات الجميلة أيضاً الدالة على مقدار فهم نبي الإنسانية الأكبر للحياة ولقيمة الحياة ، وعلى ذهابه فيها مذهب السمو والتسامي الذي لاحد له ولا غاية ينتهي عندها قوله عليه السلام : (إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره سفسافها) ... ولو أن أمة من الأمم التي تعبد الحياة والتي تريد أن تنتزع منها أفضل مافي طاقتها وأجمل مافي إمكانها عهدت إلى جميع فلاسفتها وشعرائها بأن يضعوا لها أجمل العبارات وأقواها على ترغيب أفرادها وجماعاتها في الحياة وحثهم على أن يخرجوا منها بأكبر نصيب ويأخذوا منها أعظم مقدار ممكن لما استطاعوا أن يجيئوا بأعظم ولا أجمل من هذه الألفاظ الصغيرة الكبيرة .

وفي حديث آخر : (إن الله يكره البؤس والتباؤس) . والبؤس والتباؤس معروفان . أعاذنا الله منهما وممن دعوا إليهما ... فالبؤس إذن مكروه ، والتباؤس — وهو إظهار البؤس والتخلق به وتكلفه — مكروه أيضاً ، فالمظهر والحقيقة مكروهان . فقد يكون الرجل بائساً في نفس الأمر ثم قد يتظاهر ببؤسه وقد يخفيه ، وقد يكون متبائساً وهو في نفس الأمر بائس أو وهو غير بائس . والرجلان يكرههما الله ويمقتهما .

وإن من استطاع أن يدرس سيرة النبي الكريم وحياته وشريعته دراسة نافذة ليستطيع أن يدرك بسهولة ويسر أنه كان قد بلغ في إدراك الجمال وتصوره — أي جمال الحياة كلها — وفي الإيمان به مبلغاً قد يكون هو آخر ما تصل إليه الإنسانية يوم تبلغ رشدها ويوم تنجاب عنها كل هذه الغوايات والعمايات التي تنقلت معها منذ وجودها حتى

يومنا هذا . وقد كان عليه السلام مثالا أعلى لجمال الرجولة . فكان قوياً جداً حتى إن أعظم وأقوى رجل عرفته العرب — ويسمى ركانة — صارعه فصرعه النبى مرات فتعجب الناس بل تعجب ركانة نفسه ، ثم آمن به خضوعاً لقواه الجسدية والعلمية ... وقد عرضت لأصحابه يوم الخندق صخرة كبيرة شديدة فعجزوا عن زحزحتها وعن تحطيمها فشكوها إليه عليه السلام فأخذ المعول فضربها به فعادت كثيباً مهيلا .

وكل الذين وصفوه وصفوه بالقوة وسلامة التكوين . والرسالة التى أداها ، والأعمال التى نهض بها وأنجزها دالة قطعاً على ذلك . فإن الأعمال الجسيمة لا يستطيع أن ينهض بها نهوضاً كافياً إلا من كمل خلقه واشتد بناؤه وعظمت قوته .

وكان رائع المنظر جميل الطلعة ، وكان كل عضو من أعضائه قد سوى تسوية لايقال معها : ليته كان كذا أو كذا . وما من إنسان وقع بصره عليه إلا هابه وأعظمه وراعه خلقه . وكان منظره من الشفعاء له وللإيمان به . ومن النادر جداً — ويمكن أن يقال: ومن المستحيل جداً — أن تؤمن الأمم والجماهير لزعامة من نقص خلقه أو شاه تركيبه ... ولو لم يأتنا نقل واحد فى أوصافه لما كان لنا بد من الحكم له عليه السلام بالقوة وبالجمال والكمال ، لعلمنا أنه قد قام بهذه الرسالة وقاد تلك القيادة — لعلمنا بأن مثل هذه الرسالة وتلك القيادة لا يمكن أن يقدر على حملها إلا من كان قد أخذ من الأوصاف الكاملة من الناحيتين المادية والمعنوية ما شاء . فلسنا محتاجين لمعرفة ما قلنا عنه وعن حقيقته إلى الأخبار التى يختلف الرواة فى نقلها وفى ألفاظها وصحتها .

وكان أيضاً لا يحب من الحياة إلا الجميل ولا يقبل إلا الجميل : فكان يحب الأصوات المنغمة الملحنة الجميلة ويمقت ما عداها ، فكان يحب التغنى بالقرآن ويأمر به أمراً شديداً ملزماً ويقول (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ويقول : (ما سمع الله لشىء مثل سماعه لنبى يتغنى بالقرآن) ويقول : (زينوا أصواتكم بالقرآن) ، وسمع أحد أصحابه يقرأ بصوت جميل فوقف يستمع إليه . وقد أثنى عليه .

وكان يستحسن الاسم الحسن وينكر الاسم المنكر ويغيره ويحب أن يسمع الكلمة الجميلة المتفائلة المشجعة والحاملة على التفاؤل . وقد أنزل الله عليه الأمر بغض الصوت وبإنكار الصوت الأجش القبيح الذى لا فن فيه ولا تزيين ولا مقاطع مخبراً أن أنكر الأصوات هى أصوات الحمير .

وكان يرضى جداً الطيب ويحبه أشد الحب وينفق عليه الشيء الكثير ويأمر الناس به وبأن يحبوه ويقبلوه ، بل لقد أوجبه عليهم إيجاباً أسبوعياً وأمرهم أن يصيبوا منه كل يوم جمعة . وكان لا يمر بمكان إلا عرف أنه مر لما ينفح منه من الطيب .

وكان يحب المنظر الحسن ويستعيذ من كآبة المنظر كما يستعيذ من الكفر والضلال والشرور .

ومن قدر له أن يطلع على أوصافه لنعيم الجنة وعلى ما فيها من جمال لم تره العيون ولم تسمع به الآذان ولم يخطر على القلوب ثم استمع إلى هذه الأوصاف التى أنزلها الله عليه فى كتابه علم حقاً كيف كان يسمو فى فهم الجمال سمواً يعجز عنه وعن لحاقه أبرع خيال وأجمل تصور ... وقد رووا عنه هنا أنه عليه السلام قال (التمسوا الخير عند صباح الوجوه — أو عند حسان الوجوه) . وهذا الحديث روى من طرق كثيرة عن جماعة ذوى عدد من الصحابة . وقد تكلم الرواة فيه كلاماً كثيراً وصححه بعضهم وألف أحدهم فيه رسالة سماها (تحسين الطرق والوجوه ، فى قوله اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه) .

وكان أيضاً يحب من المطعومات ما مذاقه حسن وما عاقبته كذلك . فيحب اللحم واللبن والعسل والحلوى والطيور والفاكهة والبر والماء البارد النقى — أى يحب أطيب الطيبات — ويبغض ما خلا ذلك مما لا يحسن عاقبة أو مذاقا أو قيمة .

وكان يحب الملمس الناعم فيثنى على حرير الجنة وعلى لينه وحسنه . فكان لا يقبل لحاسة من حواسه إلا الجيل الحسن ، إذن لأنه كان سليم الحواس قويها صحيحها .

ومن أوصافه التى حكاها القرآن قوله « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . والطيبات لا تخرج عن أن تكون كل ماطاب مذاقاً وعاقبة من المأكولات والمشروبات والمسموعات وجميع المحسوسات على اختلاف ألوانها ... والخبائث هى المستكرهات من ذلك . أما الإصر والأغلال التى كان عليه السلام يضعها عن أتباعه والمؤمنين به فهى تلك القيود الجهنمية التى تفرض الحرمان الأدبى والمادى على الرقاب والألباب ! ولا يمكن أن يتصور الإنسان اليوم إنسانية أرقى وأفضل من هذه الإنسانية التى وضع محمد عليه السلام حدودها وآساسها وفتح لها طريقها .

وهذا كله — وسواه كثير — يدل دلالة قاطعة على أنه قد سما فى إدراك الجمال وتصوره سمواً هو آخر ما ستبلغه الإنسانية .

ويشهد لذهابه فى حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو

عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها ! ها ، إننى أراه الآن عليه السلام متسللامن مخدعه نصف الليل أو بعده قليلا أو قبله قليلا بعد أن عقد الكرى على الأجفان ... وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله . وها هو ذا مسرع إلى الخروج من المدينة تاركاً وراءه المبانى والبيوت ، ميمم البقيع أو غيره ... ثم ها هو ذا شاخص ببصره النافذ إلى السماء الصافية وإلى ما انتظم على صفحتها من نجوم متلألئة تبعث الهدوء والإشراق إلى العقل وإلى القلب ... إنه واقف فى الظلام الرائع . إن النسيم اللطيف الخفيف ليمر على وجهه المشرق بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء ... إنه فى الصحراء ... إنه يناجى السكون والظلام والنسيم والسماء ... إنه يخاطب ما حوله بلغة هى فوق الحروف والألفاظ . إنها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف . إنه يرى كل شىء جميلا لأنه هو جميل . إنه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه . إنه لا يرى هناك قبيحاً لأن نفسه ليس فيها قبيح ، والمرء إنما يرى الأشياء بنفسه وطبعه ، فكن جميلا تر الوجود جميلا . إنه يرى فى الكواكب فوقه الإشراق والارتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعانى ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها و ترتفع ارتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم انتظامها ! إنه يغمره من هذا الإشراق والارتفاع والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع ... إنه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لاشىء يستطيع أن يقف فى طريق الجمال الذى تزود به مما شهد ورأى والذى قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود ... إنه رأى قمراً واحداً وسع نوره الكون ، وشهد سماء واحدة قد أظلت الوجود ، وإنه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة . إنه يشاهد إنساناً واحداً يقدر أن يحمل هذا القلب .

ها هو ذا قافل ، وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هى على الدنيا ... إنه لا يستطيع فراق الطبيعة لأنه لا يستطيع فراق الجمال .. إن كل شىء فيها يروعه جمالا ، إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار والغدران وكل النباتات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك ؛ إن كل شىء من هذا ليأخذ بلبه وببصره ويلهمه الجمال ... لقد وسعت روحه الوجود كله ، وإن دعوته ستتسع للانسانية كلها لأنها جمعت فضائل الإنسانية كلها .

لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء ، وختمها بمناجاتها أيضاً وهو فى حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه ! فلقد كان فى تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ويقول : (اللهم فى الرفيق الأعلى) . إنه لم ير فى الموت ذلك الشىء المرعب المفرق بين الأحباب الهادم للذات ! وإنما رآه رحلة سماوية ينتهى منها إلى عالم كله النور والجمال . إنه كما كان إمام النبيين فلقد كان أيضاً إمام الدالين على جمال الطبيعة المستمتعين به ، وإنه كما كان أعظم من نبهوا إلى جمال ما هو فوق المادة ووراء المادة فلقد كان أيضاً أعظم من نبهوا إلى جمال المادة وعظمة المادة ... ولا بد أن يكون القرآن النازل عليه عليه السلام فى تسبيح الجمادات والأشياء كلها وفى سجودها وعبادتها لله دالا على بلوغه الغاية فى تصور جمال هذا الوجود وحب هذه الطبيعة وإدراك ما فيها من محاسن ووجوه مشرقة باسمة .

إن القلب والعقل أبداً متصاحبان متلازمان : فصاحب العقل الكبير لا بد أن يكون قلبه كبيراً ، وذو القلب الصغير لا محالة من أن يكون عقله كذلك صغيراً ... لقد ثبت أن عظماء الرجال قاطبة كانوا يمتازون أبداً بحواس صادقة قوية وعواطف نادرة تدرك من الجمال ما لا يدركه الآخرون العاديون ، وتذوق فى إدراكها ما لا يذوقون . وثبت أنهم كانوا جميعاً فوق الناس فى عواطفهم كما كانوا فوقهم فيما فاقوهم به . إن رسالة كل إنسان مقدرة ومقدر ما ينتظرها من النجاح بما يحمل ذلك الإنسان من حب للجمال ومن شعور به . والإنسانية كلها رهينة بما تتصوره من أهداف وأمانى : فإن كانت تلك الأهداف والأمانى قد صورها الخيال المبدع على أبدع وأروع ما يمكن من صور الجمال جاءت تلك الإنسانية عظيمة مبدعة ، وإن كانت أهدافاً سخيفة مظلمة قد ولدها وشوهها الخيال المظلم المضطرب فلن تكون تلك الإنسانية شيئاً ... إن إنساناً واحداً أو شعباً واحداً لو فقد هذا الإحساس بالجمال فقداً تاماً لوقف مكانه ، ولما استطاع أن يعمل شيئاً وأن يؤدى رسالة ، وإنه لن يعمل ولن ينتج إلا بمقدار ما يتصور ويتخيل من الجمال وبمقدار ما يتملكه من حب الجمال ... إن الفرق بين الأمم ليكاد يكون هو الفرق بينها فى شعورها بالجمال وفى مذاهبها فيه . إن ذلك الإنسان التافه القانع بالعيش التافه وبالوجود التافه لإنسان قد برىء قلبه وتصوره من حب الجمال ، ولو أنه تزود بشىء منه لدفعه ذلك إلى الأمام وإلى الوجود بقدر ما فيه من طاقة وحرارة .

ولقد كان عليه السلام يعمل على تبسيط معانى الإنسانية وعلى إعطائها أعظم ما يمكن

من رغبات مباحة أملا فى أن يجد كل إنسان فى كل زمان فى إنسانيته الجامعة الجميلة ما يرضى كل جانب إنسانى فيه وما يشبعه وما يقنع ميوله الصالحة السليمة ، لأنه عليه السلام كان يعلم — وطرق علمه غير طرق علم العاديين من أمثالنا — أنه إذا ضيق على الإنسان رحاب حياته ونزعاته ووقف فى سبيلها أو فى سبيل شىء منها لم يكن إنسانياً عاماً ، ولم يكن صالحاً لقيادة الإنسانية كلها فى جميع مراحل وجودها المتطورة المتقدمة ... هذا من ناحية ، وناحية أخرى أن الإنسانية إذا انتقصت وضيقت وحرم عليها معنى من معانيها وحقيقة من حقائقها جاءت إنسانية ناقصة مسروقة المدلول والمفهوم ! وإذا كانت كذلك كانت عاجزة عن القيام بوظيفتها الكبرى قياماً صحيحاً سوياً . وقد لوحظ — ولا يزال يلاحظ — وعلم النفس يقرر بمباحثه صدق هذه الملاحظة — أن الجماعات التى تضيق عليها رغباتها وتحرم من ميولها الطبيعية حرماناً هو العنت والإرهاق تجىء أبداً عاجزة فى عقولها وقلوبها وعواطفها ومشاعرها عن اللحاق بالجماعات الأخرى التى أطلقت ميولها من الأغلال والحرمان . هذه حقيقة يقررها علم النفس والاستقراء والتاريخ .

ومن إرشاداته عليه السلام الرامية إلى وضع الإنسانية فى قالبها العام الجامع غير مضيق عليها ولا محرومة الحرمان الذى يبعث اليأس والقنوط والضعف ، لأنه يهدم القوى ويقف فى سبيل النمو — أن عائشة زفت فتاة إلى رجل من الأنصار فقال عليه السلام : (لو بعثتم معها لهواً فإن الأنصار يعجبهم اللهو — وفى رواية — هل أرسلتم معها من يغنى ؟ إن الأنصار قوم فيهم غزل) ودخل مرة على عائشة وعندها فتيات يغنين فجلس وهن يغنين فدخل أبو بكر فزجرهن فقال رسول الله (دعهن فإن لكل قوم عيداً) . ودخل يوماً آخر على امرأة فجلس وبين يديها جوار يضربن بالدف وينشدن قصائد فطفق يستمع لهن . ولما قدم المدينة قام جماعة من الأحباش يلعبون ألعاباً حبشية فأنكر عليهم عمر فنحى عمر وأقرهم على لعبهم وأشرك زوجه عائشة فى النظر إليهم وإلى ألعابهم . وقدم ذات مرة من سفرة فجاءته امرأة وقالت لقد نذرت إن ردك الله صالحاً لأضربن بين يديك بالدف فقال : (إن كنت نذرت فاضربى) . وقد كان فتيات الأنصار يتلقينه بالأناشيد مثل نشيد (طلع البدر علينا) فيسر بذلك ويقره . وكان إذا كان فى سفر أمر منشداً ينشد بين يديه ... وأعجب من ذلك كله أنه سابق زوجه عائشة مرات ، ولا يدرى أين تكون حلبة السباق ! إذ ليس من المعقول ولا الممكن أن تكون فى حجرتها .

ومن السهل أن نفهم أنه كان كذلك وإلا لما كانت شريعته وأوامره ونواهيه وحياته كما نعلم ، ولما أمكن أن ينجح ذلك النجاح المنقطع النظير ...

فهؤلاء الذين وقفوا حياتهم على امتداح الشقاء والفاقة والبؤس والبذاذة والجوع وسوء المنظر وكآبته ، وعلى امتداح الأمراض والعيوب البدنية والذهنية ، وعلى امتداح كل نقص وفساد ، وعلى امتداح الحرمان والتحريم — هم عاجزون عن فهم الإسلام وعن فهم نبي الإسلام ، وهم مناقضون لكل ما جاء به بعيدون عنه . وإن بعدهم عن ذلك لا يقل عن بعد شرك الجاهلية عن توحيد الدعوة المحمدية ، وإن التباين والمناقضة فى هذا ليسا دون التباين والمناقضة فى ذاك . والأمر يرجع فى المسألتين إلى أن دمامة تنازع جمالا ، وانحرافاً يقاوم اعتدالا ، وشراً يريد أن يطغى على خير .

***

شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسلمين ، وامتلأت بها الكتب والمعتقدات والقلوب ، وفاضت على كل الألسنة وطعم بها كل تعليم ، وصارت ركناً من أراكين الديانة الإسلامية ، بل عدت أعظم أراكينها كما يزعم الجاهلون ، فأصبح لها من النتائج ما يفوت الإحصاء وإن كان يجمع هذه النتائج كلها شىء واحد ، هو هذا الانحدار العام الذى أصابهم فى سائر أقطارهم . وكان أعظم هذه النتائج شيئان : أحدهما أن الهمم قد أصيبت بالفتور الشديد أو بالخدر العام أو بالشلل الفتاك ، فصارت غير قادرة على أن تعمل شيئاً كبيراً له قيمة أو شيئاً يحتاج إلى القوة المبتكرة والنشاط المبدع ... وأما الشىء الآخر فهو أن هؤلاء الذين ابتلوا بهذه التعاليم قد جاعوا كما فرض عليهم أن يجوعوا ، وكما حدثوا أن الجوع هو الإسلام ، وهو سنة الأنبياء والصالحين . ولأنهم عجزوا عن أن يكونوا غير جائعين لأنهم كانوا غير مستطيعين أن يكسبوا الثراء للشلل الذى أرهق هممهم وقواهم . — وهو أيضاً أنهم قد مرضوا كما طلب إليهم أن يمرضوا وكما حدثوا أن المرض من النعم وأن الصحة من النقم — ثم هو أنهم قد أهملوا أبدانهم ، أو حاربوها وحاربوا رغباتها وحاجاتها ، فصار عاقبة هذا كله أن جاءوا خلقاً هزيلا غير تام التكوين ولا صحيح التركيب ولا سليم البناء ، فأصبحوا عاجزين عن مساواة الإنسان القوى السوى وعن مباراته . فغلبوا على أمرهم هذا الغلب الشنيع .

أما الأول فإن الطفل يقع أول مايقع فى بيئة كلها السخط على المال وعلى الحياة وعلى النشاط فى الحياة من أجل الحياة وعلى الترف والسعادة ... وكلها الذم لأصحاب المال

والدنيا ، ولمن يحيون حياة صحيحة سعيدة ، ولمن ينشطون للعمل ، ولمن يصيبون الترف والعيش الهنيء .. وكلها الثناء والمديح للفقر والإفلاس والشقاء والفاقة والكسل والعجز ، أو لما سموه فى لغتهم الزهد أو القناعة ، وللفقراء والمفلسين والكسالى القانعين العاجزين الزاهدين — يعزز هذا كله تلك الحياة التافهة القذرة التى يحياها بين والديه الفقيرين التافهين ، وذلك الشقاء المضروب على كل لون من ألوان الحياة .

يلقن هذا كله فى المدرسة ، ويلقنه فى البيت ، ويسمعه فى المجتمعات والنوادى والأسواق ، ويقرأه فى الكتب ، ويحيط به من كل جهاته .. فهو إذن لن ينجو من هذا التلقين وهذه التعاليم كيفما كان وكيفما ذهب ، لأنه إن كان ممن دخلوا المدرسة وممن يقرأون الكتب فسوف تعترضه وتقف فى طريقه فى كل الجهات التى ذكرناها : المدرسة والبيت والمجتمعات والجمعيات والنوادى والأسواق وحيث ذهب ، وفى الكتب وفى المساجد من أفواه الخطباء — وهذا أكثرها وأخطرها ، فهى لن يفلت منها إنسان ولا إنسانة . لأنها من الثقافات العامة — أى إنها ثقافة شعبية بلغت كل فرد وولجت كل بيت وخالطت كل اعتقاد ... فما كتبه الشيخ الغزالى مثلا فى كتاب الإحياء قد وصل كله أو جله إلى كل مسلم على وجه الأرض ، إما مباشرة بقراءة الكتاب ، وإما بواسطة أو بوسائط كثيرة متعددة ، إما سماعاً من خطيب أو واعظ أو متكلم كائناً ما كان — وإما بقراءة كتاب نقل عن الإحياء . والإحياء أردنا به هنا المثل وإلا فإن كل كتاب من هذه الكتب هو عندنا كالإحياء ، ومؤلفه كالشيخ الغزالى .

وقد لوحظ أن الذين يتلقون علومهم كلها فى كل مراحل التعليم فى المعاهد الأجنبية التى لا تؤمن بهذه التعاليم ، بل التى تنكرها وتشيد تعليمها وتربيتها على مخالفتها : لوحظ أن هؤلاء أيضاً لا يسلمون من هذه التعاليم الوبيلة ، وأنهم لا يستطيعون أن يبرأوا منها برءاً صحيحاً وأن يخلصوا وأن يتخلصوا من جميع آثارها ويتطهروا من جميع أعراضها وأمراضها . وذلك لشيئين :

أحدهما أنهم قبل أن يدخلوا المعهد الأجنبى الذى دخلوه قد لقنوا فى البيت وفى البيئة كلها وفى كل ما يحيط بهم تلك المبادئ الحرمانية تلقيناً قد يكون غير مقصود ولا ملتفت إليه ، ولكنه قد يكون أيضاً بمثابة الغرس فى التربة المهيأة للانبات ، أو بمثابة النقش على الحجر الذى يبقى ما بقى الحجر . وقد قيل إن تلك السن — وهى ما بعد

الولادة إلى بلوغ السنة العاشرة — هى أخطر مرحلة فى حياة الطفل ، إذ يكون حينذاك متيقظ الحس ، شديد التكيف والانطباع بما يدور حوله وبما يراه ويسمعه ويلقنه ، حتى ليصبح ذلك كله حقائق عنده أو طبائع يعسر انفلاته وخلاصه منها . وملكة التقليد فى تلك السن قوية جداً مسيطرة عليه سيطرة كاملة ، بل إن كل أموره قائمة إذ ذاك على التقليد صادرة عنه مقصودة به . فكل ما يراه وما يسمعه وما يعمل حوله يؤثر فيه تأثيراً لا يمكن المماراة فيه ولا يمكن إغفاله — بل تأثيراً لا يقل عن تأثير العوامل الطبيعية فى جسمه الرخص وتكوينه اللدن وبنائه الهش .

ثم إن جميع ما يمثل حوله ينتقل إلى خزانة العقل الباطن وينطبع فيها انطباعاً شديداً جداً ليظل كل الحياة مهيمناً عليه فى كل تصرف يأتيه وعمل يعمله . والعقل الباطن شديد الإحساس ، قوى الأخذ عما أمامه ، محافظ على خزائنه محافظة صادقة ليرجع إليها وقت الحاجة ، فينفقها على الأعمال والأزمان المقبلة إنفاقاً منظماً . فيكون لها دخل فى كل عمل وفى كل فكرة وفى كل اتجاه . بل يكاد الإنسان بمشاعره وأعماله يكون مقوداً بها قيادة لا يفلت من سلطانها ورقابتها فى حالة من حالاته ... ومن أجل هذا كله — ومن أجل غيره أيضاً — أكثر علماء النفس والتربية من النصائح والإرشادات الموضوعة لخفارة حس الأطفال وملكة التقليد فيهم ، وخفارة عقولهم الباطنة من التلوث والفساد بما يمكن أن يصنع على مرأى منهم ، وبما يمكن أن يسمعوا أو يلقنوا أو يعلموا .. وقد وضعوا فى هذا كتباً كثيرة جداً أقامت فناً وعلماً خاصاً واسع الأرجاء متعدد المباحث والنظريات ... وقد علم أن كل التقاليد الصحيحة والباطلة التى تصبح لدى الفرد ولدى الجماعة قوة غالبة لا تقاوم ولا تناقش ، مهما كان نصيبها من الضعف والخطل ، إنما تنشأ وتخلق فى تلك السن أو ما يقرب منها ، متركزة تركزاً عجيباً فى العقل الباطن ، هازمة فى المستقبل كل برهان شعورى ، قاهرة كل حجة تقوم على بطلان تلك التقاليد وضررها وفسادها ، حتى إن أعظم عبقرى يجتاح المجتمعات والتقاليد ببراهينه وأفكاره الحرة الصارمة التى يضعها فى كتبه ومقالاته ومحاضراته وكل مباحثه ، يكون فى حياته العامة وفى اتجاهاته الخاصة العملية خاضعاً خضوعاً غريباً لتلك التقاليد والعادات التى ورثها من الصغر واختزنها فى منطقة اللاشعور عنده ، بحيث يصير مثل أجهل إنسان وأضعفه فى العجز عن التخلص منها ، بل قد يكون أمامها أضعف من الجاهلين . وهذا هو سر قوة التقاليد وسر ركوع الخاصة والعامة لها ... ولهذا فإننا نجد اختلافاً كثيراً جداً فى هذه التقاليد

والعادات بين شعوب وأمم لا تختلف فى علومها وعقولها وبراهينها ، ولا فى الكتب التى تدرسها وتدرسها . فالشعوب تتفق فى العلوم والنظريات وتختلف فى التقاليد والعادات . والوجه فى هذا هو ما ذكرنا . هذا هو أحد الشيئين اللذين يجعلان من يأخذون علومهم وثقافتهم عن المعاهد الأجنبية غير خالصين من هذه الآراء الهدامة التى تركها لنا هؤلاء الشيوخ الهدامون .

وأما الشىء الآخر فهو أن هؤلاء الأطفال الذين يوضعون الوضع المذكور أثناء الدراسة لا ينفصلون انفصالا تاماً عن بيئتهم المسممة الملوثة ، فيظلون بين عاملين مختلفين يتنازعانهم : عامل البيئة الموبوءة ، وعامل المدرسة السليم أو القريب من السلامة . فيأخذون من هذا ومن هذا ، ويخضعون تارة لحكم هذا العامل وتارة لحكم العامل الآخر ، فيكونون أحياناً أقرب إلى الصحة والسلامة ، وأحياناً أقرب إلى المرض والاعتلال . وربما كانوا أدنى إلى الاعتدال من الآخرين الذين لم يعلموا تعليمهم ، وربما كانوا متناقضين مضطربين مشوشين ، مثلهم فى هذا مثل من وقع بين عاملين مختلفين متنازعين قواه وتفكيره ، فيذهب بعضه — أو تارة — مع أحد العاملين بدون أن يصل إلى غرضه ، ويذهب بعضه الآخر — أو تارة — مع العامل الآخر بدون أن يصل أيضاً إلى غرضه ، لأنه لن يصل إلا إذا استخدم قوته كلها وعمله كله فى اتجاه واحد وعمل واحد . وقد يظهر بوضع آخر بحيث يتمانع العاملان ، فإذا شاء الاتجاه مع أحدهما قام الاتجاه الآخر ممانعاً معارضاً ، وهكذا، فيبقى المرء بينهما معلقاً متردداً حائراً ، مثله مثل ذلك المصاب الحزين الواقف بين عامل التجمل والتجلد ، وعامل الأسى والمصيبة ، الذى قيل فى تصوير حاله أجمل تصوير وأبرعه :

الحزن يقلق والتجمل يردع	والدمع بينهما عصى طيع
يتنازعان دموع عين مسهد	هذا يجىء بها وهذا يرجع

وقد شاهدنا أقواماً كثيرين من هذا النوع . ومصير هؤلاء الفشل المحتوم . وإن حالتهم هذه تشبه حالة من يريد أن يذهب إلى جهة معينة ، ولكنه بدل أن يسير قصداً فى الطريق الذى يوصل إلى الجهة التى يريدها يسير كل يوم عدة أميال فى جهات مختلفة ثم يرجع الى المكان الذى بدأ منه السير قبل أن يصل ودون أن يبقى فى اتجاه واحد ! ومثل هذا تضيع قواه ثم لا يحصل على شىء . وهذه شر حالة يبتلى بها الإنسان .

ومن الملاحظات الصادقة فى هذا الموضـوع أن قوماً يولدون وينشأون فى هذه البيئة التى تتوارث أقاويل هؤلاء الشيوخ ، تصادفهم ظروف غير عادية ، فيلحدون إلحاداً نظرياً صريحاً ، بحيث لا يكتفون بإنكار الأفكار الزهدية الحرمانية ، بل ينكرون فكرة الأديان جملة ، ويجاهرون بهذا الإنكار ويعتقدونه ، ولكنهم — وهذا عجيب فى الظاهر — يبقون متعلقين متأثرين بالشىء الكثير من هذه الخرافات فى كراهة الدنيا وغيرها ، دائنين لها ، عاجزين عن الخروج من ربقتها خروجاً شاملا ! ومن ثم يصبحون غير لاحقين ولا مسايرين من هم فى الجانب الآخر من الركب الإنسانى المهطع إلى غايته الكبرى .

وتعليل هذه الحالة سهل يسير . وذلك أن هؤلاء إنما ألحدوا وكفروا بهذه الخرافات نظرياً فقط ، أما الأعمال والتقاليد فإنها تظل خاضعة لما ورثت ولما تكيفت به فى حالة الصغر والطفولة، يمدها العقل الباطن بالمدد تلو المدد ، مما اختزن وحفظ . فيصبحون فى عقولهم وتفكيرهم غيرهم فى أعمالهم واتجاهاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وقد يسمون ما لقنوه فى حالة الطفولة — على اعتباره مبادىء دينية بعد كفرهم — نظريات أو علميات أو مبادىء اجتماعية أو غير ذلك ! كما أن الإنسان الذى يعتقد أن النجاح والفشل إنما هما بالقضاء والقدر لا بالأعمال والاجتهاد، قد يكفر بالقضاء والقدر كفراً تاماً، ولكنه قد يبقى مؤمناً بهما معنى ، مثل أن يبقى معتقداً بأن النجاح والسقوط إنما هما بالحظوظ والجدود والمصادفات لا بالأعمال ولا بالاجتهاد . فيصبح التغير عنده فى الأسماء دون الحقائق ... وقد يرث إنسان عبادة القبور والأموات ثم يكفر بها لظروف ما ، ولكنه قد يبقى مؤمناً بها على اعتبار آخر ونحو آخر ، كأن يتعلق بمناجاة الأرواح وبقوة الأرواح ، معتقداً أن التجربة والبحث العلمى هما اللذان هدياه إلى ذلك . فيصير من اسم ، إلى اسم ، أما الحقيقة فباقية كما هى ! وقد يكفر إنسان بالدنيا وبالعمل الجاد لها ، مسمياً كفره زهداً وورعاً ، ثم قد يلقى أموراً تجعله يكفر بهذا الزهد وبهذا الكفر ، ولكنه قد يبقى تاركا الدنيا أيضاً عاجزاً عن العمل فيها ولها ، غير راغب فيه ولا فيها ، مسمياً عمله هذا قناعة وسمواً على المادة وسمواً فى الروح وارتفاعاً على الأغراض الدنيا الصغيرة الحقيرة . وهكذا يفعلون فى كل شىء : يتركون الأسماء ويتمسكون بالمسميات ! وهذا من أغرب ما يصاب به الإنسان فى حياته وتصرفه .

***

أوجدت هذه الأقاويل بين المسلمين وبين الدنيا هوة عميقة ونفورا عاماً ، فصاروا لا يعملون لها وفيهـا بإخلاص واجتهاد وإقبال ، وصاروا يتناولونها إذا تناولوها ببعض أيديهم ، وبعض قلوبهم ، وبعض عقولهم ، وبعض حبهم ، وبعض أعمالهم ... فصاروا لا يدركون منها إذا أدركوا إلا أتفه مافيها وأحقره وأصغره ، على قدر ما وهبوها من الإخلاص والحب والعمل والعناية ... ... وهكذا كل شيء فى هذا الوجود إنما يعطى بقدر ما أخذ .

إن الإنسان العاقل لن يقبل على الشيء ولن يمنحه جده وقلبه وعمله بشغف ودأب ومثابرة ومصابرة إلا بشروط واضحة : أن يعلم أن الإقبال على هذا الشيء حسن فى رأيه هو ، وحسن له ، ثم حسن فى رأى المجتمع الذى هو فيه ، وفضيلة من فضائله ؛ ثم أن يعلم أن عاقبة ذلك سليمة طيبة لا لوم فيها ولا عقاب بل ولا عتاب ، ثم أن يعلم بعد هـذا كله أن ترك هذا الشيء وترك العمل له ذنب من ذنوب المجتمع ونقيصة من نقائصه وجريرة من جرائره ... إن الإنسان إذا علم هذا كله أصبح من الممكن ، بل أصبح مما هو فى حكم المؤكد أن يمنح ذلك الشيء عنايته التامة ، وأن يستجمع له جميع الأسباب والوسائل ، وأن يعطيه من نفسه كل ما فيها وكل ما عندها من استعداد ومن قوى ظاهرة أو باطنة ، وأن يدأب له الدأب الواجب الناصب حتى يظفر به أجمع أو يظفر بأحسنه وأفضـله ، أو حتى يعذر فيه الإعذار الصحيح .

والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ يرون أن العمل للدنيـا بكل إخلاص واجتهاد ليس فضيلة ولا حسناً ، لا فى رأيهم ولا فى رأى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويرون أن عاقبة هذا العمـل وهذه الدنيا ليست مأمونة ولا حميـدة ، لأن الله سيؤاخذهم عليه وعليها ، بل سيحاسبهم الحساب الشديد ثم يعاقبهم على قدر ما كسبوا منها وما عملوا لها . وهم يعتقدون أن ما ينالونه منها ما هو إلا حسناتهم تعجل لهم ، ولأن الدنيا فى رأيهم وظنهم تجر إلى الشقاء والعذاب ، لأنها تطغى ، ولأنها تدفع من ظفر بها إلى الفسوق والمروق ... فعاقبتها وعاقبة العمل لهـا وعاقبة الحرص عليها ليست بحميدة ولا مأمونة إذن ... ثم إنهم لا يرون أن هجر الدنيا وهجر العمل لهـا جريمة من الجرائم أو رذيلة من الرذائل التى ينكرها المجتمع والتى يعاقب الله ويحاسب عليهـا . بل هم يرون أن هذا الهجر والازورار عنها والكراهة لهـا والتقلل منها إحدى الحسنات الاجتماعية والدينية التى يشكرها الناس والتى يجازى الله عليها ... بل هم يرون ذلك إحدى الفضائل الإنسانية

التى تدل على السمو الإنسانى ... فكيف إذن يمكن أن يعملوا لها بكل قواهم وأن يبرعوا ويبتغوا فى طلبها وتحصيلها ؟ .

إن من أقبل عليها منهم ودأب فى تحصيلها ، فنجح النجاح كله أو بعضه ، صار الناس ينظرون إليه نظرات السخط والاشمئزاز والإنكار واللوم ، متهمين له بالشراهة وبالحرص الذميم وبعبادة الدنيا وعبادة المادة والشهوات ، زاعمين أنه إنسان مغضوب عليه ، وأنه ملوم معاقب محاسب حساباً ويلا لحرصه على ما يفنى وإعراضه عما يبقى ، ولاهتمامه بالدنيا الملعونة الملعون ما فيها التى لا ينظر الله إليها ، ولا ينظر إليها عباده الصالحون الأبرار ! بل إن مثل هذا الإنسان قد يرى فى نفسه هذا الرأى ويعتقد أنه مخطىء ملوم ، لأنه ترك الزهد الذى هو حلية الأنبياء والأولياء ، ولأنه شغل بالحياة الدنيا ، معبودة الكافرين والآثمين الذين لا خلاق لهم ... وقد يحاول التبرؤ من فعله هذا ويسأل الله أن يمن عليه بالتوبة والهداية ، لينفض يديه مما لوثهما به من الاشتغال بالحطام .

كان المفروض أن يترك المسلمون الدنيا ويتركوا العمل لها البتة ، مادام هذا هو رأيهم فيها ونظرهم إليها ، ولكن قاوم هذا الفرض شىء آخر — هذا الشىء هو أنهم وجدوا أن ضرورة الحياة والبقاء وغريزة حبهما تدفعهم إلى العمل ، إذ وجدوا بالمشاهدة والاستقراء أن من لم يعمل فلن يعيش ، وهم يريدون ويحبون بالغريزة أن يعيشوا ، فوقعوا بين عاملين مختلفين : عامل الزهد والاعتقاد أن الحرص على الدنيا جريمة وذنب وشره ممقوت ، وعامل الضرورة — ضرورة الحياة والبقاء . فحاولوا بغير شعور — أو بغير شعور كامل — أن يرضوا العاملين ، وأن يوفقوا بينهما وأن يجمعوا بين إعطاء كل منهما طلبه وحكمه . فأخذوا للحياة وللبقاء بقدر الضرورة — أى إنهم قاموا بأعمال صغيرة حقيرة ، تكفى لوجودهم ولوجود الحياة فيهم ، ولتمسكهم بها أو تمسكها هى بهم ، ثم أعطوا باقيهم الزهد والإعراض عن الدنيا ، فبقوا أحياء ، وبقوا فقراء . ولم يستطيعوا بضرورة وقوعهم بين العاملين أن يميلوا إلى أحد الجانبين ويتركوا الجانب الآخر : فلم يستطيعوا أن يكونوا زهاداً فقط وأن ينفضوا أيديهم من الحياة والمادة جملة واحدة ، ولم يستطيعوا أن يكونوا أهل دنيا وأعمال كبيرة بارعة ، وأن يتبرأوا من الزهد ومن كراهة الحياة الدنيا — أى إنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أحد العاملين ويهبوا أنفسهم عاملا واحداً ، فصاروا مقسمين بينهما ، وصاروا من أجل ذلك بهذه المكانة الوضيعة من المجتمع العالمى والهيئة العالمية .

فإذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول : إنه — وإن كان رأيهم وقولهم فى الحياة وفى طلب المادة والمال كما ذكر — إلا أن هذه الآراء والأقوال لا تأثير لها فى انحطاطهم وعجزهم وضعفهم ، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة فى أن يكون زاهداً وعملا بأقاويل هؤلاء الشيوخ الغابرين ، بل إنهم كلهم كما شاهدنا ليعبدون المال والمادة ، ويحاولون كسبهما بكل الطرق حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة وبكل الوسائل ... فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة فى تلك الكتب الميتة : كتب أولئك الميتين فى حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة : إذا قال قائل هذا واعترض هذا الاعتراض ، قيل فى الجواب : ليس هناك شك فى أن المسلمين ، جماهيرهم وخواصهم، يحبون المال والدنيا ، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منهـا بكل الطرق حتى المحرمة منهـا ، ولكن يجب تدبر المسـألة جيداً وفهمها من كل وجوهها : ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم ، ولكنهم يكرهونهما ويذمونهما بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم . فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه ، وبالاعتقاد والدين والعقل والرأى يرفضونه وينكرونه ، فتتعارض القوى والعوامل فيهم ؛ فإذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج إلى عنـاء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة ، وهذا فى الأغلب كما لا يخفى . وإذا وجدوها بعيدة المنال ، محوجة إلى الجد والدأب — وهى كذلك فى كل الأوقات والحالات ما خلا النادر الشـاذ — تعلقوا باعتقادهم ورأيهم وقولهم ومذهبهم القائل : إن الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية ، والقائل لهم أيضاً : إن الزهد والفقر والقناعة فضـيلة وهداية ؛ فيكسلون ويكلون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد فى سبيل ذلك ، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التى تؤخذ بالوسائل المحرمة ، لأنها حينئذ تكون فى الغالب سهلة قليـلة الإعنات والعناء ، بعيدين عنها زاهدين فيها إذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة ! وهذا أعجب شىء على أنه هو الواقع الحاصل المشهود .

وقد شاهدنا الأقوام الذين يقومون بوظيفة الإرشاد وبوظيفة ذم الدنيا والتزهيد فيها يحرصون عليها كل الحرص من الطرق الملتوية القريبة الذميمة ، ولكنهم ينأون عنها كل النأى إذا كانت تحوج إلى العمل الشاق المرير على من لم يروضوا أنفسهم وأخلاقهم على الأعمال وحبها .

والإنسان مركب من طباع غريبة متباينة ؛ فمن طباعه التى قد تكون أصيلة فيه ، وقد تكون عارضة متولدة من ظروف وأحوال نكراء مرت به فى تاريخه الطويل الحافل بالعجائب والمتناقضات ، محاولته الفرار أبداً من الأعمال التى تلق عليه تبعة والتى تلزمه الكد والنصب ... فإذا لم تحط به ظروف ومبادىء وقوانين وتقاليد وأشياء أخرى تدفعه دفعاً إلى التزام التبعات ، وتحكم عليه حكماً اضطرارياً بالأخذ بالأعمال الشاقة ، وتلجئه إليها إلجاء فإنه حينئذ ينكل عن النهوض ، ويعجز عن القيام ، ويفر من التبعات ، ويجد فى الكسل والاستسلام اللذة والبغية والحياة الهائثة الهادية ... فهؤلاء الذين يعيشون فى بيئة كلها الدعوة إلى ترك العمل والدعوة إلى الفرار من الحياة ومن التبعات ومن الجهود المضنية ، مزعوما لهم أن فى هذا الترك وفى هذا الفرار الأجر والثواب والحمد والشكر من الله ومن الناس ، ثم مزعوماً لهم أن فى هذه الأعمال التى كلها تبعات ومشقات حسابا وعقابا عند الله ولوما وانتقاداً عند الناس، كيف يمكن أن يتغلبوا على هذا كله ، وعلى طباعهم الراكنة إلى الخلاص من المشقة والنصب ، وأن يثبوا وثبات تلق تحت أقدامهم الثراء والسعادة والحياة القوية الراضية ؟

إن الشعب الذى نتصوره واثباً إلى الحياة بكل قواه هو الشعب الذى تتضافر كل آدابه : دينه وعقله ورأيه وتقاليده وتعاليمه وفلسفته على استحسان هذا الوثوب وعلى الاشمئزاز من كل عاجز ناكل وزاهد قانع ، وعلى اعتبار هذا النوع من الناس آثماً ومقصراً ومجرما ، وعلى أنه لا يقل فى إجرامه وتقصيره وإثمه عن سائر أولئك الأقوام الذين يعملون ما تحرمه القوانين وما تأباه الشرائع ، والذين يجرون إلى قومهم ووطنهم وإلى الإنسانية أجمع الشقاء والدمار ... بل يجب أن ينظر إلى هؤلاء — من حيث الإجرام والتقصير والجريرة والخيانة — محسوبين شراً من أولئك الذين يتركون مواضعهم فى خطوط القتال المشبوب دفاعا عن الحق وعن الخير والحرية وحرمات الوطن . فإن القتال فى سبيل كسب الحياة الجميلة هو أفضل قتال يتصوره العقل . فمن أهمل واجبه فى هذا القتال كان أشد الناس إثماً وأعظمهم جريرة .

ليس مما يدخل فى الإمكان أن يعتقد شعب من الشعوب اعتقاداً دينياً وفلسفياً وأدبياً — يعلمه فى المدارس وفى المساجد وسائر المعابد وفى البيوت والجمعيات وفى كل مكان — بأن العمل للدنيا وللحياة بقوة وشغف أحد الآثام التى يؤاخذ الله عليها بل التى

يعاقب بسببها ، ثم يعمل هذا الشعب للدنيا بهذه القوة وبهذا الشغف ، غير متأثر باعتقاداته وفلسفاته ، وغير مبال بما يعلم علم اليقين بأن الله يأخذ به ويلوم عليه ، إلا إذا كان من الممكن الزعم بأن المعتقدات والتعاليم والتقاليد ليس لها تأثير البتة على الأعمال وعلى الاتجاه فى الحياة ... ولكن الناس يعلمون جميعاً أن مبدأ الأعمال كلها الاعتقادات ، وأن العامل إنما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده — غير أن هذا المعتقد الذى يرسم طريق العمل يجب أن يفهم أوسع وأشمل من المعتقد الدينى ، فليس المعتقد الدينى وحده هو الذى يدفع الإنسان أمامه ويهديه ويقوده ويوجهه ، بل كل المعتقدات هكذا ، سواء أكانت دينية أم وطنية أم اجتماعية أم علمية أم فلسفية أم إنسانية ... وإذا علم هذا — وهو معلوم بلا شك — وجب علينا أن نحارب بكل سلاح من أسلحة الحرب هذه الدعايات المدمرة لقوى الشعوب ولروح الأفراد والجماعات ، وهى دعايات الزهد وتفضيل الفقر والمرض والفاقة والحرمان وكل تلك السخافات والأباطيل التى بقيت مضللة ومخدرة الإنسانية ومعطلة مواهبها أحقابا وقرونا يعجز المحصون عن إحصائها ... وعلينا نحن معشر المسلمين المغلوبين على أمرنا أن ننظر إلى هذه الدعايات والتعاليم على أنها أصفاد وأغلال قد مكن الجهل والغباء أعناقنا وأيدينا منها ! فليس لنا مفر من العمل على تحطيمها وتحطيم من صنعوها بلا رحمة ولا شفقة ، كما نهض محمد عليه السلام وكما نهض قبله إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، محطمين وواضعين جميع الأغلال والأصفاد والآصار التى لقوها فى طريقهم وفى طريق الإنسانية التى جاءوا لهدايتها وإنقاذها من جميع ما صنعه الشر والجهل .

أما النتيجة الأخرى لشيوع هذه الأقاويل المثنية على المتربة بكل معانيها، وعلى الشقاء بكل ألوانه حتى الجوع والمسغبة ، فإن المسلمين أهملوا أبدانهم من هذه الناحية إهمالا عجيباً ، ولا يزالون يفعلون ذلك أو يرون حسنه . وصاروا لا يرون أن للأبدان حقوقاً يجب أن تؤدى ووقودا يجب أن يقدم . فجاءت عاجزة عن القيام بوظائفها ، عليلة هزيلة لا تدفع شراً ولا تكسب خيراً كبيراً .

وقد وضع هؤلاء الشيوخ فلسفة للجوع ولحرمان الجسد من حاجاته ما أعجبها وما أكذبها ! فأحد هؤلاء يقول فى كتاب له معدود من خيرة الكتب ما معناه : إن الإنسان إذا أجاع بدنه وضربه بالحرمان العام : فمنعه النوم والراحة ضمر وضؤل وخف

وزنه فاستطاعت الروح حينئذ أن تتغلب عليه وعلى ثقله ... فحلقت إلى السماء وذهبت تطوف حول العرش وحول سدرة المنتهى ! فكرعت هناك فى المعارف والعلوم والكشوف كيف شاءت ! وصارت شفافة هفهافة ، لا تحجبها الكثافة ، ولا يعوقها عن الوصول غلظ المادة ولا بعد المسافة ... فأصبحت عليمة بطبعها، غير محتاجة إلى التعليم وإلى التلقين . أما إذا أشبع جسمه وأراحه فإنه يربو ويزكو فيثقل بالروح ويقعد بها عن الطيران والتحليق ، فتضحى ترابية عاجزة عن مفارقة التراب والمادة ، عاجزة عن التخلص من قوانينهما ... فتصبح جاهلة بطبعها لأن مكانها التراب والمادة ، وهما مكان الجهل ... هذا نموذج من فلسفة الجوع والعذاب ، عند هؤلاء الأوشاب .

وقال أحدهم فى كتاب معروف مقروء : (إنما القصد من الجوع كسر النفس وتقوية القلب وتبييضه . فإن الجوع يذيب شحم القلب ويقلل دمه ، فيبيض ويرق ويصفو فيستعد بصفائه لقبول نور الذكر وأنوار المعاملات الشرعية ،والواردات الغيبية ، ثم تنعكس الأنوار من مرآة القلب إلى أرض النفس ...) .

وقالوا أيضاً : (إن أصول التصوف تدور على أربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة الكلام ، وقلة المنام ، واعتزال الأنام) .

وقالوا : (جعل الخير كله فى بيت ومفتاحه الجوع ، وجعل الشر كله فى بيت ومفتاحه الشبع) .

وقال يحيي بن معاذ : (لو كان الجوع يباع فى السوق لما كان لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره !) وقال سهل — وهو أحد أصنامهم — : ما صار الأبدال أبدالا إلا بأربع خصال : إخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال !

وكلامهم فى الجوع وفى فلسفته كثير جداً . وقد دأب جماعات لا تحصى منهم على رياضة الجوع والسهر والعذاب الجثمانى ، محاولين بذلك أن يبلغوا درجات العارفين الواصلين الذين يلقون العلم بلا تعلم ولا أداة ، والذين ترفع عن أبصارهم وبصائرهم الحجب فيشاهدون الحقيقة عارية مجردة من كل حجاب ومن كل لبس والتباس ! فصارت النتيجة أن أصيبوا بالتخليط وبالفساد العقلى، وبالخيالات والأوهام التى تعلق بمن ضعفت قواهم العقلية والعصبية ، نتيجة الإجهاد والإرهاق ، أو نتيجة أشياء أخرى معروفة ... ومن المصائب أنهم كانوا إذا وصلوا إلى هذا الفساد التصورى وتراءت لهم أشباح الأوهام والخيالات

حسبوها حقائق وكشوفا ومعارف عليا، وحسبها لهم الآخرون كذلك ، فراحوا — رغبة فى المزيد — يزيدون قواهم البدنية جلداً وإنهاكا وسهراً وتعباً وجوعا ، فيزدادون بذلك تخيلا وتوهما ، أى مرضاً وضعفاً ، ويتتابع الوحى الذى ينزل عليهم! ثم لايقفون عند هذه النهاية من الإضرار بأنفسهم وبمن حولهم وبالأمة التى آمنت بإمامتهم أوالتى ستؤمن ، بل يذهبون يكتبون هذه الخيالات والأوهام فى كتب ورسائل لنقرأها نحن ، ويقرأها من قبلنا ومن بعدنا ! وليس من شك فى أن كثيراً من هذه الأفكار والفلسفات التى نواجهها فى كتابنا هذا هى إحدى ثمرات هذه الرياضات والفلسفات . فإن هؤلاء القوم ألحوا على أبدانهم بالعذاب الملون من الجوع والسهر والأعمال الشاقة العنيفة ، ومنعوها حاجاتها وشهواتها الضرورية الطبيعية ، فأصيبت أعصابهم بالإرهاق والإجهاد ثم بالمرض والانحراف ، فراحوا يتخيلون ويخالون ، حتى ظن كثيرون منهم أنهم صاروا يوحى إليهم ، وأنهم يرون الملائكة عياناً ويسمعون الوحى جهاراً ، وأنهم يشاهدون اللوح المحفوظ ويأخذون منه بلا وسيط! بل وأنهم يرون الله ويخاطبونه ويناجونه ، وأن نواميس المادة وقوى الطبيعة قد تعطلت أمامهم وأمام كشوفهم ومعارفهم اللدنية ! .

وقد وقع فى هذا كثيرون جداً من هؤلاء البائسين الهائمين ، وعلى رأسهم ابن عربى الطائى وابو حامد الغزالى والشعرانى وغيرهم . ولهذا فإن القارىء لكتبهم يجد فيها من الدعاوى المفزعة الباطلة ما يقف إزاءه حائراً ، كدعاواهم أنهم اتصلوا بالملائكة والجان والأنبياء والخضر وإلياس والمعروفين عندهم برجال الغيب ، وأنهم جالسوهم وصاحبوهم وصادقوهم وتلقوا عنهم العرفان ، وأنهم رأوا اللوح والقلم جهرة ! .

وقد يسرع القارىء إلى رميهم بتعمد الكذب . ولكن هذا ليس بلازم . نعم هو ممكن . ولكن الأقرب منه أن يقال : إنهم قوم مرضى ، وإن هذه خيالات تطل عليهم من النوافذ التى فتحوها فى عقولهم ، فيحسبونها أشياء حقيقية ، فيأخذون يتحدثون عنها ويكتبونها ويعتمدون عليها ! وأظهر الأسباب فى مرض هؤلاء الشيوخ هو الشقاء المادى الطويل الذى تحدوا به أجسادهم وساسوها به شر سياسة ، حاسبين أنهم بذلك يخدمون الروح ويتسامون بها عن أحكام المادة ودركاتها إلى عوالم الأرواح ومنازل الملائكة ! ونحن إذا عرفنا هذه الحقيقة — أعنى حقيقة مرض القوم وسبب مرضهم — هان علينا أن نفهم كيف كتبوا ما كتبوا ، وكيف ادعوا ما ادعوا ! أمن الممكن أن يكتب

عاقل مهما كان جاهلا أو ضالا أمثال ما كتبه الشعرانى فى كتابه (الطبقات الكبرى) وغيره من كتبه ، وأمثال ما كتبه آلاف من الشيوخ فى ما تركوه لنا وراءهم من المؤلفات؟ ليس من الممكن أن يكونوا مؤمنين بما كتبوه إن كانوا عاقلين ، وليس من الممكن أيضاً أن يكونوا إنما كتبوه مخادعين ومضللين ، فإن من كان يحمل معه عقلا سليما لا يمكن أن يحاول التضليل والإغواء بأمثال هذه الأساليب الصريحة فى الجنون والخبل ! فلا بد إذن أن نذهب فى تعليل هذا إلى أن القوم كانوا مرضى ، ولا بد أن ننظر إليهم بالعين التى ننظر بها إلى محموم يهذى ، وأن نسمع كلامهم وما فيه من الادعاء والشطح ونقرأه كما نسمع من نزلاء المصحات العقلية والعصبية ، لا أن نجعلهم أئمتنا المختارين ، ننزلهم منزلة الملهمين المعصومين ... وبهذا نرحمهم لأننا نراهم على حقيقتهم ، ونرحم أنفسنا وأمتنا لأننا ننجو بها من الانحدار فى هذه الدركات .

* * *

وجه الخطأ فى هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلا منهما حرب للآخر ، وأن كلا منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر : فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر العكس ... وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح — مهما اختلف فى حقيقتها وفى تفسيرها — تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز ... وهذه حقيقة هى اليوم فوق مذاهب الشك . وفى استطاعة الرجل العادى أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والاستقراء ، فإنه يرى أن الجسم إذا ما أنهك وأنصب بعمل شاق أو بسهر أو مرض أو بجوع أو بشىء آخر ، مما يضرب الجسم بالإعياء، كانت الروح أو ما يسمى بالروح أو مصدر الفهم فى الإنسان ،وصار صاحب ذلك الجسم عاجزاً عن الفهم أو كالا فيه أو ناقصاً . فإذا ما راجعت ذلك الجسم راحته وزايله تعبه ثاب إليه فهمه أو حدة فهمه ، ورجع قادراً على تناول الأمور وعلى فهمها تناولا وفهما صحيحين ... ويرى أيضاً أن الإنسان إذا ما كبر وتقدمت به السنون ووهنت قواه المادية ضعفت روحه ، أو ما يسمى بالروح وانطفأ ذكاؤه وخبا ذهنه ، وقد يصبح فى النهاية خرفاً لا يعى شيئاً كما قال القرآن : « لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » . وهذا فى الشيخ الهرم . . . وكذلك هو فى حالة الطفولة قبل تمام الجسم لا تكون روحه

ـ أو مكان الإدراك فيه ـ كاملة ولا تامة ولا صحيحة ... ثم يرى أيضاً أن الروح أو ما يدعى بالروح يتبع البدن فى كل شىء ويتأثر بما يتأثر به : فإذا نام البدن أو خدر أو أغمى عليه أو سكر أو انتابه مرض فتاك وصل به إلى حد الهذيان ، أصيبت الروح بما أصاب الجسم : بالنوم وبالخدر وبالاغماء وبالسكر وبالهذيان وبكل ما عرا البدن ... وبهذه الملاحظة الأولية البسيطة يستطيع أن يعلم أن الروح تابعة للجسم فى مرضه وصحته وفى قوته وضعفه وفى إفاقته وسكره وفى نومه ويقظته وفى كل حالاته . بل وفى الجنون أيضاً ، فإن الجنون خلل مادى يصيب منطقة التفكير وهو المخ فيصير المرء مجنوناً . أما الروح فإنها عندهم لا تجن . ومع هذا فإن كل شىء فى الإنسان يكون مجنوناً إذا تلف مركز الفهم فيه .

* * *

لما حاقت بفرنسا الهزيمة فى هذه الحرب وسلمت للفاتحين الألمان ، وفرض عليها نظام البطاقات ، وكانت الأغذية التى تقدم للشعب الفرنسى بمقتضى هذه البطاقات دون ما يلزم ودون ما يكفى حاجة البدن ، قام رجال الصحة ينادون ويقولون : إن الآثار التى سيخلفها ويوجدها نقص التغذية فى قوى الشعب وفى مقدرة الأجيال المقبلة على مجابهة الحياة والنهوض بأعبائها ، ستفوق كل آثار الهزائم العسكرية التى أصابت فرنسا ، والتى قد تصيبها ... وقد قيل مثل هذا القول فى سائر أنحاء أوربا لما ضرب عليها الجوع والحرمان والشقاء المادى طوال سنى الحرب الست . وقيل إن الأجيال القادمة ستكون عاجزة ضعيفة واهنة لحرمانها من الغذاء الكافى . وقيل إن هذا العجز والضعف والوهن سيتناسل وسينتقل لأجيال أخرى قادمة ، لأن الجيل الضعيف يخلف أيضاً جيلا ضعيفاً مثله .

ذلك أن من المعلوم أن كل عمل ، حتى أقل حركة ، إنما يصدر عن القوة ، والقوة إنما تولدها الطاقة ، والطاقة إنما هى إحدى خصائص المادة . فكل عمل يصدر منا أو مما حولنا لا يصدر عن غير المادة . فالمادة إذن هى الأعمال ، وهى القوى ، وهى الشعوب والأمم . وكل شعب يفوق الشعوب الأخرى إنما يفوقها بما عنده من المادة وبما أحسن وانتفع من استخدامها ، لاشىء غير ذلك ، حتى النبوغ والذكاء والعلوم والأخلاق والآداب ، ليست سوى مظاهر للمادة المنظمة المرتبة التى سيطر عليها الانسجام والاعتدال وجمال الوضع ؛ ما هى الكهرباء ، وما هو النور ، وما المغناطيسية والجاذبية ، وما هذه

للمادة

الألوان الزاهية التى تجلل الأزهار وغيرها والتى تروع منظراً ، وما هى الأصوات ذات الأنغام ، بل ماهو الجمال الإنسانى الذى يعجز كل ما عند الناس من ألفاظ وعبارات عن نعت ما فيه من قوة وتأثير وسحر ؟ ما هذا كله ؟ أليس هو المادة المنسقة المحكمة وأوصافها ومعانيها وقواها ؟ وما هو النبوغ والعبقرية اللذان يوجدان الشعوب ويصنعان الحضارات ؟ هل هما غير ذلك الرأس الممتاز المستدير على تلك المادة النفيسة ؟ إن أجمل شىء فى هذه الحياة وأروعه ليفقد جماله وروعته وسحره وقوته إذا غير وضعه المادى بلون من ألوان التغيير ، بالزيادة أو النقصان ، بالكيف أو بالهيئة ... وإن أفراد هذا الوجود — سواء فى ذلك الحيوان والنبات والجماد الأصم — لكل واحد منها حد مادى معين ومقدار معلوم إذا بلغه جاء سليم التكوين، تام التركيب ، صالحاً لبلوغ غايته وللقيام بوظيفته ، وإذا لم يبلغه جاء فاسداً وعقيما وغير صالح لشىء كما يجب ... فالحيوان والنبات — بل والصناعات الصماء الجامدة — إن لم تأخذ حدها الأعلى المناسب المقدور لها كانت غير تامة ، وغير مستطيعة أن تعطى ثمرتها . والإنسان إن لم يبن جسمه بناء سوياً قوياً — ولاسيما فى أعوام تكوّنه ، منذ الولادة إلى أن يتم بناؤه العام — فأنه يجىء خلقاً ضعيفاً عاجزاً عن كسب معركة الوجود ، هجوماً ودفاعاً ، عاجزاً عن أن يبلغ ما يبلغه الإنسان القوى السوى ، لامقلداً ولا مبتكراً ، محكوماً عليه بسنة الحياة العادلة بأن يظل تحت سلطان من هو أقوى منه وأسلم تكويناً ، وأن يتمزق إن حاول أن يصطدم به ، كما هو الشأن فى كل قوى وضعيف يتصادمان .

ثم إن الإنسان أيضاً عامل متحرك حى ، والعمل والحركة يحدثان احتراقاً فى المتحرك العامل ويأخذان من قواه ، فلا بد من التعويض وإلا هلك وبطلت حركاته وأعماله . وما من شىء يأتى بأبسط حركة وأضعف عمل إلا ولا بد له من الوقود ، فإن الشىء لا يوجد من لاشىء ، والموجود لايولده المعدوم . ولن تدور أو تسير أو تتحرك آلة من الآلات وصناعة من الصناعات بدون الوقود ، وهى محتاجة إليه ما ظلت دائرة سائرة متحركة . فإذا نفد وقودها بطل عملها وحركتها ... وكذلك الإنسان محتاج إلى الوقود اللازم الكافى ما ظل حياً عاملا متحركا ، ولا يستغنى عنه إلا إذا مات وأصبح غير صالح لأن يأتى بشىء . والوقود الذى يقدم إليه — وهو الغذاء — إن كان غير جيد أو غير طيب فإن عمله وحركته تجىء كذلك ، وقد يصاب بالعطب كالآلة تماماً إذا نقص وقودها أو كان غير جيد ... وليعلم أن التفكير حركة وعمل أيضاً ، ولكنه حركة وعمل جباران

مرهقان . فلن يستطيع التفكير الجبار القوى المبتكر المبدع المنتج من لم تكمل آلته ، ومن لم يتحصل على ما يكفيه ويلزم له من الغذاء . فالشعب لا يمكن أن يكون له قيمة فى هذه الحياة ، ولا شأن مذكور مرهوب ، ولا قوة عملية أو ذهنية عقلية إلا إذا كان تكوينه الجسمانى تاماً سليما ، وكان غذاؤه متوفراً . فمثل هذا الشعب هو الذى قد يصلح للحياة وقد تصلح له .

أما الشعب المريض الهزيل الجائع فإنه لن يكون شيئاً كبيراً ولن يصنع شيئاً كبيراً. وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الشعوب القوية الأبدان ، التى نجت من الجوع والشقاء والحرمان أقرب إلى الكمال الإنسانى من الشعوب المحرومة الضعيفة الشقية : فهى أشجع وأصبر وأصدق وأعظم مروءة ونخوة وحمية وإباء وتواضعاً ، وأذكى وأفهم للحقائق وللحياة ، وأبعد عن الخرافات والسخافات وعن الاضطرابات العصبية والعقلية وعن العادات السقيمة المخزية ... وأنها على وجه العموم أسلم تفكيراً ونظراً ، وأصدق عملا ، وأضخم إنتاجاً . ولهذا كان الرياضيون أقوى الناس أخلاقاً وأفضلهم شمائل .

نعم ، الروح حق وهى من أمر الله ، ولكن الفلسفة التى انتحلها هؤلاء فى صلتها بالبدن ومقامها منه فلسفة ليست لها قيمة برهانية ، بل البراهين متظاهرة على بطلانها . وذلك أن اتصالها بالجسد إن كان اتصال الصفة بالموصوف فليس هناك ريب فى أن الصفة تعظم بعظمة صاحبها وتخس وتضؤل بخسته وضآلته ، بل ليس هنالك قيام للصفة ولا وجود إلا بموصوفها وبوجوده . فالصفات إنما تستمد وجودها وقيامها وحياتها وقوتها من موصوفاتها . فكيف يصح الزعم بأن هنالك عداء بين الصفة والموصوف ، وأنه كلما نقص الموصوف وضعف وأشقى وحرم — والموصوف هنا الجسد كما هو المفروض — عظمت الصفة وعظم فعلها وعملها — والصفة هنا هى الروح على ما هو الفرض .

وأما إن كان اتصالهما من اتصال الحال بالمحل والنزيل بالمنزل ، فلا شك أيضاً فى أن النازل الحال يكرم ويشرف بكرم محله وبشرفه ، ويستفيد من جماله وحسنه وسعته وقوته وسمو قيمته . ولا يمكن أن يدعى أن رداءة المنزل وصغره وضآلته وتهدمه وسوء تركيبه وإهماله وضعف بنائه مما يشرف صاحبه ويرفع من قدره ومما يهبه القدرة والكمال .

وأما إن زعم أن هذا الاتصال بينهما هو كاتصال اللابس بالملبوس ، فالقول فيه كالقول أيضاً فى صلة الحال بالمحل والنازل بالمنزل ... وعلى الاحتمالات الثلاثة ليس مما يقرب من الصواب ولا مما يحتمله الادعاء أن بين الروح والجسد عداوة وتنافراً بالشكل الذى ذكروا .

ولا يدرى ما هى نقطة الارتكاز لهذه الأوهام التى استطاعت الاستقرار فى الأذهان كل هذه العصور والأجيال .

وقد وضع ابن سينا قصيدة شهيرة ، عرفت بالعينية ، أودعها آراء غريبة فى اجتماع الروح بالجسد وهبوطها من المحل الأرفع عليه . جاء فى مطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تحجب وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر وهى التى سفرت ولم تتبرقع
هبطت على كره إليك وربما قبلت فراقك وهى ذات توجع
أنفت وما ألفت فلما جاورت ألفت مجاورة الخراب البلقع

يريد بهذا أن الروح لم تقبل الحلول فى البدن ولا الهبوط عليه من سمائها إلا مكرهة ، لأنها هى سماوية وهو أرضى ترابى ، وأليم وجيع بسكان السماء أن يقبلوا النزول فى الأرض وسكناها . ولكنها بنزولها إلى الأرض ومجاورتها لها ولأهلها ، وبحلولها ببدنها المدد الطويلة تكيفت بالمادة وبالتراب والحضيض ، فألفت ذلك بعد أن أنفت منه ، فصارت به آنسة وإليه مستريحة وبه قريرة ، فأضحت كارهة لفراقه بعد أن كانت كارهة للاجتماع به والنزول إليه ... وهذا هو سر ألم الموت وشدة خروج الروح من الجسد حين الوفاة .

وسواء أصح هذا الذى ذكره ابن سينا أم لم يصح ، فإن الشىء الذى لا ريب فى صحته هو أن الجسد المادى هو الوسيلة التى لا وسيلة سواها للقيام بالأعمال وبوظائف الحياة وبالخير والشر ، وللاستمتاع بالسعادة أو بالشقاء ، بالنعيم أو بالجحيم . ولهذا فإن الأرواح لم توجد فى الدنيا مجردة من المادة ومن أبدانها ، ولم تحضر فى الآخرة للقاء الجزاء مجردة كذلك ، بل أحضرت بالأجسام الجميلة الكاملة ... والذين يدعون الآن أنهم يحضرون الأرواح وأنهم يستخدمونها فى بعض الأغراض والأعمال يدعون أن ذلك غير ممكن إلا بواسطة المادة وبواسطة الوسطاء .

أفليس معنى هذا كله أنه لا سبيل إلى عمل شىء ما ولا إلى الاستمتاع بشىء ما إلا بواسطة الماديات . فالذين يدعون أنه تجب محاربة المادة ومحاربة الأبدان وتعذيبها وإهمالها من أجل الوصول إلى الكمال وإلى الخير المطلق ومن أجل الظفر بالقوى الروحية كاملة مجتمعة ، قوم لم يوفقوا فيما قالوا وفيما ادعوا .

وإذا كان واجباً علينا أن نعنى بخدمة أرضنا ومزروعاتنا — لأننا نرغب فى ثمر طيب وخيرات كثيرة — فإنه كذلك واجب علينا أن نعنى بخدمة أجسامنا وبتكوينها وبنائها ، إذا كنا راغبين حقاً فى الحصول على عقول ممتازة وعلى أعمال جبارة كبيرة ، وعلى شعب يسود ولا يساد ، وعلى رجال يسابقون الإنسانية أو يسيرون مع طليعتها فى فى الاختراعات وإيجاد الحضارات ... ولننبذ من اليوم بلا تردد هذه الأفكار العقيمة والآراء المميتة ، ولنرفعها من قواميسنا ولغاتنا ثم لا نرجعها مرة أخرى ، ولنزهد فى الزهد إن كان لا بد من الزهد . ويجب أن يعلم أن كلمة الزهد لم ترد فى القرآن إلا فى موضع واحد وهو قوله فى قصة يوسف : « وكانوا فيه من الزاهدين » ولا شك أن المقام هنا مقام ذم . وكذلك لم ترد فى الأحاديث الصحيحة هذه اللفظة .

***

ولنورد فى آخر هذا البحث ما يعد مقارنة صغيرة يسيرة بين هذه الأقاويل التى زعمت لباب الإسلام ، وبين عبارات جاءت فى التوراة حاثة على العمل من أجل الحياة وعلى الترغيب فى الغنى وفى ذم الفقر والفقراء .

فجاء فى سفر الأمثال : العامل بيد رخوة يفتقر . أما يد المجتهد فتغنى . من يجمع فى الصيف فهو ابن عاقل ، ومن ينام فى الحصاد فهو ابن مخز ... ثروة الغنى مدينته الحصينة . هلاك المساكين فقرهم . عمل الصديقين للحياة . ربح الشرير للخطيئة ... الأشداء يحصلون غنى ... من يشتغل بحقله يشبع خبزاً . أما تابع البطالين فهو عديم الفهم . يد المجتهدين تسود . أما الرخوة فإنها تكون تحت الجزية . الرخاوة لا تمسك صيداً . أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد ... نفس الكسلان تشتهى ولاشىء لها ، ونفس المجتهدين تسمن . فدية نفس رجل غناه . حيث لا بقر فالمعلف فارغ ، وكثرة الغلة بقوة الثور . فى كل تعب منفعة . وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر . تاج الحكماء غناهم . لا تحب النوم لئلا تفتقر . افتح عينيك تشبع خبزاً ... نوم قليل ، نعاس قليل ، وطى اليدين قليلا للرقاد يأتيك بفقرك عداء وبعوزك غازيا .

هذه نقول قليلة من عبارات كثيرة جداً تفيض بها صفحات التوراة ... ويلاحظ فى هذه الكلمات التى نقلناها أنها تعلق الثراء والفوز بطيبات الحياة بأسبابها الصحيحة ، كما تعلق الفقر والإفلاس والشقاء بأسبابها الصحيحة أيضاً : فالمجتهد العامل القوى الجاد

المكافح ينال الثراء والمجد ويدرك أغراضه كاملة ، والكسلان الضعيف القاعد ليس له سوى الفقر والجوع والهوان الاجتماعى ، وهذا جزاء حقيق عادل ... وهذا خلاف ما عهد وعرف فى الكتب الدينية ، فإنها تعلق كل فلاح — حتى الفوز بالدنيا وبالخيرات المادية — على الصلاح والعبادة والتقوى ، وتعلق كل شر وخيبة فى الدنيا وفى الآخرة على الفسوق والعصيان — أى إنها تعلل كل شىء تعليلا دينياً لا تعليلا طبيعياً ، بل إنها تنكر هذا التعليل وتراه زيغاً ومروقاً . أما هذه الأقاويل التى جاءت فى التوراة فهى — كما رأى القارىء — تعلل كل شىء بسببه الصحيح الطبيعى : فلا تقول : إن الصلاة والذكر وخوف الله تجىء بالمال ، ولا إنها تزيد فى إنبات الأرض وإخصاب الزرع ، ولا إن ترك الصلاة والعبادة يمنع مجىء المال ويمنع نبات الأرض وإخصابها إذا ما جمعت أسباب ذلك ، بل كل شىء وسببه ! وهذا لون غريب وتعليل عجيب فى كتب الدين .

أما مدح الثراء والدنيا ، ومدح العمل لها وذم التهاون فواضح جداً مما نقلنا وذكرنا ... وقد بالغت كثيراً هذه الآيات — إن كانت آيات — فى تحبيب المال إلى النفوس وفى الرفع من قيمته ، وفى تبغيض العوز والجوع إلى البشر ، متحدثة بالويل والثبور والهلاك لكل من لا يكون غنياً ، وبالسعادة والهناءة لكل من كان غنياً ... ولا يوجد أشد مبالغة فى الحض على حب الحياة من قوله (عمل الصديقين للحياة) ومن قوله (من يجمع فى الصيف فهو ابن عاقل) . وهذا الضرب من التعليم غريب أيضاً فى الكتب الدينية . فالغرابة فى هذه الأقوال من ناحيتين : الأولى : تعليل النجاح فى الدنيا بالعمل لها لا بالتقوى كما يقول رجال الدين ، وتعليل السقوط بترك العمل . والثانية : المبالغة فى تزيين الحياة الدنيا وتزيين العمل لها والحكم بأن من يفعل ذلك فهو العاقل الراشد المرضى عنه ، ومن لا يفعله فهو الأحمق الجاهل المغضوب عليه .

ولسنا نستطيع أن نشك فى أن هذه التعاليم قد كان لها تأثير حافز للطوائف اليهودية البارعة والمشهود لها لدى الجميع بالبراعة فى كسب المال وفى السيطرة على الموارد الاقتصادية أين وجدوا وكيف وجدوا ، حتى صار معلوماً فى كل زمان ومكان بأن من يحاول منافستهم ومقاواتهم محكوم عليه بالهزيمة — كما أن تلك التعاليم التى نقلناها عن أولئك المشايخ الهدامين قد كان لها التأثير الحاسم فى قتل هم من ابتلوا بقراءتها من المسلمين حتى أضحوا مضرب الأمثال فى العجز الاقتصادى وفى غيره من ميادين الحياة ...

فاليهود ما زالوا يقرأون هذه العبارات والترغيبات فى التوراة على أنها وحى نزل إليهم من الله على أنبيائهم ، فتحدث فى نفوسهم وطباعهم حب المال وحب العمل وحب الحياة على مر القرون إلى أن صاروا بهذه المكانة المالية المرموقة ، وإلى أن سلمت لهم الإمامة والتبريز فى هذا الشأن .

ثم هذه الأقاويل إن كانت من الوحى النازل على الأنبياء فهى حجة دينية على فضل العمل من أجل الدنيا وفضل حب المال ، وإن كانت مما وضعوه وزادوه فهى برهان على تمكن النزعة الاقتصادية من نفوسهم وطباعهم بحيث حملتهم هذه النزعة الغالبة على أن يضعوا أقوالا وآيات فى تفضيل ما يحبون ويشتهون ليدسوها فى كتبهم المقدسة ، ولينحلوها الله وأنبياءه ، وليتعبدوا بها وبتلاوتها ! وسواء أصح هذا أم ذاك فالذى لا ريب فيه أن لهذه الآيات فضلا عظيما كبيراً فى تاريخهم المالى الطويل القوى .

* * *

إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودنى كلما مر بخاطرى عصر مشئوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء : كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة الحياة : لقد كنت لا أجد ما يحملنى على أن أرفع قدمى لو علمت أنى إذا رفعتهما تكشف ما تحتهما عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء ! وقد ضاعت على من أجل ذلك فرص ، كان يمكن الإفادة منها ، لا يمكن استرجاعها ! كان الغرور الدينى قد أفسد على كل شعور بالوجود وبجماله . وكنت مؤمناً بأن من فى المجتمع لو كانوا يرون رأيى ويزهدون زهدى لوقفت الأعمال كلها ، ولما وجد العالم بدا من أن يخرب ! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها بعين أقل ما فيها الاحتقار والاستصغار ! وكنت لا أبالى بأحد مهما كان عظيما ومهما كان قادراً على النفع والضر . وما كنت أفكر فى أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصال به ! وكنت لا أخالق إنساناً رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله . وكان شعارى فى تلك الفترة قول ذلك المغرور المخدوع مثلى :

إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر	وبينى وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين ، وأن جميع ما فوق التراب وما فى العالم من جمال وطيبات وحاجات ، ومن أقوام وأمم وشعوب ، تراب ! وكنت لا أبالى أن يحلو لى شىء

من ذلك أو يمر ، ولا أن يرضى او يغضب ، ولا أن يعمر أو يخرب ، كما يقول هذا الشاعر المسكين ! وكنت أرى أنى بذلك أرضى الله ، وأنى إذا أرضيته فلن يضيرنى شىء [1] وكانت الدنيا كلها تدور من حولى من غير أن أدور معها أو أحس دورانها ! وكان يخيل إلىّ وإلى غرورى الدينى الأعمى أنه لاقوة كقوتى ، لأن الله معى — واهب القوى ! فليقو العالم كما يشاء وليجمع من الأسباب ما طاب له ، وليحاول من أجل نفسه ما يحاول ، فإن ذلك كله لاقيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ومن ترك الأسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها ، وكان يبدو لى أنه بقدر إيمان الإنسان بذلك ، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والإنسانية كلها ، وبقدر استصغاره لها واحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها — بل سبها ولعنها — يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه ... وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط بى وتعلو ، وتجعل لى وجوداً خاصاً وعالماً خاصاً ودنيا خاصة ، تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضاً — واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب ما يظن كل ما يريد ولو كان فى جملة ما يريد إعزاز الأمم وإذلالها .

وكانت الخطب الأسبوعية التى أسمعها ، والعظات الأخرى المتجددة المتكررة المستمرة ، والكتب التى أقرأها ، لاتدع فرصة لى لتنبعث غريزة أوتنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة فى أعماق النفس الإنسانية وفى ثنايا الوجود الإنسانى التى تدفع إلى العمل وإلى حب الحياة ! وكانت كل تلك الغرائز والطبائع والمعانى الإنسانية عندى مُعَقَّلة ، لا تستطيع الانبعاث ولا الانطلاق ولا العمل ... كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات . وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تخديرها مستمراً مضموناً متجدداً ... فالطبيعة الإنسانية تأبى الاستمرار فى الشقاء والبؤس ، وتأبى أن تبقى مستذلة راضية مستسلمة لذلك إلا إذا أمكن أن تقعد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو تنويم صناعى أو شىء آخر من تلك العمليات المبيدة . وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية ، لأنها لتكررها لا تترك فرصة لانطلاق معنى طيب من معانى الإنسان .

---

(١) يبدو على كثير من المتدينين قسوة وخشونة فى معاملة الناس ومخاطبتهم ! والسر النفسى فى هذا أنهم يعتقدون أن الاتصال بالله والايمان بعظمته وكامل قوته يستلزم الاستهانة بخلقه الضعفاء فليشتموا وليهانوا إذن فإن ذلك لن يضر شيئاً ، بل إنه ينفع ، لأنه كالبرهنة على الثقة بالله وعلى أن الضر والنفع منه وحده .

ومن العجيب — بل من غير العجيب — أن البائسين الذين يخدرون بهذه الخطب كل أسبوع وتقيد بها غرائزهم وطباعهم وتمنع العمل والإحساس بالحياة يجدون لذة مسكرة فى سماع هذه الخطب وترديدها ! وليس هناك شك فى أن شعورهم بهذه اللذة يشبه شعور مدمن المخدرات عندما يتناول منها شيئاً بعد حرمان طال أو قصر ! وذلك أن هذا التناول للمخدر ، وهذا السماع للخطبة المخدرة يؤديان عملية التسكين فى الحالتين لحرمان الإنسان من الحياة الصحيحة الجميلة يؤلمه ويؤذيه لو ترك سليما معافى ، ولن يستطيب ذلك إلا إذا خدر ، فالخطب تقوم بهذا التخدير ، فيجد البائس المسكين فيها تسكيناً لآلامه ، ويجد فيها عزاءه ، ويجد فيها آماله الضائعة المشتتة المحرومة ! فيظل مستكيناً راضياً ، وينعم عيناً بكل ألوان الشقاء ، ويظل يتدلى ويهوى فى دركاته حتى يصل إلى حالة يتعجب السليم المعافى من رضاه بها وسكوته عليها وحياته معها ! وكما أن مدمنى المخدرات يبلغون حالة من الانهيار المادى والمعنوى لا يتصورها العقل — مع رضاهم بها — فكذلك الذين يخدرون بهذه المواعظ المتكررة يبلغون هذه الحالة من الانهيار مع رضاهم بها ولذتهم بإعطائهم هذه النوبة الأسبوعية المخدرة .

إن القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة فى خفية وعلى حذر ، ولكنها تبيح تخدير الآلاف ، بل مئات الآلاف ، بل مئات الملايين فى المساجد والجمعيات كل أسبوع بل كل يوم أحياناً ، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا ، بل وتجازيهم وتوظفهم وتقتطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية ! وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها .

لقد أريد أن تؤدى المنابر والمساجد أعظم المنافع للانسانية فأدت شر ما يؤدى : أريد منها أن تحيي فأماتت ، وأن تعز فأذلت ، وأن تهدى فأضلت ، وأن تبعث على العمل فبعثت على الكسل ، وأن تمدح الحياة فامتدحت الموت ، وأن ترفع من شأن الجمال وتحببه إلى النفوس فرفعت من شأن الدمامة وحببتها إليها ، وأن تملأ الرؤوس بالحقائق فملأتها بالأوهام ، وأن تخلق شعوباً متوثبة فخلقت شعوباً خاملة عاجزة — تنتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لامن أنفسها ، معلقة أبصارها دائماً بالسماء ، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل ، ولا تنظر إلى نفسها وطبيعتها ... فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل !!

كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما أراهم يوم الجمعة ، وآذانهم مرهفة ، وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذى عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان ، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية ، وأن يبنى لهم المنازل الجميلة ، وأن يقضى لهم كل حاجة ورغبة ، وأن يقدم إليهم الاستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة ، وأن يدخلهم أخيراً الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء فى صنوف الأبرار المقربين ... والثمن لذلك كله لا يعدو كلمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمتمون بها ، وبعض حركات يمثلونها ، أو تمثل بهم كما هو الصحيح ، بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضاً وغاية .

وكم أرثى لهم — بل وأبكى — وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب ، ويهزون رءوسهم الفارغة ، ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة ، كلما سمعوا وعدا أو وعيداً ، وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى إليهم ، والأهوال الراعبة المذهلة تصب عليهم ، وكلما سمعوا أن إنساناً ارتفع من حضيض الفاقة والذل إلى أوج الثراء والعز — وأن آخر توقفت أمام إرادته قوانين الطبيعة ونواميس الوجود أو بطلت — وأن آخر أهبطت له الملائكة المقربون من سماواتها لتكون فى خدمته وتحت مشيئته — وأن آخر زف إلى الجنة زفاً وبين يديه الملائكة والنبيون يحملون المشاعل والبخور ويفتحون له الطريق — بل وأن أمة استولت على الأمم وأملت على الزمان والمكان — لا لشىء سوى أنهم أرادوا ذلك وطلبوه ، وأنهم تحركوا حركات ، سموها عبادات : نعم كم أرثى وأبكى لهؤلاء البائسين وهم يهتزون تحت هذه الوعود والبشارات ويتلمظون شوقاً ورغبة ، ثم يخرجون وهم يندبون أنفسهم ، ثم يقضون أيامهم ويودون بآمالهم إلى نهاية الأجل القريب ، مخمورين بهذه الخمرة التى لا يفيق شاربها .

لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة ، أو تنبعث عاصفة من الطاقة الإنسانية الأبدية الكامنة فى أعماقهم ، فتضىء لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم عن هذا المكان الذليل ، لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدرين . ولكن هذا الاجتماع الأسبوعى مفروض فرضاً ، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضاً أيضاً ، فأين النجاة وكيف الفرار ! .

قد يجوز أن يختلف المصلحون فى كثير من طرق إصلاحهم ، ولكن ليس مما يجوز الاختلاف فيه أن الواجب الدينى والوطنى والإنسانى يلزم إما بإصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب ، وإما بالحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وضحاياها . وإما بشىء آخر ...

وقد أراد جماعات من المتأخرين أن يجددوا فى معنى الزهد وأن يجعلوه عصرياً ، فقالوا : إن الزهد محله القلب لا اليد — يعنون أن القلب هو الذى يجب أن يزهد فى الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، أما اليد فلا بأس بأن تجمع وأن تعمل . وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تتطلبه الحياة من عمل ونشاط ... وفات هؤلاء أن هذى الفكرة مستحيلة متناقضة . وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه — أو ألا يحبها بقلبه — ثم يعمل لها باهتمام ، صابراً على مشقات الطلب والعمل ، لأن الذى يبعث الإنسان على ذلك هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها وإلا لما قام بعمل شاق إلا أن يكره إكراها . بل الذى يمكن فى هذه المسألة هو العكس — أى إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده . فمن الواقع المشاهد أن تكون محباً للدنيا وللمال جداً بدون أن يمنعك هذا الحب من الإنفاق وصرف مافى اليد رجاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة . وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع . وقد أشار القرآن إلى هذا فى قوله « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقوله « ولكن البر من آمن بالله — إلى قوله — وآتى المال على حبه ذوى القربى... » وقوله .. « ويطعمون الطعام على حبه » . وهذه الآيات صريحة فى أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال . أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة ! فالمرء إذن قد يحب المال ثم ينفقه ، ولكنه لن يكرهه ثم يعمل له . فهذا الرأى الجديد فى الزهد يدل على أن أصحابه لا يصدرون فى ما يقولون عن نظر وتفكير .



غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجهاً ، أو أنه هو الوجه الصحيح . ذلك أن من القضايا المتفق عليها أن الاختلاف بين الناس فى وضعهم الاجتماعى وفى تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والعز والذل ، وغير هذى الأمور ، لا يمكن أن يقضى عليه ، بل يوجد إلى جانب الغنى الواحد عشرات الفقراء — أو مئاتهم

أو آلافهم — ولو فقراً نسبياً — كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم ، يهتفون بحياته وباسمه إذا بدا ، ويخضعون لأوامره إذا غاب — وهكذا القول فى كل ناحية من نواحى هذه الحياة المحكمة التعقيد .

وحينئذ فالمسألة ذات فرضين : أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذى لاحدود له ولا قيود ، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم فى غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً ، ووجب عليه ألا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يطل له مسعى حتى يوفى على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذى ورده الآخرون السابقون . . . وأسلحته فى ذلك إتلاف جسمه وإرهاق نفسه .

وثانى الفرضين أن يرى أن الأمر دون ذلك كله ، وأن الدنيا ما هى إلا حاجة قليلة ، يكفى منها ما أمسك الحياة ، وأن التفاوت فى مظهرها هو مثل التفاوت فى مظهر الموت : يحمل عليها وليس منها ، ويلون بها ولكن لا يكونها ، وأن القميص الحريرى يلبسه الحى بالنسبة للقميص القطنى أو لما دونه ، هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه ، وأن المرء ليس إلا عقله وفكره وأخلاقه — أى ليس إلا ذاته المعنوية ، وليس هو ما يتصل به اتصالا مما ليس فيه ذاتياً .

أما الفرض الأول فهو ما لاشك فى عنفه على البشرية وقسوته عليها . فإن البشر لا يستغنون فى حال من الأحوال عن القرار والرضا — كله أو بعضه — بما هم فيه وإلا لهلكوا وعصفت بهم الحسرات ... وما الرضا والقرار فى هذه الحياة إلا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس المحرقة . وإن البقاء فى هذه الحياة بدون هذين الأمرين — الرضا والقرار — مستحيل استحالة الحياة فى هذى الصحراء بدون الماء والظل والخصب ... ولا شك أن هذا الفرض فى الحياة ينتزع منها أسبابها . ولن يوجد شىء إذا لم توجد أسبابه .

فإذا ما قامت الفكرة الإنسانية العامة على أن وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة ، وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة ، وأن سعادته وشقاءه منوطان بها ، فلا شك فى أنها — الإنسانية — ستحرم حينئذ حرماناً باتاً من السعادة ومن الهدوء والاستقرار . فإن كل إنسان — بالغاً ما بلغ — سيجد

أمام عينيه من هو فوقه فى شىء أو فى أشياء كثيرة ، وسيجد مجال التطلع والتشوف شاسعاً واسعاً دائماً ، وسيشقيه هذا الفرق أو هذه الفروق ، وسيمر عليه أحلى ما فى حياته من طيبات ، وسيبقى من هذه الناحية ولأجل هذا الوجه — وإن نال أقصى ما تتطلع إليه أكثر النفوس — مثل من حرم الحرمان كله ، لأن كلا منهما يرى من هو فوقه ومن ميز عليه فى أمر من الأمور ، ويبصر ما قعدت به عنه قواه وبداه . وسوف يظل هذا الشعور والاعتبار مبعث آلام لا تنتهى ومصدر اعتداءات لا ضابط لها . فإن أكثر العدوان الذى يقع بين البشر دائماً إنما يقع للإيمان العميق بالمادية . ولا شىء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر فى كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر إلى الحياة وإلى حقيقة الإنسان ، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية ...

وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة والزهد ، ولا بد من الإيمان بالافتراض الثانى ، وفيه وحده شفاء الإنسانية المضمون من داء الجشع الذى أشقاها وأشقى معها الوجود كله . ولاريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الإيمان بالمادية والانقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها . ولو أنها نهنهت من هذا الإيمان وكفكفت من غلوائه لكان فى ذلك بعض النجاة أو كلها . ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الافتراض وأمعنت فى تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة إليه . وجاء فى الحديث النهى عن أن ينظر المرء إلى من فضل عليه فى الدنيا ، وأمر بأن ينظر إلى من هو دونه لهذا الغرض نفسه . وفى الكتاب « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » .

هما رجلان : أحدهما طلعة طمعة ، ممدودة عيناه وقلبه وآماله إلى أبعد الآمال والآماد وإلى ما لا تستطيع قواه البشرية أن توصله إليه : يريد كل ما يرى ، بل وما لايرى مما قد يخطر بباله ، ويحسد كل مجدود ، ويتأوه غيظاً وحسرة ، ويفور حقداً وألما ، كلما أبصر نعمة نالها إنسان ، وكلما أبصر من هو فوقه فى شىء من الأشياء ... ويبقى هكذا حياته جميعها ، لاقرار ولا رضا ولاسرور ولاسعادة ولا غبطة ولا التذاذ بشىء مما يلتذ به الناس ! فأى إنسان هذا ! وأية حياة هذه التى يحياها ؟ ؟ هذا رجل ، ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله ، ويعمل لحياته لا لأطماعه : فلا يطلب إلا ماطلبته الحياة ، ولا يحتاج إلى غير ما يمنحه البقاء والوجود . مثله كمثل الأزهار والأطيار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة

المرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يغصها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات ، ويجلد أعصابها جلداً متواصلا حتى تصاب بما يعز الشفاء منـه ، ويقضى عليها بأن تشب كل هذى الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا إنسانية ، إجابة لآمالها وأطماعها ... فيسعد كما تسعد هذى الأزهار والأطيار والمخلوقات الأخرى الجميلة ، ويقر قرارها ويهدأ هدوءها ، ويتناول الحياة مثل ما تتناولها هى — أى يتناولها بقـدر ما يقول له وجوده وبقاؤه : تناول ، لا بقدر ما تقول له أطماعه ذلك — فيعيش هو ومن حوله فى سلام أبدى ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا ينتهى ...

وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة ، وذموا الحرص والجشع والتهالك إنما قصدوا هذه المعانى الطاهرة الخيرة . وقد أرادوا أن يسموا بالإنسانية على أطماعها المادية وأن يقربوها فى معانيها وأخلاقها من الملائكة ، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التى يسببها حب المادة والإسراف فى طلب المال وما يتصل به . وأرادوا أيضاً أن يعزوها . والإنسانية قد تستغنى عن أشياء كثيرة ولكن شيئاً واحداً لن تجد ما يغنيها عنـه : هذا الشىء هو العزاء الذى يخلق لها الرضا .

وقد وجد إناس كثيرون فى ثنايا التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيوا بهذه المعانى وأن يجـدوا فيها لذتهم وحاجتهم ، متأثرين بهذه الدعوة الطيبة ، متقمصين هذه الروح الخيرة . فكانوا ملائكة إنسانيين ، وكانوا مناراً يأوى إليـه كل من ضـلت به سفينته الخلقية فى خضم المطامع والأهواء المفسـدة ، وكانوا هدى يجتـذب كل من جارت به ضلالاته فعمى عن الطريق .

***

كل هذا يمكن أن يقال ، وكثير منـه صحيح ، ولكن لن تكون نتيجته إثبات فضيلة الفقر والقناعة ، ولن يدل بمجموعه على ذلك . وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية .

أما إن الإنسان لن يستغنى فى حياته عن العزاء الذى يهبـه الرضا فمسألة تجل على الخلاف . ولو أن إنساناً ما فقـد هذا العنصر النفسى فقداً تاماً بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيـه ويعزيه ، أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليلا من العزاء لهلك لا محالة ، إما انتحاراً وإما أسى وحسرة . وكل إنسان إنما يعيش بقـدر ما له فى وجوده

من آمال صادقة ، أو كاذبة ، تفيض على نفسه المتلهفة ألواناً مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الإنسانية ... ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء ، وإنما طريقه أشياء أخرى : منها رياضة المرء عاطفياً وعقلياً على الشعور بالسعادة وعلى الاحتمال الجميل وتلقي المكروه بالصبر والابتسام، ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الاستسلام، وأن يكون مثله مثل الجندى المغوار ، يخوض ثبج الموت ، ويدفعه باليمين وبالشمال وهو يهزج أهازيج الحياة — أو مثل الأمة الفتية المتوثبة ، تتلقى الهزيمة الصارمة رافعة رأسها معتقدة أنها فترة انتقال وتجربة قاسية لابد أن تمر بها وأن تعبرها إلى ماهو أفضل وأعظم — وأن يعلم القدرة على الاستمتاع بكل ما يدرك من آماله وإن قل ، وأن يكون كالحى النامي الصحيح ، ينتفع بكل ما يقدم إليه من غذاء وشراب وهواء قابلا غيره أيضاً .

ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوى السوى . فإن الاكتئاب واليأس انحراف فى الطبع ، وانحراف الطبع نتيجة طبيعية لانحراف الصحة . ولا تستبد الكآبة واليأس المقيم إلا بضعاف الأبدان ، أولئك الذين لم يوهبوا أجساماً طبيعية قادرة على مواجهة الحياة العارمة بمزاج سليم وقوة فعالة . ولن يخر فريسة لهذه الانفعالات السخيفة إلا أحد أولئك الذين جاءت أحد أجهزة أجسامهم وأجهزة الحياة فيهم ناقصة عليلة .

وإذا كان هذا حقاً — وهو حق لاريب فيه — فإن الذى يهب الصحة والبدن السليم القويم هو الغنى لا الفقر ، وهو السعادة المادية لا الحرمان المادى . والفقر والحرمان هما بلا شك أحد مايعطى الأبدان العليلة العاجزة . وهذا الرضا الذى قلنا إنه لابد منه للحى المريد المنفعل لا يمكن أن يحظى به الفقراء المحرومون ، بل هو أبعد الأشياء عنهم . والفقر والحرمان يلازمهما — غالباً — السخط والحقد والشذوذ والانفعالات الرديئة . وإذا وقع غيرهذا فمن الأمور الشاذة التى لايصح أن تكون قاعدة من القواعد .

ومحاولة نيل الرضا والقرار والهدوء بالاستسلام للفاقة تشبه محاولة الاستسلام للجهل والمرض وللعار الاجتماعى للاعتقاد أن التطلع إلى العلم والصحة والارتفاع فوق العار مما يحرم الرضا والاستقرار والهدوء .

ثم إن الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا ، بل هى سائرة وهم سائرون فى الطريق ، شئنا ذلك أم أبيناه . فإذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيباً فإن

الآخرين لن يرضوا لأنفسهم هذا الذى رضينا ، بل سيسيرون فى الطريق الآخر . وحينئذ لن يدعونا فى هدوئنا وقرارنا وسعادتنا النفسية الخيالية ، بل سيزحموننا ويضغطوننا ويجلوننا عن أماكننا ، كما حدث لنا ولأمثالنا من الواهنين العاجزين الراضين بكنز القناعة الذى لا يفنى ، كما تقول فى حكمنا التقليدية المخربة .

وأما القول بأن الجشع المادى هو الذى يوقع الحروب والشرور والعداوات بين الناس فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق ، غير أنه لا مراء فى أن الفقر أو خوف الفقر ، وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والاعتداءات ، وأن اللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام أكثرهم — ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم — من المفلسين المفلوكين ، وأن الحروب تقع بين الفقراء كما تقع بين الأغنيـاء ، بل وأن وقوعها بسبب الفقر أكثر من وقوعها بسبب الغنى ، وأن عهد الفاقة الإنسانية العامة لم يستطع أن يمنع هذى الحروب ، بل وأن عهد القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأفظع مما تشبها عهود المادية المالية الجشعة . كل هذا صحيح لا ريب فى صحته . فالدعوة إلى القناعة والزهادة لا تعطى الخير المرجو منها ، ولكنها تجلب الشر المخشى منها فقط . فإن الإنسان مدفوع مسير بغرائز معينة أصيلة فيه . فإذا صادف دعوات دينية أو غير دينية تكافح فى ظاهرها هذى الغرائز الطبيعية ، كانت النتيجة أن تختفى هذى الغرائز عينها تحت مظاهر أخرى قد تكون أعظم فتكا وإيقاعا بالإنسانيـة وبأصحابها . فتحسين الفقر والزهد والارتفاع على حاجات الجسم وضرورات الحياة لن يستطيع أن يسلب الإنسان غرائزه هذه ، ولن يستطيع أن يجعله كما يريد الداعى المزهد المحسن للزهد . بل ستكمن هذه المعانى لتبرز تحت قيادة مزاعم أخرى لتؤدى فتكها وفعلها فى ضراوة وفظاعة أشد مما يتصور . فأنت إذا دعوت إنساناً إلى هذا الكنز الروحى المزعوم وأقنعته بأنه يجب عليه أن يزهد وأن يخلى الدنيا وأربابها وأحبابها وراءه ، وألا تخطر أو يخطروا له على بال ، وأن يعيش بروحه ومعناه ، وأن يرفض بدنه وغرائزه ، فلا تظن أن ذلك الإنسان قد أصبح كما تريد . إنك إذا ظننت هذا فقد بالغت فى الظن . وإذن فلن يتنازل المرء عما جبل عليه من شهوات وطباع ومطامع تصدر عنها الشرور والعداوات والاعتداءات ما دام محتفظاً بطبيعته ولم يخلص منها ويصر شيئاً غير الإنسان .

وليس هناك شك فى أن إفهام كل إنسان بأن الواجب عليه أن يبلغ الغاية فى طلبه

الدنيا وطلبه النجاح فيها ، ثم إفهامه أن فيه القدرة الذاتية على ذلك إذا أحسن المسعى والجهاد ، وأن كل نجاح وفوز فى الحياة إنما يرجع إلى هـذا — ثم بلوغه جميع ذلك أو كثيراً أو قليلا منه — أقول لا شـك أن الإنسان الذى يفهم هذى الأمور كلها ثم يفهمها يقل جداً اشتغاله بعاداة الآخرين وحسدهم والحقد عليهم ، ثم يقل جداً من العمل بمقتضى هذه المعاداة وهذا الحقد والحسد . فالمكبون على طلب الدنيا بمساع صحيحة جيدة هم أبعد عن الكيد للآخرين والاشتغال بعدائهم من أولئك الضامرين المشتملين على الفقر والبؤس والحرمان ، لأن هؤلاء سيلتهبون عداوة وضراوة على كل ساع ناجح ، وسيوقعون به إذا استطاعوا ولو باسم الدين أو باسم العدالة الاجتماعية أو باسم مقاومة الظلم والظالمين أو باسم المساواة . ولهذا فإن الغوغى من المحرومين والبائسين هم فى العادة الذين يقومون بالانقلابات الدامية المرهبة . كل هذه حقائق ترتفع على الجدال والخلاف ... على أن الفقر نفسه شر من جميع الحروب ، بل هو حرب تفوق فى أثرها كل حرب . فإذا خفنا من المادية ومن الإيمان بالمادية خشية أن توقعنا فى الحرب الممقوتة كنا مخطئين حقاً ، لأن ما خفنا وفررنا منه أسهل وأخف جداً مما فررنا إليـه ووقعنا فيه . فالحروب مع الغنى والثراء خير من السلم الدائم مع البؤس والشقاء ...

وأما الحديث القائل : (انظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية . ذلك أن الإنسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسـد للمتفوقين الناجحين . والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير : بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ، ويؤذى ويظلم المحسود المنفوس عليه . وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة ... ويمكن تصور هذه الاحتمالات متى فكرنا فى شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلى غيظاً على من هو أرفع منه فى شأن من الشؤون ، ثم فكرنا أن هذا الغيظ قد يتطور إلى محاولة الكيد والإيقاع ما أمكن . وأقل ما لهذه الحالة من احتمال أن يفقد الإخلاص والتعاون والحب والانسجام بين أفراد هذا الشعب . وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الانحلال العام الذى لاريب فيه . فكان لابد من وضع علاج لهذا ، وكان من المعلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فإنهم يتأسى بعضهم ببعض ويخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور : (إذا عمت المصيبة هانت) . أما الانفراد بالألم وبالظلم الاجتماعى وبالمصيبة فهذا ما لا يطيقه الإنسان . فكان من الصـواب إذن أن يلفت المصاب إلى المصابين ، ويدل المتألم على مكان المتألمين

ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن إحساسه بالبلوى . فأرشد إلى أن ينظر من هم أشد منه هولا وخطباً ورزءاً . ولكن ليس معنى هذا الرضا والاستسلام لتلك الحالة ، كلا ، وإنما معناه التعزية مع التحريض على الخروج من المصيبة بالسرعة والقوة كلها ... وكأنه فى معنى أن يقال : لا تهلك أسى وجزعا ، فإن أمامك من هم أفدح خطباً ، ومع هذا لم يهلكوا ولم يحاولوا أن يهلكوا ، بل حاولوا النجاة فنجوا ، وطلبوا الصعود فصعدوا ، فليكن لك فيهم الأسوة والاقتداء ...

وأما قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » فهو فى موضع النهى عن الحسد وعن التطلع إلى ما فى حوزة الآخرين ، فإن هذا هو صنيع الأطفال والنساء العاجزات . وهو صنيع لايوصل إلى غير الألم والغيظ والحقد . ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها بدون أن يأكل أنامله ونفسه تشوفا إلى ما متع به غيره من عباد الله . فالآية فى معنى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهود والأعمال والإنتاج الإنسانى . فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا وتربيتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها ، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل : (زيادة المرء فى دنياه نقصان) وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة : (إنما هى القدرة على العمل) . نعم ، إن السعادة هى القدرة على العمل ، وليست هى العمل بدون القدرة عليه ، وليست أيضاً هى البطالة والكسل ذهابا وراء ذلك المخدر القديم الشنيع : الزهادة أو القناعة .

كان الرسول عليه السلام يتعوذ ويقول فى تعوذه : (اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والكفر) فقالوا له يارسول الله : وهل يكون الفقر عِدْلَ الكفر — أى مثله — ؟ فقال : (نعم هما عِدْلانِ) حديث صحيح .

أجل إن الفقر والكفر عدلان ، لأن الكفر انفصال عن السماء والفقر انفصال عن الأرض ، فالكافر لا مكان له هناك ، والفقير لا مكان له هنا : فهما انفصالان عن جانبى العالم ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الكفر جحود القلب والفقر جحود الجوارح والأعضاء ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الكفر كثيراً ما يكون مصدراً للشر والعدوان ونشر الفوضى الاجتماعية المجنونة ، وكذلك الفقر يؤدى هذه الرسالة الخبيثة نفسها . وهما عدلان أيضاً

لأن الكفر يجرد من العاطفة الدينية المحسنة أحيانا ، والفقر يجرد من العاطفة الإنسانية .
وهاتان العاطفتان هما الدائنتان لهذا العالم بكل ما فيه من خير وفضيلة وإحسان ... وهما عدلان أيضاً ، لأن أحدهما عذاب فى أول الوجود والآخر عذاب فى آخره ، ولأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولأن أحدهما عجز فى العاطفة والآخر عجز فى الوسيلة والحيلة ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الإيمان يقع هكذا : يتصل الإنسان بالوجود فيحسه فيدرك جماله فيؤمن بمصدر هذا الجمال الذى هو الله . والفقير عاجز عن ذلك كله ، لأنه لايتصل بالوجود إذ هو مفصول عنه بحرمانه ، فلا يحسه ، فلا يدرك جماله ، فلا يؤمن بسبب الأسباب ... ولأن حواسه مغلقة أيضاً فلا تحس ما يقع حولها .

ثم إن هذى السلسلة المؤدية إلى الإيمان إنما تدرك بآلتها ، وآلة هذا الإدراك إنما هو الخيال والقلب والعقل والحواس القوية المفتحة ... وجميع هذى القوى الإنسانية معطلة فى الفقير ، لأنها فيه مشغولة بجراح الفاقة وتباريح الفقر ... وإننا لن نرجو من إنسان يكابد أشد الآلام الجسدية والنفسية أن يستمتع بخيال مشبوب ، أو قلب فياض بالعواطف النافعة ، أو بحواس ملهمة موحية ، أو يشعر بالجمال الذى يحيط به .

ثم إنه — أى الفقير — لا يرى شيئاً من جمال هذا الوجود لأن كل ما هو فيه وما حوله من أولاد وأهل ومأوى ومطعم ومشرب وملبس قبح ودمامة ، فلن يؤمن إذن بمبدأ الجمال ، ثم لن يؤمن بمبدأ العدالة والحكمة ، إذ لا توجد العدالة والحكمة حيث لا يوجد الجمال لأنهما من أقسامه ووجوهه ، ثم لن يؤمن بوجود القدرة المختارة المنظمة المهيمنة ، إذ لن تؤمن بالحكيم المنظم المهيمن القادر إلا إذ شاهدت آثاره ودلائله ...

ثم هو إذا آمن إنما يؤمن إيمانا تقليدياً أو اضطرارياً لا خير فيه ولا جمال ولا روح ولا برهان ... فيكون إيمانا كله الجفوة والقسوة والضعف والعنف ... والإيمان الذى يكون بهذه الصورة ما مثله إلا كمثل المرأة الفاقدة لكل معانى الأنثى من الجمال والجسم والروح والخلق — أو كمثل الأرض التى لا خصب ولا ماء ولامعدن فيها .

وإذن اللهم إنا نعوذ بك ، كما عاذ رسولك ، من الفقر ومن الكفر .

هل فى سنن الله محاباة — الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم

كيف يجب أن نفهم قوانين الطبيعة

ينشىء رجل مسلم متجراً أو مصنعاً فى مكان ما ، يعرض فيه نوعا من أنواع المصنوعات أو غير المصنوعات ، فيقضى له سوء تفكيره وتقديره بالكساد ، فيظل يموت جزءاً جزءاً حتى يودع آخر أنفاسه ، أو يبقى عاجزاً عن الموت وعن الحياة ، بدون أن يحاول فى الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص ، فإذا ما زرته — أو عدته — قبل نهايته وفطنت لحالته وقلت له : لماذا أنت هكذا ، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين ، ولماذا تصبر على هـذا الموت البطىء المحقق ، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق ، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض — ومن المعلوم أن الأسباب الطبيعية للكساد الصناعى أو التجارى ثلاثة أمور : مكان العرض ، فقد يكون اختيار المكان خطأ ، ونوع المعروض : فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب ، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار : فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة — إذا ما وجهت هذه الأسئلة أو بعضها إلى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون ، الجاهل بالله ، قال لك — وكله ثقة وإيمان بما قال : إن الرزق والنجاح ليسا (بالشطارة) ولا بالجدارة ، ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض ... وإنما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر — والمقضى المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هرباً منه ، بل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه ... فلا معنى إذن للتغيير والتبديل ولا معنى للنقلة والارتحال ... ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة ، مغمضاً عينيـه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر ، فتطويه كما طوت الملايين قبله وكما ستطوى الملايين بعده .

ومن الطرائف المخزية فى هذا الموضوع أنى عاملت مرة إنسانا من هؤلاء فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية ، فقلت له كأنك لست حريصاً على أن يعاملوك ، وكأنك لا تريد النجاح ولا الفوز ، فإن هذه المعاملة مما يعد الذين ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك ... فتعجب من قولى ورآه جد باطل ، بل رآنى بهذا قد كفرت أو كدت ، لأنى اعتقدت أن الأرزاق والنجاح بالأسباب والمعاملات لا بالأقدار والأقضية ... وأخذ يسرد علىَّ

روايات وفصولا يزعم أنه فعلها بالناس . وذكر لى فيما ذكر أنه مرة ضرب إنسانا كبيراً جداً عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب ، ووجه إليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق ! ثم قال لى ! ماتظن هذا الإنسان الكبير قد صنع بعد هذا الهون المرير ؟ قلت : أظنه ذهب ثم لم يرجع ! قال إنه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء إلى متلطفاً متخضعاً طالباً الغفران والنسيان ، كأنه المجرم الآثم ، وكأنى المظلوم المغبون ... ثم أردف معلقاً : أرأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشىء مما تدعى وتحكى ... فغمرنى بجهله العميم ، وأفحمنى بسخفه فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكراً فى عاقبة الجهل والضلال ، ومتعجباً من استعداد الإنسان لأن يكون أضل من الأنعام ... وليست هذه الحكاية فريدة فى الموضوع ، بل سمعنا وسمع القراء المئات بل الألوف من أمثالها ! ونحن نسمع هذا أينا ذهبنا وتوجهنا ! بل أكاد أقول إن كل الناس عندنا يقولون كما يقول هذا الرجل ، ويرون كما يرى ، ويفكرون مثل ما فكر ، ويعاملون معاملته ... هذا رأى الرجل الجاهل بالحياة وهذا عمله .

أما الرجل الآخر الذى عرف سنن الحياة فإنه إذا ما أنشأ مصنعاً أو متجراً أو قام بعمل من الأعمال ، فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمل ، فإنه يعلم كيف يتلافى أمره وكيف يتقى الخطر قبل وقوعه . ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلا . إن المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر ... ثم لا يلبث أن يخرج منتصراً وأن ينجو مما ظن خطراً مبيداً محيطاً ... وإذا ما تصورنا هذا المثل تصوراً صحيحاً وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية الرجلين اللذين ضربناهما مثلا ، لم يعسر علينا كثيراً أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيراً متأخراً ضعيفاً صغيراً فى كل أمر يتعاطاه ، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنياً قوياً كبيراً فى كل شىء يتناوله .

***

قال أحد الشعراء فى أحد الجاذين المجانين :

يعطى ويمنع لا عقلا ولا سفها ‏ ‏ ‏ ‏ لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر فى آخر :

ما زال يعبث بالمكارم جاهداً ‏ ‏ ‏ ‏ حتى ظننـــــا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الإنسان الذى عناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفاً

ليس دائناً لقانون ، ولا قائماً على حكمة ولا على استحقاق ، فيعطى من يعطى ، ويمنع من يمنع ، ويعز من يعز ، ويذل من يذل ، ويكرم من يكرم ، ويهين من يهين : يفعل ذلك لا لأن أحداً من هؤلاء خليق بما صنع ، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله ... ولكن لأن مشيئته العمياء المطلقة رأت أن تفعل ذلك ، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحبت أن تصنع ما صنعت ، ولأنه قادر وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذى قيل فيه : (حتى ظننا أنه مجنون) وقيل : (لكنها خطرات من وساوسه) ... وليس من ريب أن نظاماً من النظم يقوم على هذا الأسلوب لا يمكن أن يترعرع فى كنفه سوى الجهل والفوضى والانحطاط والكسل والنفاق والملق الكريه ... ولا يمكن أن يكون مثل هذا النظام مشجعاً للعبقرية ولا مساعداً للنبوغ على البروز ، ولا شاحذاً للمواهب الإنسانية الكريمة .

وقد مرت عصور طويلة بالبشر كان هذا النظام القبيح المجرم هو حاكمهم وقائدهم ، فكان الناس إذ ذاك تحته أمثلة للسوء والجهل وتلاشى الكفايات واندحار الفضيلة واختفاء النبوغ ... وكل هيئة اجتماعية تسوى فى حكمها وتقديرها وجزائها بين المحسن والمسىء وبين فاعل الخير وفاعل الشر ، وبين النابغة والجاهل — بله تفضل الأخير — هى هيئة لا يرتجى لها بالضرورة تقدم ولا خير .

وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون فى أفعاله وفى تصرفه فى خليقته مثل رأى هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم : فيرون أنه تعالى لم يضع نظاماً دقيقاً لا فرار منه يلق كل جزاءه على مقتضاه ، ويأخذ كل على حسب ما يعطى ، ويحصد كل إنسان على قدر ما زرع ، وينجح كل إذا درس وفهم ، ويسقط إذا هو لم يفعل ذلك ... ويرون أن هذا العالم فى يد الله كلعبة فى يد صبي يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير : فعندهم أن الإنسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو شروط الصحة أو الشروط اللازمة لأن يكون إنساناً محترماً ناجحاً فى الحياة ، ثم لايدرك شيئاً منها ... بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر ، وذلك أنهم يرون أن القاعد العاجز قد يبلغ كل ما يؤمله من الفوز والنجاح بينما يهوى الجاد الحازم العامل الخليق بكل نجاح فى الحضيض كل أيام حياته . ولا مقتضى لهذا سوى مشيئة الله المطلقة وقضائه الغالب . ومن أجل هذا الاعتقاد فإنهم لا يمكن أن يهبوا لأعمالهم كل ما فيهم من استعداد ولا كل ما وهبوا من حول وقوة :

فلا الزارع محتاج احتياجاً صحيحاً لأن ينفق على مزرعته كل مايمكن من الخدمة والعناية ، ولا الصانع محتاج إلى ذلك لإخراج صناعته كما يجب أن تخرج ، ولا الطالب للعلم يعلم علماً صحيحاً بأنه لن يصل إلى مايشتهى من الدرجات إلا بقدر ما أعطى من الاجتهاد والدرس واليقظة ، ولا التاجر يدرك أن نجاحه متوقف على ما فيه من صفات ومن إدراك لأخلاق الجماهير وقدرة على الأخذ بقياد أنفسهم ، ولا على ما فى تجارته من إغراء وميزة ، بل ولا الجيش وقادته — لو كان لنا جيش وقادة — يعرفون أن النصر والهزيمة أمران يتجاذبهما أمران : الكفاية والنقص ، وأن مع الكفاية النصر ومع النقص الهزيمة ، ولاهيئة من هيئات الأمة تعتقد اعتقاداً لايعزجه الشك أن نجاحها وفشلها مرتبطان ارتباطاً لا اضطراب ولا فوضى فيه بطريقة سلوكها بحيث تسقط سقوطاً محققاً إذا لم تصنع كل ما يجب صنعه ، وتفوز فوزاً محققاً إذا فعلت كل مايجب مع استيفاء الأداة واستجماع الشروط ... بل المسائل كلها محكومة بالصدف وبالحظوظ وبالأقدار والأقضية التى يتصورونها تصوراً أملاه الجهل وحده ... وكم تسمع من عبارات السخرية والاتهام إذا حاولت أن تقنع من يتصلون بك ومن تلق أنهم لن يدركوا من هذه الحياة إلا بقدر ما أعطوها من عمل وعقل ، وأن قضاءهم وقدرهم وحظوظهم تأتى أبداً صورة صحيحة موافقة لأعمالهم وعقولهم ولون استعدادهم : فإن كانت الأعمال والعقول مظلمة مشوشة كانت صورتها كذلك وإن كانت مضيئة مشرقة جاءت كذلك أيضاً ، جزاء وفاقاً .

ولقد زعم كل هؤلاء حينما توالت انتصارات ألمانيا فى بداءة هذه الحرب أن هذه الانتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا لا لأن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها ، ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت فى الخاتمة الهزيمة النهائية رجعوا يزعمون أن المسألة أيضاً راجعة إلى تغير مجرى القضاء والقدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغير الأسباب واختلافها . وقد ألقيت فى هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقالات ! وهكذا يحكمون فى كل قضية ، وبهذه العين يبصرون جميع الأحداث والحوادث .

وهذه المسألة هى الآن حقيقة مدرجة فى جداول الحقائق التى انحسر عنها كل ريب وإن كانت لا تزال عند الآخرين الذين لم يستطيعوا أن يرفعوا عن أذهانهم قناع الجهل المنسوج من خيوط التقاليد الجاهلة ضرباً من ضروب الضلال أو الكفر والمروق ...

ولفهم هذه الحقيقة الأثر البارز الفعال — كما لجهلها ذلك — فى تقرير مصاير الجماعات والشعوب وفى توجيهها مختلف الوجوه والجهات .

ولسنا فى حاجة إلى التوكيد بعد هذا بأن الأمة التى تضل فى فهم هذه الحقائق تضل ولا محالة فى سبيلها ، وأنها إن لم تعرفها حق معرفتها فلن تعرف طريقها حق معرفته. بل إن هذه الحقيقة بمثابة نقطة من عندها تبتدىء وتختلف جهود الأمم وطرقها إما إلى النجاح والفوز ، وإما إلى الفشل والدمار .

ومن اليسير علينا وعلى من يشك من القراء فى هذا أن نستملى أنفسنا وأن نتلمس وجه الصواب فيه من أخلاقنا جميعاً . فإن من العسير جداً أن نبذل فى طلب أمر من الأمور أقصى الطاقة وأحسن الأعمال ، وأن نوجه إليه كل ما فينا من استعداد وحول ، ونحن نعتقد أن إدراك الأمور ليس قائماً على سنة ولا مربوطاً بنظام ، وأننا قد نحسن كل الإحسان فى تناولنا الأشياء ثم يكون نصيبنا الخيبة ، وأننا قد نسيء كل الإساءة ثم يزرع فى سبيلنا النجاح والظفر ، وأن الإساءة والإحسان هما سواء فى العواقب والنتائج ، أو أن نتيجتهما ليست مترتبة عليهما كترتب المعلول على علته . فإن الإنسان، من أجل ضمان تنشيط هممه وإفراغ كل ما فيها من قوة ،محتاج إلى إقناعه بأن مثقال ذرة واحدة من عمله لن يذهب سدى ولن يضيع فى مهب الحظوظ والأقدار والفوضى الجارفة ، وأن جزاءه وعاقبته محسوبان حساباً دقيقاً بما يؤديه جسمه وعقله من نضال . فقد شوهد أن الجماعات التى يحكمها هذا النظام تفسد أخلاقها وتفتر هممها بل تخمد وتعجز عن الإنتاج والتبريز فى ميدان العقل وميدان العمل معاً ، بل تنتشر بين أمثال هذه الجماعات أخلاق أخرى مضادة لذلك كالكذب والدجل والغش والتزوير ... ... وقد رأينا أناساً فى بيئات معلومة يزورون ازوراراً ممزوجاً بالكراهة والمقت عن كل ما يسمى علماً وتهذيباً وما يسمى عملا وخيراً يقدم . لأنهم وجدوا بالتجربة والمشاهدة أن الوصول إلى الغاية المرجوة ليس مشروطاً بشىء من ذلك أو ليس متوقفاً عليه ، ووجدوا أن ناساً وصلوا إلى أغراضهم بدون أن يتكلفوا التضحية بمسراتهم العاجلة الصغيرة بمحاولة تحصيل شىء مما نقول نحن ويقول العقلاء جميعاً : إنه شرط للنجاح الصحيح . ومن سنة الحياة التى نفتش عنها أن جعلت تكاليف المجد باهظة ، فلا يقدم على تقديم هذه التكاليف من رواد المجد إلا من كان الدافع المغرى له قوياً جداً . . . ومن علم أو ظن أن تضحيته قد تذهب عبثاً

أو أنه لا قيمة لها من ناحية الواقع فأنى يجد من نفسه وفى نفسه ما يغريه بهذه التضحية وما يلزمه إياها ؟

إن هذه التضحية تحتاج دائماً إلى أمرين لكى تكون خالصة صادقة : أحدهما إزالة الموانع المادية والمعنوية ، وثانيهما الإيقان بقيمة النتيجة التى ستؤدى إليها هذه التضحية ، مع الإيمان بجسامة الخسارة التى يؤدى إليها إهمالها .

وليس من ريب فى أن من ظن أن الجزاء ليس ملازماً للعمل ولا مترتباً عليه وأن النتيجة ليست على قدر الوسيلة وأن الأخذ غير مساو للعطاء ، فقد قامت فى طريقه الموانع ، ولم يوقن بقيمة النتيجة ، ولا آمن بجسامة الخسارة التى تلحقه إذا ترك التضحية . فهو إذن فاقد للأمرين معاً . فكيف نرجو له أن يؤدى هذا الثمن الباهظ ؟ .

***

ومن الأمثلة السيئة للجهل بسنة الحياة ، أو بسنة الله فى الحياة ، أن الناس يريدون — وهم يعتقدون أنهم سيصلون إلى ما يريدون — أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية : فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة ، وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم ، وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا فى الامتحانات ، وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم ، وأن يدركوا كل ما يبغون ويشتهون . . . بماذا ؟ إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة ، وبالبكاء والضراعة تارة ، وبالصلاة تارات ، وبالصيام أخريات ، وبالإيمان حينا بلا عمل ، وبالتقوى أحياناً ، وبقراءة القرآن ، أو بترتيب الأذكار والأوراد والأحزاب . . . ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة — والدين والقرآن بريئان مما يزعمون .

وإن أوغل من هذا كله فى الضلال ما ذكره الغزالى فى كتابه (منهاج العابدين) من أن المؤمن المشغول بعبادة الله وذكره غير محتاج إلى الطعام وإلى الشراب من أجل حفظ الحياة ، زاعماً أن التسبيح والتهليل يحفظان الحياة ويغنيان عن حاجاته المادية كحال الملائكة ، وزاعماً أيضاً أن الطين والتراب يغنيان كذلك عن ذلك ، ذاكراً أن جماعات من السلف الأولين المشغولين بالله كانوا يستفون التراب فيصيره الله فى بطونهم غذاء ، وأن جماعات أخرى كانت لا تأكل شيئاً : لا طعاماً ولا شراباً ولا طينا ولا تراباً وكانت تعيش بالعبادة وحدها ، وأنهم كانوا يطوون الشهور بعد الشهور قال : « والله قادر

على ما يشاء» (١) . ويقرب من هذا أيضاً إيغالا فى الخطأ وولوغاً فى الباطل ماجاء فى كتاب (الحاوى للفتاوى) تأليف الشيخ السيوطى أن الصوفية ، أصحاب القلوب النقية ، يلهمون معرفة الطب الطبيعى إلهاماً من غير تعليم ولا طلب ولا دراسة ، وأنهم لا يكادون يخطئون فى إلهامهم ، وأنه يجوز لهم معالجة المرض بهذا الإلهام ، ولا يجوز أن ينكر عليهم منكر ! ومن أشنع ما فى هذا الكتاب رسالة (المنجلى فى تطور الولى) .

وذكر الشيخ القسطلانى فى شرحه على البخارى عن ابن أبى جمرة قال : « قال ولى من العارفين عمن لقيهم من السادة المقر لهم : إن صحيح البخارى ما قرىء فى شدة إلا فرجت ولا ركب به مركب فغرق ... »

وقد دهم الديار المصرية وباء مزعج منذ سنين فاجتمع العلماء فى الجامع الأزهر وقرأوا البخارى لرفع هذا الوباء ! وقبل هذا قرأ جيش عرابى باشا البخارى رجاء النصر فى معركة المدفع والبارود والرصاص والأسطول ! وهذا شىء ما زال الناس يفعلونه منذ مئات السنين ، ولا يزالون إلى اليوم يفعلونه .

---

(١) وكتاب (منهاج العابدين) قيل إنه آخر ما ألف الغزالى . وقد حكى فى أوله أنه من الكتب التى يقع عليها إجماع المسلمين ويعم بها انتفاعهم . وحكى فى هذا الكتاب — وهو فى صدد ما يعطاه الولى من السلطان والتصرف — قال : « الخامسة عشرة — يعنى من صفات الولى — البركة العامة فى كل شىء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان ، حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوماً وبإنسان صحبه ورآه حيناً . السادسة عشرة : تسخير الأرض من البر والبحر حتى إن شاء سار فى الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة . السابعة عشرة : ملك مفاتيح الأرض ، فحيثما يضرب بيده فله كنز إن أراد ، وحيثما يضرب برجله فله عين ماء إن احتاج ، وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد . الثامنة عشرة : تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها ، فتحبه الوحوش وتبصبص له الأسود . التاسعة عشرة : القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغى الخلق الوسيلة إلى الله بخدمته ، وتستنجح الحاجات من الله بوجاهته وبركته . العشرون : إجابة الدعوة من الله : فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولا يشفع لأحد إلا شفع . ولو أقسم على الله لأبره بما شاء ، حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل لزال ، فلا يحتاج إلى السؤال باللسان ، ولو خطر بباله شىء لحضر ولا يحتاج إلى الإشارة باليد ... »

وحكى فى موضع آخر من هذا الكتاب وهو يتكلم عن العزلة : « لا أرى مثل هذا الرجل — يعنى المعتزل للناس — إلا ويمكنه الله من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الإسلام لئلا يفوته الحظ منها ، فإن جموع الإسلام من الله بمكان وإن تغير الناس وفسدوا . كذا سمعنا عن الأبدال أنهم يحضرون جموع الإسلام أين كانت ، ويسيرون من الأرض حيث شاءوا ، وأن الأرض قدم واحدة لهم . وفى الأخبار أن الأرض تطوى لهم وينادون بالتحيات ويتحفون بالبر وأنواع الكرامات ... »

هذه ألوان من علم الغزالى الذى أبى غلو الناس فيه إلا أن يدعى حجة الإسلام .

ومن المشاهد المتكررة المألوفة أن تسمع القرآن يتلى فى متجر أو فى بيت رجاء زيادة الربح ونفاق السلعة وإقبال الناس ، أو رجاء النجاة من اللصوص وسائر الآفات .

ويوجد الآن فى المكتبات العامة ألوان مختلفة من الكتب والرسائل التى زعم أن قراءتها كتعاويذ ، وأن حملها كتمائم ، وأن الاحتفاظ بها ككنوز ، يغنى من فقر ، ويشفى من سقم ، ويحمى من عدوان ، ويبلغ كل مأمول ... حتى المرأة العقيم والرجل العقيم قيل لهما : إن هذه الكتب تهبكما الأولاد — وحتى من يريد الزواج ، أو تريده ، يلقيان فيها ما يرجوان .

ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا — وسمع كثير من القراء بلا شك — خطباً تلقى فى المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات ، يندد فيها بجهل من يلجأون حين الغارات إلى المخابىء ، مزعوما فيها أن المخابىء والملاجىء لا تعصم من الموت ، وأن الفرار إليها نقص فى اليقين وجرح فى الإيمان ، لأن الذى يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة إليه والخلاص من الذنوب ... وقد نسى هؤلاء القائلون الناعقون فوق منابرهم سنة الله فى خلقه ، كما نسوا سنة مصلح الإنسانية الأكبر صلى الله عليه وسلم الذى يخطبون باسمه ؛ فإن من أظهر وأكبر أعماله التاريخية أنه حينما اضطر إلى الخروج بدينه ودعوته من مكة المشركة وخاف مطاردة أعدائه المشركين له لجأ إلى غار ثور التاريخى المشهور هو وصاحبه الصديق . ولم يأخذا بما زعمه هؤلاء الخطباء من الاعتصام بالدعاء والبكاء ، بل أخذا بسنة الحياة ... وهكذا فعل عليه السلام فى كل أفعاله وحياته ، وهكذا فعل خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون . ولهذا نجحوا . ولو أنهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولما بلغوا من أمرهم شيئاً ... وقد كان من أعظم الفروق بينه عليه السلام وبين المشركين أنه كان يعلم سنة الله فى خلقه ويعمل بها تاركا الأوهام جانباً . أما هم فقد كانوا غرقى إلى الأذقان فى أوهامهم التقليدية البالية . فكان عليه السلام ملتفتاً إلى ما وضعه الله من أسباب وسنن مضبوطة ، وكانوا هم معولين على الاستقسام بالأزلام وعلى التشاؤم والتيامن وعلى السوانح والبوارح ، وعلى نعيق الغراب وغيره مما يتشاءمون منه أو يتيامنون ، وعلى الاحتجاج بالقضاء والقدر والحظوظ ، وكل ما هنالك من تقاليد كانت تأخذ بالأكظام وتتحكم فى الأحلام : فكان الفرق عظيما ، وكانت العاقبة أعظم .

ومن أخرج الناس على سنة الله وسنة الحياة قوم حاولوا أحقاباً طويلة — ولا يزالون

يحاولون اليوم وسيظلون يحاولون بعد اليوم أيضاً — أن يتغلبوا على المادة وعلى خصائصها بالأرواح وعمل الأرواح ، وأن يصلوا بقوتها وعونها إلى ما يريدون ويشتهون — سواء أكانت هذه الأرواح هى أرواح الموتى أم الشياطين أم الملائكة ... وقد ظلت هذه العقيدة تتطور مسايرة تطور العقل البشرى ومسايرة تطور عقل كل شعب . وما فتئت حتى اليوم خاضعة لسنة التطور .

وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها : فالأفلاك العلوية عندهم إنما تسير بقوة الأرواح ، والأنهار إنما تجريها الأرواح ، والسحاب إنما تسوقه الأرواح ، والرعد والبرق إنما هما عملان من أعمالها ، والرياح لا يزجيها سواها ، والنبات إنما ينبت بقوتها وتدبيرها ! بل الكلام البليغ الذى يقوله الشاعر أو الخطيب إنما تقوله الأرواح : فزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينطق على لسانه ويفكر بجنانه ، حتى الأمراض جعلوها مظهراً من مظاهر الأرواح ومظاهر تصرفها فى البشر ... فكان للأرواح عند تلك الأمم السلطان الشامل . وقد بقى حتى اليوم شىء كثير من هذه العقيدة عند كثير من الأمم ، بل عند الأمم كلها لا يستثنى منها أمة واحدة .

وقد كان من أثر هذه العقيدة الروحانية أن أنفقت البشرية جهوداً ما أكثرها وأعظمها فى سبيل إرضاء هذه الأرواح وسبيل دفع غضبها وشرها . وقد كانوا أحياناً يلجأون إلى تعذيب المريض بالضرب والكى بالنار والسب والإهانة ، حاسبين أنهم بذلك يخرجون منه الأرواح الشريرة النازلة فى بدنه الناطقة على لسانه ! ومن الحوادث القريبة المعروفة فى هذا الصدد تلك الحادثة التى وقعت منذ شهور فى مصر وكتبت عنها الصحف وقدم المتهم فيها إلى القضاء ... والحادثة تتلخص فى أن جاهلا من هؤلاء الجاهلين المنتشرين فى كل مكان ، الذين يعالجون الأرواح ويعرفون الخلاص والتخلص منها ، تقدم إلى أهل مريض مدعياً لهم أن روحاً خبيثة تحتل بدن مريضهم ، وأنه يستطيع إخراج هذه الروح فسلموا له المريض ، فراح يعذبه بالضرب وصنوف العذاب لتتألم الروح فتخرج ! ولكن كانت العاقبة أن هلك المريض تحت العذاب ، فأخذ هذا الطبيب الروحانى على اعتباره قاتلا ... وهذه الحادثة ما هى إلا واحدة من مئات الحوادث أو ألوفها التى تقع . ولكن الذى يكتب عنه وفيه منها قليل نادر ... ولا يزال الملايين اليوم من المسلمين الجاهلين يرون أن كثيراً من الأمراض — ولا سيما الأمراض العقلية والعصبية والصدرية — إنما هى من عمل الشياطين والأرواح المتمردة ، ولا يزالون يعالجونها على هذا الزعم

والحسبان : يعالجونهـا بالعزائم والطلاسم والبخور والأمر والنهى والزجر والضرب والإهانة للمريض، على زعم أن هذا كله موجه إلى الروح اللابسة له .

وقد قدم إلى القاهرة منذ سنوات من الريف المصرى إنسان مريض بمرض عقلى عصبى ، بحيث كان يخيل إليه أن أشياء تحدث فى جسمه وهى لا وجود لها ... فذهب إلى إحدى الجمعيات الدينية فى القاهرة فأفهمه رجالها أن مرضـه ما هو إلا مسٌّ من الجان وأذى من الأرواح ، وأن الوقاية منها تتلخص فى أن تكتب آيات من القرآن فى إناء بالمداد والزعفران ثم يغسل ذلك الإناء ثم يشرب الغسالة ، وأن الشفاء بذلك مضمون ... ! فصنع هذا كله فلم يشف . ثم حدث عن معالج من الأرواح بالأرواح ، وهو محضر لهـا ، فصار إليه فعقد له ذلك المحضر عدة حفلات روحيـة جاء فيها تشخيص المرض ووصف العلاج اللازم ، ثم جاء فيها أن المرض قد زال نهائياً ، وأن المريض شفى ، وأنه لن يشعر بشىء مرة أخرى ، فرجع إلى بلدته مؤمناً بأنه قد عوفى ... ولكن ثبت بعد هذا أن الأرواح قد كذبت فى علاجها ، وكذبت فى تشخيصها ، وكذبت فى حديثها — أو أن محضرها هو الكاذب الآفك . فعاد المرض وعاد المريض يشكو شكايته القديمة ، وصارت نهايته إلى اليأس والقنوط .

ولا يزال الناس يحاولون الاتصال بالشياطين ، بل ويزعمون أنهم قد اتصلوا بهـا ، ولا يزالون ينسبون إليها كثيراً من الحوادث اليومية ، ولا يزالون يخافون بطشها وإيقاعها بهم ، ولا يزالون يزعمون أنهم يستخدمونها أو أنه يمكن استخدامها ، بل وأنها قد قامت بخدمتهم فعلا ...

ومنذ شهور قليلة قام بينى وبين إنسان عالم نزاع فى هذا . وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون فى هذه الدنيا ، وأنه يعرف إنساناً كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى فى أوقات تفقد فيها الفواكه ، وأنهم — أى العفاريت — نقلوا له البراميل من بلدة إلى بلدة ... وهكذا ! ولا يزال الجماهير بل وكثيرون من الخاصة يعلقون على هذا المعتقد آمالا ، وتحدث لهم أوجالا ، ولا يزال أغلب المسلمين الجاهلين يرجعون حين رغبتهم ورهبتهم إلى الأموات بل وإلى الجمادات وإلى الأحجار والأشجار ، مستغيثين بالأرواح التى لها اتصال بها على حسب ما يتصورون ، طالبين منها كل ما يرجون ، ومستدفعين بها كل ما يرهبون ، زاعمين أنها تسمع لهم وتقدر على إجابتهم ، وأنها تفعل ذلك من أجلهم

راضية مسرورة ! وقد صرفوا فى هذه الغاية نفائس جمة من وقتهم وتفكيرهم وعملهم وعبوديتهم ورجولتهم وذلهم وخضوعهم ! ... وقد فرضوا على أنفسهم بسبب هذه الخرافة ألواناً عجيبة من العبادات والفروض، وأعداداً عديدة من الأعياد والمواسم الزاخرة بالنذور والقرابين والهدايا والضحايا ! وقد أضحت عبادة الموتى وعبادة أرواحهم أعظم وأضخم مظاهر عبادات هؤلاء الجاهلين فى مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها، حتى استقر فى أذهان العامة، بل وأذهان الخاصة، أن هذه العبادة هى أفضل فروض الإسلام وأوجبها وألزمها، وأضحى الخلاص منها محتاجاً إلى جهود الجبارين . والله المستعان على جهل الجاهلين .

وقد تلونت هذه الخرافة فى عصرنا هذا ألواناً أخرى غير ألوانها القديمة . وقد حاول العلم هذه المرة أن يتدخل فى تلوينها وتحسينها، كدأبه فى هذا الزمان إذ يتدخل فى كل شىء، لأن الزمان زمانه والميدان ميدانه ... وقد تدخلت أوربا وأمريكا هذه المرة فى هذه المسألة وبذلتا عونهما . وإذا تدخلت أوربا وأمريكا فى شىء فقد عز جانبه وعظم شأن أنصاره .

نعنى بهذا استحضار الأرواح والاتصال بالميتين وهم فى عالمهم الأخروى . وقد طال الكلام فى هذا الموضوع واشتد الجدل وألفت فيه الكتب والرسائل والمقالات التى تعجز العادّ المحصى، وانقسم الناس فيه فريقين متبارزين . ولكن الفريق المنكر النافى هو فريق العلماء المحققين الأكثرين . أما المثبت لهذا الاتصال ولهذا الاستحضار فيكاد يذوب فى الخضم، ويكاد يجمع على حسبانه من فلول الدجالين الجاهلين ... وكل هذا لايعنينا لأنه ليس فى صدد من بحثنا، ولكن الذى يعنينا هو أن الكثيرين من صرعى الأوهام عندنا قد صفقوا ورقصوا على أنغام هذه الخرافة الجديدة، وراحوا يشيدون عليها القصور وذهبوا ينبشون جيف الخرافات من مدافنها فى أعماق أنفسهم وأعماق الأزمنة القصية ليردوا إليها الحياة بهذا الاكسير الجديد .

وقد راحوا يحتجون بهذا الاستحضار على ماكان يزعم قديماً للأرواح من قدرة وتصرف فى الكون والطبيعة بدون حدود ولا قيود، وراحوا يصدقون ويدعون إلى تصديق ماكان ينسب إلى الموتى وإلى المشايخ والأولياء من أعمال لا يستطيعها إلا من استطاع أن يقهر خصائص المادة وقوى الطبيعة الطبيعية، وأن يخرق كل ناموس فى الوجود وأن يبطل كل سنة فيه ! وراحوا من أجل هذا يحسنون دعوة الأموات وسؤالهم الحاجات بل ويحسنون عبادة المخلوقين والانقطاع إليهم .

وقد استطاعت هذه الخرافة الجديدة أن تستهوى رجلا كان فى سابق أمره يعد من الفضلاء العلماء ، وأن تفسد عليه فضله وعلمه وعقله حتى صار يتكلم فى هذا الموضوع كلام من هو خليق بأن يعد فى زمرة المرضى لا زمرة الفضلاء المحققين ، وراح فى كل مجالسه يهذو بروايات وحكايات أقل ما توصف به أنها مما يصم مسامع العلم والعلماء ، ومما يخجل منه العقل والعقلاء ... من ذلك أنه يحكى — ويقسم على مايحكى — أنه يعرف رجلا فى الريف المصرى كان إذا أراد شيئاً ما — ولك أن تقدر هذا الشىء وأن تتصوره كما تشاء وكما يشاء الغلو والخيال — لم يكن منه إلا أن يضرب على عجيزته بيده وأن يأمرها بأن توجد هذا الشىء المطلوب فيوجد فى الوقت نفسه !! وقد سألته مرات عديدة وقلت له : افرض أنه طلب من عجيزته أن تعد جيشاً كاملا، أيمكن أن يوجد ذلك الجيش ! فكان جوابه الإيجاب بلا تردد ولا استحياء ! فسألته وقلت له : أجاد أنت أم هازل ، فأقسم أنه جاد ، وأقسم ثانية بأن من يشك فيما حكى فهو كمن يشك فى المحسوسات .

ومن حكاياته ورواياته أنه ينقل عن شيخ آخر أن جماعة من أصدقاء ذلك الشيخ ذهبوا إليه فى بلدته زائرين ، وبعد جلسة طويلة عرض عليهم أن يأكلوا فقبلوا ، فأحضر لهم مائدة كاملة بأوانيها وكراسيها وأطعمتها ولحومها وبقولها وفواكهها وكل ما يلزم لها... ولعلك تسأل هنا وتقول : من أين أحضرها فأجيبك ، كما أجابنا هذا الرجل ، بأنه قد أحضرها من الهواء والكون ومن عناصر الطبيعة اللازمة لهذه المائدة من أشتات النباتات والموجودات، فركبها تركيباً صناعياً ، فأحضر المائدة المطلوبة كاملة ! وبعد الفراغ من الأكل رفعت روحه بقايا الطعام وأدوات المائدة بسرعة وبدون عناء .

ومن حكايته أن شيخاً آخر كان يومىء بيده فى الهواء فترجع إليه ملأى بالنقود التى يطلبها أو تطلب منه ، بل ذكر هذه الحكاية عن رجل آخر غير مسلم .

ومن حكاياته أن شيخاً آخر كان يقيم فى بلدته وكان الناس يأتونه ويعطونه النقود طالبين إليه أن يشترى لهم بها أشياء من القاهرة ، فيأخذ نقودهم ويرسلها فى الفضاء صوب القاهرة، ثم يرسل يده مرة أخرى ثم يرجعها وفيها الشىء الذى طلب شراؤه .

ومن طرائفه أن شيخاً ذهب إلى أحد المتاجر فاشترى شيئاً ، وكان لا يحمل معه عملة فبعث روحه فأحضرت الثمن من البيت فى لمح البصر بين دهشة التاجر واستعظامه !!

وأشنع من هذا كله أنه يذكر فى مجالسه عن أحد هؤلاء الروحانيين أنه مرض

ذات مرة ولم يكن حوله طبيب يعالجه ، فأحضرت له روحه طبيباً صناعياً ألفته من الكون فقام هذا الطبيب الصناعى بالكشف وبتشخيص المرض وبالعلاج ، ثم عاد فأعدمه وفرق عناصره وردها إلى ما كانت عليه وإلى أماكنها ، ثم أحضر الدواء أيضاً من الهواء ثم عالج نفسه .

وقد قام بينى وبين هذا الإنسان مرات حوار فى هذه الحكايات ، وقد جادلنى مرة زاعماً أن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء إنما هى من عمل أرواحهم ! فقلت له : وانشقاق القمر ! وكان السؤال مفاجئاً ! فقال إلا هذه .

وزعم لى مرة أمام الجماهير أن أرواح الميتين تعلم العرائض والشكايات التى تقدم إليها وتعرف ما فيها وتقدر على إعطاء ما يطلب فيها منها مهما كان إسراف الطلبات ... قال ولكننا ممنوعون من الطلب منها ومن سؤالها – لأن الرجل على رغم هذه الخرافات ينكر سؤال الموتى ودعاءهم . وهو يدعى أن الأرواح تعلم الغيب وتعلم كل شىء .

وقد افتتن بهذا الإنسان جماعة من الاخوان الفضلاء كانوا يحضرون مجالسه ،فصاروا يؤمنون بكل ما يقول .

ومن العجيب أنه هو وهؤلاء المؤمنين به يعادون من لم يؤمنوا إيمانهم وينسبونهم إلى الضلالة وإلى جحد الروح ! بل ربما زعموا أن من لم يؤمن بمثل ما آمنوا به فهو ملحد أو شبيه بالملحد .

ولهذا الرجل أخلاق ما أغربها : فهو يسب الناس الذين يحضرون مجلسه ويجلدهم أحياناً جلداً حقيقياً ! فإذا ما خوطب فى ذلك قال : أنا أكبر منكم سناً وأكثر علماً ! أى إنه يحتج لجواز الضرب والسب والإهانة بكبر السن ووفرة العلم ! والغريب فى الموضوع وفى النفس البشرية أن هذا الاحتجاج يصيب استحساناً وموافقة عند بعض هؤلاء المضروبين المجلودين بين يديه ! فيرضون ويسلمون له أبشارهم وأعراضهم يسبها ويجرحها.

ولم يدر لا هو ولا هم أن كثرة العلم وتقادم السن لم يكونا قط فى نظر العقلاء ولا فى نظر الناس العاديين داعيين إلى العدوان وسوء الأدب والصحبة ! لأن العلم فضيلة والفضيلة يجب أن تكون سبباً فى الفضيلة لا فى الرذيلة ، ولأن تقادم السن يجب أن يكون مقرباً من الأدب لا مبعداً عنه ... وقد كلمت مرة أحد هؤلاء المؤمنين له فى هذه المسألة – وكان مكلمى هذا يرى أنه لا مانع من هذا الذى يصنعه الشيخ مادام صادراً من الأعلم

إلى الأجهل ! فقلت له إذن على هذا يجوز أن يكون كل إنسان ، حتى هذا الشيخ نفسه ، ضارباً مضروباً ساباً مسبوباً ! إذ كل إنسان يوجد من هو أعلم منه ومن هو أجهل منه وكل إنسان يفعل هذا بمن هو أقل منه علماً ويفعله به من هو أكثر منه علماً ! فالشيخ المذكور له أن يهين وأن يضرب من هم دونه ، ولمن هم فوقه أن يضربوه ويهينوه ! وهل يذهب إلى هذا عاقل ؟

وقد حاول هذا الشيخ مرات أن يستدل على جواز صنيعه هذا بما جاء عن عمر ابن الخطاب أنه كان يحمل معه درة ويضرب بها من يخالفون الأوامر ومن يخرجون عن الطريق ! وهو بهذا الاستدلال يدخل عمله هذا فى حدود الشريعة الإسلامية ، ويجعل جلده للناس وإهانتهم وسبهم حدوداً شرعية يقوم بها من قبل الإله نائباً عن الرسول وعن الخليفة عمر ! ونعوذ بالله من خذلان مثل هذا ومن كل خذلان . وهذه الأعمال الإجرامية هى إحدى العقوبات التى يفرضها شيوخ الطريق على مريديهم . وقد وضعوا فى بيان هذه العقوبات كتباً متداولة . ولا يدرى كيف يمكن أن تعز أمة تقبل فى نفسها طائعة مختارة كل هذا الهوان باسم الدين وعلى حساب التأديب والتسليك ؟ هذه كلمة معترضة ، فلنرجع إلى رأس البحث .

وقد ظهر بهذا أن العقيدة القائمة على الإيمان بقدرة الأرواح وتصرفها قد احتلت عندنا — وما فتئت تحتل — مكاناً واسعاً جداً ، وسرقت منا ، وما زالت تسرق ، أعمالا وأفكاراً وخيالا كان الواجب علينا أن ننتفع بها ، وأضاعت علينا قوى جسدية وعقلية كان حرياً بنا أن نحتفظ بها وألا نضيع منها شيئاً ، وأنها قد أفسدت علينا نظرنا إلى الحياة وحكمنا على الأشياء وسيرنا نحو الطريق .

وكيف يمكن أن يسير فى طريقه ثابت الخطوات ، رابط الجأش ، مطمئن الجنان من يعتقد من أعماق نفسه أن الأرواح المستبدة الظالمة محيطة به من كل جانب ، مسددة إليه سهامها ، مصوبة أظافرها ، فاغرة أفواهها لتبتلعه وتهضمه ، قادرة على أن تصنع به ما تشاء من إمراض وقتل وتخبيل وغير ذلك ، لا يمنعه منها إلا رحمتها هى إن كان لها رحمة ، وإلا إن كانت لا تريد أن تصنع شيئاً ، بل كيف يمكن أن يستقيم تفكير مثل هذا الإنسان ويسلم له عقله .

وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح وبالجان وبالملائكة وبكل ما جاء عن الله

ورسوله . ولكننا ننكر الفوضى ، وننكر أن يكون الله قد ترك خلقه بلا نظام وبلا قانون يلزمهم الحدود ويريهم السبيل ، أو أن يكون قد تخلى عنهم للفوضى وللطغيان المطلق .

ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الإصابة بالعين أو النظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد ، فإن الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة . ومسألة الإصابة بالعين مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية ، ولاعتقادها أثر جسيم فى حياة الكثيرين وفى عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام. ولها فعل سحرى فى قوتهم العصبية والإرادية والعقلية.

وقد تفنن الخاصة والعامة فى هذه المسألة ، وأكثروا من ذكر أخطارها وشدة فتكها واتساع نطاق أعمالها ، ثم تفننوا فى ذكر أساليب الوقاية والعلاج منها واتقائها ، وخلدوا على صفحات الكتب أشياء عجيبة فى ذلك . أما فتكها ومجال عملها فقد ذهبوا يزعمون — أو كادوا — أن جميع الأمراض التى يعرفون والتى يجهلون هى من الإصابة بالعين : فإذا مرض الإنسان أو أصيب بحادثة أو بمصيبة مالية أو مادية أو مات ، قالوا إنها العين ! بل لم يخصوا الإنسان بهذا ، فقد عدوه إلى الحيوان والجماد : فالعين تقتل الحيوان وتهلك الزرع بل وتغرق السفن وتسقط الطيارات ! وقد حدثنى إنسان يظنه بعض الناس عالماً أن رجلا يعرفه أغرق بارجة حربية بمجرد أن رآها وقال فيها كلمة ! وزعم آخر أن رجلا آخر أسقط طيارة وأسر رجالها فجزته السلطات العسكرية على عينه وعلى قوة روحه ! ولو أنك زرت جماعة من هؤلاء الضعاف الأعصاب والمعرفة والعقول ، فرأيت أحد أطفالهم ثم أصيب فى ذلك اليوم أو بعده بأيام لزعموا أنك القاتل ! ولو أنك دخلت متجراً من متاجر هؤلاء الذين تعرفهم ويعرفونك ، ثم حدث لذلك المتجر أو لأصحابه حدث لقالوا إنك صاحب الحدث وصاحب السر المشئوم ! وأنا أعرف إنساناً زعمه فريق من الناس عالماً ذهب مرة هو وابن له صغير فى زيارة أحد أصدقائه ، فمرض الطفل بعد رجوعه فمات ، فزعم هذا الإنسان أن الذى أمرض ولده وقتله هو ذلك الصديق الذى زاره ......

والحكايات والروايات فى هذا الباب لا يمكن إحصاؤها ولا جمعها . ولا أحسب بيتاً من بيوت هؤلاء يخلو من هذه المبالغات والمعتقدات .

وقد حاولوا أن يسموا خرافاتهم هذه بسمة الدين وأن يضيفوها إلى مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام ، فذهبوا ينسبون إليه روايات تصدق ما اعتقدوا ! وقد عزوا إليه أنه عليه السلام قال : (أكثر من يموت من أمتى بعد قضاء الله وقدره بالعين) ،

(نصف مايحفر لأمتى من القبور من العين) ، (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر) ورووا أنهم كانوا إذا أصابت إنساناً عين أو شىء بعثوا إلى أم سلمة — إحدى زوجات النبي — طالبين منها أن تبعث إليهم بشعرات كانت لديها من شعر الرسول للاستشفاء بها ! وذكروا أنه عليه السلام أمر أن تغسل عورة العائن والمواضع القذرة من بدنه ثم تجمع الغسالة ثم تصب على المعين ويسقاها ! وعزوا إليه — وهذا أكبرها — أنه عليه السلام كان أحياناً يخاف نفسه على ما يرى — أى يخاف أن يصيبه بعينه — مع أنهم زعموا أن الإصابة بالعين لا تكون إلا من الأنفس الشريرة الخبيثة ...

فكل عين عند هؤلاء عبارة عن موت موجه إليهم وإلى من يحبون وما يحبون ! فأين يفرون وكيف يسلمون ؟

أما ما قالوا وما ذكروا وما عملوا من أجل الوقاية والعلاج من هذا الخطر المحيط الشامل فهو أخزى وأنكى : فقد أعدوا من الأسلحة الدفاعية لعدوهم هذا أشياء سرية وغير سرية ، وأحياناً سحرية ! فمن هذه الأسلحة الدفاعية التمائم (أو الأحجبة) . وهذه أنواع لا يعرفها تمام المعرفة إلا الفنيون المختصون بصناعتها وتركيبها ووضع تصميماتها ، ومصانعها سرية تحت العقل أو تحت الجهل لا يصل إليها أحد من العقلاء ... ومن هذه الأسلحة الطلاسم والألغاز والحروف المقطعة ، ومنها حمل النجاسات والقاذورات والبعد عن الماء والنظافة ، ومنها تعليق الجماد والأخشاب فى أعناق من يخشى عليهم ... إلى آخر هذه الأمور التى يعرفها الجاهلون .

وقد حاولوا أيضاً أن يعزوا هذه الترهات إلى الدين وإلى أهله من الصالحين : فذكروا أن الرسول عليه السلام أمر بالجماجم أن تنصب فى الزرع ! فقال الراوى : من أجل ماذا ؟ فقيل له من أجل العين . قال فى مجمع الزوائد : رواه البزار . وذكروا عن الخليفة عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال لأهله دسموا ذقنه — وفى رواية أنه رأى صبياً تأخذه العين فقال دسموا نونته ... والتدسيم هو التسويد ... وفى كتاب (كشف الخفا) للشيخ العجلونى قال : ومما جرب لمنع الإصابة من العين تعليق خشب السبتان ! ولذا فقد بلغنى عن ولى الله العراقى أنه لم يكن يفارق رأسه ، واقتفيت أثره فيه !!

وذعر الناس من العين بالغ ، وهوسهم فى محاولة العلاج والوقايه أبلغ . ومن أعظم ما فى هذا الاعتقاد من الأضرار أن جماعات كثيرة تخاف النجاح البارز الظاهر لأنها

تخاف الإصابة بالعين ! وأعرف إنساناً رفعته هذه الحرب فنال بعض النجاح ، فأخذت تأكله الأوهام والظنون من هذه الناحية ، وصار يحسب أن عيون النـاس كلهم سهام مصوبة إليه وإلى متجره ... وقد راح يتخاذل ويتظاهر بالأمراض والمصائب ، آملا أن يدفع العيون المصيبة المصوبة عنـه ! وهو يقول إن من ينظر إليه الناس فلن يفلح . وصار إذا ما حدث عنده أصغر حادث يضيفه إلى أعين الناس ! ولا شك أن أقل هذه الأوهام كاف لتخذيل صاحبها والقعود به عن التحليق فى سماء النجاح اللامع . ولن يدرك الخير المرجو رجل يرى أن الناس يستطيعون قتـله أو إمراضه أو إصابته بداهية إذا ما برز فى ناحية من نواحى الحياة ... وأضرار هذه الخرافات النفـسية والعقلية والعصبية والاجتماعية أكبر من أن توصف وأظهر من أن تخفى .

نعم جاء فى الأحاديث التى رواها المحدثون الثقات أن العين حق ، وأنه لو كان شىء سابقاً القدر لسبقته العـين ، ولـكن هل هذه الأحاديث فى سـبيل من جهل هؤلاء الجاهلين وفى صـدد مما قالوا واعتقدوا ؟ كلا ، فإن كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفاً وغاية مما يتوهمون .

فالعين حق ، فإن الإنسان الشرير يرى بعينه ، فيحقد ويحسد بقلبه ، ثم يصيب بأعماله وكيده ... والعين حق أيضاً ، فإن فى كثير من العيون قوة آمرة ناهية ، بل قاتلة آسرة وإن الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحياناً إلى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ، ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع ، ويبلغ من أنفسهم أقصى مايريد وأبعد مايرجو ، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته ، فيصبح بينهم الآمر الناهى المتصرف ، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود أو الأسـتاذ المعبود : القول قوله والتفـكير تفـكيره والهوى هواه والدنيا دنياه .

إننا أحياناً كثيرة ليأخذنا العجب من استعباد شخص لأمة ، وعبادة أمة لشخص ، فنذهب نتلمس الأسـباب والعلل بعيداً وقريباً ، مع أن الأسباب قد تـكون فى عين ذلك الشخص المعبود ونظراته ، وقد تـكون فى مظهره ، وقد تـكون فى صـوته ونغمه ... إنها فيه على كل حال ، وإن سلطانه معه وفى ذاته افطوبى لمن رزقوا هذه النظرات ، وهذه العيون الآسرات القاهرات ، وهنيئاً لهم السيادة الظاهرة والباطنة .

وقد كنت أعرف شـيخاً يكاد يعد من الناحية العلميـة فى غمرة الجاهلين ، ومن

الناحية الذوقية الأدبية السلوكية فى زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو فى كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أو لا يكاد يستطيع أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونفثها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه ! إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد ، وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ... إنه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدى الغاسلين ، لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا فى حضرته خشوع الصالحين العابدين فى صلواتهم ، أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى : ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عبيده ، ثم كتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه التى زورتها يداه ، ثم أمرهم بأن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظاً من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا .. وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا : هل من مزيد من هذه العبادات والفروض ! فما سر هذه القوة فى هذا المخلوق ؟ إنها أسرار عديدة ، وإن أقواها أو من أقواها ما فى نظراته وعينيه من سحر خبيث .

والعين حق أيضاً . فإن الإنسان ينظر بعينه ، فيشتهى بقلبه ، فيهلك بعمله وسعيه إن لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوى غالب . ولهذا جاء فى حديث نبوى : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس) . وليس هنالك أحق من تلك العيون التى يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالإنسان وسخرته وأذلت كبرياءه وساقته إلى الخير حيناً وإلى الشر أحياناً ، وظلت ذات النفوذ الذى لا يقاوم ، والسلطان الذى لا ينازع ولا ينزع ، فى عصور الإنسانية كلها : فى عصور البربرية والوحشية ، وعصور المدنية المهذبة الراقية ! ولهذا جاء فى الأوامر الدينية نهى الجنسين معاً عن الاستسلام لسلطان هذه النظرات والعيون ، وأمروا جميعاً بالغض من أبصارهم .

وهنالك أشياء أخرى هى حق أيضاً أشار الكتاب إلى بعضها بقوله « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » ، وهذه هى نظرات العداء والكره والغيظ .

والعين هى مفتاح شخصية الإنسان ، ومفتاح أسراره ، ومجتمع قواه ومعانيه المختلفة :

ففيها يتجلى الحب والبغض والعداوة والصداقة والرحمة والقسوة والذكاء والغباء والقوة والضعف والحزن والسرور والصحة والمرض والأمر والنهى والهدوء والقلق وكل تلك المعانى التى يشتمل عليها الإنسان والتى تكمن فى أعماقه ووراء مظهره الخداع ... فكان الحديث عنها من أجل ذلك حديثاً يتسع ويتنوع ويتلون ، وكانت من أجل ذلك حقاً ودلالتها حقاً . وما من شىء فى الإنسان يصدق فى دلالته ويجمع من المعانى فيها مثلها فى صدق الدلالة وكثرتها .. وقد تتقدم دراستها فى المستقبل ودراسة أسرارها حتى يصبح من اليسير الممكن معرفة كل ما يضمره المرء وما يجول بخاطره من الصدق والكذب ومن التصديق والتكذيب وصحة التهمة الموجهة إليه وبراءته منها ، ومن الغدر والخيانة وسلامة الضمير وخبثه ونفاقه وإيمانه ، وغير ذلك مما تراد معرفته وعلمه ، ويريد المرء إخفاءه وكتمانه يساعده على هذا الكتمان طبعه ولسانه ... وحينئذ تتكشف حقائق، كان التحقيق البارع يعجز عن كشفها وينفق ماينفق فى هذا السبيل ثم لايظفر بشىء. فقول الرسول عليه السلام (العين حق) قول يعبر عن أصدق المعانى وأصدق الحقائق وأصدق الدلائل وأجمعها .

وإن من أعجب الأشياء السر الذى يصر صاحبه على أن يطويه فى طواياه ، فإنه يكون من أبعد الأشياء بينما هو من أقربها ! وقد استطاع العلم الإنسانى أن يصعد إلى الشموس وإلى المجرات ؛ يعددها ويقدرها ويعلم كل ما هنالك ، ولكنه يقف حائراً عاجزاً عن الوصول إلى سر طفل بين يديه يأبى إلا أن يكتمه ويأبى البوح به ! فلا بد من وسيلة لمعرفة هذا القريب البعيد ... وقد تكون قراءة العيون إحدى الوسائل التى ستحقق هذه الغاية ... ولا أجمل من قول الله « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، فجمع بين علم السر الذى فى الصدور ، وبين علم ما فى العيون من خيانة ومن معان أخرى . فكأنه يشير إلى أن هذا هو مفتاح هذا ، ويشير إلى الصلة الكبيرة بينهما . فأخبار النبوة الصحيحة حق ومراميها ومعانيها أعلى وأسمى من هذه المعانى الصغيرة المفسدة للهيئة الاجتماعية والتى تنشر الفوضى والخيال المضطرب القاتل .

* * *

وهاهنا مسألة كبرى ، نشأت أيضاً من الجهل بسنة الله وسنة الحياة ومن الاعتقاد بأن هذا العالم ليس محكوماً بالنواميس والقوانين .

ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا ، لأن دينهم حق ،

والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبداً وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم ، وأن الإسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى ، لأنه الدين المرضى لله ، والله لن يترك ما يرضاه للخذلان والهزيمة ... وقد عملوا على أن يصححوا هذه الأغلوطة بالاستدلال بآيات قرآنية مطلقة مجملة نسوا قيودها وشرائطها ، فأمعنوا اضرباً فى متاهات الأوهام، واستمتاعاً بأضغاث الأحلام ، وظلوا سادرين حتى فجئهم العالم ، فانتبهوا مذعورين لايدرون من أين ولا كيف ، وقاموا يتلمسون الطريق ، وقمنا معهم ومثلهم ، نتلمس الطريق أيضاً ، ولكننا وجدنا بعد هذه النومة الطويلة والأحلام الثقيلة أن أعلام الطريق قد عفت أو كادت وأن الرقاد الطويل الثقيل الذى هنئنا به قد باعد بيننا وبين الأمم اليقظى التى لم يغمض لها جفن . فكيف ومتى اللحاق ؟

إن للوهم الواحد فى الحياة ثلاث نتائج : أولاها أنه يعطل عن السير إلى الغاية المطلوبة ، وثانيها أنه يوجه جهة أخرى مضادة — وهذا فيه أمران : الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول . وثالثها إفساد العقل ، فإن الأوهام تأكل العقول ، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره . ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز وحتى يتخلى عن وظيفته ، كما شوهد ذلك فى الأمم وفى الأفراد التى تكثر أوهامها .

ومن العجيب المؤلم أن أكثر المسلمين لا يزالون يدينون لهذا الوهم القاتل بعد أن فضحه الواقع حتى لم يدع لصدقه وصحته احتمالا ، ولا يزالون يحاولون تجربته المرات بعد المرات ، ولا يزالون يرون أن التجارب الماضية كلها غير كافية ولا مغنية ، ولا يزالون مستعدين لأن يقضوا أوقاتاً أخرى ، الله أعلم بمقدارها ، مطبقين أجفانهم على هذه الأحلام جاعلين أصابعهم فى آذانهم حذر أن يسمعوا صور الحقيقة برن ذلك الإرنان الذى أفزع أهل المشارق والمغارب ، فنهضوا منطلقين إلى غاياتهم هذا الانطلاق الذى لا تستطيع قوة من قوى الأرض أن تقفه .

وقد انتشرت فى الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة ، تنادى كلها بلسان هذه الأغلوطة التاريخية الكبرى ، وراحت كلها تهيب بالمستمعين إليها وتطمع أعصابهم الجائعة المتعبة وأمانيهم المحرومة بهذه الأمانى ، معللة نفوسهم الجدباء ، بأن تمطر عليهم الغيث بدون سماء ، وأن تصلهم بأضخم الآمال ، بدون أن يتكلفوا أقل الأعمال ... وقد أصابت هذه الجمعيات شباناً ورجالا طالما أرهقهم الحرمان ، وطالما ذهبوا يتلمسون

فى زوايا حياتهم الضيقة أشياء كان المفروض من الجهة الإنسانية أن يجدوها وأن يتمتعوا بها كبشر ، وطالما أحسوا أن أموراً ، لا يدرون ما هى ، قد حرمت عليهم . فهم ينشدونها وإن كانوا لا يدرون ما هى ، ولا يدرون أين هى ، فصاروا يتلفتون حيث لا جهة ، وينظرون حيث لامنظر ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى من يعقدون عليه أبصارهم ويربطون به آمالهم ،وينيخون عنده بحاجهم ، فما إن مرت بأسماعهم أصوات هؤلاء الدعاة ، زاعمين لهم أن ما فقدوه موجود لديهم حتى أصاخوا وحتى اندفعوا إليهم كأنما أصابتهم جنة .

إن المشكلة الكبرى أن النفس الإنسانية دائماً يوجد فيها فراغ واسع للآمال ، وأن هذه الآمال متجددة أبداً : فهى مهما بلغت من الظفر تشعر أنها محتاجة ، وأنها فاقدة ، وأنها يجب أن تأخذ وأن تعطى . فكل من يضرب لها على هذا الوتر — وتر الآمال المفقودة المطلوبة — وكل من يغنى لها بهذه الأنشودة الخالدة — أنشودة الحاجات التى يجب أن تؤخذ أو تعطى — يجد فى جوانب النفس الإنسانية وفى فراغها مجالا واسعاً للعمل ودولة مستعدة للاستسلام والخضوع والنزول عن الحرية ! فلا عجب إذا قامت دولة هؤلاء الناعبين بالآمال ، الناعقين للجماهير المضللة ، ملوحين لهم بما لن ينالوا . ولا يجب أن نعجب إذا وجدنا مخبولا يهذو ، ويمنى بالمستحيلات ، قد نجح وأخذ برقاب الآلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية ، يقودها حيث شاء . فإنه قد هاجم أضعف جانب فيهم — وهو جانب الرجاء والأمل — فانتصر عليهم بدون عناء ! وعلى هذا فمن البعيد الصعب الوقوف فى سبيل هؤلاء المخادعين وفى سبيل استيلائهم على الجماعات بواسطة التلويح لها بآمالها . وعلى هذا يجب ألا يعد نجاح هؤلاء دليلا على أن لهم قيمة بل يجب أن يعد دليلا على ضعف النفس الإنسانية المؤملة المرجية .

قد عرف أن الفقراء والبائسين والمصابين من أسرع الناس سيراً وراء الدعوات والمذاهب والشيع القائمة على إعطاء أسخى الوعود وعلى إشباع جانب الأمانى والرغبات فى النفس ، وأنهم أكثرهم انخداعاً وحماسة وتضحية فى سبيلها ... وقد يبدر إلى أذهان كثيرين أن السبب فى ذلك أنهم — أى الفقراء والبائسين والمصابين — خيرون دون الأغنياء والكبراء الذين قد يجانبون أمثال هذه الدعوات والشيع وقد يناوئونها ... ولكن ليس هذا هو السبب بلا ريب ، وإنما السبب أن الأولين أبعد من الأخيرين عن تحقيق الرغبات ، وعن الحصول على الحاجات ، وأنهم أظمأ وأسغب منهم نفوساً لحرمانها

من آمالها ومآربها ، وأنهم من أجل ذلك مستعدون للاستباق وراء كل من يوحىء لهم بهذه التى حرموا منها دون أن يمكنوا عقولهم من التفكير والنظر فى صحة مايدعون إليه وفى حال الداعين وفيما ينطوون عليه ويرمون إليه ، بل وفيما يفعلونه جهاراً نهاراً ، وفى إمكان الحصول على هذا الذى يرجون ويؤملون وعدم إمكانه ... بل إنهم يتراكضون وراءهم وكأنهم آلات صماء فقدت كل تفكير ونظر . ولهذا فإنه يقل جداً أن يسمعوا نقداً أو اعتراضاً أو نصيحة أو توجيهاً ، ويقل جداً أن يؤثر فى استسلامهم لهؤلاء الدعاة مايصنعه الدعاة مما ينافى الحق أو ما يزعمونه حقاً ومما ينافى كل منطق وذوق .

فالحرمان ، أو الشعور بالحرمان ، من أعظم ما يسرع بالناس إلى أن يكونوا آلات متحركة بلا إرادة فى أيدى المخادعين والمحتالين والواعدين بالآمال جزافاً ، ومن أعظم ما يحدث الانقلابات وما يولد النحل والمذاهب ، وما يوجد لها الأنصار والمشايعين الذين يجودون بدمائهم أسخياء من أجلها أو من أجل مبتدعها .

لماذا نجد شعوباً وأمماً تضع ، راضية مختارة ، حياتها ومصيرها فى يد زعيم واحد — كألمانيا مثلا — يوجهها حيث شاء ويلقى بها حيث أراد من مواطن الموت أو مواطن الحياة ، ونجد شعوباً وأمماً أخرى — كبريطانيا أو أمريكا مثلا — تأبى هذا النوع من القيادة والزعامة ومن الاستسلام والخضوع ؟ هل الأمر فى هذا راجع إلى اختلاف فى طبيعة الفريقين ، أم راجع إلى اختلاف فى الظروف ؟ الرأى أنه ليس أمراً طبيعياً . ولهذا فإن الألمانى فى أمريكا وسويسرا وغيرهما يأبى هذا الذى يأباه الانجليزى فى أمريكا وفى انجلترا نفسها . وإنما المسألة أن الألمانى محروم أو يشعر أنه محروم من أشياء يراها حقاً له ، ويرى نفسه أهلا لها ، فهو محاول أبداً ، ودائب أبداً فى نيلها ، وهو مسرع منقاد للزعيم الذى يرجيه ويرجوه لتحقيق هذه الحقوق .

أما الإنجليزى والأمريكى فليسا كذلك ولا يشعران هذا الشعور ، فهما غير محتاجين للاستسلام والطاعة العمياء . ولو أن الظروف تغيرت وتبدلت فوقع الإنجليزى والأمريكى فى ظروف الألمانى وشعوره ، ورجع الألمانى إلى ظروف الأمريكى والإنجليزى وإلى شعورها ، لفعل أحدهما ما فعله الآخر ولتبدل الموقف تبدلا كاملا .

والميل إلى الحروب راجع أيضاً إلى هذه الظروف وإلى الشعور بها ، لا إلى طبيعة لا تتحول . فلو أن الألمان الذين يميلون إلى إشعال الحروب نالوا ما ناله الآخرون من

الملك والسلطان ومن الرخاء والرضا بما هم فيه لتحولوا عن هذا الميل الذى قيل إنه فيهم أصيل ، ولو أن الآخرين حرموا حرمان الألمان وشعروا شعورهم وملكوا القوة العسكرية والعلمية التى يملكها الألمان لمالوا إلى الحروب ميلهم ... فنجاح هؤلاء الدعاة وهذه الجمعيات هو نجاح طبيعى على حسب ما تقضى به النفس الإنسانية ، وإن كان نجاحاً يدعو إلى الأسف العميق عند العقلاء .

أعلن منذ سنة ونصف تقريباً فى الصحف عن خطاب سيلقيه أحد الخطباء فى إحدى الجمعيات الكبيرة المحترمة ، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله) ، فذهبت إلى تلك الجمعية فى اليوم الموعود ، فوجدت الحشود هائلة ، فقام الخطيب يلقى خطابه فكانت خلاصته :

إن فى أيدى المسلمين أمراً سهلا قريباً يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجدوا به جميع ما فقدوا ، وهو أمر لا يكلفهم شيئاً ؛ هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالإجابة ، فإنهم إذا دعوا الله وأيقنوا أنه مجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل ... ثم ألقى على نفسه اعتراضاً مشهوداً مشهوراً وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله : يسألونه النصر والقوة والاستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير ، ومع هذا كله فإنهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور ... فأجاب عن هذا الاعتراض قائلا : إنهم دعوا الله ولكنهم لم يوقنوا بالإجابة ، ومن ثمة منعوا وحرموا !! فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم ! إنه حينئذ سيهبهم كل شىء ، وسيهلك لهم أعداءهم وسيقدم لهم صك الاستقلال التام ملفوفاً بحرير مصنوع فى السماء تحت إشراف الملائكة !! ثم أخذ فى تلاوة الآيات والأحاديث التى زعمها مصدقة لظنه ...

هذا مجمل تلك المحاضرة التى ألقيت فى تلك الجمعية المحترمة . وقد كان رئيس الجمعية — وهو إنسان ذكى خير — حاضراً فسمع المحاضرة كلها . وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الإعجاب ، وحسبوا أن الخطيب قد ارتفع بهم إلى أحد الكنوز السماوية ، فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا .

ولا ينبغى أن يحسب القارىء أن هذا الخطيب بدع بين الخطباء ، ولا أن رأيه بدع بين الآراء ، ولا أن تلك الجمعية بدعة بين الجمعيات ، ولا أن أولئك الحاضرين المستمعين بدع فى عديد الآخرين ، بل ينبغى أن يعلم أن أكثر الناس اليوم — أو على الأشهر كلهم — يذهبون هذا المذهب ويعدون ضالا مارقاً من لم يذهب كما ذهبوا .

***

كتب أحد أئمة التاريخ والحديث الكبار فى القرن الثامن الهجرى فى تاريخ له مشهور يقول : (وفى سنة ٥٤٣ حاصر الأفرنج — وهم فى سبعين ألف مقاتل — ومعهم ملك الألمان دمشق ، فخرج إليهم أهلها فاقتتلوا . وأخرج مصحف عثمان إلى صحن الجامع واجتمع الناس حوله يدعون الله ، والنساء والأطفال مكشوفو الرؤوس يدعون ويتباكون ... — إلى أن قال — : ومدينة دمشق لاسبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها المحلة التى أخبر الرسول عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن ، وبها ينزل عيسى بن مريم ...) —

هذا ما قاله فى التاريخ ، وله رحمه الله كتاب آخر عنوانه (الاجتهاد فى طلب الجهاد) ذكر فيه أيضاً أن الكفار لن يدخلوا دمشق أبداً إلا أنه ذكر حجة أخرى غير هذه الحجة وهى أن الرسول عليه السلام قال : (وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده) قال : والقيصر هو من يملك الشام من ملوك النصارى . فهذا الشيخ — وهو محدث جليل — يرى أن الإسلام قد أعطى أهله ضماناً فى صك مكتوب بأن النصارى لن يحتلوا مدينة دمشق ! ولا نعرف ماذا يقول لو أنه عاش بعد أن كتب هذا فرأى الجيوش الفرنسية ثم الانجليزية تدخل هذه المدينة الإسلامية الجميلة غازية فاتحة منتصرة ؟ أتراه يستطيع أن يقول إن الإسلام أعطى هذا الضمان الجميل ، أم تراه يدعى أن ما أورده هنا فى كتابيه يصلح أن يكون برهاناً على وجود هذا الصك الإلهى المحمدى المزعوم ؟ لا ريب فى أن الذى جعل مثل هذا الشيخ الجليل الحافظ يهم هذا الوهم هو الغفلة عن سنن الله الصارمة التى لا محاباة فيها ولا فوضى ولا محسوبية .

قال أحد القواد العبقريين الذين عركتهم الحروب وعركوها : إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما . وهذه قولة قد نظنها كفراً أو فسوقاً أو جهلا إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا ، ولكنها فى الواقع قولة عميقة منبئة عن حقيقة كبرى فى حكمة الله . وإذا استمعنا إلى قول الله فى كتابه « إن تنصروا الله ينصركم » استطعنا أن ندرك ما فى قول هذا القائد من حق وصدق . فإن هذه الآية قد جعلت نصر الله لنا إنما يأتى بعد نصرنا له ، ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا ، وإذن فالله لا ينصرنا إلا إذا نصرنا أنفسنا . ولا يمكن أن ننصر أنفسنا إلا إذا كنا أقوياء . وإذن فالله مع الناصر لنفسه ، والناصر لنفسه هو الأقوى . وإذن فالله مع أقواهما . وهذا هو القانون العادل الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك بهما فلا ناصر له .

هذا ما كان يقوله المسلمون فى العصور الخالية فى سيادة النصارى وانتصارهم عليهم .

أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل هذا الوهم فى خطر اليهود وفى ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومى لهم ... فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لا خطر ذاتى لهم ، وأنه لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الإسلامية لا على فلسطين ولا غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك ، ولن يكون لهم وطن خاص ! ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه ، وراحوا يتلون الآيات منزلها فى غير مواضعها .

والآيات التى استدلوا بها والتى يمكن أن يستدلوا بها هى قوله فى سورة البقرة : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » ثم قوله من آل عمران : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة » ثم قوله من سورة المائدة : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » ثم قوله فى الأعراف : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم فى الأرض أمماً ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » .

وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع فى أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة . ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله ؛ أما سنة الله فإنها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله ، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالأسباب . أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك ، فإن هنالك شعوباً أقل منهم عديداً ومع قلتهم ملكوا بل واستعمروا شعوباً كبيرة . والمستقبل فى هذا العصر ليس للعدد وإنما هو للعلم ، فإن الحروب اليوم وغيرها ، من الوسائل التى يستولى بها على الحياة ، علمية .

وأما كتاب الله فإن هذه الآيات ليست صريحة فى صدق هذه الدعوى : أما « ضربت عليهم الذلة » فى الآيات كلها فإن الذلة عند أكثر المفسرين هى الجزية ، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ... وإذا قدر بأن المراد بالذلة فى الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم . وذلك لأن إخبار القرآن بأن

اليهود أذلة فى وقت نزوله لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين كذلك . وما من أمة من الأمم إلا وقد مرت بها عصور ذلة وضعف ، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة . وفى الكتاب : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » . وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ، ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيبقون أذلة أبداً .

وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهى الفقر . والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال . وقد قال الشاعر فى هذا المعنى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وذلك أن الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه ، فإذا لم يسعده كان كالفقر المشق .

وقيل إن المسكنة هى ضرب الجزية ، وقيل الخراج ... وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوماً ما خطراً مرهوباً .

أما قوله « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التى حاكوها بإحكام واستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب ، وأنهم هزموا فى كل حروبهم التى شبوها مريدين القضاء على الإسلام . وهذا لا ينفى أن يكونوا خطراً فى المستقبل .

وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فإنه لا ينافى الملك أيضاً . لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فإن فى هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب . ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب .

وأما تقطيع الله لهم فى الأرض أمماً فالمراد أن الله قد شتتهم فى الأزمان القصية . وهذا أيضاً لا ينفى أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطراً على من ربطوا عقولهم بالأوهام ، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام .

فالقرآن إذن لم يقدم إلينا صكا فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكى الغنى الماكر ، بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونستيقظ ونقف .

وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود . وقد يكون فى هذا ما يعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعاً عنها .

وإن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذى كتبنا فى هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم، كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحى حتى قضى القضاء... وحينئذ لا يجدى الندم كما لم يجد فيما فرغ منه ... وقد لاحظنا أن هذا الغرور — وهو خليق بأن يسمى غروراً — مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر، الذين يكاد يحاط بهم. فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود — جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء — لكانت الغلبة لهم، وإن فقدوا هم كل شىء من هذه الأمور التى من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلاشىء له.

ومما يجب الالتفات إليه هنا أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك فى عصر من العصور. فإننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون فى ذلك شىء من توجيه الاتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه.

وقضية اليهود قضية يجب أن نهبها كل حساب وتقدير. ولعل بوادر خطرهم التى تجلت لنا فى هذه الأيام لاتقل عن بوادر الخطر التى كان الغرب يهدد بها الشرق فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أصبحت تلك البوادر حقائق مرة، لانزال نعانى كروبها وسنبقى زمناً طويلا نعانيها.

إن لمستقبل الصهيونية فى فلسطين احتمالين: أحدهما أن تفتح لها الأبواب هناك بعون الغرب، وأن تحتشد فيها وتتجمع وتتكون كيف شاءت — وهذا شر الاحتمالات. وثانيهما أن تقفل فى وجهها الأبواب قفلا محكماً أو بعض القفل. وهذا — كما لايخفى — أفضل الاحتمالين.

أما الأول فلا شك أنه إذا أبيح للمال والذكاء والعلم اليهودى وللرؤوس اليهودية التى تجمعت فيها خلاصة الثقافات والمعارف والمطامع الغربية والعالمية — : إذا أبيح لذلك كله أن يبسط سلطانه وأن يظهر مقدرته وكفايته فى تلك البلاد الضعيفة العاجزة عن المنافسة فإن النتيجة حينئذ تكون معروفة — أو يجب على الأقل أن تكون معروفة. ومن ارتاب فيها فلأمه الهبل... إن النتيجة حينئذ هى تدمير العرب فى فلسطين تدميراً كاملا، وسلبهم كل شىء مما فى أيديهم وتحت أيديهم. ولو فرض فى مثل هذه الحالة أنه بقى للعرب أجزاء من أراضيهم وأملاكهم، لم يستطع اليهود شراءها بوسيلة ما من وسائلهم الكثيرة،

لم يمنع ذلك من أن يكون العرب فى تلك الأراضى والأملاك المفروضة أجراء فقط ، يعملون وينتجون لسادتهم الحقيقيين ، ليس لهم من ملكهم وعملهم فيه سوى العناء المتواصل المبيد ! لأن اليهودى يعرف كيف يسلبك ثمرة ما تملك ! وكم من الناس الذين يملكون ولكنهم لا يملكون ! وضحايا البنوك والمؤسسات الأجنبية يعرفون هذا معرفة مرة المذاق .

ولهذه النتيجة نتيجة أخرى ، هى أشد هولا وأشد إفزاعاً لمن يفكر فيها ويدريها تلك هى الامتداد العسكرى والاقتصادى والثقافى الذى سيكون أثراً محتوماً لاحتشاد هذه القوى اليهودية المخيفة فى ساحة ضيقة مثل فلسطين ... ومن المعلوم أن هذا الامتداد لن يكون إلا فى بلاد العرب . ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لامحالة من أن تتحدى الآلة العربية وتصطدم بها . ولا ندرى كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق العظيمة . والقول بأن العزة للكاثر قول كان يصدق أحياناً لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف وبالحجارة والسهام والنبال وأمثال ذلك ، ولكنه لايجب أن يصدق فى الزمان الذى يكون العلم فيه هو الفاصل والحكم والعدة .

أما الاحتمال الآخر الذى يرضينا معشر العرب ، والذى نعمل له ، والذى هو أقصى أمانينا — أعنى إيصاد الأبواب كلها فى سبيل كل يهودى يريد دخول فلسطين — فهذا الاحتمال — على أنه أفضل احتمال — ليس فى استطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيونى الذى أنشب أنيابه حقيقة فى جانب من جوانب هذا الوطن العربى . وذلك أن اليهود حينئذ — وهم أهل الذكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومي العجيب — سيلجأون إلى وسائل كثيرة هينة عليهم وعلى كل من هم مثلهم ثقافة وعلماً ونشاطاً ومالا وشأناً دولياً ملحوظاً .. من هذه الوسائل تنظيم عمليات التهريب براً وبحراً وجواً ، والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وطنهم الذى لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى ... ومنها محاولة تكثير مواليدهم وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة — وهكذا حتى يصيروا عدداً جسيما فى هذى البلاد ، وحينئذ ينطلقون فى سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التى أرصدوا لها أضخم الذهنيات العالمية — يمدها ذلك الخيال اليهودى الذى ألهبته عبر التاريخ القاسية الطويلة ، ومعارف هذا العصر الفذ ، ثم تلك الشهية العتيدة التليدة التى شهر بالتمتع بها حفدة شيلوك وقارون إزاء المال والحياة ، وإزاء المنافسة فى تحصيلهما . وإذن فالخطر اليهودى قد

صار حقيقة واقعة على كل الاحتمالات والحالات . فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا — وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائياً — لما كان فى ذلك شىء من الضمان والأمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار . فكيف الخلاص إذن ؟ كان من الواجب علينا جميعاً أن نسأل — ولكن هذا أمر قد غاب عنا أجمعين — لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوربا — مهبط النشاط الإنسانى الرائع ، ومجلى العبقرية البشرية — وأن يتحدوا كل صعب وذلول ، ليتجمعوا فى هذا الوطن الشرقى العربى الذى يكاد يكون من الناحية الزراعية والصناعية والعلمية فطرياً بدائياً ، والذى لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التى يفرون منها ؟ ليس من الحق أن يكونوا قد خدعوا فاعتقدوا بأن مجال العمل والنشاط والحياة فى فلسطين أعظم منه فى الأوطان التى تركوها ، كما أنه من غير الممكن أن يكون البله الدينى قد خالط رؤوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا ، انقياداً لعاطفة دينية ، وطاعة لنص وجدوه فى كتبهم المقدسة . كل هذا لا يمكن أن يكون . أجل ، قد يوجد بين الجماهير المضللة من يكون هذا هدفه وهواه . ولكن الرؤوس التى نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال. فالأمر إذن غير ذلك ، فما هو ؟ لنفترض أن بريطانيا وأمريكا — أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم — طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة فى ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا مثلا ليصيروها لهم وطناً قومياً بقوة السلاح ، فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض المعروض ، وأن يقدموا على تجربتـه ؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا ، ولكن لماذا لا يفعلون ؟ بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلداً عربياً ، وهان عليهم تحدى أهله وتحدى جيرانهم وإخوانهم !! إنهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم يعلمون أن أهله سيدمرونهم فى يوم من الأيام ، أو يجلونهم على الأقل لا محالة ، هذا من جهة ، ولأنهم يعلمون من جهة أخرى أن هذه الشعوب ليست هينة المنافسة ، ولا سهلة القضم والبلع . أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهى عاجزة عن الأمرين معاً : عن تدمير اللصوص الواغلين وإجلائهم ، وعن منافستهم تجارياً وصناعياً وزراعياً ! فما أطيبهم إذن مغنما ، وما أسـعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب ! من السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً ، فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها ، لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهياً سائغاً ! ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسد .. ومعنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية ، تقيها الفناء والعدوان ، وبعضها ليست فيها هذه المناعة ،

فهى محتاجة إلى حماية خارجيـة وإلا ذهبت فى الهالكين . واليهود يعلمون أننا فاقدون لهذه المناعة ، ولهذا فإنهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا .. لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلا متى وثقوا من ضعفك وهوانك .

وإذن فالسبيل الوحيد لنجاة فلسطين وغيرها من البلدان العربية ، ولنجاتنا من جميع الغزاة والدخلاء أن نتعلم كيف نوجد فينا هذه المناعة الذاتية التى يكون فى استطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعاً . إننا إذا أصبحنا كذلك فسيمتنع الصهيونيون وغيرهم من الدخول علينا ، فى فلسطين وغيرها ، حتى ولو عرضنا عليهم نحن ذلك عرضاً ، وطلبناه منهم طلبـاً ، ورجوناهم له رجاء ! وسيقولون حينئذ متى طلب منهم الدخول مثل ما قال أسلافهم وآباؤهم لنبيهم موسى — حينما قال لهم : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسـة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ... » — : « قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون — إلى قوله — قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ... »

أما ما لم توجد فينا هذه المناعة الذاتية فسنظل عرضة لضروب الغزوات وصنوف الغازين ، ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا احتجاج ولا اجتماع ، ولا شىء مما نصنعه من هذا القبيل .

نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق ، مع أنهما هما الخصمان ! ! إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن فى حولنا — لو تخلت هاتان الدولتان — أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصـة من غزو الصهيونية وأخطارها ! فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلميـة والصناعية والمالية والفكرية والدولية . أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك .

هذه حقائق يجب — على الأقل — أن نستذكرها دائماً ، ويجب ألا تغيب عنا طرفة عين . وبناء على هذه الحقائق يجب أن يكون من أعظم ما نفعل ، وما نتقى به الأخطار الحاضرة والمقبلة أن نعمل على الاتصاف بالمناعة الذاتية الداخلية التى ذكرناها آنفاً ، وإلا فلا نجاة ولا حياة .

يحسن أن نستطرد هنا ونتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا فى هذه القضية

— قضية فلسطين والصهيونية : يخيل إلى أن هذه الدولة لن تسمح بحال من الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربى إطلاقاً لليهود لأمرين اثنين : أحدهما خشيتها من اليهود فى المستقبل .

أن الإنجليز يخشون دائماً القوى المتوثب ، ويثبتون فى سبيله العقبات ، ويظلون يرقبونه ويتربصون به الدوائر ما بقى وبقوا . فإذا ما قام نزاع بين هذا القوى المتوثب وبين آخر ضعيف صاروا إلى جانب الضعيف ، يؤيدونه وينصرونه ويسندونه . وهم لا يتخلون عن هذه الحلة إلا اضطراراً أو لعلة — على أن يبقوا مراقبين لذلك القوى بحذر دائب ! ولعل كل من كانوا فى موقفهم ووضعهم يصنعون صنعهم . واليهود أقوياء متوثبون ، مافى ذلك شك . فهل تسمح السياسة البريطانية التقليدية بأن يركزوا كل نشاطهم وقواهم المختلفة الهائلة فى فلسطين ؟

يبدو لكثيرين من الذين يلمون بدقائق سياسة هذه الدولة ودخائلها إن ذلك لن يكون .

أن الإنجليز يعلمون أنهم إذا فعلوا هذا ومكنوا الآلة اليهودية الضخمة من أن تبدع كل إبداعها وتركز جميع إنتاجها فى هذه المملكة الصغيرة فستكون وبالا جسيما على الصناعة الانجليزية فى أسواق شرقية كثيرة ، هذا أول ، ثم وبالا على السياسة والسيادة الإنجليزية ثانياً : فإن اليهود سينافسونهم منافسة قاصمة فى الميدان الاقتصادى من كل وجوهه ، بل وفى الميدان الثقافى الأدبى ، ثم سينازعونهم فى يوم من الأيام القريبة أو البعيدة السيادة والسلطان ، وستكون هذه المنافسة وتلك المنازعة فتيتين قويتين بارعتين ! فهل يجهل البريطانيون شيئاً من هذا ، أو هل يستطيعون رد هذا الخطر فلا يصنعون ؟ .

نعم قد يقال إن الثروة الطبيعية قليلة تافهة فى هذه البلاد بحيث لا يمكن أن توجد قوة صناعية اقتصادية ، أو قوة حربية عسكرية تهدد بريطانيا العظمى ذات الثراء المخيف ... ولكن هذا القول لن يستطيع أن يغير من هذه الحقيقة شيئاً . وذلك أن الجذور اليهودية ضاربة فى كل أنحاء المعمورة ، فهى تستمد غذاءها وقواها ووجودها من كل مكان ، هذا من جهة ، وجهة أخرى ، تلك هى أن العلم والبراعة قد يستطيعان غلب العقبات كلها ، وجهة ثالثة ، هى أن العالم قائم أمره اليوم على التكتل والمحالفات وجمع القوى المفرقة لتصير قوة موحدة ، وجهة رابعة ، تلك هى أن أعظم أمة فى العالم تمر بها أوقات تصبح فيها هدفاً لكل من يريد أن يرميها وأن يصيب منها مقتلا .

أما الأمر الثانى فهو أن الإنجليزى بتربيته الأصيلة ينظر إلى المستقبل البعيد نظراً كله الحذر واليقظة والانتباه . وإن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد مائة عام أو مئات الأعوام لا يقل عن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد يوم أو بضعة أيام ... هذا وجه من وجوه عظمة هذا الشعب التاريخى الذى استطاع أن يستغل أكثر شعوب العالم ، وأن يذلها ويسلبها كثيراً مما كان فى أيديها بأهون الأسباب وأقربها ، وأن يسخر أعظمها وأقواها فى مصالحه وأغراضه الخاصة .

والإنجليز يعلمون أن العرب اليوم ضعفاء ، لايخشون بأسهم خشية تلزمهم بأن يدعوا بعض ما يريدون رهبة منهم ، وتزولا عند مشيئتهم . ولكنهم يعلمون من جهة أخرى أن الشعوب لاتبقى على حالة واحدة من القوة والضعف ، والارتفاع والهبوط ، فيعلمون أن العرب قد يصبحون بعد عشرات الأعوام أو مئاتها قوة تخشى وترجى ، ويحسب لها الحساب الكثير ، ويقدرون أن هذا اليوم إذا جاء — ولا شك فى أنه سيجىء — فسيذكرون من أساءوا إليهم ومن سلبوهم أحد أوطانهم العزيزة بالقوة والطغيان وقدموه هدية سخية لمستعمرى أوربا وأمريكا الصهيونيين ، وسيأخذون بسنة الانتقام واسترداد الثأر . وقد ينسى كل شىء ولكن سلب وطن من الأوطان — سيظل ماثلا قائماً أمام العين والوجدان — ليس من المستطاع نسيانه . وسيظل كل عربى حافظاً لهذا الثأر فى أعماق نفسه ، مرتقباً فرصة الانقضاض والانتقام الذى لايعرف اعتدالا ولا هوناً .. إن الإنجليز يعلمون هذا كله ، فهل من الممكن أن يتغافلوا عنه وأن يتناسوا حسابه ؟

هذان أمران من الراجح المعقول أن يحولا بين السياسة البريطانية وبين إهداء فلسطين لليهودية العالمية — يضاف إليهما أمور أخرى مثل الخوف من أن يولى العرب — عند اليأس من الإنجليز — وجوههم صوب منافسيهم ، ومثل الخشية بأن يكون نفوذ الصهيونية فى فلسطين نفوذاً أمريكياً . وهذا ما لا يسيغه الإنجليز .

غير أنه من الممكن أن يقال إن الشعب البريطانى شعب واقعى ، يؤمن بالحقائق ولا يستطيع تجاهلها أو الإغضاء عنها — هذه طبيعة فيه . وهو يرى أن من الحقائق الواقعة أن الشعب اليهودى قد صار قوة عالمية حقيقية ، فهل يختار تحديها ومعاندتها وإغضابها جهاراً وعلناً ؟ ألا يخشى أن تعبىء اليهودية العالمية قواها الهائلة كلها ، وتنصب حبائلها أجمع للإيقاع بالإنجليز وتدمير سلطانهم المديد العتيد ؟ أو ليس تماسك بريطانيا

وعظمتها ونجاتها ونجاة امبراطوريتها ممسوكاً بخيط دقيق طويل جداً — وهو عطف العالم — ولاسيما أمريكا — عليها حين محنتها وحين تطبق عليها الأرزاء وتأخذ الهزيمة بخنقها ، ووقوفه فى صفها ، سافكاً دم أبنائه ، منفقاً لأمواله ، معرضاً بلاده للأخطار والدمار ... ولولا ذلك لموت هذه الدولة فى الحربين الماضيتين ، ولأقام المنتصرون على أنقاضها ما يشاؤون من دول ؟ ؟ أو ليس فى استطاعة اليهود أن يغيروا اتجاه أمريكا وغير أمريكا ، وأن يصرفوا الرأى العالمى العام عن الانجليز ، وأن يتركوهم لأعدائهم الأقوياء الباطشين ، يزيلونهم ، وأن يكيدوا لهم كيداً قد يطيح بأعظم أمة ظفرت بأعظم مجد ؟ فهل يغضى مثل هذا الشعب — وهو شيخ السياسة المعَلِّمُ — عن كل هذه الحقائق ؟ أو لا يمكن أن تجثو بريطانيا على ركبتها من أجل هذا كله أمام مشيئة اليهود الغالبة ؟ ؟ من الممكن أن يكون هذا كله أو جله صحيحاً عند النظرات الأولى ، ولكن الاستقراء الطويل قد دل على أن الطبيعة الإنجليزية لا تسلم للقوة التى ترهبهم وتهددهم ، وإنما ينشطون للعمل على إزالتها من الطريق ، لأنهم يعرفون أنهم إذا سلموا لها لم يكن ذلك مزيلا لخطرها ، وإنما يضاعف له ، وأنهم سيكونون بعد التسليم أضعف منهم قبله ، وأن كل تسليم قد يعقبه تسليم آخر — وهكذا .

بيد أن هذه المسألة قد ينظر لها نظر آخر ، فيقال : قد يرى الإنجليز أن من الصواب احتضان اليهود وتقويتهم ليكونوا عوناً وردءاً لهم فى المستقبل ، وحلفاء مخلصين أيام الشدائد . ومن المعروف أن البريطانيين — عادة — يصطنعون الحلفاء ، ويوجدون الضعفاء ليكونوا من ورائهم — بل من أمامهم — يوم تدلهم الخطوب ... ولكن يظهر أن هذا الأمل ضعيف ، وأن هذه الأمنية بعيدة التحقيق ، لأن اليهودى طموح حقود متوثب أنانى شديد التعصب لعنصره وقوميته ، لا يرعى الصداقة ولا الإحسان القديم حين القدرة . ولهذا أسباب تاريخية ونفسية معروفة .

ومن الممكن أن يقال أيضاً : لعل السياسة البريطانية البعيدة الغور ترى فى إقامة دولة صهيونية فى قلب البلاد العربية ضماناً لها ولسلطانها من أن يجرفها ويجرفه العرب حينما يصيرون قوة تضر وتنفع ، لأن وجود اليهود بينهم يضعف دائماً من شأنهم ، ويحد من سلطانهم . غير أن هذا لا يصح لأن العرب يوم يكونون أقوياء ، ويوم يعرفون كيف يكونون كذلك سوف يطيحون باليهود ، وسوف يعصفون بهم كما يعصف الإعصار المجتاح بما يقف فى طريقه من الأشياء الصغيرة .

من أجل ما ذكر — ومن أجل غيره أيضاً — نرجح أن السياسة الانجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودى فى فلسطين موقف المانع المعارض ، على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها . ولكن يجب على كل إنسان منا ألا يثق بالانجليز ولا بغيرهم ، وألا يرجو منهم خيراً ، فما يصنعون إلا ما يظنونه مبقياً على امبراطوريتهم ، فما هم إلا حراسها ، ويجب ألا نلومهم على ذلك . وهم لن يقدموا لنا خيراً لأنهم يحبوننا ، أو لأنهم يحبون الخير للآخرين ، أو يحبون الخير لذاته ، فما هذا من طبيعة البشر !! ويجب ألا نأسى وألا نغضب من هذه الطبيعة القاسية . والدنيا كلها مسوقة بهذا الناموس الصارم — ناموس تنازع المصالح . فلنوطن أنفسنا على تقبل هذه الحقيقة وعلى الرضا بها ، وعلى الانتفاع بنتائجها ؛ ثم لنعلم أنه لاخير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا — تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة إليه !!

ومن لم ترضه هذه الطبيعة البشرية فليحاول أن يكون مخلوقاً آخر إن استطاع ، أو ليحاول الخروج من هذا السيار ، ليصعد إلى سيار آخر لعله يجد فيه طبائع أفضل من هذه ؟

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه لامحاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه . وقد وضع نواميس وسنناً وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل . فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين ، وسار معها بلا اصطدام ولاخروج فقد نال ما يبغى ، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول إنه مسلم أو إنه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه ، كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدى من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة ، زاعماً أنه مسلم مؤمن ، وزاعماً أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية .

***

اخرج إلى السماء فى ليلة صافية ، ثم انظر إلى تلك المخلوقات المتلألئة التى تملأ الفضاء والتى تواجهك أينما اتجهت والتى تكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث ، والتى تكاد تزخرف بساطاً من حبات اللؤلؤ ذات الإشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية ؛ ثم استسلم إلى عقلك وعلمك وخيالك قائلا : كم يمكن

م — ١٥

أن يكون قد مر بهذه المخلوقات الجميلة من الأحقاب وهى محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم ؛ ثم سل ما الذى يمسكها هكذا كل هذه الدهور — تجب بأن الذى أمسكها ويمسكها هو النظام الإلهى المفروض عليها ، ثم سل ثانياً قائلا : أرأيت لو أن الجن والإنس والملائكة وكل الخلائق — أولين وآخرين — وقفوا فى صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه ، أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء .

ثم فكر فى هذه الشمس التى لم تزل منذ آلاف الدهور تبعث إلى هذه الأرض وإلى أهلها الحياة والضوء والحرارة والقوة ، ثابتة على مواعيد مضبوطة فى ذهابها وإيابها وفى فلك مضبوط وحركة مضبوطة ونظام مضبوط ، لا تبالى بما يريده الناس منها ولا بما لا يريدونه ، لا برضاهم ولا بغضبهم ، لا حين يحترقون من حرارتها ، ولا حين يجمدون من احتجابها وغيابها ، لا يوم يريدونها طالعة ولا يوم يريدونها غائبة ، لا ترحم قوماً اشتدت عليهم حتى لفحت أجسامهم وسودت أبشارهم ، ولا قوماً هانت عليهم أو هانوا هم عليها حتى قضوا حياتهم كلها مقرورين بين الثلوج وتحت عقاب الزمهرير ... ثم سل ما الذى ألزمها هذه الحالة الثابتة الرتيبة تجب بأنها سنة الخلاق العليم العظيم .

ثم ارجع بفكرك إلى هذا الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه وانظر كيف حكم كل شىء فيه بقوانين صارمة لا يستطيع شىء أن يغلبها أو يبدلها أو يحولها ، وإنما يستطيع أن يعلم شيئاً منها فيعمل على الانتفاع والاستخدام خاضعاً هولها محتذياً مقتدياً ... ثم صح من أعماق نفسك وصميم اعتقادك قائلا : اللهم ضع فى أعمالى وأفكارى وآرائى النظام الذى وضعته فى سماواتك ونجومك وشموسك وأرضك وكل خلائقك المطبوعة — اللهم علمنى الدقة والحكمة حين أفكر وأعمل ، كما علمت ذرات جسمى وذرات أرضك وذرات شمسك حين تتجمع وتتفرق وحين تحيا وتموت .

***

من أروع الآيات القرآنية المنبئة عن هذا النظام قوله تعالى من سورة الحجر : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » . وكلمة موزون هنا تفوق كل ما يمكن أن يقوله العلم والفلسفة فى هذا الموضوع . ثم قال من هذه السورة : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . وقال

من سورة القمر : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . وفى سورة الطلاق : « قد جعل الله لكل شىء قدراً » . والقـدر هو النظام كله ، صيغ بأجمل وأبلغ وأقل لفظ ، وقدم بأبهى وأروع صورة .

ويجب أن يعلم بأن الخـلاف الذى قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو فى أمر واحد تحته أمور كثيرة ، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة إلى النظام ؛ النظام فى كل شىء : فى الاتصال بالخالق والاتصال بالمخلوق والاتصال بكل شىء وإلى الإيمان بهـذا النظام ... فسنن الله وأوامره عامة شاملة ، وعدله وقضاؤه وأحكامه عامة شاملة . فالناس كلهم بل الخلائق كلها فى حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء ، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديهـا ، ولا خرافات : فلا أموات ولا أشباح ولا أرواح تدعى أو ترجى أو تخشى أو تتحكم وتتصرف فى الناس وفى الطبيعة ، ولا أسرار ولا ألغاز ولا طلاسم ، فلا بركة عند شيخ أو عند قبر أو عند أثر ، ولا تمائم تعلق ولا بخور يحرق ، ولا طيور لا سوانح ولا بوارح يتشاءم أو يتيامن بها ومنها ، ولا جبر ، بل كل مختار مريد ، ولا احتجاج بالقضاء والقدر ، ولا مجازفة فى الثواب أو فى العقاب . بل الجزاء كله بالحساب وبالموازين والقسط ولا أمر بالتخلى عن الدنيا ولا بالفقر أو بالزهد ولا بسائر ما تدعو إليه الصوفية القاتلة ، ولا انتظار للخوارق والمعجزات التى تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية ... أما أعداء الأنبياء والمصلحين فقد آمنوا بكل هـذه الترهات وبسواها من الغوايات ، فكان الخلاف بين الفريقين عظيما .

وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصاً قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر : « فلن تجـد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » . نفى أن تبدل السنة فأمكن أن يقول قائل إنها وإن كانت لا تبدل — والتبديل هو التغير — إلا أنها تحول عن طريقها — والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة — فنفى هذه أيضاً ؛ فهى لا تغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبداً ، ولا تصرف عن سبيلها بل تمضى فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا . وهذا هو العـدل المطلق الذى لا يقدر على تحقيقه إلا من أوتى الكمال المطلق فى جميع صفاته . أما من لم يكملوا هذا الكمال فإنهم يبلغون من هـذا العدل بمقدار ما بلغوا من هذا الكمال . ومن هنا جاء التفاوت والاختلاف بين الناس

فى قوانينهم وفى تنفيذها وفى قضائهم وفى التسوية فيه وفى عدلهم ثم فى المحافظة عليه .
ولا شك أن التسوية والعدل فى القوانين وفى التنفيذ وفى القضاء فضيلة يتصف بها المتصفون فيمدحون على كل لسان ، ويحبون فى كل مكان وزمان ، وأن التفريق فى ذلك والمحاباة فيه رذيلة يمقتها الناس قاطبة .

وأعدل الناس هو الذى ينظر فى أحكامه من ناحية مكانها من العدل فقط ، فيطبقها كذلك ويمضيها ، ولا ينظر إلى من تمضى عليهم حين إمضائها وتطبيقها — أى ينظر إلى القضية من حيث كونها عدلا وكونها جوراً ، ولا ينظر إلى من يتناوله هذا الحكم أكان فلاناً أم فلاناً ، أكان من أهل هذا الدين أم من أهل ذاك . ومن نظر هذا النظر كان ظالماً . والله أولى من ينزه عن شوائب الجور ومظاهره ، فكيف بصرائحه وقبائحه .

ومن المواقف العلمية الخالدة فى بيان سنن الله وبيان أنها ثابتة لا تتغير من أجل الأرض وأهلها ، موقف النبى عليه السلام يوم أن كسفت الشمس فى اليوم الذى مات فيه ابنه ابراهيم فقال الناس إنما كسفت الشمس لموت ابراهيم فقام فيهم خطيباً وقال : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته) . وهذا رد صريح قوى للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب أهل الأرض من خير وشر وبما يحدث لهم وبما يحدثون هم ... بل هذه الموجودات لازمة سننها بلا تغير أو تبديل وإن تغير الناس وتبدلوا وإن صلحوا أو فسدوا وإن عاشوا أو ماتوا .

وقد أذكرنى هذا الموقف النبوى الخالد بصديق تقى يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التى تحدث فى بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم — قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الإسلامية . فقلت له : هذا يشبه الزعم أن جدب بعض البلاد وشدة الحر والبرد فى جهات أخرى وغير ذلك من الفيضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض .

ومن اللفتات اللطيفة الصريحة إلى هذه النواميس قصة تلقيح النخل ؛ وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال : (ما أظن ذلك يغنى شيئاً) فتركوا التلقيح ففسد التمر فأخبر فأمرهم بالرجوع إلى ما كانوا يفعلون . ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقاً ولئلا يوجه إليه الخطأ فى مسألة كهذه .

أما الآيات التى فيها أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وما فى معناها فليس المراد أنه تعالى يعطى جزافاً وبلا استحقاق ولا عدل ولا تسوية . فإن الله قد أثبت الحساب فى جملة الكتاب مثل قوله « جزاء من ربك عطاء حسابا » . والآيات فى هذا لا تحصى وإنما المراد أن الله يعطى بدون أن يحاسبه محاسب أعلى منه وهو فى معنى قوله « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » — أو أن المرء قد يعمل عملا له نتيجة هى من وراء حسابه ، فإذا أصاب هذه النتيجة التى هى نتيجة عمله كانت بالنسبة لتفكيره بغير حساب ولكنها بالنسبة إلى جزاء الله وإلى موازينه وقوانينه محكومة بأدق حساب — أو غير ذلك من المعانى الصحيحة التى لا تنافى قضية النظام والعدل ورفع الفوضى والتخبط فى العطاء والمنع . ومما يصح أن تفسر به هذه الكلمة أن نتائج كثيرة لأعمال أناس آخرين قد تنفع المرء من غير أن يحتسبها أو يعلمها أو تخطر على باله ، كأن يرث إنساناً . ولكن لا ريب أن ما يقع من ذلك لايعدو أن يكون نتيجة طبيعية أو عادية لأعمال معينة — أو تفسر بما يصنعه الله على مقتضى سننه الثابتة العامة التى لا تفرق بين أناس وأناس .

ولن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

والفوضى فى الجزاء والمكافأة أعظم مخذل لقوى الإنسان وأعظم واقف فى سبيله... إننا نلاحظ عجزاً عاماً فى قوى الطوائف كلها عندنا وفى أخلاقها ، ونجد كلالا أيضاً قد هبط بكل إنسان عن مستوى من هو مثله من الأمم ؛ فزعماؤنا وقوادنا وعلماؤنا وطلبتنا وموظفونا وكل صاحب عمل ، عاجزون عن بلوغ الكمال النسبى الذى بلغه أمثالهم من الشعوب الأخرى . وقد نعجب إذا رأينا العالم لدينا يتخرج من المعهد الذى درس فيه ثم يقف عند الحد الأدنى الذى انتهى إليه حينما كان طالباً ، يدأب فى سبيل نيل الشهادة لايتجاوزه فى دراسة ولا تفكير ، بل ثم يأخذ فى النقصان والنسيان حتى يصير إنساناً عادياً لا يمتاز عن العاديين إلا بالشهادة التى يحملها إن كان يصح أن يسمى هذا امتيازاً — وكذلك سائر رجال الأمة .

وليس سبب هذا أن الناس عندنا لا يريدون الخير لأنفسهم ، بل لهذا أسباب أخرى من أعظمها أنهم يرون ويعلمون أن الجزاء والمكافأة ليست على قدر الكفاية ، بل الكفاية فى الغالب لاشأن لها فى هذا ، وإنما الأمر كله يرجع إلى الوساطات والشفاعات

والقرابات وإلى أمور أخرى هى أقل من ذلك ... فمن رزق الشفيع القوى المرهوب أو المحبوب فذلك هو المجازى بأعلى المناصب وأقواها وأضخمها وأوفرها رزقاً ، وإن كان من ناحيته العلميــة والذاتية والخلقية لا يستحق إلا الحرمان والطرد ، ومن حرم ذلك الشفيع فهو المنسى المجهول القصى ولم ينفعه علم ولا خلق ولا كفاية ولا عبقرية ، بل قد تكون هذه المعانى من أسـباب حرمانه وتأخيره وإقصائه لأن النقص يرهب الكمال ... ففيم الجهاد والدأب إذن ؟ وفيم إتعاب النفس وإرهاقها بدون ثمن ؟ فالزعيم والسياسى والقائد والعالم والطالب والموظف وكل أحد عندنا يعرفون أنهم لا ينالون من الجاه والسلطان والثراء المحبوب بقدر ما قدموا من نفع وخير ونبوغ وعمل مفيد ،بل يعرفون أن ما ينالونه من ذلك إنما هو مقدور بأشياء أخرى ، فيتوجهون بكل عنايتهم وتفكيرهم إليها . وكل إنسان إنما يسير فى السبيل التى يظن أنها توصله إلى غايته .

أما الأمم الأخرى فإنهم يعلمون ويرون — لأن مجتمعهم قد أصبح صالحاً — أن الإنسان لا يرتفع ولا يبلغ من آماله إلا بقـدر أعماله : فقيمته الذاتيـة هى التى بها يعلو ويهبط ، فلا يستطيع إلا أن يعمل ، لأنه لا يستطيع إلا أن يحب نفسه ويحب لها الخير . والذين يعتقدون أن الجزاء من الله فى الدنيا وفى الآخرة ليس مرتباً على العمل وليست النتيجة مرتبطة بالوسيلة ارتباطاً صحيحاً لا محالة من أن يصيروا هذا المصير الشنيع فى عملهم وتفكيرهم واتجاههم . فالذين يعتقدون أن الأفراد والجماعات لايبلغون من العز والسيادة والقوة ومن الجاه والمال والمنزلة فى القلوب ومن الشهرة والسمعة ومن العلم والصحة والسرور والسعادة بقدر ما بذلوا من اجتهاد وإخلاص ومثابرة وذكاء وحسن تصريف لن يقبلوا على الحياة وعلى العمل إقبالا صحيحاً ولن يأتوا بعمل جسيم عظيم . فالذين يرون أن القضاء والقـدر ، أو أن الحظ ، أو أن الشفاعة والوساطة ، أو أن الإرادة المطلقة ، أو أن رضا الله وغضبه وحبـه وبغضه : أن شيئاً من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة — أى يرون أن هذه الأشياء تدخل فى مصير الإنسان وتحول بينه وبين النتيجة التى يجب أن يوصـله إليها عمله — هم قوم لن يجدوا فى أنفسهم ما يعينهم على الاندفاع إلى الأعمال الصالحة ، وعلى الانطلاق فى سـبيل الحياة القوية ... فالمجتمع الذى يرتجى له التبرز فى ميدان الأعمال هو الذى يؤمن بالعـدالة المطلقة ، فى السماء وفى الأرض ، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التى لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ، ولا بالإغداق للحب .

مما نشكو منـه شكوى عامة مرة أننا نعامل من يسمون أجانب فتسرنا معاملتهم إذ يصدقون القول ويحافظون على الوعد ويحسنون اللقاء ويخلصون لما يوكل إليهم ولما يؤدون من عمل .. ثم نعامل من يدعون مسلمين فنساء من معاملتهم ، إذ نجدهم على مخالفة لهذه الأخلاق كلها ، فما وجه هذا الاختلاف ؟ وجهه أن الأجانب يؤمنون بالسنن العامة العادلة وبالسبب والمسبب إيماناً صحيحاً : فيؤمنون بأن هذى المعاملة تصير بهم إلى النجاح لا محالة ، وأن الخروج عنها يؤول بهم إلى الفشل المحقق لارتباط المسببات بأسبابها ارتباطاً طبيعياً ... أما المسلمون فلا يؤمنون بهذا الارتباط ، بل يرون أن طريق الفوز والهزيمة هو الفوضى . فقد يكون المرء شر الناس فى معاملته وعمله ثم يسير النجاح فى ركابه حيث سار ، كما قد يكون أحسن خلق الله فى ذلك ثم يطبق عليه الفشل ، إذ عندهم أن أسباب السقوط والنهوض ليست من عمل الإنسان ولا فى معاملته ، وإنما ترجع إلى أشياء عليا لاحيلة فيها كالقضاء والقدر والإرادة والحظ والقسمة ... فلا يرون حينئذ ما يلزمهم بأن يروضوا أخلاقهم ونفوسهم على ما يوجب عليهم التضحية بميولهم ومصالحهم الصغيرة العاجلة التافهـة ، فيسيرون طوع تلك الطباع البدائية المتوحشـة التى تهيمن على أنفسهم ... والسبيل للاصلاح هو الإيمان بالأسباب والمسببات وبالسنن العادلة الشاملة ، وبأن للأخلاق قوانين صارمة كقوانين المادة .

فالحامل للفريقين على هذى الأخلاق المتباينة هو حب الذات ، لكن هؤلاء رأوا أن الطريق لخدمة الذات هو الأخلاق الفضلى ، والآخرون لم يروا هذا الرأى . فالاختلاف فى هذا يرجع إلى الاختلاف فى الرأى والفهم . فالغاية متحدة والوسيلة مختلفة !

ونثبت هنا شيئاً يعده الناس مخزاة خلقية ونعده نحن مخزاة اعتقادية فكرية ، لأن إثباته هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذى نرمي إليه .

ذلك أننا تقدمنا أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريباً إلى وزارة التموين نطلب إليها أن تبيع لنا ورقاً لطبع هذا الكتاب . وقد ابتـدأ هذا الطلب خط سيره هكذا : مرّ بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى اختصاص بهذه المسألة — مسألة الورق — ثم بعد أن انتهى إلى آخر مطاف يمكن أن ينتهى إليـه كرّ راجعاً إلى حيث ابتدأ أولا ، متخذاً الطريق نفسه ، نازلا من أعلى إلى أسفل أو صاعداً من أسفل إلى أعلى ، سالكا خطاً وهمياً دائريا ... وقد ضل فى هذا الخط وعجز عن أن

يجد له نهاية ينتهى عندها أو بداية يصـدر عنها ... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلا بعد أن جربنا كل وسـيلة وحيلة ورقيناها بكل رقيـة ، وأعيا رجال وزارة التموين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه — إما رفضاً وإما إجابة [1] . وقد شبهت الوزارة ورجالها — وهم يدورون ويتحركون فى المسألة — بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع ، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقاً مطبوعاً عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقاً مخرقاً ممزقاً ، أو مطموساً بالسواد الذى لا يستبان له وجه ولا غرض .

ووجه الشبه أن كلا من الوزارة وهذه الآلة للطباعة تتحرك ولكنها لا تفعل شيئاً مفيداً ، ثم لا تنتهى عند هذا ، بل تذهب تضيع الجهود والوقود والأوقات والأوراق والأشياء الأخرى . والشىء الذى يهمنا فى هذا الحادث أو هذى المأساة هو أن نتلمس الأسباب والدوافع الحقيقية التى قضت على القوم بأن يصيروا فى أمورهم على هذا النحو من الانحلال والفوضى .. وقبل ذكر هذى الأسباب نذكر أن القوم لو كانوا يسيرون على أمر مفهوم معقول لكان أمرهم من هذه المسألة ابتداء أحد أمرين : إما أن يكون لطلبنا هذا وجه مشروع فينجزوه بلا تأخير ، وإما ألا يكون له وجـه ، فيعرفون ذلك ويعرفوننا إياه ، فيريحوننا ويريحون أنفسهم .. أجل قد يظن القارىء أن العقدة فى المسألة أن الورق كان غير موجود لدى الوزارة ، ولكن الموظفين كلهم أفهمونا أنه موجود وأن فى الاحتياطى ما يكفى إذ ما نطلبه قليل جداً ... وإذن فما هى الأسـباب الحقيقية التى ألزمت القوم بأن يكونوا هذى النماذج البشرية المخجلة ؟ الناس — عادة — يكتفون فى مثـل هذا أن يقولوا : إنه الانحلال الخلقى . ويحسبون أنهم بهذا قد أصابوا لباب الموضوع . ولا ريب أن مثل هذا الجواب لا يشفى ولا يكفى من لا يغنيهم الإلمام بظواهر الأشياء .

ومن المعلوم أن الذى يدفع الإنسان إلى العمل وإلى الترك فى هذه الحياة هو حب ذاته وحرصه على مصلحتها الخاصة الخالصـة . ومن غير الممكن أن يكون الإنسان عدواً لنفسه ، مريداً ضررها بالمعنى المفهوم المتبادر . بل إن أشـد الناس إجراماً وفساداً وإضراراً بنفسه وإسـاءة لها — حتى المنتحر نفسه — إنما يدفعه إلى ذلك حب ذاته ، كما أن أشد الناس ورعا وصلاحا وفضيلة إنما يدفعه ذلك الدافع ذاته . فالدافع فى الحالات

---

(١) ويشرح الغرض الذى نرمى إليـه أن نقول : إن هذه المسألة التى عمى حلها على معالى طه السباعى باشا المسلم ، قد استطاع أن يحلها حلا جزئياً معالى سابا حبشى باشا المسيحى حين آلت إليه الوزارة .

كلها هو شىء واحد ، حتى إن أشد الناس أثرة هو مثل أشدهم إيثاراً من حيث إن كلا منهما إنما يفعل ما يفعل من أجل حبه ذاته ونفسه . فحب النفس ومصلحتها هو الأمر الذى تقوم عليه جميع الأفعال والحركات .

وإذن فرجال وزارة التموين حينما فعلوا بمسألتنا هذى الأفاعيل وآذونا كل هذا الأذى ليس معنى هذا أنهم لا يحبون أنفسهم ولا يحبون أن يقال : إنهم قوم منتجون مربحون فضلاء عاملون صادقون — أو لا يحبون لأنفسهم ما قد يترتب على هذا من المثوبة العاجلة الدنيوية — وليس معناه أيضاً أنهم لا يبالون أن يتهموا وأن يذموا وأن يقال إنهم مقصرون خاملون كاذبون مراوغون مضيعون على الناس مصالحهم وأوقاتهم ، متقاضون من الدولة أجوراً بدون أن يصنعوا شيئاً ... بل إنهم فى هذه المشاعر وهذى المعانى لا يقلون عن أولئك الآخرين المدعوين بالأجانب ، الذين يؤدون أعمالهم على أحسن الوجوه وأسرعها وأكملها وأفضلها ... فالعقدة ليست هنا ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء ليس فى هذا . ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين هو أن قومنا — ومنهم وزارة التموين — بما فيها من رجال وأعمال — لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازما طبيعياً ، وأن بين الوسيلة والنتيجة ارتباطاً حقيقياً ، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكا أزلياً أبديا ... فلا يؤمنون بأن عمل السوء سيؤدى لا محالة إلى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير سوف يؤدى بلا ريب إلى نتيجة سارة ، وأن المراوغة فى مثل هذى المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم فى النهاية على الفضيحة والخزى والعار والسمعة القاصمة ، وأن ذلك كله سيؤدى بهم — بدوره — إلى الخيبة وإلى العقاب الاجتماعى الصارم — وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال . إنهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهذى الأعمال ، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب ، لأنهم ليسو فقراء من حب النفس والذات ، ولكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر . ولكن لماذا لا يؤمنون هذا الإيمان ؟ إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة هى المهيمنة على كل شىء ، على الوسائل والنتائج وعلى الأسباب والمسببات هيمنة عمياء باطشة ، فهى لا تسير سيراً حراً طبيعياً فى طريقها ولا تدع تلازمها وتماسكها أمراً مضمونا محققاً . ويرون أن الإيمان بذلك هو من الإيمان بكمال الله وبحرية تصرفه . وقد يحتجون لهذا بأمثال قوله تعالى « كل يوم هو فى شأن » . وكم من قولة حق أريد بها أشنع ضروب الباطل .

وإذن فقد تكون الوسيلة جميلة وشريفة جداً ثم تكون النتيجة عكس ذلك ، كما قد تكون الوسيلة قبيحة وآثمة وغير شريفة ثم تجىء نتيجتها باهرة رائعة — وهكذا القول فى الأسباب والمسببات وفى كل شىء . هكذا علموا ، وهكذا آمنوا ، وهكذا فسدت أعمالهم وأخلاقهم ، وهكذا صنعت لنا وزارة التموين ... أما أولئك الذين يحسنون القيام بأعمالهم ويهبونها كل إخلاصهم واهتمامهم وصدقهم ووجودهم ، فقد آمنوا بهذا الذى كفر به هؤلاء ؛ آمنوا بأن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين العمل ونتيجته وبين البداية والنهاية ، فأحسنوا فى العمل لأنهم يريدون حسن النتيجة ، وأحسنوا فى البداية لأنهم ينتظرون النهاية ولا فارق بين هؤلاء وهؤلاء إلا هذا ؛ لا فارق بين هؤلاء الأجانب الذين نعاملهم فتروعنا معاملتهم بنظامها وصدقها ودقتها ، فنصبح أسرى معاملتهم وأسرى متاجرهم وبنوكهم وشركاتهم — وبين هؤلاء المواطنين أو المسلمين — وعلى رأسهم موظفو وزارة التموين — الذين نلقى من معاملتهم كلما عاملناهم مثل هذا الذى لقينا من هؤلاء الموظفين حينما تقدمنا إليهم بهذا الطلب المشروع لنصدر هذا الكتاب الذى يعالج هذه القضية العامة الكبرى — والذين لا نزال نلقى من معاملتهم كل ضر وشر وكذب ومراوغة وغش فنولى منهم مذعورين ، نتمنى لو أن الله منحنا سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم إذا كان فى الإمكان إصلاحهم .

لماذا نعامل بعض التجار فيحاول — لو استطاع — أن يبيع لنا شر السلع بأغلى الأثمان كأنه لا ينتظر معاملة أخرى غير هذى ، وإنما هى صفقة الدهر أو سرقة الدهر ، ثم نعامل تجاراً آخرين فنلفيهم يسيرون فى تجارتهم ومعاملتهم على لون واحد صادق حتى لو أنهم استطاعوا أن يبيعوا لك السلعة الرديئة بثمن السلعة الجيدة ورضيت بذلك لما رضوا هم به ، كأنهم إنما يريدون أن يكسبوا قلبك لا أن يكسبوا هذى الصفقة الواحدة مهما تعاظم مكسبها ؟ لماذا نجد هذا الاختلاف وما سببه ؟ إن هذا الاختلاف وسببه يرجع إلى أن الأولين الذين هم لصوص التجار لايؤمنون بالارتباط الذى ذكرنا ، ولايؤمنون بأن المستقبل — فى النجاح والسقوط ، والارتفاع والهبوط — ما هو إلا وليد الحاضر وزرعه وغرسه وغايته ، لا تخلف ولا اضطراب ، لأن المستقبل — على رأيهم — بيد الله يصرفه ويضعه ويصوغه كما يشاء لا كما يجب ويحسن ، لأنهم لا يعرفون لله حكمة ولا عدلا وإنما يعرفون له مشيئة وقهراً ! ! وإذن فالواجب عليهم أن ينتهزوا الفرص العاجلة وأن يعتقدوا أن ما أمكن أخذه فمن الجنون تركه !! وحينئذ فما الذى يضطرهم إلى أن يفيتوا

على أنفسهم المكاسب الناجزة ، وما الذى يضطرهم إلى أن يروضوا أخلاقهم وأعمالهم على الكمال والصدق والإخلاص — مخالفين بذلك غرائزهم البدائية الهمجية !!

أما أولئك الآخرون فقد آمنوا بهذا الارتباط أوثق إيمان ،فأمعنوا فى سبيل النجاح وأصبحوا الأمثال المضروبة للأقوام الناجحين .

إننا نرى الأطفال وأشباههم من حواشى الناس وأوضارهم ونفاياتهم يلقون بالكذب وبكل سوء وقبيح أينما حلوا ، لايحسبون لشىء من ذلك حساباً ولا يرون أن شيئاً منه منكر مذموم ... ثم نرى الحكماء وذوى الشأن والخطر يتقون كل هذا ما استطاعوا له اتقاء وإن فعلوا شيئاً منه فعلى حذر شديد وبمقدار ؟ فلماذا هذا ؟

إن الأطفال وحواشى الناس وأمثالهم — ممن لايعرفون التبعات وممن لايحملونها — إنما يقدمون على هذى القبائح بهذه الجرأة التى لا تعترف بالمبالاة لأنهم يجهلون أن لما يقولون ويفعلون عواقب لابد أن تصيبهم وأن تصيب سمعتهم ومكانتهم ، وأن ترميهم فى النهاية بالفشل الاجتماعى وبكل الآفات الاجتماعية التى يرهبها الإنسان بطبعه .. ولو أنهم علموا ذلك علماً صحيحاً وآمنوا به لكان فيه ما يحول بينهم وبين هذه الشناعات . ولهذا فإن الأطفال ، كلما تقدمت بهم السن وعرفوا من سنن الاجتماع وقوانين الحياة ، يمسكون — على قدر ذلك — بأعنة غرائزهم ويحكمون القبض على لجم شهواتهم وميولهم الطفلية الأولية ، لأنهم يتنبهون إلى عواقب هذه الأمور ويدرون منها ما كانوا يجهلون ... فالعلم بالعاقبة هو أعظم ضمان للأخلاق وأقوى حارس لها .

أما الحكماء وأضرابهم فإنهم يحذرون الكذب وكل ما يسوء لأنهم يعرفون من سنن الاجتماع ونواميس الوجود وطبائع النفس البشرية ، ومن تلازم الحوادث وارتباط المسببات بالأسباب ما لا يعرفه الآخرون . فيتقون كل ما قد يُوْدى بسمعتهم ومكانتهم ، وكل ما قد يصيبهم بما يكرهون .

وإذن فلن تتخلى وزارة التموين عن خلائقها هذه وعن أمثال هذه المعاملة التى أضاعت علينا الوقت الكثير والجهد الكثير — وعليها أيضاً — وجعلتنا نندب الإنسانية ونشعر بالعار والإشمئزاز كلما رأينا واحداً من رجالها أو كلما دخلناها أو كلما رأينا من يشبهونهم . أجل ، لن تتخلى هذى الوزارة عن شىء من هذا ، ولن تشعر أنه من الواجب أو من الحسن لها التخلى عنه إلا إذا استطاعت أن ترتفع عن تراب غرائز الطفولة

وحواشى النـاس وهملهم ، هؤلاء الذين لايعرفون عاقبـة ولا يرهبون نتيجة ، بل ولا يفكرون فيهما — إلى سماء الرجولة الكاملة الناضجة وإلى علياء العقل المفكر الذى يؤمن بالعواقب والنتائج وبالتماسك الوثيق بين أحداث الوجود ودنيا الأحداث . ووظيفتنا نحن فى هذا الكتاب أن نعرفهم ذلك وأن نقدم لهم هم وسواهم مادة الإيمان به .

وليعلم أننا لانريد هنا أن نطعن فى أحد معين ، وإنما أردنا علاج مرض عام وتعليل ظاهرة اجتماعية عامة مخيفة . فلا يجب أن يغضب مما ذكرنا أحد . وما شكوناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع طوائف الأمة .

بغى ألا إن بغى المرء يصرعه   والسعى للرزق والأرزاق قد قسمت

[ابن زريق]

فسيان التحرك والسكون   جرى قلم القضاء بما يكون

[أحدهم]

سعى الفتى وهو مخبوء له القدر   لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى

[منسوب لكعب بن زهير]

***

هكذا فهموا القضاء والقدر ، وهكذا اعتقدوا فى أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك ، ولا تتصرف وإنما يتصرف فيها ، ولا تفعل وإنما تنفعل ، وليست لها قوة ولكن قوة غيرها تظهر فيها ، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها أن تنتظر حتى تكون محلا وظرفا لأعمال الآخرين ... وهكذا فقدوا كل ثقة بأنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية . فانهاروا كما ينهار كل بناء فقد أساسه .

ليس من الممكن أن يقدم الإنسان على العمل إقداما يمكنه من الأخذ بناصيته ومن قهره لإرادته حتى يعلم علماً ليس بالظن أنه قادر عليه كفوله ، وأن له قوة تتركز فى ذاته يفعل بها متى شاء ويترك إذا شاء — وحتى يعلم علماً ليس بالظن أيضاً أنه ليس هنالك قوة خفية مسلطة على منعه ، مكلفة بأن تضع العقبات فى طريقه ، متحكمة فيه تحكم القوى الجاهل فى الضعيف العاجز ، دائبة على معاندته ومعارضته كلما حاول أن يقدم ، وكلما هم أن يحجم ، منتظرة أحياناً حتى يحرث ويزرع فإذا ما أوشك أن يجنى ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر بجناه وتركته محسوراً مثبوراً ... وليس من المستطاع الجمع بين اعتقاد المرء فى نفسه أنه عاجز عجزاً ذاتياً لازما عن العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال ، وبين نجاحه فى الحياة وإتيانه بأعمال تعد باهرة ... وإن الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه ، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه . فإذا ما أردته على أن يجتاز نهراً واسعاً امتنع وحرن مهما عالجته وضربته

وكذا إذا حملته على أن يقفز فوق حاجز شديد العلو ، ولكنه يجتاز ويقفز المجارى الصغيرة والحواجز المنخفضة بلا معالجة ولا معاناة .

وأصول التربية الحديثة الموضوعة بإرشاد علم النفس والاستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الإيحاء الذاتى وعلى العمل به — أى على إفهام كل إنسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمله ، وعلى أنه يستطيع أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل على أنه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الإنسانية ، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب ، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له ، وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال — إذا أحسن استخدام مواهبه وأحسن شحذها — لا يقف عند غاية ولا يعجز عن بلوغ نهاية ؛ وعلى إفهامه أنه خلق معداً مهيأ لأن يتغلب على كل شيء وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه وأن يسمو حتى يلاحق الخيال ، لا بل حتى يسبق الخيال ؛ وعلى إفهامه الاستقلال فى العمل وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ماهو محتاج إليه وحده دون عون ودون رعاية ، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له ... وهذا ما يسمونه التربية الاستقلالية . وهذه التربية هى أعظم تربية . والأمة التى تصل إليها وتقدر عليها تضحى أقوى وأعظم أمة .

وقد ثبت أن الشعب الذى يمكن إقناعه وإيمانه — بأسلوب صحيح — بمقدرته وكفايته ، لأن يعمل ويبدع ويبتكر ويسود ، وأنه يستطيع أن يجد فى مواهبه الخاصة وقواه النفسية ما يرد به على كل عدوان وما يكبح به جماح كل متطاول — لقد ثبت أن مثل هذا الشعب من العسير أن يهون وأن يذل وأن يجيء متأخراً فى حلبة السباق العالمى أو أن يعجز عن صعود قمة الأهداف الإنسانية العليا ؛ أو يقف دون أمل من آماله الكبرى يرنو إليها بعينيه ويقصر عنها بأعماله وآماله — كما ثبت أن الشعب الذى يمكن إقناعه وإيمانه بعكس ذلك — أى بعجزه وضعفه وهوانه وأنه ليس أهلا لشيء ولا جديراً بشيء وأنه مجرد من كل القوى التى يمكن استخدامها فى إدراك ما يراد إدراكه ، وأنه أينما يوجه لا يأت بخير من قبل ذاته ومن استعداد نفسه ، وأنه من غير الممكن أن يكون قادراً على شيء من هذه الآمال والحاجات البشرية الضرورية — نعم ثبت أن الشعب الذى يصل فى سبيل كفره بنفسه إلى هذه المكانة لا يمكن أن ينتظر له حياة صحيحة ، ولا وجود صحيح ، ولا وثبة ينتصر بها حق أو ينقمع بها باطل ، بل لا ينتظر منه إلا الاستسلام

لكل ما يفجأ به الزمان ، ولكل ما تأتيه به الحياة من ألوان الهوان ، وأن يكون حملا على الإنسانية فى مراحلها كلها لا تنتفع به ولا هو ينتفع بنفسه .

وهذا كما ثبت صدقه وصدق حكمه فى الشعوب ثبت أيضاً صدقه فى الأفراد ، فالفرد الذى يؤمن بقدرته وقوته وكفايته ليس كالفرد الذى يكفر بذلك ، فالأول يكون مقداما مغواراً ناجحاً فى كل ما يتعاطاه ، والثانى يأتى عاجزاً رعديداً صغيراً فى كل محاولاته إن كانت له محاولات .

ونحن فى هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون فى تقوية هـذا الايحاء أشد مباراة ، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التى لا تغلب ، وإقناعه على أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف فى طريقه ، ويحطم كل العقبات والمشكلات والأزمات . وقد عد رئيس الحكومة البريطانية فى هـذه الحرب من أقدر الرجال وأعاظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناع نفسه وإقناع الشعوب البريطانية ، بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الأعداء ...

وقد استطاع هذا الرجل العجيب الجبار بهذا الإيمان وبهذا الإيحاء أن يغير اتجاه الحرب هذا التغيير الذى كان يعسر جداً أن يوجـد من ينتظره . وقد كنا نحن معشر الشرقيين ننظر إليـه وإلى خطبه وكلامه فى سنى الحرب الأولى نظرات الاستهزاء أو السخرية أو التعجب أو الاستفهام ، لأننا نجهل سر هذه القوة وسر الإيمان بهذا الايحاء وسر الثقة المطلقة بالنفس ... وقد استطاع الإنجليز بذلك أن يفلتوا من الدمار الذى كان محققاً فى نظر الناس ، ثم استطاعوا بذلك أن يصـلوا إلى النصر الذى كان يعد حلماً من الأحلام المشوشة المتْعَبَة .

ولا شك أيضاً فى أن ألمانيا نفسها إنما اسـتعدت لحرب العالم كله وعبأت قواها المحدودة الضئيلة لهذه الحرب بإيمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجابا ودهشاً وفرقا ، وأنها إنما وقفت — وقد ضربت عليها الحلقة بإحكام وتضييق من كل جانب تناضـل موارد بشرية وغير بشرية تفوق مواردها البشرية وغـيرها عشرات المرات نضالا هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شـجاعة أو أن يقال إنه انتحار الأحرار الأبطال — بهذه الثقـة نفسها وبهذا الإيمان نفسه . أما اليابان

وما أعدته لمجابهة خصومها الغربيين الأقوياء ومجابهة معظم البشرية ، فأمر هو أعظم من أن توجد له الألفاظ والعبارات ... وليس هنالك ريب فى أن ألمانيا إنما بارزت قوى العالم كله ـ وكذلك اليابان ـ لإيمانها وثقتها المطلقة بما يكمن فيها من القوى والكفايات ، وأن الإنجليز إنما غيروا مجرى الحرب الهائل الجارف بهذا الإيمان وهذه الثقة أيضاً ، وأن أحد الفريقين لو فقد هذا الإيمان وهذه الثقة لما أمكن أن يخوض طوفان هذه الحرب بهذا التصميم وهذا العناد والإباء .

وقد راح العلاج النفسانى يستخدم هذا الإيحاء الذاتى وينتفع به أعظم استخدام وأعظم انتفاع ، وصار على رأس قائمة العقاقير الطبية الطبيعية ، وقام البرهان أخيراً كما ذكر العلماء على أن أعظم ما يمكن أن يقدمه التنويم بالإيحاء للبشر من فائدة هو استخدام هذا الإيحاء فى شفاء الأمراض أو تخفيفها ، وفى حل العقد النفسية المستعصى على الطب حلها — وثبت عدا ما ذكروا أن لهذا الإيحاء قوة تكاد تكون سحرية فى علاج ضروب كثيرة مما تعانى الإنسانية وتشكو .

ولو أن إنساناً راح يوحى إلى نفسه ، أو أخذ يوحى إليه من يثق به ، أن أحد أعضائه غير صالح للقيام بوظيفته ولا للانتفاع به فاقتنع بهذا الإيحاء وترك استعمال هذا العضو مدة طويلة لفسد ولصار غير صالح أو لصار ناقصاً .

فالإيمان بالنفس إذن وبقدرتها هو أصل التربية الصحيحة القويمة ، وهو أول السير فى الطريق ، والكفر إذن بالنفس وبكفايتها واستعدادها مؤد لا محالة إلى الدمار وإلى التخلف عن سبيل القافلة الجادة فى سيرها نحو آمالها المختلفة العظمى . فالتعاليم القائمة على أن الإنسان خلق عاجزاً مجرداً من كل قوة وعاجزاً عن أن يعمل شيئاً — وإنما هو ظرف ومحل للأعمال كما يقول هؤلاء الجاهلون على حسب مافهموا القضاء والقدر — هى تعاليم زائفة خبيثة قاطعة للطريق مهلكة لمن أخذوا بها . وليس من الممكن أن تحيا أمة تدين بهذه التعاليم . ومحاولتنا أن تنهض الأمم الإسلامية من كبوتها وأن تخرج من هذا النطاق المضروب عليها ومن هذا الحصار الذى لزها إلى الذل والمسكنة — وهى مؤمنة بهذه التعاليم — محاوله غير مجدية ولا ريب .

***

ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين ، زاعمين لهم أنها مما يوجبه الإيمان بهما ؟ يقولون إن معنى القضاء والقدر أشياء :

أولها — أن الله سبحانه قد سجل على الإنسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطاً لا انفكاك منه ، بحيث لا يجدى معه الإرشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج .

ثانيها — أن الله أوجد فى الإنسان الذى يعمل الشر الاستعداد للشر فى أصل خلقته وطبيعته دون الذى يعمل الخير ، فإنه تعالى خلق فيه الاستعداد للخير دون الاستعداد للشر ، فقد فرق بينهما فى أصل الخلقة والطبيعة . فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعداً له ، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيراً أو بذر الشعير أن يخرج قمحاً .

ثالثها — أن الله قد أرصد ، بطرق خفية غامضة ، فى سبيل كل إنسان ما يوجهه بالقوة إلى الأعمال التى يعملها — أو التى تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح — بأسباب خفية وبدون أسباب ؛ فالجبان العاجز الضعيف مسوق إلى جبنه وعجزه وضعفه بقوة لايمكنه الخلاص منها ، والشجاع القوى الجرىء مسوق أيضاً بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة — وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق .

رابعها — أن الإنسان الذى يريد الخير أو الشر لايريد شيئاً منهما بنفسه ، وإنما الله الغلاب هو الذى يخلق إحدى الإرادتين فيه لأسباب غير معلومة ، أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق ! فإذا خلق هذه الإرادة الشريرة فى نفس إنسان لم يستطع أن يعمل غير الشر ، فيندفع إلى الأعمال الشريرة بهذه الإرادة ، فيصير شريراً ولابد .

خامسها — أن الإنسان ليس عاملا ولا فاعلا فى الحقيقة ، وليست له القدرة على العمل بل على شىء ما ! والإنسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلا لأعمال الخلاق ؛ فكل الأعمال الخيرة والشريرة التى يعملها الإنسان فى الظاهر أو التى تعمل فيه إنما هى أعمال الله وصنعه وحده ، والعبد ليس له فيها غير المحلية — أى كونه محلا لها . وقد زعموا أن من اعتقد أن الإنسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو مشرك لأنه اعتقد أن مع الله موجداً وخالقاً آخر ! والإيجاد عندهم هو الخلق . وقد كفر فريق منهم المعتزلة ، وقال المتعدلون منهم إنهم ضلال فقط ، لذهابهم إلى أن الإنسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا ... وهم يسمون من يقول بقدرة الإنسان بالقدرية ، أى بالمعطين للانسان قدرة ذاتية .

ومن رأيهم أن العبد ليس علة لأعماله وليس فيه قدرة عليها . ومن قول إحدى

العقائد المنظومة المدروسة فى الأزهر الذى يملى عقائده على أربعمائة مليون مسلم — أو الذى يحاول هذا الإملاء ويسلمه له الملايين — من قول إحدى هذه العقائد فى تجريد الإنسان من قواه: —

ومن يقـل بالقوة المودعة   فذاك بدعى فـلا تلتفت

أى من يقل بأن فى الإنسان قوة على أعماله أودعها الله فيه فهو مبتدع فى الإسلام لايلتفت إليه — هذا هو فهمهم للقضاء والقدر ، وهذه هى منزلة الإنسان لديهم (١) .

---

(١) وقد كان الناس فيما مضى يعزون أخطاءهم ونقائصهم إلى الشيطان تارة ، وإلى القضاء والقدر تارة أخرى ، فزادوا أخيراً ثالثاً هو الاستعمار . فإذا ليموا على خطأ أوضعف أو انحطاط وفساد قالوا إننا ملزومون بذلك مجبورون عليه ، وإن الذنب إما ذنب القضاء والقدر — أى ذنب الله ، وإما ذنب الشيطان ، وإما ذنب المستعمر ، وإما ذنب أولئك كلهم — يريدون التنصل من التبعة ويرون أنهم مصيبون فى هذا التنصل ... فازدادوا بذلك إقامة على الخسف ولصـوقا بالضعف ورضاً بما يصيبهم من عدوان وهوان ... كأن القضاء إنما يقضى عليهم ولا يقضى لهم ، أو كأنما يقضى عليهم ويقضى للآخرين لخصومة بينه وبينهم وصـداقة بينه وبين الآخرين ... وكأنمـا الشيطان مرسل عليهم وحدهم ليسوقهم إلى ما هم فيه ويلزمهم به ، ومرسل إلى الآخرين ليخدمهم ويسعدهم ويهبهم القوة والسلطان ... وكأن المستعمر إنما غلبهم وأخضع ديارهم لا لقوة فيه وضعف فيهم وفضيلة لديه ورذيلة لديهم ، بل لا لشىء سوى أنهم مسلمون وهو كافر ، وسوى أنهم قريبون من الله وهو بعيد عنه ! ! وكأنمـا المستعمر هو الذى أفسد ضمائرهم وقلوبهم وعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ! ! والواقع أن الاستعمار يجب أن يكون حافزاً إلى الحياة والقوة والكمال . وذلك أن للمستعمر جانبين : جانب طغيان يصبه على من ابتلى به ، وجانب كمال هو مصدر قوته وسـيادته .

أما الجانب الأول فيجب أن يكون مصدر قوة للمغلوب لا ضعف ، لأنه يهيج فيه الحمية ويضرمها فتولد القوة الباطشة ، وأما الجانب الثانى فيجب أن يستفاد منه على سبيل الاقتداء إذ يجب أن يأخذ الضعيف عن القوى فضـائله وحسناته .

ولم يكن وجود الاستعمار يوما ما مانعاً من الخلاص منه إلا إذا كان وجود الفقر والمرض وغيرهما من الآفات والنقائص مانعاً الخلاص منها .

ويجب أن يعتقد أن فقد أمة لاسـتقلالها ما هو إلا بمثابة العقوبة الاجتماعية جزاء ترك واجب أو فعل محرم . والعقوبات — من حيث هى — يجب أن تؤدى إلى الإصـلاح والتطهير والإقلاع عن سبب العقوبة . وإذا كان السارق إنما تقطع يده أو يسجن من أجل أن ينزع عن هذه الجريمة وأن يكون أكمل منه قبل عقابه ، فكذلك الدولة التى تمنى بسلب عزتها وسيادتها — جزاء ضعفها وتقصيرها وتفريطها — يجب أن يؤدى بها ذلك إلى تدارك ما فات وإلى النزوع عن أسباب هذى العقوبة القاسية . ولا تكون العقوبة سبباً فى دوام العقوبة أو سبباً فى بقاء الجريمة، كما لا يكون الاستعمار مؤدياً إلى دوام أسبابه أو إلى تجددها وتكررها .

فالإنسان ليس فاعلا وليست له قدرة على الفعل ! ثم اختلفوا بعد هذا هل يسمى كاسباً أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف ! قالت طوائف لايسمى كاسباً وإنما هو الجبر البحت والظرفية البحتة والاضطرار المطلق فى الظاهر والباطن .

وقالت الطائفة التى تدرس آراؤها وعقائدها فى سائر المعاهد الإسلامية — وهى الطائفة المحسوبة على الأشعرى ، المنسوبة إليه ، المسماة بأهل السنة — قالت هذه الطائفة : بل نسميه كاسباً ، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل فى معنى الكسب والكاسب فردته إلى الجبر المحض الذى لاغبار عليه ؛ فقد قيل لها : هل العبد فاعل حقيقة ؟ قالت : لا . فقيل لها : هل هو شريك فى الفعل مشاركة حقيقية ؟ فقالت : لا . فقيل لها : هل هو سبب حقيقى فى وجود الفعل الواقع فيه ؟ فقالت : لا . قيل لها : هل هو موجد له ؟ فقالت : لا . فقيل : وهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال — أى هل هو مختار فى حدوث الأفعال الواقعة فيه وفى عدم حدوثها — فقالت : لا فقيل لها : إذن ما معنى كونه غير مجبور ؟ قالت : هو أنه كاسب . فقيل لها : وما معنى كاسب ؟ قالت : هو كونه كاسباً ! فقيل لها : هذا له خىء ! قالت : معناه ليست لنا عقول .

فالكسب عند الأشعرية هو الجبر فى المعنى عند الجبرية ، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها ، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب . وقد عُدَّ المذهب الأشعرى فى هذه المسألة من المذاهب التى تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى ، فقيل فى ذلك :

مما يقال ولا حقيقة تحته ... معروفة تدنو إلى الأفهام
الكسب عند الأشعرى والحال عند ... الهاشمى وطفرة النظام

فأعظم معانى القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الإنسان ليس فاعلا ولا عاملا وإنما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شىء ، والإنسان لايعدو أن يكون محلا لما يسمى أفعالا له . والقضاء هو الفراغ من ذلك . فالعبد عندهم مجرد من كل شىء سوى الظرفية . فهو عاجز عجزاً تاماً ، والله لم يخلق له قوة يفعل بها ! ومن قال بهذا فهو كافر فى رأيهم ، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط . وقد اشتدت المبارزة فى العصور الأولى إبان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه ، ولكن كانت الغلبة فى النهاية لمن يسمون أهل السنة فاندحرت جيوش الاعتزال ، بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقية معروفة ، واختفت كتبهم

أو انقرضت ، وصارت عقائدهم لاتعرف فى الغالب إلامن كتب خصومهم عندما يذكرونها لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم . فأصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهل السنة — أى من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم فى كل شيء ... وقد انتشرت هذه الآراء والمذاهب انتشاراً عجيباً،فتمكنت من قلوب المسلمين وعقائدهم،وسيطرت على حياتهم وأحاطت بهم بل طوقتهم ، وضربت أو فرضت عليهم الحصار . فلم يقدروا على الخروج والإفلات ، بل لم يفكروا فى ذلك ، بل لم يريدوه إذحسبوا أن محاولة الخروج منه هى محاولة للخروج من الإسلام ومن القضاء والقدر وهما ركنان من أركان الدين . وصارت العاقبة أن رضوا بالاستسلام وراضوا أنفسهم عليه ، حتى أصبح طبيعة من طبائعهم وخلقاً من أخلاقهم ؛ فإذا أصيبوا بخير — وما أقل ذلك وأندره — استسلموا وجمدوا تحت رحمة الأقدار والأقضية على حسب فهمهم لها انتظاراً لعملها هى فيهم حتى يسلبوا هذا الخير . وإن أصابهم شر وهوان ، وما أكثر ذلك ، ضرعوا له واستسلموا وقالوا: إنها الأقدار هى التى فعلت وهى التى يجب أن تفعل — وقالوا إن الله هو الفاعل الضار النافع — وما أكثر كلام الحق الذى يراد به الباطل ! وراحوا ينشدون مع المنشدين — وقد أخذتهم غاشية من الجنون الاعتقادى :

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق فى غشاوته الجنين

وراحوا يقولون كما يقول الشيخ الغزالى فى أحد كتبه المشهورة : « والرزق مقسوم لا تتبدل ولا تتغير قسمته ! فإذا علمت أنه حق لا يتغير فأية فائدة فى الاهتمام والطلب إلا الذل والهوان فى الدنيا ، والشدة والخسران فى الأخرى !! ولذلك قال عليه السلام : (مكتوب على ظهر الحوت والثور : رزق فلان بن فلان ، فلا يزداد الحريص إلا جهداً) ولذلك يقول شيخنا : ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا يمكن أن يمضغه غيرك » .

ومن أقبح ما قيل فى هذه المسألة إنى قرأت فى كتاب من كتب هؤلاء ما معناه : انه يجب علينا أن نعتقد أن حكم الأجانب لنا واستبدادهم بنا واغتصابهم إيانا هو أمر من أمر الله ، فلا ينبغى لنا أن نغضب منه ولا أن ننكره ، بل الواجب علينا أن نرضى ونستسلم .

وقرأت منذ أيام فى كتاب محترم عبارة معناها : ان المسلمين يرون أن حكم الأجنبى لهم من حكم الله لقوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فيرضون ويسلمون .

ولهذا فإنهم لا يحاولون الثورة بمن يحكمونهم من الأجانب كما يصنع الآخرون من غيرهم ، ولا يحدثون القلاقل والفتن !!.

وقد تفاعلت هذه الآراء وأخذت أطواراً خطيرة على مر العصور حتى أضحت من الأدواء المتوطنة القديمة فى ديار المسلمين ، وصارت كلمتا القضاء والقدر هما المدد الذى لا ينقطع لتغذية هذه الأدواء وتغذية جراثيمها حتى أصبحتا من أعظم الحقول التى تزرع فيها هذه الجراثيم والتى تكفل لها الحياة والنمو ... وصرت تسمع أينما ذهبت على كل شفة ولكل مناسبة : إنه القضاء والقدر !

نادِ فى جموع المسلمين منكراً عليهم اختصاصهم بالذل والاستعباد دون العالمين ، فإنهم سيجيبونك : انه القضاء والقدر — قل لتاجر أو صانع أو زارع : لماذا أنت صغير فقير وفلان من الأجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والأموال العظيمة ، فسيجيبك أيضاً : انه القضاء والقدر — كلم من شئت لما شئت ، منكراً أو معاتباً أو مستفهما ، فستسمع الجواب أيضاً : انه القضاء والقدر ... فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، وهما السبب الظاهر المعقول فى كل فشل ، وفى كل هوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس .

شعوب ظلت مئات السنين تعلم وتراض على أنها ليست لها قدرة ، وأنها ليست فاعلة ، وأنه ليس فى الإمكان أن تكون كذلك ، لأن الفعل والقدرة من صفات الله الخاصة التى لا ينازعه فيها إلا الكافرون — وظلت مئات السنين تعتقد أن هذا هو الإيمان ، وأن المخالفة فيه مخالفة فيه — وظلت مئات الأعوام تلقن بكل وسيلة هذه التعاليم غير مسمعة سواها — شعوب هذه هى سبيل تربيتها أنى يرجى لها غير ما أصابها ! وأنى يرجى منها غير ما هى فيه من القنوط والهبوط .

قد يقول قائلون من المشغوفين بالاعتراض والمشاكسة : إنه لا يصح أن يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر ، ولا أن تحمل كل هذه الأعباء ، لأننا نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا ، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر ، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا — هى وإن كانت باطلة — إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات — إذا قيل هذا قيل فى الجواب : ما أعظم ما تخفى على الإنسان نفسه وتخفى عليه حقيقته ! أجل ، إن المسلمين يأتون شيئاً كثيراً من الأعمال

الصغيرة ، تدفعهم إليها في الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى ، أو يدفعهم إليها الفكر القلق المشوش ، أو يندفعون إليهـا زاعمين أنهم مأمورون بها تعبداً وتكليفاً فقط كما كلفوا بالصلوات والدعوات ، لا لأنها تفيد بذاتها ، أو يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة . ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم ، أو تفقرهم وتغنيهم اعتقاداً جاداً ، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون في ما يأتون ويذرون ، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا ، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة ، أو أن فيهم قوة ذاتية ، أو أنه ليس هناك عوامل خفية — وهي ما يدعونه بسر القدر — تعمل أبداً على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون ، وتعمل على منعهم نيل الثمر الذي بذروه وزرعوه ، ثم كادوا أن يجنوه ويحصدوه ، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون ، وأنها هي — أي العوامل — قادرة قوية ، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائماً جزاء وفاقا — هل اعتقدوا شيئاً من هذا أو هذا كله اعتقاداً صحيحاً لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب ؟ كلا إنهم لم يعتقدوا شيئاً من هذا ، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالا تفضي بهم إلى النجاح والظفر المبين ، أو كيف يمكن أن يقوموا بأعمال كبيرة قوية ، وكيف إذن لا تترتب كل تلك النتائج التي ذكرناها على عقيدة القضاء والقدر التي فهموها ؟؟

إن من أغرب ما جاء في هذه المسألة ما ذكره أحد العلماء في كتاب له مشهور مطبوع — وقد طويت اسمه عن هذا المقام — قال في ذلك الكتاب :

« فصل . من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقص أو طلب صحة أو فرار من سقم ، وعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وعلم أنه أعلم بمصلحته منه وأقدر على جلبها وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم به منه لنفسه وأبر به منه لنفسه ، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة : فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه ، وسلم الأمر كله إليه وانطرح بين يديه انطراح عبد ضعيف مملوك بين يدي ملك عزيز قاهر له التصرف بعبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ... فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والحسرات ، وحمل مصالحه وحوائجه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها ، فتولاها دونه ، وأراه لطفه وبره ورحمته فيها من غير تعب من العبد ولا نصب

ولا اهتمام منه ، لأنه صرف اهتمامه إليه وجعله وحده همه ، فصرف اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفراغ قلبه ... فما أطيب عيشه وأعظم سروره .

« وإن أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه خلاه وما اختار وولاه ما تولى ، فحضره الهم والغم والحزن والخوف والتعب وكسوف البال وسوء الحال ... فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وقرة عينه ، فهو يكدح فى الدنيا كدح الوحوش ولا يظفر منها بأمل ... والله قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً ، فإن قام بأمره قام الله له بما ضمنه له من الرزق والنصر وقضاء الحوائج ... فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه والكفاية لمن كان هو همه ، وقضاء الحوائج لمن صدقه ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه فى فضله وجوده ...

« ... فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره لا بضمانه . فإنه الوفى الصادق . ومن أوفى بعهده من الله . فمن علامات السعادة صرف الاهتمام إلى أمر الله دون ضمانه ، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وخشيته والاهتمام بضمانه .. » انتهى كلامه .

وهذا كلام صريح فى ترك العمل استسلاما للقضاء والقدر ... وقد قدمنا أن ابن عطاء الله الاسكندرى ألف كتاب (التنوير فى إسقاط التدبير) وأنه موضوع للدعوة إلى ترك العمل وللاستسلام العام وللسبات الذى لا إفاقة منه — إما توكلا وإما انتظاراً لما تفعله الأقضية والمقادير ، وإما كفراناً بالأسباب .

***

كيف يجب أن يفهم القضاء والقدر ؟ إن كل ما ذكر هنا باطل فكيف إذن يجب أن يفهما — والإيمان بهما ركن من أركان الإيمان — وقد جاء ذكرهما فى الكتاب والسنة فى مواضع كثيرة جداً .

أما القدر فهو فى مادته مأخوذ من التقدير ، أى جعل الشىء ذا مقادير ، أى ذا حدود . يقال : هذا الشىء قدر هذا ، أى محدود بحدوده كما قال : « فسالت أودية بقدرها » وقال : « قد جعل الله لكل شىء قدراً » وقال : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » وقال : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقال : « والله يقدر الليل والنهار » وقال : « وكل شىء عنده بمقدار » وقال : « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » وقال : « والقمر قدرناه منازل » . ويقال : قدرت الثوب أى جعلته على

مقاس الجسم ، أى مثله ، أى محدوداً بحدوده . ويقال : قدر كذا كما قال : « إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر » ويراد التفكير والتروى فى الأمر ، وهو راجع أيضاً إلى جعل الحدود للشىء ، ولكنها قد تكون حدوداً مادية ، وقد تكون معنوية - أى قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديدها فكرياً بحيث تجىء وفاق الأمر المادى . وقد يكون المراد تصور الشىء بمقاييسه المادية وجعله مقدوراً ذا مثل وغايات معلومة . وقال : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وقال : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقال جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

أى كانت الخلافة له كفواً وكان هو لها كفواً أيضاً ، أى إن الأوصاف الموجودة فيه هى الأوصاف التى تشترط فى الخليفة وتوجد فى الخلافة الحقة ، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخلافة فهو خليق بها وهى به خليقة ، كما قال الآخر فى هذا المعنى :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وكذلك مجىء موسى ربه أى على مثل ووفاق فى المعانى والصفات . وفى هذا المعنى قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وليس المراد أن الخلافة جاءت الممدوح بمجرد القدر أى بمجرد المشيئة والقدرة من غير استحقاق ولا أوصاف خاصة ، فإنه حينئذ يكون أقرب إلى الذم منه إلى المدح ، ولكن المقام هنا مقام مدح .

وقال شاعر آخر :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أى هيء فى ذهنك موضعاً محدوداً معلوماً مثل المواضع التى تليق بالأقدام وتناسبها ، أو مثل رجلك سواء .

وقال الآخر :

تقفون والفلك المدبر سائر وتقدرون فتضحك الأقدار

أى تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدوداً وأزماناً ، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة ، وتقلب عليكم الأمر ، لأن الأقدار هى نظام الوجود وهى سر الحياة ، وأنتم لا تقدرون أن تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم .

فالقدر بجملته وجملة استعمالاته يراد به التقدير ، أى جعل الشىء ذا مقادير معلومة أى يراد به جعل الشىء منظماً فى كمه وكيفه ... فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته قد أوجد هذا الوجود : السماويات منه والأرضيات مقدراً بمقادير محكمة هى أدق فى ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيميائى قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيميائيين ، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التى يبدع فى وضعها أبرع عقل . فما من شىء فى هذا الوجود — سواء أكان معنوياً أدبياً أم مادياً — إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه . وهذا الضبط فى التقدير جاء فى الأشياء بالنظر إليها مستقلة وبالنظر إليها متصلة بغيرها — أى إن ضبطها أجرى عليها على اعتبارها وحدة مستقلة ، وعلى اعتبارها جزءاً من العالم . فضبطت هى فى نفسها ، وضبطت مع سواها ، أى إنها مضبوطة مستقلة ، ومضبوطة مشتركة مع غيرها . ولهذا جاء هذا العالم منظماً صالحاً للانتفاع وللحياة وللاستقرار فيه وعليه ... ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحاً لذلك .

وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشىء الكثير ، وكل شىء من هـذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسباً ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التى أخذها غيره . ومن هنـا حصل الاختلاف والتباين المقصود المفيد . وهذه النسب والمقادير التى أخذها أو التى أعطيها روعى فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذى أريد منها . ثم هـذا الشىء فى نفسه قد روعى فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون اجتماعه مع غيره ممكناً ومفيداً . ولنجعل ثمرة البرتقال مثلا . فنقول: لهذه الثمرة ناحيتان : ناحية الكيف وناحية الكم . أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعييناً متقناً . وبهذا كانت برتقالا ، وكانت شهية لذيذة مستساغة وبهذا كانت أيضاً نافعـة مغذية . ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التى جمعت . فالقدر هنا هو الذى جعلها بهذا الكيف المحكم .

وأما الكم فإنها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من التعيين ، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً ، لكانت غير متناسبة مع شجرتها التى تحملها ولا مقدرة بطاقة عيدانها التى تمسكها ، ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها ، فتهوى بها حينئذ إلى الأرض . ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت باسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب .

أما النخلة فإنها لما أن كانت قوية فإن ثمرها جاء ثقيلا فكان التناسب صحيحاً والتقدير مضبوطاً . وأما البطيخ فإنه لما خلق متمدداً ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله . وهكذا يقال فى كل شىء يقع تحت بصرنا وعلمنا .

وقد روعى هذا التقدير البارع فى سائر المواليد وسائر أنواعها ؛ فالمولود يجىء فى كمه مقدراً بالأعضاء والأوعية التى تحمله ، ومقدراً بقدرتها على الحمل . فإن كانت الأوعية والأعضاء واسعة قوية كان المولود مناسباً لذلك ، وإن كانت ضعيفة ضيقة جاء المولود على قدرها . إنا كل شىء خلقناه بقدر .. ولكن الآية التى هى نص فى هذا قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار » . وقد اضطرب المفسرون كعادتهم فى تفسير الآية ، وقالوا وكتبوا كثيراً ، ولكنهم لم يأتوا بشىء . والتفسير الصحيح هو أن الأرحام تزيد وتنقص وتكبر وتصغر على قدر ما هيىء لها أن تحمل ، وما تحمله وتصنعه يزيد أيضاً وينقص ويكبر ويصغر مقدراً بقدرها . فتغيض وتزداد هنا يراد بهما القدر، ولهذا ختمت الآية بقوله : « وكل شىء عنده بمقدار» .

وهذا الكوكب الذى نعيش فيه قد حكمه هذا القدر من ناحية الكم وناحية الكيف وناحية اتصاله بالمخلوقات الأخرى ؛ فقد قدر من الناحية الأولى بقدر معين ، ومن الناحية الثانية — أى ناحية الكيف — قد أجرى فيه هذا القدر أحسن إجراء فجعل قسمين براً وبحراً ، وكل منهما بمقدار ، وجعل منه الخصب وغير الخصب ، وجعل فيه الجبال والسهول والمرتفعات والمنخفضات والجوانب الصلبة القاسية والأخرى اللينة المهيلة والأودية والآكام ، وأوجد فيه جميع المعادن الجامدة والسائلة التى يحتاج إليها الإنسان فى صناعاته وفى كل شئونه ، وفرقت هذه المعادن تفريقاً عادلا شاملا ، وضمن ضروب العناصر اللازمة لإنماء النباتات وتغذيتها ، ثم طبعت هذه العناصر الأساسية لكل مخلوق وموجود بطبيعة بديعة تجعلها تنتقل وتتطور وتوجد ضروب الصور والألوان ، ولكنها لا تتلاشى من أجل أن تبقى أبداً قائمة بحاجة الإنسان كلها ، وأودع فيه جميع الجذور والبذور لتخرج كل هذه الأنواع من الحبوب والأشجار والفواكه التى لا يقوم بها التعداد ، وشحن بالكثير من فصائل الحيوان والطيور وسائر الكائنات الحية ، ثم قدرت فيه القوى المتجددة المتوالدة ثم قدرت هذه الموجودات جميعاً وقدر كل شىء فيها بمقادير هى الإبداع والإحكام ، ثم

فرض على هذا كله ناموس صارم يكفل له البقاء والاستمرار — اضطراراً واختياراً — ويكفل له التعاون فيما بين آحاده والتكافل والانسجام .

وأما من ناحيــة اتصاله بالموجودات الأخرى فالأمر فى ذلك ظاهر . وقد قدر له مدار ليس من الممكن الانزلاق عنــه ولا الإفلات منه ، وقدر بمقادير دقيقة من حيث الأبعاد والمسافات ، وجعلت هذه الأبعاد والمسافات صالحة لبقائها — أى بقاء الأرض — وثباتها فى مدارها ومكانها ، ومناسبة لإيجاد المناخات المختلفة فيها ، وإيجاد الفصول المختلفة الضرورية لقيام كل شىء بوظيفته ، ولإيجاد سائر المناطق الحارة والباردة والمعتدلة . وكل هــذا ضرورى لأخذه من الشمس وغيرها ما يحتاجه من النور والحرارة والقوة ... ولو أنه لم تقدر له هــذه الأبعاد تقديراً قائماً على الحكمة ومراعاة الفائدة لما كان صالحاً لوجود الحيــاة فيه ؛ فلو أنه خرج عن مداره مائلا إلى الشمس لكانت العاقبة الدمار ، ولو أنه أفلت من قبضة الشمس ومن جذبها لكانت العاقبة أيضاً الهلاك . ولكنه القدر البالغ قدر كل شىء فأحكم تقديره ! وقد أشار الكتاب إلى هذه المعانى فى آيات تحمل الروعة والإعجاز فقال : « قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم » .. فقوله « وقدر فيها أقواتها » وقوله « ذلك تقدير العزيز العليم » يراد به القدر الذى ضل فيــه الناس وصيروه عامل ركود وانحطاط ، مع أنه هو القوة والوثوب والنشــاط . والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق . وختام الآيات بقوله « العزيز العليم » هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشــياء فى مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة ، وإعطاء كل شىء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده . فإن العزيز — وهو القوى الغالب — والعليم ، هو الذى يفعل ذلك ويقدر عليه ، لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزاً وإما أن يكون جهلا ، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لأنه العزيز العليم ...... ولو كان التقدير هو ما يفهمــه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال فى اختتام الآية « ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير » — تعالى الله عن ذلك . وقوله « وبارك فيها » إشارة إلى سر القدر ولبابه وغايته . وقوله « ائتيا طوعاً أو كرهاً » إشارة إلى فائدته

وإلى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل . وقوله « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » إشارة إلى قانون الجاذبية العام فإنه هو الذى يحفظ هذه المخلوقات من الهوىّ والتصادم . وهذا هو الحفظ والتزيين .. والرواسى هى الجبال — يعنى أنها ثابتة فى أماكنها لاتتمايل ولا تتطاير مع دوران الأرض ودورانها هى معهـا ، وكل هذا راجع إلى قانون الجاذبية والثقل . وأغلب الناس ممن ينظرون فى القرآن وفى تفسيره يقولون إن « رواسى » هنا معناها مرسية أى مثبتة للأرض لا ثابتة هى فى نفسها ! ويظنون أن الجبال هى التى تمسك الأرض وتمنعها من الميدان . وهذا خطأ فى اللغة والعلم والدين : أما اللغة فإن رواسى اسم من رسا ، لا من أرسى ورسا لازم . ولو كان المعنى ما ظنوا لقال « مرسيات » أو نحو ذلك وأما العلم فإنه لا يقرر أن الجبال هى التى تمسك الأرض ، وإنما يقرر أن الجبال والأرض وكل شىء ممسك بنظام الجاذبية ... وأما الدين فإنه يقول : « والجبال أرساها » فجعلها مرساة لا مرسـية . ويقول « والجبـال أوتاداً » والأوتاد هى المثبتة الثابتة فى نفسها . وأما كونها تمسك الأطناب التى تربط بها فهذا ناشىء من ثبوتها هى فى ذاتها .

وقوله « وهى دخان » صريح فى إثبات نظرية تطور المادة . فإن قوله : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » يدل على أن مادتها كانت موجودة قبل وجودها بهذه الهيئـة ، وأنها كانت غازية أو سديمية أو نحو ذلك . بل القرآن قد أشار إلى تطور الإنسان بقوله : « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » .

وقوله : « فقضاهن سبع سماوات » القضاء هنـا هو القضاء الذى يقرن مع القدر كما سيأتى . فجمع فى هذه الآيات بين القضاء والقدر لأنهما شبه متلازمين .

وكما ضبطت الأرض بالمقادير فقد ضبط كل شىء أيضـاً بهذه المقادير والنسب . ويكفينا للإيمان بهذه الأقدار وبهذا الضبط أن نلقى نظرة فاحصة على هذه الجموع الهائلة من الكواكب المتلألئة فوق رءوسنا ، المطلة علينا بإشعاعاتها القوية والضعيفة ، وأن نسأل أنفسنا : لماذا لا تتصادم هذه الجموع ، ولماذا لا تتباعد وتتفرق وتصـاب بالفوضى والاضطراب ؟ إننـا إذا فرضنا ميداناً من أكبر الميادين غاصاً بالسيارات وبالقطارات وبسائر المتحركات الجائية الذاهبـة ، أو فرضنا سماء مائجة بالطيارات مختلفة الأحجام ، متفاوتة فى سرعة الطيران وفى بطئه ، متوازية ومتراكة ومتراكبة ، ثم فرضنا كلا من هذه السيارات والطيارات لازماً نظاماً معيناً ، ومكاناً معيناً ، وطريقاً معيناً ، بحيث لا تتصادم

ولا تتباعد ولا يمسها شيء من الفوضى واختلال النظام، مع فرضها خالية من الإنسان الذى يوجهها ويسيرها ويحفظها، أخذنا العجب، بل لما كدنا نصدق ذلك ... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به، مضبوطاً سيرها ومرورها وتقدمها وتأخرها بإرشاداته وتعليماته فإننا حينئذ نعجب من حسن نظامه، ونعلم أن ذلك راجع إلى دقة عظيمة فى التقدير وفى إلزام كل مكانه بحساب تام ويقظة مستديمة ... أما هذه الحشود الكوكبية الدائرة السائرة فإننا نعلم أن النظام الذى يحكمها والأقدار التى قدرت لأبعادها وللمسافات التى تربط بعضها ببعض، نظام وأقدار لابد من التسليم بحكمتها وبراعتها.

ماذا يحدث لو تقاربت هى أو تقاربت مداراتها؟ وماذا يكون لو تباعدت هى أو تباعدت مداراتها؟ إن ذلك قد يخفى على غير العلماء، أما العلماء فإنهم يعلمون أنه هو الفناء لا شيء غيره.

إننا إذا دفعنا شيئاً ما إلى جهة العلو فإنه لا يلبث أن يرتد إلينا نازلا هابطا لا يقف حتى يقفه شيء. ولكن لماذا لا تهوى هذه الأرض إلى السماء أو إلى جرم آخر؟ أو لماذا لا تهوى الأجرام الأخرى إلى الأرض كما يهوى الحجر الذى يدفع إلى السماء؟ إنه بلا شك لولا التقدير الذى ذكرناه لكان لا بد من الهوى والتصادم والتقاذف ثم لابد من الهلاك.. إذن فالأقدار هى التى أمسكت كل شيء وألزمته طريقه ومكانه، وإذن فالأقدار هى النظام وإذن فالإيمان بها هو الإيمان بالله والكفر بها هو الكفر الذى لا يغفر.

إن العالم يشبه إلى حد بعيد صناعة كبيرة فيها ملايين الآلات والعدد الدقيقة، وكل هذه العدد والآلات تسير وتدور وتتحرك بدؤوب لا ينقضى لغاية مقصودة ولإيجاد شيء متقن عظيم، بدون أن تقف هذه العدد والآلات، وبدون أن تتصادم أو تتعارض أو يصيبها ما يحدث الخلل .. إن هذه الصناعة لابد أن يكون كل جزء فيها وكل آلة وعدة مقدرة بتقدير حكيم دقيق من ناحية حجمها وناحية موضعها وناحية كيفها. ومن كفر بهذا التقدير فى هذه الصناعة الضخمة فقد كفر بعقله. والإيمان بهذا التقدير هو الإيمان بالصناعة المذكورة، والإيمان بها هو الإيمان بصانعها. وكذلك هذا العالم إنما نظمه ونظم وجوده وبقاءه وكل مافيه الأقدار المودعة فى أجزائه الصغيرة والكبيرة. ولا يمكن الإيمان بالله مع الكفر بهذا، كما لا يمكن الكفر بالله مع الإيمان بهذه الأقدار إلا أن ينأى المرء عن عقله بعيداً. ولكن الكفر بهذه الأقدار هو كفر بالإنسانية العاقلة المفكرة. فلا يكفر إذن بالله إلا من كفر بالإنسانية وبمزاياها العقلية والمنطقية.

ويجب أن يعلم أن الأقدار كما نظمت الماديات فقد نظمت المعنويات ؛ فمن الإيمان بالقدر الإيمان بأن لكل عمل جزاء على قدره، لا جزاف ولا ظلم . وما أجمل قوله « جزاء من ربك عطاء حساباً » فالجزاء بالحساب ، والحساب هو القدر . وهذا مثل قوله « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ، وفى هذا قوله أيضاً : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » غير أنه يلزم أن نفهم كلمات أعطى واتقى والحسنى وبخل واستغنى واليسرى بأوسع مما فهمه المتحكمون فى كتاب الله . فإننا حينئذ نهبط على كنوز من المعانى كانت حراماً على من ضاقوا بأفهامهم أو ضاقت هى بهم ... هذا هو معنى القدر الذى هلك به أغلب الناس .

وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه ؛ فمما جاء فى ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد عليها . وقد استشار عمر الناس فى الرجوع ، فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضى، فاختار بفطنته الثاقبة وبصيرته النفاذة — الرجوع فقيل له أفراراً من قدر الله ؟ فقال — واعجب بما قال — نفر من قدر الله إلى قدر الله ! ثم قال للمعترض : أرأيت لو هبطت وادياً فيه مكان مخصب ومكان مجدب ، فإن رعيت المخصب رعيته بقدر الله ، وإن رعيت المجدب رعيته بقدر الله ... ثم حدث بنهى الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك . وهذا صريح فى أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون ، أما قوله نفر من قدر الله إلى قدر الله فإنه يريد أن الله بسننه قد جعل للأمراض وللإصابة بها أسباباً مقدرة — ومقدرة هنا بمعنى منظمة — فالقرب منها والاتصال بالمصابين بها يوجب الإصابة إذا كان فى الإنسان استعداد طبيعى لها وليست لديه مناعة ، والبعد عنها يقى ذلك ويجىء بالسلامة إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى للمرض . فمن رجع عن دخول البلد المصاب فقد فر من قدر الله الذى هو الإصابة بالمرض ومن تقديره بأن يكون المرض عدواً للانسان وأن يكون مصيباً له إذا قارفه — أى فقد فر من العطب ومن وسائله . وهذا الفرار مطلوب عقلا وشرعاً وغريزة — إلى قدر الله — أى إلى السلامة حيث لا أمراض ولا أسباب أمراض ، وهذا يسلم إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى غير التى فر منها ، كما أن الذى يقدم على رعى الأرض المخصبة يقدم على الشبع والخير ، والذى يقدم على المجدبة يقدم على المسغبة والهلاك لأنه قد وضع نظام لهذا الوجود بأن يكون جانب منه مخصباً وجانب آخر مجدبا . وقدر الله

الذى كان فى الشام والذى أبى عمر وصحبه القدوم عليه بل رأوا الهرب منه ، هو المرض لأن التقديرات والعوامل الكونية التى تحكم العالم قضت بأن يصاب الشام فى وقت معين بالطاعون ، وهذا الطاعون من قدر الله ، لأن السنن التى جبل عليها الوجود — مقدرة تقديراً محكماً — يلزمها حدوث هذا الوباء لزوماً طبيعياً فى الحين المعلوم بلا تخلف فى الموعد المهيأ ، إن لم يوجد ما يعارض ذلك من العوامل الأخرى الطبيعية التى خلقها البارىء لتحدث معلولاتها . وحدوث الأمراض والأوبئة هو كسائر حوادث هذا الوجود له أسباب وعوامل ، كما أن له موانع ومعارضات ، فإذا وجدت الأسباب والعوامل وارتفعت الموانع والمعارضات حدثت الأمراض . أما إذا لم تتهيأ هذه الأسباب ، أو تهيأت ولكن عارضتها الموانع ، فإنها لا يمكن أن تحدث، كما أنك إذا وضعت البذر الصالح فى التربة الصالحة وسقيته نبت ونما إن لم يعارض نباته ونموه معارض . وهكذا يقال فى كل شىء من الحوادث المستمرة ومن الحوادث اليومية أو السنوية أو الدهرية أو الشهرية .

أما القدر الذى اختاروا الفرار إليه فهو النجاة ، لأن العوامل الكونية قضت إذ ذاك بأن تكون البلاد التى اختاروا الفرار إليها سليمة من الطاعون ، وقضت هذه العوامل بأن يسلم من لم يتعرض له ويدخل عليه مكانه . وليس القدر الذى فروا منه ولا الذى فروا إليه هو القدر الذى يفهمه الجماهير ، وإلا فإن هذا القدر لا يمكن الفرار منه ، ولأجل هذا أوجد شارحو الأحاديث فى قول عمر هذا إشكالا قائلين : إن القدر لا يمكن الفرار منه ، وما يمكن الفرار منه ليس قدراً لا حقيقة ولا مجازاً ... ثم راحوا يضربون فى بيد من الأوهام ، ثم تاهوا فى تلك البيد إلى اليوم . وكل هذا راجع إلى الوهم فى المراد الشرعى منه ... ومن ثم أيضاً حاولوا أن يوجدوا رواية يزعمون فيها أن عمر ندم على قوله وعلى رجوعه ؛ فذكر ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى قال : أخرج الطحاوى بإسناد صحيح أن عمر قال : اللهم إن الناس نحلونى ثلاثا أنا أبرأ إليك منهن : زعموا أنى فررت من الطاعون وأنا أبرأ إليك من ذلك . وساق بقية الثلاثة .

وهذا يجب ألا يكون صحيحاً إذ كيف يبرأ عمر من شىء أمر به الرسول ومن شىء فعله ووافقه الصحابة عليه واحتج له ذلك الاحتجاج المسكت .

وفى الحديث أنهم سألوا الرسول وقالوا يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال (هى من قدر الله) . وقدر الله فى الحديث هو ما شرحنا

لأنه جعل الأدوية من القدر أى جعلها مقدرة بالأمراض وجعلها كفواً لها ، بمعنى أنها تشفى منها وتقاومها إذا وضعت وضعاً صحيحاً كما قال فى الحديث الآخر (ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء عرفه من عرفه وجهله من جهله — وفى رواية — فإذا وافق الدواء لداء شفى بإذن الله) . ولو كان القدر فى الحديث هو الذى يعرفه الجماهير لما جعلت الأدوية نفسها قدراً لأنها على هذا ليست قدراً بالإجماع . وفى حديث مروى فى الصحاح : (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) . وقدر هنا لا يكون صحيحاً إلا إذا ذهب به ما ذهبنا إليه .

وقد احتمل طوفان الأوهام فى طريقه الطوائف كلها حتى أولئك الذين ليس لهم اتصال خاص بالقضايا الدينية ولا بعلوم الكلام ؛ فهذا البحترى الشاعر يقول :

ألا ليت المقادر لم تقدر ولم تكن الأحاظى والجدود
فأنظر أينا يضحى ويمسى له هذى المواكب والعبيد

ويقصد بقوله هذا أن الأقدار هى التى وقفت له بالمرصاد ومنعته أن يملك تلك المواكب وأولئك العبيد لأنها تريد أن تختص بها قوما هم عاجزون بطبعهم وأعمالهم ، وهم دونه فى كل شىء — ولو أن هذه الأقدار والحظوظ لم تكن هى المسيطرة على هذا العالم سيطرة قائمة على القوة وحدها — ولو أنها تركت الناس أحراراً موكولين إلى نشاطهم الذهنى والبدنى ، فلم تعط هذا جزافا عطاء حتما ، ولم تمنع ذاك أيضاً جزافا وظلماً ، لأضحت هذه الأموال وذلك السلطان وأولئك الحشم والخدم لى دون سواى لأنى أحق بها ... وهو يذهب فى هذا إلى أن الأقدار والحظوظ عبارة عن قوى خفية شريرة مصبوبة على هذا الوجود تحكمه حكماً جبرياً عابثاً لا يعرف العدل ولا الرحمة ولا الحق ، وتتصرف فيه تصرفا ليس له مثيل فى طغيانه حتى ولا بين الناس الظالمين الباغين ... ومن غير المستطاع أن يثمر هذا الاعتقاد لأهله وثوباً أو نهضة ، ولن يكون ثمره سوى الكسل والجمود العقلى والبدنى .

وقد أخطأ ابن هانىء الأندلسى خطأ مركباً حينما قال فى أحد آلهته من البشر :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار واحكم فأنت الواحد القهار

وذلك لأنه ذهب كما ذهب الجميع إلى أن الأقدار هى القوى الخفية الخبيثة الظالمة التى أرسلت على هذا الإنسان تسوسه شر سياسة ، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقى من أحد

غوثاً وتذوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الاستمتاع بمواهبه وأعماله — وإلى أن هناك حروباً مستعرة أبداً بين المخلوقين وبين أقدارهم ، تغلبهم أكثر الأوقات ويغلبونها أقلها ، وإلى أن هذا الممدوح قد غلب أقداره غلباً نهائياً ، فأصبح الذى يكون هو الذى يشاؤه ، وأصبح الذى لا يكون هو الذى تشاؤه الأقدار ، فأصبح هو الواحد القهار ولم يدر هذا الشاعر أن الإنسان لا يحارب أقداره وإنما بها يحارب ، وأنه لا يمكن أن يغلبها إلا إذا أمكن أن يخرج من وجوده أو يسبق وجوده أو أن يكون أكبر من قدره وحقيقته ... وهذا لا يمكن أن يكون .

ولسنا نحاول هنا إحصاء الأخطاء فإنها لا تحصى ، ولكننا نحاول أن ندل دلالات ترشد إلى غيرها ثم تضع الحدود والقيود .

***

أما القضاء فإنه لا يخرج فى جملة استعمالاته عن أن يكون بمعنى الفراغ من الشىء . يقال قضيت الشىء فانقضى أى فرغت منه . والانقضاء هو الانتهاء . قال الله « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا » . وقال : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » وقال : « فلما قضى موسى الأجل » وقال : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك » وقال : « فلما قضى زيد منها وطراً » وقال : « إذا قضوا منهن وطراً » . وكلها بمعنى الفراغ وكذلك أمثال قوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » وقوله : « وقضينا إلى بنى إسرائيل » أى فرغ ربك من الأمر بألا يعبد سواه وفرغ من إنهاء ذلك إلى بنى إسرائيل . وقال الشاعر :

فلما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وقال آخر يرثى عمر :

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أكمامها لم تفتق

وفى الكلام السائر على كل لسان : (قضيت أعمالى وقضيت دينى) وهكذا ... فالقضاء يعنى به الفراغ والانتهاء . ومن النصوص فى هذه الآية السابقة وهى قوله « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات » . فقضاء السماوات معناه الفراغ من خلقهن وتسويتهن ، ولهذا جاء فى غير هذا الموضع « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات » وجاء فى سائر الآيات لفظ خلق السماوات مكان قضى وسوى . فخلق وسوى وقضى كلها بمعنى واحد ؛ كلها بمعنى

الفراغ والانتهاء... فالقضاء إذن المقرون بالقدر يراد به الفراغ والانتهاء . فالواجب علينا أن نؤمن بأن الله قد خلق الخلق ووضع النواميس والسنن ثم فرغ منها بحيث لا يحتاج إلى تعديل ولا مراجعة ولا تكميل أو إصلاح أو تدارك ... بل كان فراغ من يعلم كل شيء وفعل من لا يؤوده شيء ومن لا يخفى عليه شيء ... وكل الذين يقومون بتصميم الأشياء وبصنعها ثم يحتاجون إلى التعديل فيها أو النقض أو الرجوع أو الترك ، فلا بد أن يكون سبب هذا إما الخطأ أو الجهل فى وضع التصميم ورسم الخطة أو العجز عن التنفيذ أو أن يظهر فى الآخر أنه لافائدة من ذلك العمل ، أو نحو هذا من الأسباب التى مرجعها النقص فى القوى المادية أو فى القوى العلمية ... أما الكامل فى ناحيتيه وقوتيـه فإن كل خطة يضعها فلا بد أن ينفذها ، ثم لا بد أن يفرغ منها بدون مراجعة . وهذا أعظم فارق بين الكامل والناقص ... فإذا آمنا بالقضاء على هذا المعنى كان إيماننا إيماناً بالكمال المطلق لله ، وإيمـاننا بكمال الله لا نستطيع أن ننكره ، لأننا لا نستطيع أن ننكر كمال النظام الموضوع فى هذا الوجود ، لأننا لا نستطيع أن ننكرر قوتنا العقلية التى دلتنا على أن التصميم الذى وضع لهذا العالم هو التصميم الذى وضـــع القوة العقلية فى الخليقة العاقلة ...

وقد كان شقاء الإنسانية الذى ظل يتنقل معها هو أنها لم تستطع أن تصل إلى طور الكمال فى الناحيتين المادية والعلمية — الكمال الذى يجعلها تضع الخطة للشيء ، ثم تفعله ثم تفرغ منه ، ثم لا تحتاج إلى النقض أو التعديل أو التغيير ... بل ظلت أعمالها كلها فى أدوار تاريخها الطويل عبـارة عن مجموعات تجارب ناقصة مستمرة : بناء ثم هدم ، ومدح ثم ذم ، ووضع للأساس ثم انصراف عن المضىّ فى البناء والاتمام .. وهكذا دواليك ومن المظنون أن تبقى تعالج التجارب إلى أزمان قصية ، ومن المظنون أيضاً أن يبقى مذاق هذه التجارب مراً أليماً ، وأن تتجرع منها أضعاف ما تجرعت ... والإنسان اليوم يجنى أمر ثمرة زرع شجرتها ورواها حتى تساقطت عليه !

وهو يزعم الآن على ألسنة زعمائه وآلهته أن هذه الحرب هى نتيجة لتلك التجارب الضالة التى وضعت للسلم الماضيـة ... وهم اليوم يملأون مسامع الوجود ومسامع البشرية وآمالها ، أمانى ، واعدين بأن تجارب السلم المقبلة ستكون ناجحة ، وأن ما سيضعون من الخطط والتصميمات لمنع الحروب والقضاء عليها سيأتى قضاء مفروغاً منه ... ونحن نسأل الله أن يكون ما زعموه صحيحاً ، وأن يكونوا مقتنعين بما قالوا .

فالقضاء والقدر معناهما : أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير مضبوطة ، محكوماً بسنن لا تقبل التغيير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة أو نقصان ، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء — وتعالى الله عن ذلك .

ونتيجة هذا الإيمان بالقضاء والقدر على هذا النحو أن تكون صلات الإنسان بالله وبالإنسان وبنفسه وبالخليقة كلها صلات سليمة مبنية على العقل والفكر الناضج ، فإن الصلات بين الإنسان وبين ربه ، وبينه وبين الإنسان الآخر ، وبينه وبين نفسه إنما تفسد لإنكار القضاء والقدر بالمعنى الذى بينا ؛ فالإنسان إنما يتعلق بالخرافات والعقائد الباطلة ويشرك بالله ويعبد العاجزين ويضل فى اتجاهه العام ويذهب إلى غير مذهب ويتمسك بغير سبب ، ويريد من الوجود ومن الحياة ومن نفسه أيضاً ماليس فى الإمكان ، ويروح يشيد قصوره وآماله الذهبية على الخيال الكاذب وعلى ما هو أوهى من ذلك — إنما يفعل هذا كله ويفعل غيره لأنه لم يؤمن بالقضاء والقدر بمعناها الصحيح ... ولو أنه عقل أن لكل شىء قدراً لا يتعداه ، وسنة لا يفلت منها ، وناموساً ليس فى المستطاع الخروج من قبضته — ثم عقل أن الله قد فرغ من هذه السنن والنواميس والأقدار ، وأنه قد طويت الصحف وجفت الأقلام ، وأنه ليس من الممكن أن يحابى وأن يمالىء وأن يرشو أو يتملق أو يداهن — لو أنه عقل هذا كله لكان اتجاهه فى الحياة وخطواته فى الطريق أقرب إلى الهدى وأبعد عن العثار والزلل .

فالأمم التى لا تؤمن بالقضاء والقدر بمعنيهما الصحيحين أمم لا يمكن أن تحسن فى حياتها سوى التخبط والفوضى والارتباك فى شؤونها الخاصة والعامة ، صغيرها وكبيرها ... ومن أجل هذا كله — ومن أجل أشياء أخرى — كان الإيمان بهما من أركان الدين ، وكان شأنهما ومقامهما من الإيمان عظيما ، لأن الدين إنما جاء منظما ولا نظام مع الكفر بالقضاء والقدر اللذين بيناهما . فالإيمان بهما إذن أولى خطوات الأمة فى مدارج الكمال ومعارج السمو العقلى والمادى ....

ولنختم هذا البحث برواية — هى وإن كانت ضعيفة الأسناد إلا أنها صحيحة المعنى مؤيدة لما قلنا . وذلك ما رواه البزار والطبرانى عن ابن عباس وأبى قتادة قالا قال رسول الله : (هلاك أمتى فى ثلاث ؛ فى القدرية والعصبية والرواية من غير ثبت) . والقدرية هنا إن كان المراد بهم المنكرين للقدر كان هذا واضحاً لما سبق من أن الدين

ينكرون القدر يرون أن الوجود ليس فيه نظام وليس قائماً على الأسباب والمسببات . ومن كان رأيهم هذا فلن يكونوا هم منظمين لا فى تفكيرهم ولا فى أعمالهم ، ولن تكون أفعالهم قائمة على أسبابها الصحيحة . وتبعاً لهذه الفوضى العقلية والعملية لن يكونوا شيئاً مذكوراً فى الحياة .. وأما إن كان المراد بالقدرية هم الذين يؤمنون بالقدر إيمان من ذكرنا فواضح أيضاً . فالقدرية على الاحتمالين لن ينجحوا فى الحياة ولن يبلغوا منها شأواً عظيما ، ولن يصيروا أهلا للقيادة والسيادة . وقد يكون المراد بالقدرية القدر ، جاء على وزن النسبة .

التوكل — أخطاء الناس فيه

كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى أن يدخل النظام الجديد الغربى على الجيوش العثمانية ،فهاج الشعب وهاج الانكشارية ، يؤيدهم شيخ الإسلام والصدر الأعظم قائلين : إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار فأحدثوا شغباً عظيما فى العاصمة وغيرها ، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون النظام الجديد ، ويريدون إفساد طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة . ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عظماء الدولة الذين يطالبون بقتلهم . وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الإسلام عطاء الله أفندى . فجدوا فى ذلك حتى قتلوهم ، ثم خرجوا فى الطرقات ينادون : أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم ، نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى يبدد فى دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة ، وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله ، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين ، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك ، والمملكة أضحت مضطربة ، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شىء شرف الإيمان وسلامة الإسلام ... ثم أصدروا استفتاء فيه : السلطان الذى يخالف القرآن هل يترك على تخت السلطنة ! وكانت الفتوى : كلا . ثم صاحوا : قد صار معلوما عندكم أنه يتحتم عزل السلطان ، فما قولكم الآن ! هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام ! فصاحت العساكر : كلا كلا . لا نقبله سلطاناً فليعزل ... وفى نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذى أريد إدخاله على جيوش الدولة .

[مصادر التاريخ الإسلامية]

***

هذه حادثة واحدة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التى سقط فيها الناس من جراء فهمهم التوكل بحيث صار أحد الأمراض الاجتماعية النفسية الاعتقادية التى تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة .

وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء — كعادتهم — فى تحديد معنى التوكل اختلافاً كبيراً، وكتبوا فيه كلاما كثيراً، وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الاصطلاحى لا يمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة أو كلمات :

فعندهم أن من اهتم لشىء فى هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل إلى شىء آخر، أو أن شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها، أو أن أحداً كائناً ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره، أو أن أمراً متوقف وجوده على أمر آخر، أو أن أمراً معلل بأمر، فقد خرج من جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه ... وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله، مسلماً نفسه للهدوء والراحة وللكسل الذهنى والجسدى، معتقداً أن الله سيفعل له كل شىء بأسباب يوجدها هو أو بلا أسباب ... ومن رأيهم أنهم كلما غالوا فى هذا الاستسلام وهـذا التخلى عن العمل والتفكير فى المصير والعاقبة لله التفت الله إليهم وسارع إلى قضاء حاجهم وإعطائهم مايشاءون وأن إيمان المرء وإسلامه مقيسان مقدوران بهذا الاستسلام والتخلى ؛ فكلما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسداداً ورشاداً — وعلى حسب اهتمامهم والتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم — وعلى قدر تخلى الله تكون المصيبة والخسران .. ومن مذهبهم أنه يجب أن يتفرد الله لهم بتدبير الرزق والحياة وكل ما يحتاجون إليه، كما انفرد بإيجادهم — وأن من حاول أن يوجد رزقه بنفسه أو أن يشارك الله فى إيجاده فهو كمن حاول أن يوجد حياته أو أن يشارك الله فى إيجادها، أو كمن زعم أنه موجدها أو شريك موجدها .

وقد ذهبوا إلى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس وهى أن الموكل يذهب إلى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير فى تدبير ما وكل إليه، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الاهتمام والتفكير فى شأنه، معتمداً على وكيله وعلى إخلاصه وعمله واجتهاده كان ذلك التنحى أدعى إلى رضا الوكيل وإلى إخلاصه ... ونحن هنا نثبت بعض ما ذكروا من عبارات .

فرأى بعضهم أن المتوكل لايكون متوكلا حتى يفقد التمييز بين الأشياء ! قال أحدهم

لأبى يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت ؟ فقال إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك وشمالك ما تحرك لذلك سرك ! فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ! ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل .

ورأى بعضهم أن التوكل ترك الاضطراب جملة ! سئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب . وسئل أبو عبد الله القرشى فقال هو ترك كل سبب يوصل إلى سبب ! وهذا كثير عنهم جداً .

وقال بعضهم إن أعلى درجات التوكل هو الموت جوعا — ذكره الغزالى فى الإحياء ! قال : ان الموت جوعا قربى إلى الله إذا كان الميت قد مات لأنه توكل على الله فترك العمل فلم يرزقه القوت وإنما رزقه الموت !! قال وموت المتوكل جوعا يجب أن يعد رزقا وغنيمة فى الآخرة .

ومن رأى فريق أن التوكل ألا يدخر المتوكل شيئاً ، فإذا أصاب مالا أو شيئاً فرقه فى الحال — قاله أبو يعقوب الزيات وعبد الله ابن الجلاء والغزالى فى الإحياء وآخرون كثيرون .

وقال أبو سليمان الدارانى لو توكلنا على الله ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص ! وقال ذو النون سافرت سنين وما صح لى التوكل إلا وقتاً واحداً : ركبت البحر فكسر المركب فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لى نفسى : إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة ! فخليت الخشبة فطفوت على الماء فوقعت على الساحل — حكى ذلك عنهما ابن الجوزى فى تلبيس إبليس .

ومن قول طائفة أخرى أن التوكل هو ترك التداوى ! وهذا مذهب خلائق . وروى ابن الجوزى فى تلبيس ابليس عن سفيان بن عيينة أن تفسير التوكل أن يرضى بما يُفعل به . وقال ابن الأثير فى شرح غريب الحديث : معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد . وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول إليه ... وفى قواميس اللغة : توكل على الله واتكل استسلم ... وكلامهم فى هذا الباب كثير جداً .

***

تطايرت هذه الآراء والأقوال فى الكتب التى خلفها هؤلاء تطايراً لم يستطع وقفه

ولا تحديد مداه ، ثم فاضت من الكتب على الألسنة والعقول والأوهام وزخرت بها البيئات والمجتمعات الإسلامية ، وشدا بها كل لسان وأشربها كل قلب ، فأفسدت روح العمل وحبه والاعتداد بالنفس والتعويل عليها ، ثم انجلت فى النهاية عن أمم اتكالية عاجزة لا تستطيع أن تستقل بأمر من أمورها الصغيرة أو الكبيرة ، فهزمت هزائم ساحقة فى كل الميادين ، وصاروا أتباعا فى كل شىء ، محتاجين فى أقل شئونهم إلى من يكلون إليه القيام به وإلى من يتوكلون عليه ، مستسلمين لما يقوله ذلك الغير ولما يفعله ، معترفين له بالعجز والضعف .

إن الشعوب التى تلقن منذ وجودها أنه لا يصح لها أن تعتمد فيما تحتاج إليه على قواها وسواعدها ، وتلقن أن هناك قوة عليا مستعدة أبداً للقيام بكل ما يراد منها استقلالا ، فما عليها إلا الضعف والاستسلام والانتظار — وتلقن أنها عاجزة عن أن تعمل أو أن تستقل بالعمل لنفسها — وتلقن وجوب الاتكال بالمعنى السخيف الذى فهموه — : إن الشعوب التى يقضى عليها بأن تلقن هذه الخرافات والمحالات لهى شعوب غير جديرة بالحياة ولا بالاستقلال فى جانب واحد من جوانبها ، بل إن هذه الشعوب تخرج مطبوعة بروح الاتكال على الآخرين والاتباع لهم والانتظار منهم .. ولكن الأمم الجديرة بالكرامة وبالحياة هى الأمم التى تلقن منذ تستطيع الفهم أنها إنما وجدت فى الأرض مجردة من كل ما يملك ، مسلحة بكل أسلحة الجهاد والنضال ، لتوجد حياتها هى بنفسها ولتعمل كل ما يلزم لبقائها وسلامتها وسعادتها — وتلقن أن الإنسانية بمجموعها هى التى أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها ، دون أن يعينها معين ويشاركها مشارك — وأن هذه الإنسانية لو أنها انتحت هذا المنحى فى الاتكال وراحت تلتمس من تتكل عليه ومن تكل إلى قوته القيام بما تريد وبما لا تستغنى عنه لظلت حتى اليوم — أى من يوم وجودها — منتظرة مرتقبة ما لا سبيل إلى حصوله ، ولبقيت كاحدى هذه الفصائل الحيوانية ، أو لانقرضت كما انقرضت فى سالف الدهور الأحياء التى عجزت عن مغالبة الحياة ومجابهة الطبيعة العاتية .

إن المعانى الإنسانية تُنمَّى وتوجه وتمرن كما تنمى وتوجه وتمرن المادة : فإذا مرن عقل الإنسان على أن يباشر شئونه بنفسه ويقوم بها هو ويخضعها لإرادته استقلالا وبلا مساعد ، نما عقله واشتد وارتاض على مغالبة الأهوال والشدائد وعلى غلبها واتجه إلى ذلك اتجاها طبيعياً ، وصار قادراً على حل ما يوكل إليه وعلى إتمامه . أما إذا لم يُمرَّن عقله

ولا فكره ولا أخلاقه على شيء من ذلك فإنه يبقى غير مستطيع لشيء غير صالح لشيء ، كما أن جسمه إذا لم يمرن على العمل لم يستطع أن يعمل ، وإذا لم ينم لم ينم بل يبقى هزيلا عليلا عاجزاً . ومن ذا يستطيع الكتابة أو السباحة أو ضرباً من ضروب الرياضة البدنية والأعمال اليدوية إذا لم يتعلم ويتمرن... إنك إذا عمدت إلى نوع من أنواع المادة النامية ووجهته غير جهته الطبيعية ، وعالجته على ذلك فإنه يتجه غير جهته ويتحول إلى غير سبيله ، ثم يأخذ ينمو على الوضع الجديد الذى وضعته فيه ، ويصبح رجوعه إلى طبيعته الأولى محتاجا إلى قوة غير ذاتية ترجعه وتضعه فيه . وهكذا تفكير الإنسانية وفهمها للحياة إذا غير وضعه وأفسد اتجاهه وصرف عن طريقه ، فإنه يقبل ذلك ويأخذ يعتاده ويرتاض عليه حتى يتكيف به ويصير له طبيعة — أى إنه يفسد فساداً يمنعه النجاح ويوجهه إلى الفشل ... فهؤلاء الذين يربون منذ الساعة الأولى ، مفهمين بأن الذى عليهم هو أن يسلموا أمورهم كلها ويسلموا التفكير فيها إلى الله ليفعلها لهم وليبقوا هم متمتعين بالكسل وبلذيذ السبات الدائم ، حالمين بأن الله مستعد لأن ينوب عنهم ويتوكل لهم ويحامي عن قضاياهم أمام محاكم النواميس الكونية الصارمة ، قوم يربون على الدمار وعلى الموت ، وعلى أن يتجردوا من كل قوة ويتخلوا من كل سلاح ، متوهمين أن من لا يغلب يقاتل عنهم ويرد عن ساحتهم كل سـنة غازية من سنن الطبيعة ... ما أرخصها من معان وأضعفها من تعاليم ! وما أرخص وأضعف من يتعلمونها .

ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ إلى حقائق علم النفس الكبرى طفلا يولد فى بيئة من البيئات ، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شيء ، وأن هذه القوة على استعداد لأن تهبه كل ما يشتهى فى كل وقت وفى كل مكان بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أن يستسلم لها ويركن إليها ويتوكل عليها ويثق بها — ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيماناً خالصاً — ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ إلى الحقائق الكبرى حالة هـذا الطفل : كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة ؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هـذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شيء ؟ ثم ليعلم أن شراً منه ذلك الطفل أو الرجل الذى يعلم هـذه التعاليم الاتكالية ويلقن كل هـذه الملقنات للاستسلام والانتظار .

مسألتان متشابهتان : إحداهما أن الإنسان وجد نفسه فى مجتمع ، ووجد أنه لا يقدر أن يظفر بحق من حقوقه فى مجتمعه هذا إلا بالرجوع إلى الوساطات والشفاعات

الواقفة على كل باب وأمام كل حاجة ، فذهب يعتقد أنه أيضاً فى طلب حقوقه وحاجاته من الله لا يمكن أن يظفر بها إلا إذا اتخذ لديه الوسطاء والشفعاء ، ذاهباً بهذه مذهب هذه — وثانيهما أن هذا الإنسان نفسه علم الاتكال وربى عليه مفروضاً فى بدء الأمر فى الله ، فصار هذا الإنسان اتكالياً من كل وجه ، مقدراً ومريداً أن يبلغ كل ما يشتهى من غير عمل ، تارة من الله ، وتارة من المجتمع الذى يعيش فيه أو من إنسان آخر مثله — ذاهباً فى هذه مذهبه فى تلك . وليس من المستبعد أن يكون مبدأ الوساطة المطلقة قائماً على مبدأ الاتكال المطلق ، أى إن الحامل للانسان على اتخاذ الوسطاء وطلبه أغراضه من طريقهم وبعونهم هو تمكن مبدأ الاتكال من نفسه ومن عقيدته وتربيته . فإن محاولة هؤلاء الضارعين إلى الوسطاء أن يدركوا كل ما يؤملون منهم هى محاولة اتكالية خالصة . ولا يمكن أن توجد إلا فى بيئة الاتكاليين المسرفين فى الاعتماد على الآخرين المسيئين للظن بأنفسهم وبقدرتها على أن تبلغهم ما يرجون . ولهذا فإنه لا يوجد أكسل ولا أعجز عن العمل وعن مصاولة الحياة من هذه المخلوقات العاكفة على أصنامها وأربابها ، سواء أكانت هذه الأرباب والأصنام أمواتا أم أحياء ، وسواء أكانت حيوانات أم جمادات . وإذا أردنا أن ننقذ أممنا وننجو بها من كل ألوان هذا الضعف وجب علينا أن ننقذها من كل هذه المحاولات والاعتقادات العقيمة . فإن عوامل الضعف والسقوط فى الأمم تتجاذب كالمادة نفسها . والعادة أن الضعف يولد ضعفاً آخر ، وأن الجهل يجر إلى جهل ، والخطأ يجذب خطأ آخر ، والمرض تكون إحدى مضاعفاته مرضاً ، وهكذا ، كما أن العكس أيضاً صحيح وأن القوة تولد قوة ، والعلم يجر إلى علم ، والصواب يجذب صواباً ، والصحة تهب صحة .

***

نعم ، التوكل جاء فى أكثر سور القرآن مكرراً ، وجاءت الأديان كلها آمرة به ، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم . وليس الخلاف فى حسنه ووجوبه ولكن فى تفسيره ومعناه . فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذى قدمنا فكانت عاقبتهم وبيلة ... أما معناه على حسب رأينا وعلى حسب الدلائل المختلفة فهو ما سنذكره :

إذا وكلت وكيلا لينوب عنك فى أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضاً مطلقاً واعتمدت عليه اعتماداً تاماً بلا شك منك ولا تردد فى عمله ، فمعنى هذا أنك معتقد بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يضع من وسائل لإنجاح الغاية التى يراد إنجاحها ، أعمال مؤدية إلى الغاية ، وأسباب موصلة إلى المسببات ، ووسائل مقربة إلى النتائج .

وكلما ازددت اعتقاداً بصحة أعماله وأسـبابه ووسائله وبتوصيلها إلى أهدافها ازددت عليه توكلا وبوكالته غبطة، وازداد هو - أى وكيلك - رضاً عنك وسروراً بإيمانك بوكالته... وأما إذا شككت فى الوسائل والأسباب والأعمال التى يؤديها، أو شككت فى إيصالها إلى المطلوب فإن توكلك عليه يضعف، وإيمانك يهن، وإنه هو حينئذ يغضب من شكك وبساء من ريبك فيه وفيما يصنعه. فلا أنت حينئذ مؤمن به وبأنه الوكيل الناجح الجدير بالاعتماد والثقة، ولا هو راض عنك مسرور باعتقادك فيه ونظرك إليه ... وهكذا لننظر إلى التوكل على الله؛ فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة فى أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هى أسباب ووسائل مؤدية إلى مسبباتها ونتائجها بلا تخلف ... فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض - وهو سبب من الأسباب - مؤد بلا ريب إلى الشفاء، ووضع البذر الصحيح السليم فى التربة السليمة الصالحة لإنبات ذلك البذر، مؤد بلا ريب إلى الإنبات، ثم إلى الإثمار إذا ما سقى وحفظ من الآفات، واختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالأنوثة القادرة كذلك مؤد إلى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية، وسلوكك فى الحياة سلوكا سليما من العثار والزلل مؤد بك إلى النجاح إلا أن يكون هنالك عقبة طبيعية. وهكذا القول فى كل ما يدعى أسباباً ووسائل. فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب التى جعلها الله كذلك، ازددت توكلا عليه وثقة به وبأعماله وتصديقاً بأخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها. وإذا شككت فى الأسباب والطرق التى جعلها الله، وجوزت ألا توصل إلى شىء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين. ولا شك أنك إذا وكلت إلى مهندس تصميم منزل لك، ووكلت إلى بناء القيام بذلك المنزل فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما، أما لو ارتبت فيهما وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت إليهما أمر منزلك ولما أمكن أن تكون متوكلا عليهما، ولو جوزت ألا يكون البيت صالحاً فى النهاية للسكن وجوزت أن يخر بعد الفراغ منه — إما لخطأ فى هندسته وتصميمه وإما لضعف فى مواد بنائه — لما عددت مؤمناً بهما ولا متوكلا عليهما ولا واكلا إليهما الأمر وكالة صحيحة ... فكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق، وجوزت أن تتخلف النتيجة وألا تكون الأسباب موصلة، لكنت من المرتابين فى الله وفى أعمـاله وفى كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسـباب وعلى مالها من قيمة ... فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هـذا الوجود وأن تعتقـد بأن

الخالق ، قد وضع له سنناً لا اضطراب فيها ، ولا محاباة ، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات .

أما غير المتوكلين حقاً فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من سنن الله ، ولا بناموس من نواميسه ، ويجوزون عليهما الاختلال والاختلاف ، زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ولاحدود ولا رسوم يجريان عليها ولايخرجان عنها ... وإذن فهذه الأقوال التى حكيناها عن جماعات الصوفية والمتزهدين ليست بأقوال المتوكلين ، وإنما هى أقوال الفوضويين الذين مس عقولهم وأفكارهم الاضطراب المستحكم ، فظنوا الله كذلك فقدحوا فيه من حيث لا يشعرون ، وخرجوا من كل أبواب التوكل وهم يحسبون أنهم المتوكلون . وقد قال عليه السلام (من استرقى أو اكتوى فقد برىء من التوكل) رواه الترمذى . وعن عمران ابن حصين قال : قال رسول الله (يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب) قبل من هم يا رسول الله ؟ قال (الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) رواه مسلم . وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية ، فكان الاعتماد عليها والرجوع إليها رجوعا إلى غير أسباب واعتماداً على غير شىء ، فكان ذلك منافياً للتوكل ، لأن التوكل كما ذكرنا هو الإيمان بالأسباب .

لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب . فإن هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدير وكالته على هذا النحو لكنت راجياً المحال والظلم ، ولو أنه أدارها كذلك لكان ملوما ظلوما ... ولكن التوكل هو الإيمان بقدرة الله وبعدله وبحكمته وبأخباره . فالإيمان بقدرته يوجب الإيمان بأن ما جعله سبباً لشىء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال ، ولن يوصل إلى ذلك الشىء شىء آخر غيره ، ويوجب الإيمان بأن ذلك الشىء الذى جعله مسبباً عنه لن يوصل إليه بدونه ؛ فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد ... والإيمان بعدله يوجب الإيمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر إلى الأشياء التى لاتتصل بذلك ، وبدون نظر إلى أديانهم ومذاهبهم . فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا . تلك هى العدالة الشاملة ... والإيمان بحكمته يوجب الإيمان بهذا أيضاً ، إذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس فى الفوضى الاعتقادية والعملية .

ولن ينجو بهم من هذه الفوضى إلا إيمانهم بالعدل المطلق وبالارتباط بين الأسباب والمسببات . وكذلك الإيمان بأخباره ، فإنه إذا أخبر أن شيئاً سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه .

ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل فى الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها : فيجعلها حيناً أسباباً لأنه راض عن الآخذ بها ، ويجعلها أحياناً أخرى غير أسباب لأنه غاضب على الآخذ بها ، ويجعلها فى يد فلان أسباباً وفى يد فلان ليست أسباباً ، ويعطى أحياناً بها ويعطى أحياناً بدونها ، وقد يمنع أحياناً أخرى بها ، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله ، ويأخذ بها إنسان آخر ، ثم لايبلغ شيئاً من آماله ، وهكذا يتصرف نقضاً وبناء فى نواميسه وخلائقه — على حسب رضاه وسخطه وحبه وكراهته وعلى حسب اختلاف الأديان والمذاهب ، وعلى حسب تغير مشيئته — نعم ، إن الاعتقاد بأن الله هكذا يصنع ينافى التوكل على كل احتمال . وإن حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم ، لأنها تفرق بينهم فى الحب والبغض ، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادىء والأشياء الأخرى — إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات ، وهى حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الإيمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة .

ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل فقال الرسول (ردوا على الرجل) فقال : (ما ذا قلت ؟) قال : قلت حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال عليه السلام (إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) . وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله (إن الله يلوم على العجز فابذل من نفسك الجهد . فإن غلبت فقل توكلت على الله) . وعن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى النبي وترك ناقته على باب المسجد فسأله الرسول عنها فقال أطلقتها وتوكلت على الله فقال عليه السلام (اعقلها وتوكل) .

فقول الرجل : حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته فى القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلا أنه يتصرف ويقضى على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم

لا على مقتضى الأسباب والنواميس التى وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لا راد له . فأرشده مرشد الإنسانية إلى خطئه ، وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيلا أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا انفكاك . فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك والأخذ به والاعتماد عليه . وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات محطما الحواجز ، خارقا النواميس ، متجاوزاً الحدود التى حدها هو .

وقوله عليه السلام (فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل) معناه : إذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك إنما غلبت بالحق وبالقوانين التى لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها . وإذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وإن كان غلباً وهزيمة لأنه عدل ، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضى وإن كان قضاؤه عليك لا لك ،لأنه عادل غير محاب ، ولأنه عالم غير جاهل ، ووجب أن تقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو إلى اللوم بعجز أو تقصير ... وهذا بمثابة قولك : نعم القاضى هذا — مشيراً إلى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه إنما قضى بالحق .

وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت فإنه يذهب فى هذا القول وهذا العمل إلى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيطة والعقل ، مؤملا أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل ، فى يد أحدهما خطام ،وفى يد الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب .فرد عليه الرسول هذا قائلا: اعقلها وتوكل ، مبيناً له أن الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجاحها ، لأنها من خلق الله ومن شرعه ، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا إلى النجاح ، ومبيناً له أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن وألا يخشى من وراء الأسباب جوراً وعدواناً ، كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شىء آخر خفى ، من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو يضيعها أو يحل عقالها كما يظن ضحايا الأرواح ، أو كأن يصنع الله بناقته بعض الأشياء التى يزعمون أنه يصنعها — خروجا على السنن والأسباب والعادات ، بقصد الامتحان أو الابتلاء ، أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كما يزعمون ... وهذا ما يشير إليه قوله (وتوكل) أى اطمئن وثق بالنتيجة إذا ما أخذت بالحيطة الكاملة .

وإذا ما فهم التوكل كهذا الذى ذكرنا كان قوة من أعظم القوى ، وكان مهمازاً

يسوق الإنسانية أعنف سوق إلى العمل وإلى إفراغ الجهد كله ، وكان قاطعاً لدابر الكسل والركود والاتكال ، انتظاراً لما وراء الأسباب ، ولما فى الغيب مما لن يجىء ، ومما ليس فى الحسبان ... والتوكل بهذا المعنى هو روح الإنسانية ومتى زايلها فقد حانت وفاتها . وهو بهذا المعنى أيضاً روح الأديان وروح الإسلام . ولهذا جاء ذكره فى أكثر سور القرآن مأموراً به ومخبراً عنه . وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التى قدمت للعرب مفاتيح البلدان ، وأخضعت لهم الممالك ، وقهرت بهم الأديان ، ووضعت فى أيديهم مقاليد الدنيا — الدنيا التى كانت تعوزها هذه الروح ، والتى كانت إذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصوره المسلمون اليوم : الجمود والاستسلام ورجاء مالا يكون .

الأسباب — أوهام الناس فيها

كيف يجب أن نفهم

اقصد إلى تربة غنية بالعناصر اللازمة للانبات والإنماء وادفن فيها البذر الصحيح القوى فى الوقت المناسب ، ثم اسقها بالماء وفاق أصول الرى العلمية الصحيحة ، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة وكيف يجىء نباتها ! إنها سوف تنبت وإن نباتها سوف يخرج جيداً إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية . فإذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قوياً صحيحاً فلا ريب فى وجود مانع إما فى الأرض ، وإما فى البذر ،وإما فى طريقة الرى ، وإما فى المناخ ، وإما فى أحد الأشياء المعروفة ... أما أن تجتمع هذه الأمور وتنتفى هذه الموانع ثم لا يخرج النبات — أو يخرج ولا يكون صحيحاً — فمحال .

ثم اقصد إلى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذراً ،أو صالحة للإنبات ثم لا تسقها بعد وضع البذر فيها مع امتناع الماء عنها ، أو إلى أرض صالحة للإنبات واسقها بالماء راجياً أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر ، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الأرض مهما دعوت ورجوت . وهنا يورد قول الله :« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

أو اقصد إلى كائن حى وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التى لا تكون الحياة بدونه ، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حياً ، أو وفر لهذا الكائن الحى مايلزم له من طعام وشراب وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حياً ... والنتيجة لهذا أنه إذا وجدت الأسباب وافية وجدت المسببات وإلا فلا . غير أنه يجب أن يلاحظ أن الأسباب نوعان سلبى وإيجابى ؛ فالإيجابى هو الذى به يحصل الشىء ويترتب عليه ، والسلبى هو الذى بزواله يحصل الشىء . فإذا توفرت أسباب أمر واندفعت موانعه حصل ذلك الأمر ، وإذا لم توجد أسبابه ووجدت موانعه ، أو وجدت أسبابه وموانعه ، أولم توجد لا أسبابه ولا موانعه ، لم يقع ذلك الأمر وقد دل على هذا كل أصناف الدلائل المعروفة عند البشر — هذه مقدمة نقول بعدها :

أساء المسلمون الظن بالأسباب وأكثروا من القول فى تقليل قيمتها وأثرها بل فى تجريدها من كل قيمة وأثر ، وملأوا الكتب والمنابر والنوادى والمجالس كتابة وخطابة بأن تحصيل السبب وافياً ليس معناه تحصيل المطلوب ، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب فقد تأخذ بأسباب شىء أحسن أخذ ثم لا تنال غرضك ، وقد تنال كل ما ترجو بدون أن تأخذ بسبب واحد من أسباب ذلك . وقد زعموا أن القول بذلك قول بعظمة الله وبقدرته الشاملة وتصرفه المطلق ! وقد قالوا فى تعريف الأسباب : « إنها التى لا يلزم من وجودها الوجود ولا يلزم من عدمها العدم » أى لا يلزم من وجود الأسباب وجود مسبباتها ، ولا يلزم من عدمها — أى عدم الأسباب — العدم — أى عدم المسببات .

وقد صار الناس فى هذه المسألة طائفتين : إحداهما أكبر من الأخرى ضلالا : طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة ، وتنكر أن يكون لها شىء من الأثر ، وتطعن فى دين من يأخذ بها ومن يراها شيئاً ... وزعماء هذه الطائفة كثيرون منهم الغزالى — على تناقض فيه — ومنهم ابن عطاء الله والحارث بن أسد المحاسبى . قال الغزالى فى كتاب منهاج العابدين : «فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق فاعلم أن الرزق المضمون الذى هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه ، إذ هو من فعل الله للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه . وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة بالعبد إليه ، وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفى ضمانه . وأما قوله « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله» فالمراد به العلم والثواب ... فإن قيل لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلبها ! قيل لا يلزم ذلك إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ! ثم إن الله قد ضمن لك ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب قال : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » . ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه ... ... فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه فلا يصح تكليفه ... ثم إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً فى الأكثر وتجردوا للعبادة ، وبالإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله ولا عاصين له فى ذلك . فتبين أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد ... ... » انتهى . وقد كرر هذه المعانى فى الإحياء وجاء فيه : أصاب الربيع فالج فقيل له لو تداويت ! فقال لقد هممت ولكن ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ، وكان فيهم الأطباء فهلك المُداوِى والمُداوَى . وذكر عن الإمام أحمد أنه أشار بترك التداوى ... وقد ساق هنا عدة أمور

تصرف عن التداوى : أحدها أن يكون المريض من المكاشفين فيكاشف بأن أجله قد انتهى وأنه لا فائدة فى العلاج والتداوى ! قال : وذلك كان عنده معلوماً تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق !! ثم أورد أن سهلا سئل عن الغذاء والقوت فقال لمن سأله : مالك وللجسد ؟ دع من تولاه أولا يتولاه آخراً . إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه ! أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت إلى صانعها حتى يصلحها !! وقال فى فصل آخر من الإحياء : لقد أحسن الشاعر يوم أن قال :

جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق فى غشاوته الجنين

قال وقال وهب : لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك ! وقال الجنيد : الحيلة ترك الحيلة — لما سئل عن طلب الرزق والعمل له . قال والاهتمام بالرزق قبيح يؤذى الدين وهو بالعلماء أقبح .. وهذا النوع من الكلام كثير فى الإحياء وغيره من كتب الغزالى وغير الغزالى .

أما ابن عطاء الله السكندرى فقد ألف كتاباً فى هذا سماه (التنوير فى إسقاط التدبير) . وجملة هذا الكتاب هو ما جاء فى أوله نقلا عن الشاذلى : « إن كان ولابد من التدبير فدبروا ألا تدبروا — وقوله — لا تختر من أمرك شيئاً واختر ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شىء ... » . وجاء فى هذا الكتاب أن المدبر لنفسه مع الله يبنى والله يهدم ! ثم أورد قول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

قال : والتدبير شجرة تسق بسوء الظن بالله وثمرتها القطيعة عن الله ، إذ لو أحسن العبد الظن بالله لماتت شجرة التدبير من قلبه لانقطاع غذائها ! وإنما كان ثمرتها القطيعة عن الله لأن من دبر لنفسه فقد اكتفى بعقله ورضى بتدبيره واحتال على وجوده ، فعقوبته أن يحال عليه وأن يمنع واردات المنن أن تصل إليه ... وهكذا ساق الكتاب .

وجاء فى كتاب عوارف المعارف للسهروردى : قال حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقف متعجباً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض فخرج منها إناءان فى أحدهما سمسم وفى الآخر ماء صاف ، فأكلت وشربت ثم انشقت الأرض وغاب الإناءان . فلما رأى ذلك سقط من قلبه الاهتمام بالرزق ! قال :

فإذا أوقف الحق عبده فى هذا المقام ، يزيل عن باطنه الاهتمام ، ويرى الدخول فى التكسب والتسبب رتبة العوام ، ويصير مسلوب الاختيار ! قال وسئل التسترى عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ! قال وقيل لأبى يزيد : ما نراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاى يرزق الكلب والخنزير أتراه لا يرزق أبا يزيد — إلى ألوان كثيرة فى الكتاب ... وقد قالوا فى هذا المعنى قولهم المشهور :

لا تـدبر لك أمراً ... فأولو التـدبير هلكى
سـلم الأمر تجـدنا ... نحن أولى بك منكا

ومن الإغراق فى الإغراب أنهم لم يجعلوا الأسباب غير مجدية فحسب بل زعموا — وقد أبدعوا فى هذا الزعم — أن الأخذ بالأسباب مما يبعد الحاجات ومما يحرم منها وأنشدوا فى هذا :

تجد الرزق الذى تطلبـه ... شبه الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه مستعجلا ... فإذا وليت عنـه تبعك

— فأنت إذا أردت الرزق وجب عليك أن تهرب منه . أما إذا كنت لا تريده فما عليك إلا أن تطلبه وأن تأخذ بأسبابه ، فإنه حينئذ يمعن فى الهرب منك ، وإنك لن تدركه . وليس فى الدنيا منطق أفسد ولا أعجب من هذا المنطق . ومن المؤلم أن أحد العلماء نسب هذا الشعر فى كتاب له إلى المجاهد صلاح الدين الأيوبى .

أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنكر الأسباب جملة ولكنها جردتها من التأثير وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الإنسان ، لأن الله أمر بتأديتها ، أو لأن الطبيعة البشرية تطمئن بها وتستريح إليها ، لا لأنها تؤثر أو توصل . وهنا تكلموا كثيراً وتكلم علماء الكلام الذين يسمون علماء التوحيد أكثر ، وتركوا وراءهم ثروة هائلة ما أخلق وارثها بالفقر ... وقد ذكروا فى توجيه المسألة احتمالين كلاهما عندهم كفر : أحدهما الزعم أن الأشياء توصل إلى نتائجها بطبيعتها ، وأن الأسباب تؤدى إلى مسبباتها بقوتها . وثانيهما : الزعم أنها علل تترتب عليها المعلولات . وكلا الأمرين عندهم كفر . فمن اعتقد بأن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروى كذلك ، وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة ، أو أن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل إلى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق ، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها ،

هو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا ! وقد نظموا هذا شعراً واستظهروه وأمروا باستظهاره ، فقالوا فى إحدى المنظومات الاعتقادية التى تحفظ وتدرس :

ومن يقل بالطبع أو بالعله فذاك كفر عند أهل الله

والمسألة إجماعية على حسب قول هذه العقيدة النظمية ... ورأيهم فى هذا الموضوع أن كل هذه الأشياء وكل ما يسمى فى الدنيا وسيلة أو مؤثراً أو علة أو سبباً لايعدو أن يكون مقارناً لفعل الله فقط . فالآلة الحادة لا تقطع ولكن الله يقطع عند الإهواء بها والنار لا تحرق ولكنه تعالى يحرق حين اتصالها بشىء يحترق ، وهكذا يقولون فى كل ما يتعاطاه الناس ويفعلونه . وقد أفسدوا على الناس بهذه الآراء حياتهم وأضاعوا عليهم كل ثقة بالأسباب ، وصار العامة — بل والخاصة — لا يعقدون على سبب أملا عقداً حقيقياً . وقد أثرت هذه الأقوال فى أعمال الناس تأثيراً وقع بهم على الفشل والخيبة . ومن الملاحظ عليهم — وهذا أثر من آثار هذه الاعتقادات — أنهم لا يبنون أحكامهم على الأشياء، ولا يتوقعون حدوث النتائج بناء على قوة الأسباب وضعفها ، لأنها على حسب ما قيل لهم وحسب ما اعتقدوا ، قليلة القيمة ضئيلة الأثر ... وقد كانت أحكامهم على هذه الحرب وعلى نتيجتها أحكاماً قائمة على أنهم لا يقيمون للأسباب وزناً ؛ فهؤلاء سينتصرون وأولئك سينكسرون ، أحكاماً صارمة قاطعة يطلقونها . فإذا قلت لهم : كيف ، وأولئك الذين جعلتم نصيبهم من الحرب الانكسار يملكون وسائل الانتصار ، وأولئك الذين جعلتم حظهم منها النصر فاقدون لآلاته وأسبابه ، عجبوا منك ونظروا إليك نظرهم إلى من جعل مع الله شريكا وحسبوك تتكلم بلسان الكافرين المارقين !! ومن الإغراب فى الإغراب أن كثيرين منهم قد زعموا أن نتيجة هذه الحرب قد تكون انتصار المسلمين ، وأن ثمرتها قد تحص أفواه الشرقيين ! فإذا حاولت أن تقول لهم : وأين وسائل هذا عجبوا منك ومن وسائلك .

عقدة نفسية ، ومشكلة اجتماعية ، وشعب قست عليه الحياة بكل سلطانها يراد له أن يخرج من قسوتها ، ولكن أشد جوانب هذه المشكلة أنه لا يدرى ما سبيل الخروج ولا ما طريقه ؛ صانع يراد له أن يتقن صناعته لأنها منحطة ولكن يمنع من إتقانها ومحاولة إتقانها أنه لا يدرى أن الاتقان سبب للنجاح وللشهرة وسعة الرزق ، وأن محاولة الاتقان تؤدى إلى الإتقان — وزارع جاهل فى زراعته يراد له أن يسمو بها بكل وسائل السمو ،

ولكن يقعد به عن هذا الغرض أنه لا يعرف ولا يعترف بأن المسببات منوطة بأسبابها — وتاجر صغير فى تجارته هابط بها يراد له أن يكون كبيراً وأن تكون هى كبيرة ، ولكن يعجزه أنه لم يكن يدرى أن لذلك أسباباً ... وهكذا القول فى كل إنسان من هذه الأمة فما وجه النجاة والخلاص ؟ وجه هذا أن يُعلّموا وأن يَعلموا أن الله قد جعل الأسباب هى كل شىء وأنه لم يجعل شيئاً بدون سبب ، وأن المرء يتوصل بالأسباب إلى كل أموره ولا يتوصل بغيرها إلى شىء . فهى مؤثرة حقيقة ، بل موجدة حقيقة إيجاداً جعله الله فى طبعها . وقد تقدم فى صفة الرسول وصفة أبى بكر أنهما كانا يكسبان المعدوم أى يوجدانه

وقد ذكر الله فى كتابه الأسباب فى مقام من مقامات الثناء والإطراء حينما ذكر عبداً من عباده المصلحين الأقوياء وهو ذو القرنين فقال « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً فأتبع سبباً ... » . فامتن عليه بأن آتاه من كل شىء سبباً ثم امتن عليه مرة أخرى بأن اتبع هو سبباً ، ثم مرة ومرة . وقد أعقب الإخبار عن التمكين له فى الأرض بالإخبار عن إيتائه كل الأسباب . فكأنه تعالى أراد أن يعلمنا أن التمكين له فى الأرض كان نتيجة طبيعية لتجمع الأسباب كلها له . فمن ملك الأسباب فقد ملك الدنيا ، ومن عجز عنها عجز عن كل شىء . وقد شاهدنا أن لكل ضرب من ضروب السيادة أسباباً خاصة : فأسباب السيادة على الممالك البعيدة البحرية هى الأساطيل المائية ، وأسباب السيادة على السماء هى الأساطيل الجوية ، وأسباب السيادة على البر هى القوات البرية ... وذو القرنين لم يستطع أن يفتح مشارق الأرض ومغاربها وأن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها إلا بعد أن كانت لديه كل الوسائل لذلك . وقد أراد الله أن يدلنا بسياق هذه القصة على أن من طلب السيادة وليست لديه أسبابها فقد ذهب يطلب المحال ، وطالب المحال مذموم مدحور . ولو لم ينزل الله على المسلمين سوى هذه الآية « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً » وعقلوها لكانت كافية وقاضية على كل ما كتبه الصوفية المعطلون للأسباب وللقوى . وما أروع قوله فى هذه القصة « فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس ... » الآيات ، ثم قوله « ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس » الآية ، ثم قوله « ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين ... » الآيات . فإن فى هذا التدليل الصريح على أن اتباع الأسباب هو الذى أبلغه ما بلغ وهو الذى وصله بأطراف الدنيا . فأين ما يزعمه المخذولون ؟ . وقد أراد الله أن يبين عن حالة قوم سقطوا على الهلاك وفقدوا كل أمل فى النجاة فقال « وتقطعت بهم الأسباب » . وكأن الآية تدل

على أن من تقطعت به الأسباب وفاتته فهو الهالك لا محالة ، والعكس كذلك . وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد فى ذم الأسباب أو ذم الآخذين بها ، بل كان التاريخ الإسلامي قبل أن يرتديه هؤلاء قائماً على الاعتراف بطبائع الأشياء ، ولم ينكر طبيعة من طبائعها .

ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان : أحدهما أنهم حسبوا الإيمان بقدرة الله المطلقة فى تصرفها وعملها ينافى الإيمان بالأسباب ، وحسبوا أنهم إذا آمنوا بالسبب فقد قيدوا الله به وألزموه بألا يخرج عنه وألا يعمل بدونه ! والله عندهم غير مقيد فى فعل من أفعاله بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام .

وثانيهما أنهم وجدوا المسببات كثيراً ما تتخلف عن أسبابها ، ووجدوا أن الإنسان قد يؤدى السبب على الوجه الأوفى الأكمل فى ما يبدو ثم لا يصل به ذلك إلى غرض منشود ، كما وجدوا أن العكس أيضاً صحيح ، أى وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب ... هذان الأمران هما من أعظم ما صار بالقوم هذا المصير فى حكمهم على الأسباب وفى تراخيهم عند الأخذ بها وفى شكهم فيها — ذلك الحكم والتراخى والشك الذى جعلهم عاجزين عن الإتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة إلى مسبباتها ... ومن أخذ بالسبب شاكا فيه متراخياً فى أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم ، لأنه لن يتقنه ولن يثابر ويصابر عليه ، ولن يبدع فيه . بل لابد من الإيمان به مع الإصرار على هذا الإيمان وإلا فلا نجاح ، ولا بد من الإتقان والمثابرة والمصابرة على العمل وإلا فلا أمل فى فوز حقيق ، ولا بد من تقليب الرأى على كل وجوهه بحثاً عما يمكن أن يكون قد دق من خفى الأسباب وضروب الوسائل .

وليس من ريب فى أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لأنهم لا يجربون كل الأسباب والوسائل ، بل إنهم إذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم ، ولصقوا بالتراب والذل والمسكنة ، حاسبين أنه لم يبق لهم مكان فى هذا الوجود ، وذهبوا يبكون أقدارهم وحظوظهم ، ويلعنون أيامهم وأقوامهم .. ولا شك أن نجاحهم كان مضموناً ومحققاً لو أنهم أعادوا الكرة ، وأصروا على الوصول إلى الغاية ، وجددوا فى السبب والوسيلة أو كرروها . ولا ريب أن من أخطأ الهدف فى الرمية الأولى سيصيبه إذا كرر الرميات وعاودها مرات . ومن المعلوم أن بلوغ قصبة

السبق لا يكون فى الوثبة أو الخطوة الأولى ، وإنما يكون فى تكرير الخطوات والوثبات ، وفى معاودة شد الأعصاب والعضلات ... وهذان الأمران اللذان جملا القوم لا يثقون بالسبب كما يجب أمران يلزم إعادة النظر فيهما .

أما الإيمان بقدرة الله المطلقة من القيود والحدود فإنه يقتضى الإيمان بالسبب لا الكفر به ، لأن الإيمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بمسببه وصاحبه ، والكفر به كفر به ... والشاكون فى أسباب الله — وكل ما فى هذى الدنيا هو من أسباب الله — هم فى الحقيقة شاكون فى الله وفى عمله ، فإن هذا الشك معناه الشك فى قدرته تعالى على أن يجعلها أسباباً موصلة مبلغة ... وكلنا نؤمن بأن امتثال أوامر الله الشرعية سبب فى دخول الجنة وفى نيل رضا الله ، وأنه سبب لا يتخلف عنه مسببه . ولم نقل غير ذلك لئلا نقيد الله ونقيد تصرفه وعمله وقوته ... والتقيد بالكمال والخير والحكمة والعدل ليس قيداً إلا فى لغة هؤلاء ، وإن كان قيداً فليس ذما وإنما هو غاية المدح ... أما تخلف المسببات عن الأسباب فهذا مالا يكون أبداً ، ولكن قوما يبذلون أسباباً ضعيفة ناقصة فلا يصلون إلى أهدافهم ، فيتهمون الأسباب ، والواقع أن الذنب ذنبهم . فكل سبب لا يوصل إلى الغرض المقصود به هو سبب ناقص ضعيف ، وإذا تم السبب وجد المسبب لا محالة . ولا يقع شىء فى هذه الدنيا إلا إذا اجتمعت أسبابه ، وإذا اجتمعت أسبابه فلا بد من وقوعه على كل حال . ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فهو إنما يقع حيث تجتمع الأسباب — وهى إما الأمراض ، وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة ، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه ، أو لأمر داهم مفاجىء معجز .

أما الآيات التى تنص على آجال الأفراد والأمم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها ، فهى كذلك أيضاً ، لأن حلول الأجل معناه اجتماع الأسباب ، واجتماع الأسباب معناه حلول الأجل . فمن صدمته سيارة صدمة قاتلة فقد حل أجله ، وهى لم تصدمه لأن أجله حل ، ولكن أجله حل لأنها صدمته ، وهكذا يقال فى كل شىء فآجال الأفراد وآجال الأمم إنما تنتهى عندما تعجز عن البقاء وعن الحياة عجزاً ذاتياً أى من داخل ذاتها لا من خارجها ، ولكنها لا تعجز لأنه وجب أن تنتهى كما يظن كثيرون من الناس .

وتغلط طوائف كثيرة إذا تكلمت فى سقوط الأمم وفى نهوضها ، إذ ترى أن أمة

تسقط وأخرى تنهض لا لأسباب تقضى بالسقوط والنهوض ، بل لأن الواجب أن تتناوب الأمم السلطان ، وتتداول الأيام ، وتتقاسم الحظوظ ... وهذا بمثابة الاعتقاد أن آثارا ومعلولات تحدث بدون علل ومؤثرات ...

وآخرون يقولون : إن الأمم تشيخ كما تشيخ الأفراد — يعنون بهذا أن الأمة التى تنهض لا بد أن تسقط ، أو لا يقال : كيف سقطت إذا سقطت ، لأن سقوطها بعد نهوضها ، وشيخوختها بعد شبابها أمران طبيعيان لايسأل عن أسباب حدوثهما ... وإذن فلا بد أن تسقط الأمة التى نهضت وأن تشيخ مهما استمسكت بأسباب نهوضها وشبابها ، كما أن الفرد لابد له من الشيخوخة ومن الموت مهما حاول المحافظة على حياته وشبابه ... وكان الواجب على هؤلاء أن يتموا تمثيلهم بأن يقولوا : وإن الأمة إذا شاخت ماتت ، وإذا ماتت لم تبعث إلى يوم الدين ، كما هو شأن الأفراد ، بل كان المنطق يقضى عليهم بأن يزعموا أن الإنسانية كلها تشيخ ثم تموت ثم لا تنشر حتى يوم النشور . وكل هذى أوهام ليست فى سبيل من العلم .

ولاتوجد سنة تقضى بشيخوخة الأمم لامحالة . ولكنها تشيخ — أو تضعف وتنحل حينما تتخلى عن أسباب شبابها وعظمتها . ولو أنها بقيت سائرة فى الطريق التى أفضت بها إلى الشباب وإلى العظمة لظلت أبداً عظيمة شابة .

وجاء فى مطلع القصيدة المشهورة فى بكاء الأندلس :

لكل شىء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

وفى قول آخر : (توقع زوالا إذا قيل تم) . وهذا كله إنكار للأسباب وقول بأن الحوادث تقع بدون أن تكون لها علل ! . فإن تمام الشىء ليس سبباً فى نقصانه ، ولا علة من علل زواله ، فكيف نتوقع الزوال أو النقصان حين التمام ؟ بل إن أسباب الزوال والنقصان هى غير أسباب التمام ، وهى مناقضة لها ، وما كان سبباً لأحدها لا يمكن أن يكون سبباً للآخر ، فإذا ما أخذ شىء من الأشياء بأسباب الكمال فكمل ثم لم يحد عن هذه الأسباب ، فلن نتوقع له زوالا ولا نقصاناً إلا على رأى هؤلاء الهائمين فى فيافى الأغاليط التاريخية الكبرى ! فعند هؤلاء أن كل الأمم التاريخية العظيمة التى نهضت ثم سقطت لا يجب أن يلتمس لسقوطها علل ذاتية ! وإنما النهوض نفسه هو السبب فى السقوط ، ولأن الله يتعابث بهذا العالم وبأممه دائما ؛ فإذا علت أمة أسقطها بنفس علوها

وبأسباب علوها ، لأنه تعالى قوى ، والقوى من شأنه الاستبداد والتصرف الأخرق المتعابث ، ولأنه غير عاجز ، والعاجز هو الذى لا يستبد ، بل يدع الأمور تسير فى سبيلها ! وقد نظموا هذه المعانى شعراً صاروا يتناقلونه على الألسنة عصوراً غير قصيرة :

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

وقد ذكروا أن هذا البيت هو أحد أسباب الإيقاع بالبرامكة لأن هارون الرشيد أقدم على الفتك بهم — لما أن سمع هذا الشعر — ليثبت أنه مستبد ، وليثبت أنه غير عاجز ، إذ العاجز هو من لا يستبد — أى إنه أخذهم بغير أسباب على قول هؤلاء الرواة إلا إذا كان مجرد الاستبداد سبباً من الأسباب ... والعرب فى الأندلس وغيرها لم ينحلوا ولم تهو شمسهم من أفقها لأسباب سوى أنهم قد تموا وكملوا فى ضروب حياتهم ومجدهم ، والتمام سبب للنقصان والزوال — والإنجليز وغيرهم من الشعوب الراسخة الأصول والفروع يجب أن يسقطوا ويزولوا ، لأنهم قد تموا وأخذوا حظهم من السلطان والسيادة ، ولكل شىء إذا ما تم نقصان ! ! وقد قال مرة واحد من هؤلاء الذين يتصورون الله بهذه الصفات والأخلاق : إن لم تهزم بريطانيا فى هذه الحرب - والإشارة إلى الحرب المنتهية قريباً — كفرتُ بالله !! فقيل له . ولماذا ؟ قال لأن الله يقول «وتلك الأيام نداولها بين الناس» فيجب أن تخرج الأيام من أيدى الإنجليز إلى غيرهم ، ولأن الله يجب أن يسقطها لأنها قد سادت طويلا وظلت كثيراً ! ولكنها قد خرجت — على رغمنا — منتصرة . وما أظن صاحبنا قد كفر بالله ! وما به حاجة إلى هذا الكفر ، لأنه لم يؤمن بالله ، وإنما آمن بقوة وهمية تحكم العالم بالجبروت والجبرية ! وهذه القوة ليست هى الله العادل الحكيم الرحيم ، الذى أخص أوصافه الحب والإحسان ، لا البغض والعدوان . ومن تصور إلهه كذلك فلا محالة من أن تفسد أخلاقه وطباعه وتصوره للعدل والحياة وكل شىء !!

وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة — وهى فكرة إنكار الأسباب ، أو التهوين من شأنها ، أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها . وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من كل هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها .

ويحسب بعض الناس — وقد تورعنا عن أن نقول : كلهم — أن أمثال قول الله :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » يدل على ضعف أمر الأسباب ، وعلى أن الأخذ بالحيطة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئاً ولا يرد آتياً ، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا — مقدرة لهم ومقدرين — لا محالة ولو لزموا البيوت المشيدة ... والواقع أن الآية تعطى عكس ما فهم الناس منها لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضى عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه ، وهذا صحيح على حسب المعروف المشهود ، ولكنها لم تنف أن البقاء فى البروج المشيدة يطيل الأعمار ويعد من أسباب الحياة ، وأن الذى يذهب إلى الميدان قد يهلك ويقتل ، وأن الذى يهاب ويلزم منزله قد يسلم وينجو . وهذه الآية فى معنى قول القائل :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

والقصد من هذا أن الحر الكريم يجب أن يخرج إلى الموت ، ويثب إلى الأخطار فى أماكنها ، لأن الدين أو الوطنية أو الحرية أو غير ذلك من معانى وفضائل الإنسانية توجب هذا الخروج والوثوب . ولا يصح أن يفر ويجبن ويعيش ذليلا مظلوما مهيناً ، فإن ذلك لن يهبه الخلود . فالموت فى مواطن العز والكرامة ألذ فى أفواه الأحرار من الحياة الطويلة المذلة إلا عند من مرضت فيهم معانى العظمة وغرائز الإباء لطول الإلف وكثرة المقارفة .

أما قوله تعالى : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ... » فالمعنى فيه أن هنالك أقواماً من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفى قومهم ، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية ، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال ! حتى ولو كان فى هذا الخروج الهلاك المحقق ، إذا ما أهاب بهم داعى المجد — وإن لم يدعهم الرسول وأصحابه إلى ذلك ، كما هو الشأن فى كل الأمم ، وكما هو الشأن فى الجاهلية وفى الإسلام ... وحكم هذى الظروف عليهم ، المحفوفة بالأخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم ، ومعنى بروزهم إلى مضاجعهم ! وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج ، لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل ! ولنُعِدْ فهمنا للأشياء كلها من جديد .

ومما يجب فهمه أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالأسباب فى هذه المسألة إيماناً عميقاً ، وقد حكى القرآن عنهم قولهم : « يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا

ها هنا » ، يعنون أن الأمر لو كان أمرهم — أو لو كانوا مطاعين — لنهوا عن الخروج إلى القتال ، ولما عرضوا أنفسهم على الموت ، ولنجوا حينئذ ، لأن القتل إنما يقع بالتعرض له ولأسبابه . وفى آية أخرى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ، وفى آية أخرى : « الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ما قتلوا » . فهم إذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة ، إيماناً برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء ؛ فالذين يضربون فى وجوه الأرض وعلى متونها ، والذين يخرجون غزاة مقاتلين يموتون ويقتلون بأسبابهم وبمساعيهم ، والذين يقعدون ويحيدون عن مساقط الردى ينجون ويسلمون . فالمسألة — نجاة وهلاكا — مقدرة بأسبابها ووسائلها كسائر مسائل الحياة . ولم يترد العرب فى الهوة التى تردى بها الآخرون والمتأخرون ، من الصوفية وسواهم ، ممن باءوا بالفشل ، وكهوّموا بالجهالة طويلا ، فزعموا أن الموت والحياة ليسا بأسبابهما ، وإنما هما مقدران بأوقات مضروبة محدودة ، بحيث لا يفيد الفرار ولا يضر الإقدام فى سلامة ولا فى هلاك ! ولهذا فقد نقل شيوخ هؤلاء عن آخرين منهم بأنهم كانوا ينامون بين الصفين المتقاتلين والسهام والنبال تتساقط من هاهنا وهاهنا — إمعاناً منهم فى إنكار الأسباب وفى أن الحيطة والحذر لا يجديان ! وقد سبق أن قلنا : إن الأمة التى لا تؤمن بالأسباب إيماناً صحيحاً لا يمكن أن تكون أمة عزيزة ولا عاملة ولا منتجة . والعرب فى جاهليتهم استطاعوا أن يساحلوا تجاه تلك الجراثيم الاعتقادية المنتشرة التى كان يموج بها الشرق فى ذلك العهد ، فلم يجدوا من أجل هذا — حينما وجهوا التوجيه السليم — ما يمنعهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأعملها .

وحقاً إن طبيعة بلاد العرب لتوحى بالإيمان بالسببية الصارمة القاسية ، فليس فيها شىء يؤخذ بالمجان ولا بالسهولة واليسر ، بل كل ما هناك لا يستطاع نيله إلا بالأعمال العنيفة المرهقة ، وبالأسباب القوية المحكمة — فلا مجان ولا سهل ، ولا عطاء بدون ثمن . فليست هنالك أنهار ، ولا أمطار غزيرة ، ولا غابات ، ولا مراع لها قيمة كبرى ، ولا شىء من هذه الأشياء التى يأخذها كثير من الشعوب بالمجانية — ثم ليست ثمة مناطق زلازل ، ولا براكين ، ولا مفاجآت طبيعية تفضى إلى الإيمان عند بعض الناس بأن وراء الأسباب والظواهر قوى خفية باطشة ، تسيطر عليها وتقف فى سبيلها .

إن العربى هناك ليرى الريح الملقحة بالبخار تهب على سمائه الصافية ، فتنعقد السحابة

الثقيلة المتراكمة ، فلا تلبث أن تتهاوى وابلا مدراراً على أرضه الجديبة اليابسة العابسة ، فتوجد الحياة ويوجد الأحياء ، ثم يكر الجدب والشمس المحرقة على تلك الأرض الخضراء المعشوشبة ، فإذا كل شيء يابس عابس هامد ! وهكذا تكرر العمليات أمام بصره وبصيرته — ما بقى — بلا اختلال ولا اختلاف ، وبلا تدخل قوة ولا قوى فى هذا ! فأين ما لا سبب له ! وأين السبب بدون مسببه !! وهكذا يرى ويعلم كل شيء حوله مضبوطاً محكوما بهذه السنة وبالأسباب الآلية ، ضبطاً لا أمل فى اضطرابه ولا فى تغييره : هكذا الشمس طالعة غاربة ، وهكذا القمر زائداً وناقصاً ، وهكذا الكواكب والنجوم كلها ، وهكذا الحرارة والبرودة ، والصيف والشتاء ، وهكذا كل ما يشاهد ويعلم . إن له لمئات الآلهة العزيزة ، الصغيرة والكبيرة ، وإن له لعشرات الأرباب المطيفة بالكعبة ، المحتضنة لبيته المقدس ، وإنه طالما دعا هذه الآلهة والأرباب ، وطالما تمنى عليها أن تصير بلاده الجديبة الحبيبة المقدسة — موطن الآلهة المقدسين — مثل السهول التى يعرفها ، والتى رآها فى الشام والعراق ومصر — تلك التى تفيض بالنماء والماء والبركات والخيرات ، وبالأنهار والجداول ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وإنه يعلم أنه ليس فى الإمكان أن تفعله لأن كل شيء مضبوط بأسبابه محكوم بسننه . إنه ليدرك أن هذه الآلهة يعجبها ويرضيها أن يكون واديها ووادى عبادها العاكفين عليها لا يقل عن غوطة دمشق وسهول حلب ووادى النيل وضفاف دجلة والفرات بركة وفيئا وزروعا وخيرات ، ولكن ذلك لم يحصل ، لأنه لا يمكن أن يحصل ، وليس فى قدرة الآلهة مجتمعة متعاونة أن تصنعه .

إن أحد هؤلاء ليخرج فى جمرة الصيف ، فتلفحه الشمس ، ويأكل كبده الظمأ ، فتستبد به الآمال والأمانى ، فيأمل أن ينشق ما تحت قدميه عن نهر جار ، أو أن تنعقد فوق رأسه سحابة لتنصب فى فمه المحرور اللاهث ، فيذهب يطوف بآماله هذه — فى تلك الساعة القاتلة — على جميع آلهته وأربابه ، راجياً منها أن تصنع شيئا يبقى عليه حياته ، ويذهب عنه بعذابه ! ولكن أين هى ، وأين هو مما يريد ويرجو ! إنه المحال الذى لايكون! فأين الخروج إذن عن الأسباب ، وأين مالا أسباب له ! ؟

إذن فكل شيء قائم على أسبابه الطبيعية وعلله الحاكمة المحكومة ، وإذن لا بد من الايمان بالأسباب ، وإذن فالعربى تلهمه طبيعة بلاده الرتيبة الدائمة هذه الحقيقة . ومن هنا كانت قريش ومن جاورها أمة سببية ، وكانت من أجل هذا أمة عاملة منتجة غالبة

فى وقت من الأوقات ! فلما قلت ثقتها بالسببية ،وضعف إيمانها بالسبب صار أبناؤها وورثتها ينتظرون الحجاج ليهبوهم الحياة والبقاء قطرات مرة المذاق !

ويجب أن يعلم أن القرآن يوم أن حكى هـذه الآراء والأقوال عن العرب لم يرد بحكايتها الإنكار والرد ، وإنما أراد أن ينكر عليهم النتيجة التى أرادوا أن يخرجوا بها منها . فهم — لأنهم كانوا غير مؤمنين بالرسول ولا بدعوته — كانوا يعملون على تخذيل من يريدون القتال معه، فيقولون إن هؤلاء الذين يخرجون معه يهلكون أنفسهم بخروجهم، ولو أنهم أطاعونا فلم يخرجوا ولم يقاتلوا ولزموا منازلهم ، لما ماتوا ولما قتلوا ، وهم — طبعاً — يعنون القتل والموت الناجزين . وعلى هذا فمن الجنون بيع النفوس بيع السماح بدون فائدة ترجى ، وأية فائدة لهم فى ذلك ما داموا غير مؤمنين ؟ فرد عليهم القرآن ردوداً مختلفة ، منها قوله : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » يريد أنه لايصح أن يمتنع العاقل عن التضحية مع عظم الجزاء ، فإن الدنيا كلها ، وأمور الناس كلهم قائمة على التضحية . ومنها أن الموت لا بد منه ، وإذا كان ذلك كذلك فمن الجنون والغبن الفاضح أن يعيش المرء ذليلا مهيناً، وأن يرفض الجزاء المعروض السخى ، إبقاء على شىء لن يبقى ، واستمساكا بأمر لا يمكن الاستمساك به تخليداً . ومنها أن الجبانة والخوف والفرار من الأعداء قد يكون من أسباب الهلاك ، وأن الإقدام ومنازلة الحمام والزحف إلى الأخطار والأهوال قد يكون من وسـائل النجاة . وهذا معروف مشاهد ، فإن من يستسلم ويفر من كل هول يعترض طريقه يركبه الأعداء ويلهج بتحديه الزمن ، ومن يناضل ويقاوم يرهب فيسلم ويعز جانبه . وهكذا كان شأن القرآن معهم ، يسلم لهم الدعوى أحياناً — إذا كانت صادقة — ولكنه يكر عليهم وعليها برد النتيجة التى كانوا يرمون إليها — إذا كانت باطلة . وهم ما كانوا يجهلون هذه الأمور ، بل هى لديهم من المقدمات المسلمة ، ولكنهم إنما كانوا يشاغبون ، لأنهم يقصدون التخذيل والتعويق ، لأنهم كانوا غير مؤمنين برسولهم ... وفهم كل شىء على وجهه الصحيح ضرورى ، وإلا فلن نبلغ هذه الحياة التى نرنو إليها بعيون حسرى كليلة .

يصادفك ، وأنت تسير فى الأحياء الوطنية . الحين بعد الأحيان ، هـذان البيتان من الشعر الركيك ، مكتوبين على المتاجر والمصانع :

ملك الملوك إذا وهب ... لا تسألن عن السبب
فالله يعطى من يشاء ... فقف على حد الأدب

وهـذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة ؛ وكلهم يشتركون فى هـذه العقيدة ، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه . فالله إذا أعطى أحداً مالا أو جاهاً أو مجداً أو نجاحاً لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها ، لأن الله — وهو ملك الملوك — لا يعطى على السبب ولا على قدر السبب ، وإنما يعطى على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها ! فالسؤال عن ذلك إذن خروج على الأدب وضلال فى جانب الله ، لأنه اعتقاد بأنه تعالى إنما يهب جزاء ومكافأة ، وبقيود وحدود وأسباب ، لا مشيئة وقدرة وإرادة وإطلاقاً ! وهذا اتهام لذاته وصفاته وأفعاله ! والأدب هو الاعتقاد بأن الأسباب لا شأن لها فى نجاح ولا فى إخفاق ؛ فإذا رأينا ناجحاً لم يجز الاعتقاد بأن لنجاحه أسباباً وموازين وعللا تدرس وتفهم وتحتذى ويقاس عليها ، وإذا وجدنا مخفقاً فكذلك لم يجز التعليل والتسبيب !! وهذا من شر ما تبتلى الأفراد والجماعات بالإيمان به . ولا ريب فى أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر — فى دلالتهما ونتيجتهما — من مئات الجيوش الغازية التى تحتل البلاد اغتصاباً واقتداراً . ولا يستطيع أن يدرك هذا إدراكا صحيحاً إلا من علم أن أساس كل شىء فى هذه الحياة هو الفكرة وأن من سمت فكرته سمت حياته وأعماله ، وأن من ضلت أفكاره وهبطت وانحرفت فلن يسمو فى شىء .

أمامنا لا وراءنا

لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه .

[زعموه حديثاً نبوياً]

أمس خير من اليوم ، واليوم خير من غد ، وهكذا حتى قيام الساعة .

[زعموه من كلام ابن مسعود]

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.

[زعموه أيضاً حديثاً]

كل شيء ينقص إلا الشر فإنه يزيد .

[حديث أيضاً على ما زعموا]

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف

[كتب العقائد المقررة]

***

من الحقائق التى ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله — حيوانه ونباته وجماده — لم يزل دارجاً فى طريق التطور ، متنقلا من طور إلى طور أفضل ومن حالة إلى حالة هى أدنى إلى الكمال بطريقة منظمـة دائبة لا يعروها توقف . وعند العلماء أن شيئاً من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة ، ولا بحالة فيها الاستعداد للرجوع إلى الوراء ولا للانتقال من الكمال إلى النقص ، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هـذا الوجود قد وجد وجوداً بدائياً ، وأنه قد ظل ينتقل من وجود إلى وجود ومن شكل إلى شكل وأنه قد ظل فى عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود الحيـاة فيه ... علم الكون — أول ما علم — فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشاراً متناسباً متسقاً مثل أن تبخر مقداراً من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء ، أو مثل أن تنثر مقداراً من الدقائق فى مكان نثراً متساوياً . وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية إلى حالة التكتل والتقلص ، فأصبح كتلة واحدة هائلة ، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع . فبقى على هـذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين ، وهو يتفـاعل

فى حقيقته تفاعلا مستمراً استعداداً للانتقال إلى وجود آخر أفضل وأكمل . وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود فى ذرته انفجاراً فجائياً فى الظاهر موقتاً معلوماً مقدوراً فى الباطن ، مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة . فتطايرت منه الدقائق والذرات تطايراً قائماً على الحساب الدقيق ، فتفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتتجمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين ، حتى أصبحت نجوماً وشموساً ، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ، ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التى يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التى إحداها مجموعتنا الشمسية التى نحن إحدى رعاياها ... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضاً وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون — أى الأقمار — من حولها كما كانت هى من حول شمسها . وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التى يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعاً لسنة هذا الوجود . والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة والنواميس التى تحكمها — أى تحكم الكائنات الحية — إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة الجامدة . فلا غرابة إذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد .

وبعد هذا التوزع وهذه الانقسامات فى ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شىء منه صالحاً للحياة أو للاستقرار ، بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة فى الأرض — وهى منفصلة عنها — بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وقدروا عمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا من نحو ثلاثمائة مليون سنة ، أى إنها ظلت حوالى ألف وسبعمائة مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وقدروا عمر الإنسان فى الأرض بثلاثمائة ألف سنة — وهذا إحدى التقديرات كما هو معلوم ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الإنسان الذى هو أرقى الموجودات فيها ، أى إنها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تتهيأ لوجود حياة الإنسان المعدود كائناً راقياً . وما من شىء فى هذا الوجود وصل إلى حالته التى هو عليها إلا بعد أن سلك هذه السبيل — سبيل التطور المنظم البطىء ؛ فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجمات

ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق ... وهذه الأرض التى نعيش عليها ونجد فيها كل ما نحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور ؟ إنه لولاه لما وُجِدَتْ ولما وجد فيها ما وجد ، ولما صلحت لظهور الحياة عليها ، ولما وُجِدْنا فيها ، ولو وجدنا لما بقينا أحياء ، ولو بقينا أحياء لما وجدنا ما نحتاج إليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا ... إنه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهودها الجليدية ، وعن عهودها النارية إلى عهد الاعتدال الذى تبقى معه حياة النبات والحيوان الذى منه الإنسان وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت وارتفعت فيها الجبال ، ونهضت الآكام ، ووجدت السهول والسهوب والأودية ، وانشقت الأنهار ، وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التى عليها نحيا . وبهذا التطور أيضاً وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة ، ووجدت التربة الخصبة التى تنبت لنا كل ما نشاء ، ووجدت كل هذه العناصر التى لا بد منها لبناء أجسامنا ولإخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعياً وطبيعياً ... إن أنفس شىء لدينا ، كاللآلىء مثلا ، لا يمكن الحصول عليه لولا خضوعه لهذه العملية .

إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالاستغلال وحتى نسرف فى امتصاصها وامتصاص قواها إلى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منها ، وإلى أن تكاد تضعف عن القيام بوظيفتها — كما يفعل أحدنا إذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة . فنتركها — لا نعطها ولا نأخذ منها — ثم نرجع إليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان ، فإذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطى بسخاء ، فكيف حصل هذا ؟ إن يد التطور ويد الاستعداد للنمو والتحسن قد امتدت إلى هذه الأرض فرجعت إليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها .

إننا نعمد إلى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية ، ولكن نرجع إليها بعد مدة فنجدها قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى . فلماذا هذا ؟ إنه الاستعداد الطبيعى للتطور ، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء .

إن كل شىء أمامنا يقوم بهذه العملية قياماً بديعاً منظما ، ولولاها لما حصل شىء جديد ولا صورة جديدة . فكل ما يحدث مما يجدد الصور والمظاهر والألوان ، ومما يعيد ما فقد ، ما هو إلا تطور وقيام بعمليته ... إن دفن الحبة فى التراب أو ركز الغصن فيه

ثم خروج تلك الحبة أو ذلك الغصن وارتفاعه فى الفضاء ، ثم تقسمه إلى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور وامتداد لهذه الألوان ، وتعبير قوى عن هذا السر الكامن ، وتدليل عملى على أن كل ما فى هذا الوجود يحمل فى ثناياه وطبيعته القدرة على التحسن والتقدم ... لقد ثبت أن كل شىء فى الحياة يتحسن إذا لم يوجد ما يعوقه ، وأن طبيعة كل شىء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب — وثبت أن الأحياء الثلاثة — كما ثبت ذلك للجماد — فى عملية متواصلة فى سبيل التحسن والتحسين.

أما الإنسان فليس هنالك شك فى أنه كان منذ ثلاثمائة سنة — دع أكثر من ذلك — أضعف منه اليوم أجساماً وعقولا ومعارف . وليس هناك من يرتاب فى أنه فى هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة ، ومن ناحية التفكير ، ومن ناحية القوة البدنية تحسناً عظيما . وليس تطور الحضارة إلا تعبيراً عن تطور الإنسانية . فلو أن الإنسان لا يتطور فى وجوده العام لما أمكن أن تطور حضارته . وليس ثمة شىء فى الحياة يرجع إلى الوراء ويتقدم القهقرى ، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقاً واحدة تؤدى به إلى الأمام وإلى الأمام دائما ... وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضاً نصوص الدين ، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخاناً كما قال فى الآية السابقة « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس والسيارات والأرض وكل شىء فيها . وجاء فى النصوص أن الوجود كله فى تغير وتغيير مستمرين فى طريق الكمال . وفى الكتاب الكريم « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » . وهذا يوم القيامة . ومعلوم أنها يوم القيامة تأخذ شكلا ووجوداً أحسن وأكمل من شكلها ووجودها الأول ، والآية مسوقة لهذا الغرض . وآيات القرآن التى تعرضت لتغيير العالم ولتغيير السماوات والأرض تدل كلها على أن العملية عملية تغيير إلى أحسن وأفضل . والعالم الأخروى بمن فيه ؛ على حسب ما جاء فى النصوص ، ليس إلا برهاناً على الوصول إلى طور الكمال الوجودى فى كل وجه من وجوه الكمال والوجود . وفى الكتاب « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » . وليس من اللازم علينا أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطوار ، وإنما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعانى .

أما الشيخوخة والموت — اللذان قد يحسبان من الرجوع بالوجود إلى الوراء — فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بانقضاء دور من الأدوار التى تقوم المادة والعالم كله دائماً

بتمثيلها لتأخذا بتمثيل دور آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة . فإن العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة الغرض ، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة ، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه . وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدهامقصودة ، لأنها متممة للأغراض العامة التى رمى إليها بها . وليس فى فصل من فصولها، ولا فى مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلا على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة .

والإنسان فى هذه الحياة — كغيره من الأشياء — وجد ليؤدى رسالة الحياة ، ثم ليسلمها بعد انتهاء دوره إلى إنسان آخر ، ثم ذلك الإنسان الآخر يقوم بالرسالة نفسها وبالدور عينه . وهذا لتبقى السلسلة متواصلة ، لتبلغ الغرض الأعلى المطلوب . ومن أدى رسالته ثم تنحى عن الطريق ، أو من قام بدوره ثم اعتزل ليقوم الآخر بدوره لا يقال إن ذلك دليل على الرجوع إلى الوراء ، أو على أن جملة القائمين بهذه الأدوار ، متعاقبين متناوبين ، يرجعون القهقرى...إن الزرع والنبات إذا أخذ فى النمو، ثم فى الاكتمال، ثم فى النضج والاستواء ، ثم فى الانتهاء لم يعد ذلك ضرباً من ضروب التأخر والرجوع ، وإنما يعد ضرباً من ضروب السير إلى الأمام وضروب الاستمرار فى أداء الرسالة العامة ومن إعطاء الثمرة فى الأوان المضروب . والشيخوخة ثم الموت لا يعدوان أن يشبها الاستواء والنضج فى النباتات ثم الحصاد . وهما — الشيخوخة والموت — مثلان من أمثلة الهدم والبناء ، أو الهدم من أجل البناء . والهدم فى أحيان كثيرة غرض من أغراض البناء . والبناء الذى يعقب الهدم ليس إلا سيراً فى السبيل ، وإتماماً للرسالة ، وبرهاناً من براهين الاستمرار فى العمل . والاستمرار فى العمل بدون انقطاع دليل على أن الغاية التى يراد بلوغها لم تبلغ بعد ، وهذا معناه السير إلى الأمام لا إلى الوراء .

إن عجز الأحياء — ويدخل فى ذلك الإنسان والحيوان والنبات — عن الامتداد فى الحياة وعمليتها بدون انقضاء ، هو بمثابة الحجة على أن المادة التى ألفت منها أجسام هذه الأحياء ، وبنيت منها أعضاؤها ، وشيدت عليها دقائقها مادة لم تكمل الكمال الذى يعطيها قوة البقاء فى صورها ومظاهرها . ولكن ليس معنى هذا أنها ليست سائرة إلى هذا الكمال وبالغته فى أحد الأوقات . ونحن إذا رأينا آلة من الآلات تقوم بعملها ثم يبادر إليها العطب أدركنا من غير تردد أن مادة بنائها مادة رديئة ضعيفة ، أو أن صناعتها رديئة

ضعيفة ، أو أن طريقة استعمالها طريقة مخربة ، وأدركنا أنه إذا عولجت الأمور الثلاثة وجاءت وفاق الغرض أصبحت الآلة قادرة على الاستمرار فى عملها . ومبادرة العطب إلى آلة من الآلات لا يمكن أن يتخذ دليلا على أن المادة التى صنعت منها آخذة فى سبيل الانهيار أو سبيل العجز والتخلى عن حقيقتها وطاقتها ، وإنما يجب أن يتخذ ذلك دليلا على أحد الأمور الثلاثة المذكورة . والإنسان — بل وسائر الأحياء — حكمه حكم هذه الآلة : فموته وعجزه عن الامتداد فى الحياة الفتية القوية دليل على أن مادة بنائه لم تبلغ الحد الذى يستطيع به الاستمرار فى عملية الحياة بدون فساد أو ضعف ، أو دليل على أنه لم يوصل إلى استعمال الحياة فيه استعمالا يمنحها البقاء والقوة المستمرة المتجددة كاستمرار حياة الشمس وتجددها وبقائها مع عظم ما تنفقه وتبذله فى سبيل وجودها . وقد ذكر العلماء أن الشمس تشع يومياً ثلاثمائة وستين ألف مليون طن منذ وجدت شمساً مشرقة ، وقد وجدت كذلك منذ خمسة ملايين مليون سنة . ومع إنفاقها هذه المقادير الهائلة فى هذه الأحقاب المتطاولة من أصلها ومادتها لم يلاحظ عليها نقص، على ما ذكر العلماء . وإن شاء الله سيبلغ الأتقياء الأبرار فى دار الخلد تلك المرتبة من الوجود التى فى قوتها الاستمرار فى البقاء وفى الحياة الفتية المتجددة . وهذا معناه بلوغ الكمال المنشود المفقود الآن .

فالموت إذن ليس بالأمر الذى يجب أن نفزع منه وأن نخشاه وأن يروعنا مرآه ، فإنه كما ذكر ليس إلا ترك صورة لأخذ صورة أخرى ، وترك لون من ألوان الوجود من أجل أخذ لون آخر من هذه الألوان الزاهية المتعاقبة . وكما لا يجب الفزع من غروب الشمس وغروب غيرها ، ولا من طلوعها واعتدالها ، ولا من ميلها ، ولا من الخسوف والكسوف — أو كما لا يجب الفزع من اجتماع السحاب ثم افتراقه ، ومن اشتعال النار ثم انطفائها ، ولا من إيراق الأشجار واكتسائها بالأوراق والأفنان ثم تجردها من ذلك ، ولا من نضج المزروعات والثمار ، ولا من مظهر من هذه المظاهر ، فكذلك لا يجب الفزع من الموت ؛ فما هو إلا ظاهرة من هذه الظواهر التى نراها كل وقت ثم لا تحدث لدينا فزعاً ولا روعاً . وكما أن الشمس تبدو من جهة فى وقت ثم تختفى من جهة أخرى فى وقت آخر بدون أن يوجد ذلك لنا هلعاً ولا إنكاراً ، فكذلك كان الواجب ألا يحدث عندنا خروج أحدنا فى وقت من طريق ثم اختفاؤه فى وقت آخر من طريق آخر هذا الهلع والإنكار اللذين يستبدان بنا عند مشاهدة ظاهرة الموت . ولكن يظهر أن الإنسان لأسباب متعددة قد أفسدت عليه أكثر نظراته إلى الوجود ، وأن عوامل التضليل كانت

مسلطة عليه منذ وجد ، وأنه لم يستطع حتى اليوم أن ينجو منها كما يجب أن ينجو . ولكن لا شك فى أن الإنسان سيبلغ فى يوم ما الغاية المقدورة له من حيث نضج الأفكار والرشد العقلى ... فالموت إذن ، وكذا الشيخوخة ، ليسا من مظاهر الرجوع بالوجود إلى وراء . وإذن فلا يوجد شيء فى هذا العالم يعود القهقرى ، أو شيء لازم مكانه بحيث لا يتقدم ولا يتأخر ، بل كل شيء دائب فى طريقه الطويل بلا حيدة أو وقوف .

***

أما هؤلاء الذين "قلدوا الزعامة الدينية ، واختيروا لقيادة الفكر الإسلامى فى أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم ، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهنى وموجة من موجات العماية الأصيلة ، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد ، فقاموا — وهم يترنحون من الغباوة ويتمايلون على أنغام الشيطان — ليوقعوا على أكذوبة علمية من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية فى التاريخ ... فقد زعم هؤلاء — بين هتاف الغباء المتواصل — فى كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الإنسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه أبداً ، وأن يرجع القهقرى وينكص إلى الوراء ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق وبالعدالة وبالنظام الاجتماعى المبرأ من العيوب والنقائص ... وزعموا أن كل خير هو فى أعمال الماضين ، وكل شر هو فى أعمال المتأخرين ، وأن كل خير فى اتباع من سلف ، وكل شر فى اتباع من خلف ، وأن كل ما يمكن تصوره من الخير قد مضى ، وكل ما يمكن تصوره من الشر فقد بقى ، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد ، وأنه إذا كان خيراً وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الأواخر ... إذ قد ادعوا أن الإنسان فى كل نواحيه ، العقلية والعلمية والخلقية والجسمية ، قد أخذ حظه من الكمال فى الزمان الأول، ثم عاد يتناقص وراح ينحدر مسرعاً فى سلم الرذيلة والجهل والانحطاط والضعف فى كل شيء ، وأنه لا يمكن أن يتوقف عن انحداره حتى يقضى عليه القضاء الأبدى الأخير ... وادعوا إجمالا أن الإنسانية — بل الخليقة كلها — تنزل ولا تعلو ، وتتأخر ولا تتقدم ، وتفسد ولا تصلح ، وأن الخير من أجل ذلك — الخير الذى لا خير سواه — هو فى الاستمساك بخيوط الماضى والارتماء فى أحضانه والإغماض عن الحاضر والآتى والقنوط منهما ، ثم تثبيت الأبصار والبصائر والآمال فيما سلف وفيمن سلفوا للتقليد

والاتباع ، لا للتفكير والاعتبار ... وقد حاولوا — والبلاهة تحدو لهم — أن يعززوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى أصحابه وإلى الأئمة المقلدين ، وجدوا فى نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفى ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقى عليها وينضوى إليها أربعمائة مليون من الأجناس المختلفة ، المتباينة ، الآخذة بأعظم دين جاء لإيجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقى المستمر . وقد استسلم لهذه الثقافة أو لهذه الخرافة كل الطوائف ؛ فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها فى شعرهم وأدبهم وتاريخهم ، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام فى الدين أو فى الأخلاق أو فى الوعظ . وقد غبروا زماناً قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون فى تركيزها فى النفوس وفى المعتقدات ، حتى قام عليها من الإجماع بين الخواص والعوام ما لم يقم على قضية أخرى ، وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بصدقها مما يتسامى على الخلاف والجدل ... ولو أن قائلا قال إنه لم يدر على خاطر إنسان الشك فيها وفى صحتها كل هذه القرون لما كان قائلا باطلا ، ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الإجماع الحقيق أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية فى أول ما نذكر ... وإن مما يدل على شدة إيمان الناس بها واتفاقهم على نبذ الخلاف فيها أن رجلا ثائراً بكل ما عرف من آراء وعقائد ونظم وحقائق — بل وغرائز — مثل أبى العلاء — أراد مرة أن يمدح نفسه وأن يبالغ فى مديحها ويأتى بالمستحيل الذى لا يكون ، ليكون ذلك أدل على ما يتصف به من نبوغ وعبقرية تستطيع أن تصنع ما لا يستطاع أن يصنع وما يعلم الناس كافة أن أحداً لا يستطيعه ، فلم يجد شيئاً يقوله أعظم من أن يدعى أنه يقدر على أن يأتى بما لم يأت به الأوائل — وهو الأخير زمانه — لأنه يرى أنه إذا فعل ذلك وجاء بشىء فات الأولين فقد بلغ ما يرمى إليه من نعت نفسه بالقدرة على المستحيلات ، فقال بيته المشهور من قصيدة له مشهورة :—

وإنى وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

ويحكى الرواة أن الناس أنكروا على أبى العلاء هذه الدعوى وأن الإنكار كان عاماً حتى إن غلاماً — كان من جملة المنكرين — تصدى لأبى العلاء متحدياً له غاضباً للأوائل منتصراً لهم وقال له : إن الأوائل قد جاءوا بثمانية وعشرين حرفاً من حروف

الهجاء فزدها حرفاً . وقد ذكروا أن هـذا التعجيز قد أصاب من شيخ المعرة مقتلا فأسكت غير واجد جواباً .

وكان أقوى ما عززوا به هذه الأغلوطة أنهم قلدوها مصلح الإنسانية عليه السلام وصحابته ، وأنهم ذهبوا يجمعون الروايات من هنا وهناك ويزعمونها من كلامهم إلى أن استقرت فى الأذهان هذا الاستقرار الذى صار من العسير التشكيك فيه وزحزحته .

من هـذه الروايات الرواية التى أوردناها فى مطلع البحث وهى : (لا يأتى زمان إلا والذى بعـده شر منه) . وهـذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة : (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) لأن نسبة الشر إلى الزمان سب صريح له . والزمان يقيناً لا يفعل خـيراً ولا شراً ، ولكن أهله هم الذين يفعلون فأنى ينسب إليه الشر ؟ فإذا قيـل إن المراد من هذه الرواية أن الناس يفسدون تباعاً ، وأن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذى قبله ، وخير من أهل الزمان الذى بعده ، وهكذا ، فالذم فيها لأهل الزمان لا للزمان — قيل أولا : إن هـذه الرواية قد نسب الشر فيها إلى الزمان لا إلى أهل الزمان ، والرسول لا يمكن أن يقول — ولو ظاهراً — ما نهى الناس عن قوله لأنه جاء معلماً ولم يجىء ملبساً ولا معمياً . وقد كان من الممكن أن يقول : (لا يأتى زمان إلا وأهله شر من أهل الزمان الذى قبله) ، أو ما هذا معناه .

وقيل ثانياً : إن الذين يسبون الدهر هم أيضاً يريدون سب أهل الدهر لا الدهر نفسه ، لأنهم يعلمون أن الدهر لا يصنع شيئاً كما قال أحدهم :

إن الجديدين مع طول اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومع أن هذا هو قصدهم فقد نهوا عن سب الدهر .

وقيل ثالثاً : كيف يصح الزعم أن أهل كل زمان يكونون شراً من الذين قبلهم ؟ إن هذه دعوى يكذبها كل شىء ؛ يكذبها الدين والحس والعقل والتاريخ . والأديان كلها لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكذيباً لهذه الدعوى ، لأنها إنما جاءت لنقل الناس من حالة عامة إلى أخرى مغايرة — وقد نقلتهم — وكان الناس الذين قبلوا الدين هم بلا ريب خيراً من الذين قبلهم ممن كانوا على خلاف الدين : فكان الأنبياء والمؤمنون بهم خيراً جداً من الذين قبلهم . ولو كانت هذه الدعوى صادقة لوجب على الأنبياء وعلى المصلحين أن يأمروا الناس باتباع من سبقوهم من الآباء والأسلاف . بل كانت هذه هى دعوى خصوم الأنبياء

لأنهم كانوا يأبون قبول ما جاءوهم به ، زاعمين أن الواجب عليهم أن يحافظوا على عهد الأولين وعلى عهد الأجداد ، ومدعين أن من الباطل أن يكون الأسلاف فى ضلال وأن يكون الأنبياء وأتباعهم من الأخلاف على الهدى وعلى الحق . وقد ذكر القرآن هذه الحجة عن المشركين من العرب فى مواضع كثيرة ، وقد أعلنها الله عليهم حرباً شعواء مسفهاً أحلامهم ، مطيلا جدالهم ، ومبيناً ما فى هذا الاحتجاج من غواية وجهالة . وقد حكى الله عن ابراهيم أنه قال لقومه « أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون » . الآية . فنص على الأقدمين ليدل على أنه لا قيمة للقدم ... فوجود الأديان إذن رد لهذا الزعم القائل : إن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذى قبله ، بل هو زعم الذين ردوا الأديان ، لأنهم استبعدوا أن يهتدى المتأخرون ويضل الأقدمون . فكأن هذه الفكرة هى فكرة أعداء الأديان والإصلاح الذين جبلوا على الجمود والتقليد لمن سلفوا على زعم أنهم أعقل وأفضل وأرشد وأعظم ، لأنهم أقدم . أما الأديان ودعوات الإصلاح فإنها ثورة على الجمود والتقليد لأن هدفها الأكبر تقديم الإنسانية بأفكارها وعقائدها وأعمالها إلى الأمام . وهذا لا يكون ممكناً إلا بالثورة على القديم ، وبالخروج على القدماء ، وعلى فكرة تقديس القديم بحجة القدم وذم الحديث بحجة الحدوث ... ولولا هذا لما قامت الأديان ، ولما قام شىء من الإصلاح ، ولما تقدمت العلوم والمعارف .

وفى الرواية قصة هى كوثيقة الجريمة التى تعلق فى عنق المتهم : قالوا أتى الناس أنس ابن مالك وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف فقال أنس اصبروا فإنه (لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم ... وإذن فالرواية إنما سيقت فى مقام الأمر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل فى ما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح ، ولا أمل فى أن يوجد أحسن من الحجاج ومن خليفته المرخى له فى عنانه ، ليخوض فى عدوانه ؛ لأن الناس أبداً يفسدون ولا يصلحون ، ولأنهم أبداً يجورون ولا يعدلون ، وأنهم سيظلون على ذلك يتتابعون فى الإثم والفساد إلى قيام الساعة من غير أن يقوم بينهم صالح عادل ... فالحجاج وخليفته شر من الذين قبلهم ، وهما خير من الذين بعدهم . فإذا ذهب الحجاج وذهب معه حكمه فلن يجىء خير منه بل شر ، لأنه بعده . وإذن فلا معنى للتبرم من حكومته ومن رجاء زوالها ، بل يجب العمل على بقائها والاستزادة من أيامها ، لأن بعض الشر أهون من بعض ، ولأن شر الحجاج أهون من شر من سيأتون بعده .. وقد جاء فى رواية أخرى أن الحسن البصرى سمع الناس يدعون

على الحجاج فنهاهم قائلا : إنى أخاف إذا ذهب الحجاج أن تتولى عليكم القردة والخنازير .

ومن الواضح عند من لم يتخلوا عن عقولهم لشيوخهم ، وعند من لم يضيعوا صوابهم بين سطور الكتب الصفراء المظلمة البالية أن هذا وأمثاله إنما وضع بقصد سياسى ، يراد به أن تستسلم الشعوب لقتلتها وجلاديها ولصوصها بدون أن تفكر فى الخلاص ، بل بدون أن تقبل هذا الخلاص لو قدم إليها هدية رخيصة، خوفا من العاقبة النكراء ، لأن الزمان وأهله أبداً يتتابعون إلى الشر ويتقدمون إليه ... وهذا كما لا يخفى غرض عظيم من أغراض السياسيين الذين يستعبدون الأمم ويركبونها ويأخذون منها كل شىء ولا يهبونها شيئاً ، وينالون منها ما أرادوا ولا ينال أحد منهم ما أراد ... وليس هنالك وسيلة أنجع فى تلك العصور ولا أقرب إلى تحقيق هذا الهدف ونيل هذا المطلب من أن تحمل القضية برمتها على الدين ... وقد لعبت هذه اليد السياسية فى هذه المسألة بمهارة ونجاح ، واستخدمت لتنفيذ سياستها هذه جموعا كبيرة من الأغرار الغافلين الذين أقيموا للناس رجال دين ، وزعموا أئمة مصلحين وأتقياء زاهدين ... فتكاثرت الروايات الموضوعة لهذه الأغراض ، وزحمت الجو الإسلامى أو الشرقى بها زحماً يشهد للقوم بالبراعة ولضحاياهم بالغرارة والغباوة . وقد كان قيام هذه الروايات بعملية التخدير التى كانت هى الحامل عليها قياماً ناجحاً ، فقد ظلت الأمم الإسلامية تغط تحت تأثيرها وتخديرها — والسياط تأخذها من كل جانب ، وحبال الجلادين تتحكم فى رقابها وتعلق منها ما تشاء — كل هذه القرون بدون أن تفيق أو تتألم ! وإن آثارها لا تزال اليوم ماثلة فى كثير من البلاد مثل ما كانت منذ مئات السنين ... أما النفوس فإنها لا تزال مأخوذة مسحورة بسحرها ، مخيمة عليها بشكل يدعو إلى الاستغراب . ومن مظاهر ذلك هذا الذى نشهده فى كل الطوائف فى البلدان الإسلامية أو الشرقية من الخنوع لخلفاء أولئك الجلادين الذين يحاولون اليوم أن يقوموا بتمثيل أدوار أسلافهم من الطغاة . وقد رأينا البائسين المحرومين يجدون لذة كبيرة وسعادة نفسية ، ووجدناهم تشرق وجوههم الكالحة المغبرة إذا أبصروا هؤلاء الذين أخذوا منهم كل شىء ولم يعطوهم شيئاً يمرون بهم ، بل إنهم يقفون صفوفاً صفوفاً ليتمتعوا برؤيتهم وليسعدوا بمشهدهم إذا ذهبوا أو جاءوا بمواكبهم التى يجب أن تملأ النفوس حقداً وغضاضة، من غير أن يتألموا من ذلك أو تطرف له أعينهم ، بل لعلهم يذهبون يدعون لهم من أعماق صدورهم ، يسألون الله أن يزيدهم مما أعطاهم ، وأن يرفع من مقاماتهم فوق رؤوسهم أكثر مما رفع ! ولا شك

أن هذه الروح التى برئت من الأحقاد النافعة ، ومن الغضب والغيظ لمرأى المظالم والظالمين - أثر من آثار هذه الروايات ، وبقية من بقايا أفعالها بالأولين المستعبدين . وهذه الروح تكاد لا توجد اليوم فى البلدان الغربية ، ولكنها لجأت باطمئنان إلى هذه الأركان التى لجأ إليها الجمود والركود والتقليد والاستسلام للجلادين .

ومن عزا إلى أنس — أحد أصحاب الرسول — أنه أمر بالصبر والاستسلام لمظالم الحجاج ومفاسده ، بحجة أن من بعده شر منه وأنه خير ممن بعده ، فقد بالغ فى الإساءة .

فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة فى أول هذا البحث وسواها من النقول الأخرى ، المزعوم فيها أن الإنسانية ترتد إلى الوراء ، وأن القدماء أبداً خير من الذين يجيئون بعدهم ، وأن الشر والفساد أبداً فى ازدياد ، وأن كل شىء ينقص إلا الشر فإنه يزيد — روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحبه فقد أصر على التنقيص والاتهام .

***

كيف جاءت هذه الفكرة — فكرة اعتقاد الخير فى الأولين والشر فى الآخرين ؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الإنسانية . ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الأطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم واتجاههم العام ؛ فإنهم يرون أن من هم أقدم منهم سناً أكبر منهم عقولا وأضخم اقتداراً . ولهذا فإنهم يجهدون على محاولة تقليدهم والاقتداء بهم من غير تفكير أو تردد ، وهم مخلصون فى هذا التقليد ، بل إن كل تفكيرهم وتناولهم الأمور موجه إلى هذا التقليد مقصود به ، بل لعلهم يرون ويعتقدون أن الكبار من الآباء والأجداد والأقارب وغيرهم يستطيعون أن يصنعوا كل ما يريدون ، وأن قواهم غير محدودة . ومن مظاهر ذلك ودلائله أنهم يطلبون منهم كل ما يخطر لهم على بال دون التفكير فى كون المطلوب يدخل تحت القدرة البشرية أم لا . وقد يريد الطفل من أبويه وغيرهما أن يحضروا له القمر وأن يضيفوا الشمس إلى لعبه الخشبية ... ففكرة الطفولة قائمة على أمرين : الأول : على أن الأقدم سناً ، الأكبر جسما أحسن منهم تفكيراً وأقوى قوة ، والثانى : أن هذه القوة — العقلية والبدنية — غير محدودة وغير عاجزة عن شىء ... وقد ترتب على هذين الأمرين أمران : الأول حرص الأطفال على تقليد الكبار الذين اعتقدوا فيهم هذه العقيدة ، والثانى تركيز كل

رغباتهم فيهم وصرف جميع آمالهم وحاجاتهم إليهم ، معبرين عن ذلك بالبكاء والضراعة والطلب الصريح . وليس هناك شك فى أن هذه الأفكار الطفلية الخاطئة ضرورية للأطفال أنفسهم وللكبار وللانسانية أجمع . فلو أنهم لم يعتقدوا هذا الاعتقاد فى آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم وفى الكبار لما تربوا التربية التى تفرض عليهم ، ولما أمكن أن يكونوا بشراً بالمعنى الصحيح ، لأنهم إذا لم يروا هذا الرأى فيمن يقومون على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم فإنهم لن يأخذوا عنهم شيئاً ، ولن يحاكوهم فى شىء . وإذا كانوا كذلك فلن يقبلوا تعلما ولا تربية ولا توجيهاً ، وإذا لم يقبلوا ذلك فلن تنمو فيهم المعانى الإنسانية والأخلاق ولا أمر من هذه الأمور التى صار بها الإنسان إنساناً مهذباً ... وأعظم روح توجه التربية وتسيطر عليها هى روح الثقة والاطمئنان والإيمان – أى ثقة المربى واطمئنانه وإيمانه بالمربى . وإذا فقدت هذه الروح أو ضعفت فلن تكون التربية أو محاولتها آتية بالغرض المنشود ... فهذا الاعتقاد الذى أسميناه إحدى اعتقادات الطفولة أمر لازم وخطأ لابد منه من أجل نقل الإنسانية إلى الأمام بعلومها وأخلاقها وكل معانيها .

ولكن كيف نشأت هذه الفكرة عند الأطفال وما مصدرها ؟ يظهر أنهم حينما جاءوا الدنيا فوجدوا آباءهم والذين هم أكبر منهم يستطيعون أموراً هم لا يستطيعونها ، ورأوهم هم الذين يصنعون لهم ويعطونهم كل حاجاتهم وكل ما يهبهم البقاء ، ورأوهم يتصرفون فى أملاكهم المحدودة وبيوتهم الصغيرة الخاصة تصرفاً مطلقاً ، نشأت لديهم هذه الفكرة ، وظنوهم مخصوصين بالقدرة والكمال دونهم ، وحسبوا أنهم إذا تصرفوا فى أملاكهم ومنازلهم تصرفاً بدون معارضة فإن لهم أيضاً التصرف المطلق ، وأنه لا فرق بين التصرف فى البيت والملك الخاص وبين التصرف فيما هو خارج البيت وفى العالم كله لأنهم لا يدركون الفرق بين هذا وهذا ، والتفكير فى مثل هذا الفرق بعيد جداً عن أذهانهم الصغيرة ... ثم اعتقدوا أن هذا الاختصاص الذى ظفر به الكبار مرجعه إلى أنهم كانوا أقدم وأكبر منهم ، وأن المسألة ترجع إلى القدم والكبر . ويدل على هذا أن الأطفال يصرحون به قولا ، فإذا طلب طفل منك أمراً فقلت له افعله أنت قال معتذراً : أنا صغير أو قال أنت كبير – وهما بمعنى واحد . فالصغير لا يفعل وإنما يفعل من أجله ، والكبير هو الذى يفعل ، ويفعل من أجل الصغار .

وإذا علم هذا علم أن هذه الفكرة هى إحدى فكر الطفولة . فإذا قيل وكيف انتقلت للكبار كان الجواب أن الأطفال لما كانت هذه فكرتهم بقيت عندهم وسارت

معهم وهم يتقدمون إلى سن الشباب وسن الرجولة ، وأصبحت ملازمة لهم وهم شبان ورجال بل وهم أمم وشعوب ... وكان الخلاص منها يحتاج إلى مقدرة عقلية فائقة ، ليعلموا بها كيف كان الكبار أعلم منهم وأقدر حينما كانوا صغاراً وما سبب ذلك — وهل سببه التقدم الزمانى أم سببه النضج العقلى ، وأن هذا النضج يكون فى الأوان للصغار كما كان فى الأوان للكبار ، وأن الكبار كانوا صغاراً ، وأن الصغار سيكونون أيضاً كباراً ، وأن التقدم والتأخر الزمانيين لا شأن لهما فى هذه المسألة ، وأن الشأن لتبرز العقل ، وأن زمان التبرز ليس هو القديم وليس هو ممكناً لقوم دون قوم — وربط المسببات بأسبابها ربطاً صحيحاً مفقود دائماً عند الأمم التى لم تبلغ المرتقى الثقافى المطلوب . والأمم المتأخرة الجاهلة مصابة بالفوضى فى التسبيب . فهذه الفكرة التى هى شعار للطفولة الميلادية بقيت أيضاً شعاراً للطفولة العقلية. والخروج منها غير ممكن إلا بعد تخطى الطفولتين . وما استطاع الإنسان أن يعرف خطأ هذه الفكرة إلا يوم أن بلغ رشاده الوجودى .

ومن الممكن أن يقال فى تعليل الاعتقاد فى القدماء ان المرء حينما يفد على الدنيا ويدخل المدرسة للتعليم والتلقين ، أو يسمع تعاليم عامة خارج المدرسة ، إنما يسمع ويلقن ويدرس ويحفظ كتب الأوائل — الذين هم قبله على أقل تقدير — وآراءهم وأفكارهم وعلومهم ... وهكذا يأخذ الاعتقاد فيهم ينشأ ويعظم ويرسخ ، ويقع فى ظنه أن كتب الأوائل وعلومهم هى التى تدرس وتعلم وتفرض معرفتها على من يجيئون أخيراً من أجل أنهم هم المخصوصون بالمعارف والنبوغ والمقدرة الذهنيـة ... ولا يدرى أن مرجع هذا إلى أن علوم الإنسان تتجمع كلها أو أعظمها عند الجيل الأخير ، ويأخذها ليضيف إليها علومه هو ، وأنه إنما يعلم كتب الأولين ومعارفهم من أجل أنها علوم الإنسانية مجتمعة وأنها التجارب العلمية البشرية كلها ، وأنه لابد من البناء على السابق ، لا من أجل أنهم أعلم وأفضل من المتأخرين . ولوجود الآثار تأثير فى هذا .

ويمكن أن يقال فى تعليل هذا أيضاً : ان المتأخر يقرأ للمتقدم ويقرأ عنـه ، وقد ثبت أن أكثر ما يكتب ويدون إنما يقوم على المبالغة والتزيد والكذب — إما تزلفاً وإما إرادة للإغراب ، وإما لأغراض أخرى . فإذا قرأ المتأخرون كتب المتقدمين عن المتقدمين وعن فضائلهم وقواهم ومحاسنهم واتساع ممالكهم وعظمة جيوشهم ومعجزاتهم وخوارقهم وغير ذلك، مما أكثره مكذوب أو مبالغ فيه، أخذهم الإعجاب بأصحاب هذا التاريخ السحرى وبأصحاب هذه المعجزات والكرامات والخوارق ... وهنا لا يجدون بداً من

أن يسقطوا صرعى لهذه الأكاذيب ، ولا يجدون بداً من أن يحنوا رؤوسهم تحت عروش هؤلاء القياصرة الخياليين ، ومن هنا يذهبون يقيمون القدماء مقام الآلهة المعبودين ويضعون أنفسهم موضع العبيد المسبحين . والذنب فى هذا يقع على رؤوس الكاذبين والجاهلين من المؤلفين الذين لم يستطيعوا أن يصفوا النهار بأوصاف النهار ولا الليل بأوصاف الليل ... وكم لهذه المؤلفات المزورة ولهؤلاء المؤلفين المزورين من ضحايا ! وكم صرفوا طالبي الذهب عن طلبه فى مناجمه وشغلوهم عن ذلك بمحاولة تصيير المعادن الرخيصة ذهباً وهَّاجاً ! وكم سحروا قراءهم المساكين، وأطاروا ألبابهم بأساطيرهم عن الأولين ! وكم أخذوا بأبصارهم وشدوها بذلك الفردوس المفقود المنشود الذى لم يوجد إلا فى كتبهم وبين سطورها المظلمة وفى عباراتها الركيكة ! إن هذه الكتب المسبحة بحمد هؤلاء الأرباب لهى من أعظم ما حاد بالإنسان عن طريقه ، وأعظم ما صنع له هذه النظارات التى لم يقدر — وهى على عينيه — أن يبصر الضياء ، فبقى يعمه فى ظلماته .

ومن الممكن أن يقال فى تعليل هذا : إن الإنسان لما كان لا بد له من مثل أعلى يقدم إليه احترامه وحبه وثناءه — والإنسان بحسب طبيعته لا يمكن أن يحيا أو يسعد بدون ذلك — وكان من غير المستطاع فى أحيان كثيرة أن يجعل مَثَلَه هذا من الأحياء المعاصرين ، لأن مخازيهم ونقائصهم حية تسعى معهم ترفض بقوة هذا الاحترام والحب والثناء . فذهب يتطلع ملتمساً هذا المثل والأمل ، وهذه القبلة ليستقبلها وليُصَلِّىَ إليها بآماله وأهوائه . فلم يجد ذلك إلا فى بطن الأرض بين الرفات والأموات ، لأن حقيقتهم مدفونة معهم لا تستطيع أن تنازع فيما يَدَّعُونَه عليها وعلى أهلها من الكمال المنتحل والمجد المكذوب... وهذا من أعظم أسباب الكلف بالميتين عند هؤلاء المسحورين . ولهذا فإنهم لم يجدوا غضاضة فى أن يقتلوا قوماً ثم يعكفوا على أجداثهم يعبدونهم ، ويخلعون على عظامهم البالية العارية خلَع التمجيد والتقديس ، بل التنزيه والتأليه ! وها هم أولاء اليوم يعبدون قبور أقوام كانوا فى حياتهم لا يظفرون من إخوانهم السابقين المعاصرين لهم بالعطف اللسانى ! وها هم أولاء يقدمون إلى هذه القبور الأموال الطائلة ، وقد كانوا يبخلون على أربابها — يوم أن كانوا أحياء يحتاجون إلى المال وينتفعون به — بالقوت لو طلبوه منهم . وقد قيل فى هذا المعنى أو ما يشبهه :

لا ألفينك بعـد الموت تعبدنى   وفى حيـاتى ما زودتنى زادا

***

كل هذا الذى تقدم هو كالمقدمة لما نريد أن نقول — وهو أن هذه الفكرة القائلة برجوع الإنسان إلى الوراء كانت من أعظم ما وقف فى سبيل القائلين بها وسبيل نموهم الوجودى ... وقد محت من أذهانهم كل ميل للتحفز وللتجديد والابتكار ومعالجة الوثوب ، وقضت على كل محاولة عقلية أو خيالية قد تتقدم بالعلم أو تسمو بالعاطفة ، بل لقد كادت تعجز العقل عن النهوض بوظيفته مرة أخرى لأنها قد ضربت عليه سباتاً طويلا حتى كاد يفسد فساداً عاماً ويعجز عجزاً أبدياً .

كان رشد الإنسانية وأهدافها أمامها ، وهى لن تبلغها إلا إذا سارت إليها ، وهى لن تسير إليها إلا إذا اعتقدت أنها أمامها ... وهؤلاء اعتقدوا أن الرشد والأهداف وراءهم ، فلم يكن بد من شيئين : أحدهما الوقوف عن المسير إلى الأمام ، لأن المسير إلى الأمام يبعد عن الرشد والأهداف لأنها وراء ، وثانى الشيئين العمل بكل حول على الرجوع إلى الوراء طلباً لهذه الأهداف ولذاك الرشد ... فكان لهذا نتيجتان : أولاهما أنهم لم يخطوا إلى الأمام خطوة واحدة ، وآخراهما أنهم رجعوا القهقرى أشواطاً وخطوات بعيدة ، لأنهم قهروا قواهم على الرجوع وألزموها به ، فأضاعوها فى التأخر وفى السير خلفاً ، وكانوا كلما تقدمت الإنسانية إلى كمالها شوطاً تأخروا هم شوطاً ، فتضاعف الفرق ، لأنهم كانوا يسيرون بالنسبة لها سيراً عكسياً .

كانت العقيدة التى حكمت هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم : أحدهما أن كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر ، وثانيهما أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال .

أما الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير فى التجديد والابتكار وقوفاً تاماً ، وان عدل نهائياً — على حسب ما ظنوا — عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير إذ قد فرغ من الإنسانية — على ما رأوا ، فتعطلت القوى وركب السكون والركود المواهب ، فمرت عشرات القرون على هؤلاء وهى تُعَدُّ لهم من حيث الوجود والأعداد عليهم من حيث التاريخ والأعمال .

انظر ، إن الكتب التى ألفت منذ مئات السنين — بل منذ ألف عام تقريباً — فى الفقه أو فى التفسير أو فى الحديث أو فى العقائد أو فى التاريخ أو فى الأدب أو فى النحو والصرف أو فى اللغة ، بل أو فى الطب ، إن كان هناك طب ، كتذكرة داود وأمثالها ، أو فى الفلسفة أو فى التربية إن كان ثمة تربية — إن الكتب التى ألفت منذ ذاك التاريخ

فى هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هى المرجع ، وهى التى تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع إلى قراءتها واقتنائها فى العالم الإسلامى كله ... وإن وجد شىء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلا مشوشاً ونسخاً ممسوخاً من هذه الكتب المُعَمَّرة ذات الألف وذات المئين من السنين ، حتى إن المجلات الدينية التى تكاثرت فى السنين الأخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن وشرح للحديث وتعديد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم فى الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه ، إن كان قد وجد اتفاق — إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون محاولة تافهة أراد بها محاولوها أن يقدموا إلى قرائهم فتاتاً متناثراً من تلك الموائد التى قام الآكلون عنها منذ ألف عام .

ولقد يعجب المرء إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام ، قد عقمت فى عددها العديد ، وعمرها المديد عن أن تلد مولوداً واحداً حتى ضرب المثل بعقمها ... إن هذه الجامعة فى كل هذه المدة وفى جميع هذه الأعداد الهائلة من الطلبة والأساتذة ، وفى ذلك الثراء الوفير الذى أرصده لها الواقفون ، قد عجزت عن أن تؤلف كتاباً واحداً فى نوع من أنواع العلوم التى اختصت بها وبدراستها وتدريسها ... والكتب القديمة العقيمة التى جعلت مادة للدراسة فيها ليست من وضعها ولا من تأليفها ونقلها ، وإنما هى استعارة خارجية ، وأكثرها من وضع قوم ليسوا عرباً لا فى ألسنتهم ولا فى أفكارهم ولا فى أذواقهم ...

وهذان العقم والعجز اللذان ضُرِبا على هذه الجامعة الشهيرة ضُرِبا أيضاً على سائر الجامعات والجوامع والمعاهد والبيوت الإسلامية الدينية ... وإذا حاول المرء أن يحار فى فهم سبب هـذا العقم فلا يجب أن تطول به الحيرة كثيراً ، فإن السبب فى ذلك — أو أعظم الأسباب — لأن المفروض أن لكل علة من عللنا حشداً من الأسباب — هو ما ذكرنا من الحكم على الإنسانية بأنها قد فرغ منها وأن خيرها كله قد تقدم وأنه لم يبق إلا شرها ... فإن معنى هـذا أن كل محاولة ينهض بها المتأخر فهى لا تعدو أن تكون أحد أمرين : إما خطأ وضلالا إذا كان الأوائل لم يفعلوها ويحاولوها ، وإما صواباً وهداية إذا كانوا قد فعلوها ! وإذن فلا معنى للمحاولة ، وإذن فلا تجديد إلا فى الخطأ والشر ، وإذن فقد خاب المجددون والمبتكرون ، وطوبى لمن عرف قدره فوقف عنده فسلم واستراح وأراح .

جثمت عليهم هذه الفكرة المدمرة فأذعنوا لها واستسلموا ، ووجدوا لذة فى الإذعان

والاستسلام ، لأنهما أراحاهم من تكاليف الوثوب ومحاولة السير ، ووجدوا فى أنفسهم ومن أنفسهم ما يشفع لهذه الفكرة وما يقنعهم بها ... فأغمضوا أجفانهم على العمى ، وعقولهم على العماية ، وعقلوا أعضاءهم بالكسل اللذيذ ، وقضوها ليلة طويلة فى السبات والعالم كله من حولهم يدلج ويسرى . ثم تبلج الصباح وقام النهار فإذا بالعالم قد سار ألف عام ، وإذا بهم قد رقدوا ألف عام ، وإذا ما بينهم من الفرق هو تاريخ ألف عام ، ولكنه ليس كالأعوام ، بل هو ألف يساوى عمر الإنسانية كله فى الإنتاج ، بل يفوقه .

وقفت القوى المفكرة عن العمل فضاعت عليها حكمة وجودها وتخلفت عن مسايرة القوة الفكرية العاملة ، وتخلفت بأربابها عن مسايرة الآخرين ، ثم أصيبت من طول الركود وترك العمل بما يشبه الفساد الطبيعى ، كآلة لا تستعمل . ولو أن إنساناً ظل نائماً مدة طويلة ولم يستعمل أعضاءه فى قيام ولا مشى ولا حركة لأصيب جسمه وقواه بما يوشك أن يكون فساداً طبيعياً ، ولاحتاج — إذا حاول استرجاع نشاطه وأعضائه كما هى — إلى تدريب ورياضة ، ولو أنه أغمض عينيه مدة طويلة ومنعهما النور لأتعبه الإبصار حينما يحاوله ، وقد يفقد بصره البتة ... فأصبح الفرق بين هؤلاء وبين الآخرين من ناحيتين : الأولى : أن الآخرين قد استخدموا عقولهم فقدمتهم ، أما هم ففقدوا عقولهم وحكموا عليها بالإعدام فلم يقدروا على التقدم ، لأن التقدم إنما يكون بتقديم العقل وإرشاده ، والعقل قد عزل عن هذه الوظيفة . والثانى : أن الآخرين بقيت عقولهم عاملة فبقيت نشيطة سليمة لم تصب بما يشبه الركود أو الفساد ، أما هم فأصيبت عقولهم فصارت محتاجة إلى البعث والترويض والتمرين قبل أن تصبح قادرة على العمل ، فتعاظم الفرق . ومعلوم أن كل شىء يصلحه العمل على حسب طاقته ويفسده الإهمال والترك . والعلم والتجربة يرشدان إلى الاستعانة على الأبدان التى تقل حركتها وعملها بالرياضة لتبقى على سلامتها وطاقتها ووظيفتها فى الحياة . فإن من المعروف أن الأبدان التى يكثر سكونها تكون عرضة للانهيار ، وفريسة سهلة للأمراض ، وقد تصاب فى الآخر بما يجعلها غير صالحة للحياة ولا قادرة على الاستمتاع بنعمة الوجود .

وأما الأمر الثانى — وهو الاعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخير كله وبلغوا الكمال المطلق ، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بها — فقد ترتب عليه أيضاً نتائجه . فإن هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم وعنايتهم إلى محاولة الاقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم ، بل محاولة إعادتهم ونشرهم

لو كان ذلك مستطاعاً ... وهذه الفكرة التقليدية كانت مستولية على جميع الطوائف . فالقائد والسياسى والزعيم والملك — كل من هؤلاء يحاول — ويتمنى لو قدر — أن يقتدى بمن خلوا قبله من القواد والسياسيين والزعماء والملوك ، ويرى كماله ونجاحه مقدورين بما يحسن أخذه ونقله عن ذلك المثل الأعلى القديم الذى تخيله — والمحدث والفقيه والمفسر والمتكلم والفيلسوف والأديب والنحوى واللغوى وسواهم — كل منهم يدأب على أن يكون كالسابقين فى هذه العلوم وعلى أن يخلط نفسه بهم وأن يفهمهم ويفهم ما قالوا وكتبوا من المؤلفات والعلوم . وكل منهم يرى أن قيمته العلمية مقدرة بما يأخذ ويفهم عن هؤلاء وعن كتبهم ، بل والزهاد والعباد وأضرابهم عملوا على أن يكونوا نسخاً مكررة لمن تصوروهم مثلهم العليا من الأقدمين فى العبادة والزهادة ، وهكذا كان جميع الناس . وقد كان لهذا نتائج عديدة :

منها أن جميع البارزين الذين اشتغلوا بالتفكير وبالبحث العلمى قد وجهوا كل تفكيرهم وبحثهم إلى كلام الأولين وإلى ما خلفوا من كتب وآراء ، محاولين فهمها ووضع الشروح والتفاسير عليها دون أن يحاولوا إبداء فكرة مستقلة أو إيجاد رأى جديد — وهكذا أضاعوا قواهم فى غير ما شىء وفى غير أن يفيدوا أو يستفيدوا . فكانت الخسارة الإنسانية فى هؤلاء لايمكن تعويضها ، كما لايمكن تصورها ولا تقديرها لجسامتها .

وكم يأسى المرء إذا علم أن آلاف العقول الممتازة فى استعدادها — أو مئات الآلاف — أو أكثر من ذلك — تلك العقول التى عدت لامعة فى ظلمات القرون الوسطى — قد بددت وأنفق ما فى إمكانها فى إيراد الاحتمالات والإمكانات التى قد يحتملها كلام الشيوخ المتقدمين وقد يكون غير محتمل لها ! وكم يأسى إذا تذكر تلك المعارك الهائلة التى أداروها بإخلاص وتقى وعناية وبلا انقطاع ، فى الخلاف على فهم كلامهم — أى كلام الأولين — وفيما أرادوا وعنوا بما قالوا وكتبوا ، وإذا نظر إلى هذه الجبال من الكتب التى لا يمكن تعدادها ثم رأى أن كل ما فيها لا يخرج عن تفسير لكلمة قالها أحد القدماء أو عن اختلاف عليها أو عن إيراد الوجوه التى يمكن أن تكون مرادة بها أو عن تبيان لفضائله أو لكراماته وخوارقه ، ونحو ذلك مما يدور هذا المدار .

إننا لو جمعنا جميع الكتب التى تزخر بها المكتبات الخاصة والعامة مما وضع فى الألف السنة الماضية ، ثم أردنا أن نخرج بكتاب واحد لم يوضع هذا الوضع ولم يقصد به هذا

القصد ، لأعجزنا الخروج ! وأدهى من ذلك هذا الركام من المؤلفات التى وضعت خاصة بالأولياء وبتراجمهم وبسرد ما كانوا يتمتعون به من سلطان روحى قهر لهم الطبيعة وأذل نواميسها لجعلها طوع أهوائهم ... معنى هذا كله أن عشرات الأجيال قد تنازلوا عن كل قواهم الذهنية لتضيع وتنفق فى البحث عن كمال الأولين ، وفى التدليل عليه وفى التمسح بأركانهم ، والطواف بحرمهم ، وفى الحج الروحى الفكرى الذى لا إحلال منه إلى مشاعرهم. وسبب هـذا هو اعتقاد الكمال فيهم . فيالها من خسارة انتزعت من الإنسان أجل ما فيه مدى ألف عام ، بل انتزعت منه معناه كله بدون أن تعوضه شيئاً .

ومنها — أى من النتائج المترتبة على تصور هذا الكمال — كثرةُ العمل مع قلة الإنتاج ، ونشاطُ الحركة التأليفية مع ركود الحركة الفكرية — أى إن المؤلفين والمتكلمين والناعبين فى العلوم والحقائق يكثرون جداً ولكنهم يقلون أيضاً جداً ، لأنهم لا يصنعون شيئاً ولا يأتون بشىء . وذلك أن عملهم حينئذ لا يجاوز أن يكون ترديداً وتعديداً لما قاله وكتبه الأولون ، وإيجاد نسخ متعددة بأسماء متعددة لشىء لا يتعدد . لأن الإنسان لا يريد بما يعمله سوى الكمال الذى يتصوره إذا استطاعه ولم يمنعه منه مانع ، فإذا اعتقد معتقد بأن الكمال إنما يلتمس عند الماضين وفيما ألفوا وحكوا ورووا فلا محالة من أن يقضى حياته جاثياً أمام تلك الهياكل المقدسة جثو العابد أمام صنمه المقدس ، التماساً للفيوضات والإمدادات والبركات . ولو أننا نظرنا فى مئات الكتب وآلافها الموضوعة فى علم واحد لما ألفيناها إلا كتاباً واحداً أخذت منه صور عديدة منها الصغيرة ومنها الكبيرة ، ومنها المشوهة ومنها المقاربة ، ثم نحلت أسماء على عددها . إننا نعد فى علم التاريخ مئات الكتب وألوفها — وكذا فى الحديث والفقه والتفسير وفى كل علم — ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتاباً واحداً ! فإنسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفاً فى علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها ، فإذا جاء بعده ألفُ مؤلف فى هذا العلم فإنهم جميعاً سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير . وهذا هو الشأن فى جميع المؤلفات التى تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتى يفوت إحصاؤها . وعلى هـذا فمن الخطأ الذى يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا فى مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأى قد قال به ورواه هذا العدد العديد . والصحيح أن نقول إنها أو إنه رواية أو رأى إنسان واحد فى مؤلف واحد نقله عنه هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل ، فلا ننخدع ونخدع بالكثرة

وتقول : كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ! وكيف تكون كذباً ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ! إن من السهل على الإنسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه ، ولكن من العسير عليه أن يشك فى رواية العشرات ورأيهم ، ولاسيا إذا كانوا ممن يجل ويحترم . وقد طارت أغلب الأباطيل فى أرجاء العالم الإسلامى بهذه الوسيلة حتى صارت من الحقائق التى يرد النزاع فيها ولا يقبل.

وكثرة العمل مع قلة الإنتاج على النحو الذى ذكرناه لها مفاسد : فهى تسرق أوقات القراء كما سرقت أوقات المؤلفين بلا فائدة ؛ فإذا قرأ القارىء عشرة كتب من هذا النوع فهو إنما قرأ كتاباً واحداً ، والوقت والجهد اللذان بذلا فى قراءة التسعة إنما ذهبا فى غير شىء سوى التكرار والإعادة للكتاب الأول — ثم الكتاب الأول ماذا فيه ! ! ومن المشكوك فيه أن يكون لهذا التكرير نتيجة — وهى أيضاً تزحم المكتبات والمطابع ، وفى ذلك من التكاليف ما هو معروف — وهى أيضاً تعين على نشر الأباطيل والتمكين لها لأن الباطل الذى ينشر فى عدة كتب ويقول به عدة كاتبين ينتشر أكثر مما ينتشر الباطل الذى يكتب فى كتاب واحد ويقول به كاتب واحد — إلى مفاسد أخرى كثيرة .

ومنها — أى من النتائج المترتبة على اعتقاد كمال الأولين — استدامة الخرافات واستدامة الإيمان بها وإباء النزوع عنها ، لأن من آمن بكمال قوم وبأن كل ما يصنعون خير وحق ، وبأنهم مطبوعون على الصواب والحكمة فسيأخذ عنهم كل ما بلغه ووصله ، وسيصر عليه ويأبى الشك فيه وإن كان فيه ما فيه من الفساد والبطلان ، بل سيكافح ويناضح عن كل ذلك ، ملقياً بعقله تحت قدميه ، بل غير مفكر بأن له عقلا يجب أن يرجع إليه . ومعنى هذا أن خرافة يكتبها مخرف فى عصر من العصور تبقى متنقلة مع كل العصور ، مُؤْمَناً بها فى كل العصور بلا تفكير فى تركها أو شك فيها ، بل تصبح عقيدة جامعة لكل من يجىء بعد قائلها وكاتبها . وهكذا تظل الخرافات تتكاثر حتى تخرج من ذلك مجموعة لا شبيه لها عند أمة من الأمم سوى الأمة التى ذهبت هذا المذهب وقالت هذه المقالة . وهذا هو ما حدث ؛ فإن الأباطيل التى كتبها الشعرانى أو الغزالى أو غيرهما من المصابين بعقولهم ومعارفهم منذ مئات السنين لا تزال اليوم يُؤْمَنُ بها مثل الإيمان بها يوم أن قيلت ، ولا يزال الإيمان بها يحمل تلك الحرارة التى حملت مؤلفها على وضعها فى كتابه مزهواً فخوراً ، بل إن حرارة الإيمان بها لا تزال تتزايد وترتفع على رغم القرون

التى مرت بها ، وعلى رغم المعارف المتجددة التى اجتاحت فى البلاد الأخرى أمام سلطانها وجبروتها جيوش الجهالات اجتياحا مبيداً .

إن العاقل لتأخذه الحيرة البالغة متى أتيح له أن ينظر فى هذه الكتب المُسِنّة التى تخرجها المطابع تباعا ليلتهمها القراء بشره ولذة ، وأتيح له أن يرى ما تحمل من جهالات بل من جنون وخبل ومن كفور ومروق ، ثم رأى كيف يقبل عليها ويقبلها قوم قيل : إنهم عقلاء ، وقيل إنهم مؤمنون ، وقيل إنهم خيرون، بدون أن يجدوا فرصة للشك فيها ، وبدون أن يجدوا أذناً تصيخ لنقدها والاعتراض عليها ، بل بدون أن يتركوا لغيرهم أن ينقد أو يعترض أو يشك . وقد تخف أو تتلاشى هذه الحيرة التى تأخذ بالعاقل إذا علم أن سبب هذا الاستسلام الفظيع لهذه الكتب ولكاتبيها يرجع إلى هذه العقيدة القائمة على اعتقاد الأوائل من نسل الشموس ، ومن حفدة الآلهة المبرئين من الخطأ ومن الجهل ومن الضلال والخبث وإرادة السوء ومن الضعف والعجز . ولو أن شيئاً من الشك نفذ إلى هذا الاعتقاد فأوهاه وأصاب حرمه المحرم بشىء من الخروق لكان من المحقق ألا يجد هؤلاء المضللون لهم أتباعا ورعايا يسيرون خلفهم وبين أيديهم كالقطعان المذعورة .

يجد المصلحون اليوم عناء وإرهاقا فى محاولتهم هدم ما شاده الجهل الأول ، ويلقون إعراضاً مزعجاً وبلادة منكرة ، ويذهب كل ما يبذلونه أو أكثره فى هذه المحاولة هباء : فالبراهين لا تجدى بل لا تسمع ، والعظات لا تؤثر ، وكل شىء يروح كما جاء . والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال فى أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات فى كتبهم . فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقاد الكمال المطلق فيهم . والسبيل التى لا سبيل سواها ، لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هى فيه ، أن تُعَلَّم الكفرَ بهؤلاء والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم ، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً ، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين ، وأن تعلم كيف تثق بنفسها وبعقلها واستعدادها .

إنى لأنظر إلى هذا الميراث الثقيل الباهظ الملقى فى طريق المسلمين ، وإلى هذه الأسفار التى تروع أعدادها ويعجز تعدادها — وما فيها مما لا يستقيم لأمة أمرها ووجودها معه ، فأفزع وتذهب بى الأفكار فى كل وجه، ثم تؤوب بى مجتمعة مجمعة على أنه

لا خلاص إلا إذا استطعنا أن نكفر بهذا الميراث ، وعلى أنه لا يمكن الكفر به إلا إذا عرفنا كيف ننزل مورثينا إياه عن هذه العروش السماوية التى صنعناها لهم على حساب قوانا العقلية والدينية ثم أجلسناهم عليها ، ثم جثونا تحتهم نسبح بحمدهم ونقدسهم وننزههم عن كل ما يخطر بالبال من إثم أو نقص أو ضعف ! فهل من سبيل إلى هذا ؟ على أنه لا سبيل سواه .

ومنها — أى من نتائج هذا الاعتقاد أن وقع معتقدوه بين عاملين يتنازعان قواهم ويتجاذبانهم . وذلك أن الإنسان — كائنا ما كان اعتقاده وتفكيره — لا يستطيع أن يكون غير لبنة فى هذا الوجود المتطور المتقدم ، فهو من حيث هذا سائر مع الوجود السائر ، أراد هذا أم لم يرده ، عرفه أم لم يعرفه . فإذا كانت له أفكار واعتقادات لا تعترف بهذا التقدم والتطور ، بل تنكره وتجحده وتحاول الرجوع به إلى الوراء ، فهو من حيث هذا متخلف عن الوجود السائر ، أو سائر سيراً مضاداً . فهو إذن واقع تحت حكم عاملين متضادين كل منهما يؤثر فيه ويعمل فيه عمله ، وهو حينئذ عاجز عن أن يخلص لأحد العاملين ويكون له وحده ، فلا مفر من أن يصبح متقسما وأن تضيع قواه هباء ، بل لا مفر من أن يتمزق بين هذين العاملين كما يتمزق كل شىء وقع بين أمرين قويين متنازعين . ولهذا فإن هؤلاء الذين يتلفتون إلى الوراء ويحاولون ـ لو أمكن ـ أن يرجعوا بزمانهم ومكانهم وبالوجود كله إلى ذلك العصر الذى تخيلوه وتخيلوا أهله يصبحون أهدافا سهلة للأفكار المضطربة السوداء وللعقد النفسية والارتباكات العصبية وللمشروعات الخيالية التافهة السريعة التى يولدها الإعياء والعجز والحيرة الغالبة . والحيرة والتردد لا مثيل لهما فى تخذيل الشعوب وقتلها ، وفى تبديد قوى النفس وإصابتها بالعجز عن كل فعل له قيمة وأثر باقٍ ... والذين يصابون بالحيرة والتردد من غير المنتظر أن يصنعوا شيئاً يحوز الإعجاب والخلود ، كما أنه من غير المنتظر أن يجدوا فى هذه الحياة سعادة حقيقية .

والشعوب — بل والأفراد التى تصيب النجاح — هى التى ترزق القدرة على التصميم وعلى التخلى عن كل حيرة وتردد . والتصميم ضرورى فى الحالة العادية وفى الطارئة أيضاً وفى كل حالة ، فهو ضرورى فى حالات الحروب وفى حالات السلم ؛ فلا بد من التصميم على الحرب فى أوانها ، كما أنه لابد من التصميم على السلم فى إبانها ، وإلا فلا ظفر

لا فى هـذه ولا فى هذه . ولو أن إنساناً حاول أن يقوم بعمل صـغير ثم لم يعرف كيف يذود كل حيرة وتردد لما كان من المأمول نجاحه .

وإذا كان هذا كله صحيحاً — وهو صحيح بلا شك — فهؤلاء الذين يقولون إنه يجب الرجوع إلى الماضى فى كل شيء ، ويجب هجر الحاضر فى كل شيء ، ويقولون إن الخير كله فى الأزمان الذاهبة ، والشر كله فى الأزمان الحاضرة والمقبلة ، ويقولون إن قلوبهم معلقة بالماضى البعيـد أبداً ، وإنهم يعملون على الرجوع إليه — هؤلاء لابد أن يصابوا بالحيرة التى يعيى الخروج منها . وذلك أنهم يقولون هذه المقالات ويعتقدونها ويرونها حقاً ، ولكنهم من ناحية أخرى يرون الدنيا وما فيها تدور أمام أعينهم ماضيـة ممعنة فى المضىّ ، مصيبـة من النجاح والفوز مالا تمكن المماراة فيه . فالواقع المشهود المنظور الملموس يقول لهم — إذا قالوا هذه المقالات — : كلا إنها غير صحيحة وغير صـادقة ، وإنى — أنا الواقع المشهود — أشهد ببطلانها وكذبها ، ثم تصيح بهم هـذه العقيدة من ناحيـة أخرى مؤكدة صحتها وصدقها وتأييد الأديان كلها وأهلها لها . فتركبهم الحيرة ويركبهم الشك المتولدان من الواقع المشهود ومن هـذا الاعتقاد المكين القديم . فيصيرون نهباً متوزعاً ، وتذهب هذه الحيرة وهذا التردد يأكلان عقولهم وأفكارهم وأعصابهم وأعمالهم ، ويعجزانهم عن أن يصنعوا شيئاً عظيما ... وهذا كله ملاحظ على هؤلاء الذين لا يفتأون ينادون بالماضى — وقد عجزوا عن أن يرجعوه ، وعجزوا عن أن يعيشوا فيه ، فهو لا يستطيع المجيء إليهم ، وهم لايستطيعون الذهاب إليه ، لأنهم ليسوا من أبنائه . وسنة الحياة لا تقاوم . وعجزوا من الناحية الأخرى عن أن يعيشوا فى هذا الزمان الذى هم فيه لأنهم يحاولون دائمـاً التملص منه والخروج عنـه — ولأنهم لم يهبوه حبهم وتفكيرهم وهواهم واتجاههم . فصاروا منقطعين عن هذا وعن هذا ، وأضحوا مجندلين بينهما ، ينظرون إلى هـذا الجانب تارة وإلى الجانب الآخر تارة أخرى . ومن المعلوم أن إنساناً ما لا يستطيع أن ينتزع نفسه من العصر الذى يعيش فيه انتزاعاً ، وأن ينقلها إلى العصر الذى يحبه ويتمناه . فإن الإنسان ابن زمانه وابن نظمه وتقاليده وتعاليمه وعاداته وأفـكاره . وهذه الأشياء تحكم على الإنسان وإن كان من الممكن أيضاً أن يحكم عليها ، ولكن من غير الممكن أن يخرج من كل سلطان لهـا وتأثير . ولعل من العجب أن البشر هم الذين يوجدون هذه الأمور ثم يتعبدونها ويصبحون من أرقائها الخاضعين لأمرها ، بل ثم تصبح هى التى توجدهم وتصنعهم وتـكيفهم .

فهؤلاء الذين يجهرون كل وقت بالدعوة إلى الإنسلاخ من عصرهم ومن علومه وأخلاقه وعاداته ونظمه، ليحملوا أنفسهم على أزمان قصية عشقوها، وليعيشوا بأخلاقها وعلومها وعاداتها، ما مثلهم إلا كانسان قد شد شداً محكما لا خلاص منه بعربة متجهة بسرعة إلى جهة من الجهات، يحاول الرجوع إلى الجهة الأخرى بكل ما فيه من تحفز وتوثب واهتمام وأعصاب. إن مثل هـذا الإنسان لن ينال من هذه المحاولة سوى إجهاد أعصابه وسوى عذابه النفسى المتواصل، ولكنه لن يتخلى عن عربته ولن يرجع إلى جهته.

وعلى هذا الاعتقاد — اعتقاد كمال الأولين ونقص الآخرين — قامت أكبر جهالة رضيها الإنسان لنفسه، واستعبد بها عقله ونزل بمقتضاها عن أجل ما وهب — عن الفكر الحر الباحث الناظر فى الأشياء كيف شاء بلا قيد أو حرج — هذه الجهالة هى إلزامه نفسه بما سماه (التقليد)! وقد نظم ذلك شعراً يحفظه ويدرسه فى قوله: (وواجب تقليد حبر منهمو) أى من الشيوخ المتقدمين! من المعقول أو من شبه المعقول أن تفرض العبودية الفكرية على أمة من الأمم أو على الأمم كلها بالقوة وبالسلطان العاتى، كما يفرضان سائر المظالم والجبروت، ولكن من غير المعقول أن يفرض الإنسان ذلك على نفسه طائعاً مختاراً وأن يلزمها به إلزاماً، وألا يلتفت إلى من أراد رجع حريته إليه وإعطاءه ما سلب، بل يعد ذلك عدوه وخصمه فيصاوله وينازله.

طغت هـذه الجهالة على العالم الإسلامى، واستبدت به استبداداً مبيناً، وأجهزت على كل حرية فكرية عنده، وسرقت من العقل وظيفته، فاعتاد أن يأخذ الأشياء قضية مسلمة وألا ينظر أو يفكر أو يبحث أو يشك ... بل اعتاد أن يأخذها أخذ تسليم بدون فهم وبدون رغبة فى الفهم وبدون أن يرى ذلك مطلوباً. فأصبح من أخلاقه التى تكاد تكون طبيعية أن يصدق كل شىء وأن يقبل كل شىء وألا يحاول فهم شىء. وصار التصديق وتبلد الحاسة العقلية من الصفات المميزة له المسيطرة عليه ... فبالتصديق آمن بكل الخرافات التى يلقنها بدون عناء حتى صار أعجوبة فى استسلامه المخجل لكل هنة فكرية — وبتبلد الحاسة العقلية وقف دون الأشياء، ودون النفوذ فيها، ودون فهمها بل ودون الرغبة فى فهمها حتى عد الشك فى الأشياء ومحاولة الفهم للأمور من خصال الكافرين والملحدين المارقين، واعتبر سرعة التصديق وسهولته والوقوف أمام الأشياء ببلاهة وبلادة، كوقوف الأصنام أمام عابديها، من علامات القبول والإيمان. فالشك فى المتن

أو فى الشرح أو فى الحاشية أو فى التقرير كفر ، والإيمان بكل ذلك — فهم أم لم يفهم ، صدقه الواقع أم لم يصدقه ، ائتلف أم اختلف ، صلاح وورع وسلامة عقيدة ! والمفروض المأمور به أن يتهم الإنسان عقله ونفسه وأن يجعل أصحاب المتون والشروح والحواشى والتقارير من وراء التهم وفوق الظنون . فمن وجد فى كتاب من هذه الكتب تناقضاً أو باطلا أو كذباً أو جهلا أو سخفاً وكفراً وجب عليه أن يعتقد أن ذلك من نقص فيه لا فى المؤلف ، ومن تناقض أو باطل أو كذب أو جهل أو سخف أو عجز فى فهمه هو ، أما المؤلف فالواجب تنزيهه وتقديسه وتصديقه ... وقد غبروا مدى ألف عام وهم مصلتوها سيوفاً مرهفة فى وجه كل من يحاول أن يعترض أو يصحح أو يشك بل أو أن يفهم ويعقل ... وإلى اليوم لا يزالون شاهرى هذا السلاح .

ومن الحقائق المعروفة فى المعاهد الدينية الكبرى أن المفروض على الأستاذ المدرس وعلى الطالب أن يصححا عبارة الكتاب وأن يخرجاها تخريجاً صحيحاً وأن يوجدا لها المحمل الحسن وإن كلفهم ذلك التضحية بالعقل وباللغة وبالذوق وبكل شىء .

فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة . وأظهر آثارها كما سبق شيئان : التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل ، وغل العقل عن الفهم ! ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم . فالشك والفهم شرطان ضروريان فى تحصيل الحضارة والعلم والقوة . والذى لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، والذى لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز ، وبالنبوغ والامتياز فقط تتقدم المعارف وتخلق الشعوب وتقوم الحضارات .

***

ومن الواجب أن نعلم أن الوجود الإنسانى كله والحضارات الإنسانية أجمع إنما قاما على فكرة التطور ، وعلى فكرة أن الإنسان مستعد دائماً للتقدم والترقى بكل معانيه ، وعلى أن ما أمامه أفضل مما وراءه ، وعلى أنه يلزمه أن يبتسم للمستقبل ويبسط إليه يديه ، وأن يعبس للماضى وينقبض منه ويقبضهما عنه . على هذه الأفكار الجامعة الصغيرة الكبيرة معاً سارت الإنسانية بخطاها الوئيدة الثابتة نحو هذه الحياة التى تحياها اليوم ، وستبقى سائرة فى طريقها بإرشاد هذه الأفكار أيضاً وبحفزها وتحريضها حتى تصيب أهدافاً وأغراضاً أخرى تهون فى سبيلها كل مشقة . ولو أن الإنسانية كلها آمنت

بهذه الفكرة – أى فكرة الرجوع إلى الوراء – كما يريد هؤلاء وعقلت قواها بها لما كان من المستطاع أن تعمل خيراً ولا أن تقضى على شىء من الشرور الموروثة عن الأزمان الأولى وعن أخلاق أهلها . ومن الواجب أن يعلم أيضاً أن نظر الأمة إلى هذه الفكرة مقدور برقيها ؛ فالأمة التى بلغت القمة فى الرقى وسمو التفكير وفى الاستعداد لأخذ أسمى ما فى الحياة من معنى ومن فن تكون أكفر الأمم بها وأكثرها ابتساماً إلى المستقبل وتطلعاً إليه وثقة به وعملا له . والأمة التى يندر نصيبها من الرقى تأوى إلى هذه الفكرة بعلمها وعملها بقدر ذلك . وعمل الأمم للمستقبل وللبعث وللتجديد إنما ينهض على هذه القاعدة . وقد جلت هذه الحرب ما لهذه الفكرة – قبولا ورداً – من آثار فى الشعوب ومن تقرير لمصايرها وقيادة لها : فلو أن ألمانيا أو انجلترا أو أمريكا أو غيرها من الدول الكبرى اعتقدت بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان وبأن ما عجز عنه القدماء فلن يقدر عليه أبناؤهم وأبناء أبنائهم ، لما استطاعت أن تحسن وتجدد فى أسلحتها وقواها وعلومها وفنونها وأساليبها ، ولقرت عيناً بما صنع قبل ذلك ، ولما أمكن أن تخرج القنبلة الذرية ولا غيرها مما دان لقدرة المتأخرين ، وكان فوق قوى المتقدمين . ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة إسقاط بريطانيا للرجل الذى أعطاها النصر وانتزعه لها من بين لهوات الهزيمة ، إذ لا شك فى أن الانجليز إنما أسقطوا تشرشل لإيمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه ... ولا ريب أن شعباً يعتقد هذه العقيدة فى تشرشل وفى خلفه شعب يؤمن أشد الإيمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائماً أفضل وأكمل من الماضى وأهله ... وإن شعباً تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جداً مباراته أو إنزاله عن سلطانه الضخم الواسع . ولو أن رجلا كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذى أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة – بل ومن الكفر بالله – التفكير فى إبعاده عن الحكم والقيادة ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحاً لو أريد العمل به ، ولكان من المستيقن أيضاً أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين فى أرجاء العالم الإسلامى ممن عبدوا مجاناً ، لأنهم لم يصنعوا شيئاً يستحقون عليه هذه العبادة التى يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء ، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدى .

وفكرة المغالاة فى الأموات الماضين هى فكرة من هذه الفكر — أى من فكر عجز المتأخر عن مباراة المتقدم ومساواته .

وقد اتضح لنا بعد هذا كيف يجب أن ننظر إلى الماضى وأهله ، وكيف يجب أن ننظر إلى المستقبل وإلى أهله ، وكيف يجب أن نضع أنفسنا . والويل لمن قعد والناس حوله قيام .

المشكلة التي لم تحل

يتبين للقارىء ، إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها ، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل ، أو على الفكرة الدينيـة من حيث هي . فالمشكلة التي ما أظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية ، هي أن فكرة التدين قائمة على الإيمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب ، لأنه هو خالقها ، المهيمن عليها ، المتصرف فيها كيف شاء . وهذا السبب الذي هو سبب الأسباب — أي الله على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفي حقيقتـه — لا يحتاج هو إلى سبب في وجوده وقيامه بنفسه وفي فعله وصنعه . فإذا وصلوا إلى الإيمان بهذا السبب وإلى الإيمان بقدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر ، شكوا في الأسـباب الأخرى التي هي دونه ، والتي هي من خلقه وصنعه ! وإذا ما صاروا إلى هـذا الشك في الأسباب تراخوا فيها وفي الأخذ بها ، وفي العمل على إتقانها والتعويل عليها ، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الإبداع والتبرز وعن الإنتاج والعمل البارع العظيم . فإن الإنسان لن يكون سبَبِيًّا محضاً إلا متى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية ، تسير إلى نهاياتها ونتائجها أيضاً سيراً آلياً طبيعياً ، ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو أن تتحكم في نهايتها . وهو — أي الإنسان — لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببياً محضاً ؛ فالإيمان بسبب الأسـباب يمنعه — على حسب ما تصور وبلغ — من أن يكون سببياً ، وعدم كونه سببياً يمنعه من النجاح — هـذا هو كل ما استطاعت مدارك البشر الدينيـة أن تبلغ وأن تعرف . تلك لعمر الله هي المشكلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل حتى اليوم .

فالتصور الديني البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الإله إما أن يكون له فعل وعمل في هـذا الوجود ، أو لا فعل ولا عمل له ؛ أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفي الإله ، إذ لا إله بدون عمل وأثر . أما الافتراض الأول الذي لا بد من الاقتناع به فإنه على حسب الفكرة الدينية — أو على حسب تصور المتدين — يوجب الارتياب والاستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها . فإن تصرف هذا الإله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولا

فى الأسباب وتصرفاً فيها أو عملا بدونها ،أو إيجاداً وخلقاً لها ، فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب ، فلا محالة من افتراض قطع سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء ، ثم هو إذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفاً لسبب وإبطالا ومنعاً له من بلوغ غايته ، وإما إعانة له وإبلاغاً للغرض والنتيجة بدونه ، وإما إيجاداً وخلقاً له . والاحتمالات كلها معناها الشك فى الأسباب والتهوين لشأنها .

وقد يقال بعبارة أخرى — على حسب تصور المتدين — : إن المسألة لا بد أن تفهم هكذا : الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية ، فإن كانت كافية فأين الإله وأفعاله وألطافه ؟ ! فهى إذن غير كافية ، وإذا كانت غير كافية فهى إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلا صحيحاً ولا أن يلتفت إليها . ومن هنا يصبح غير سببى .

وجهة أخرى ، تلك هى أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلهم تصوراً يسمو كثيراً على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ؛ فالله فى تقديرهم وتصورهم — وإن اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيراً — لا يعدو أن يكون — فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه — بشراً مقتدراً ، كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم . ولهذا فإنه — أى الإله — يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه ، ويلجأ إلى المحسوبية وإلى الإعطاء والمنع على الشفاعة ، ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده ، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها — لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة .. فإذا بلغوا هذا المكان من الإيمان هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا ، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه ، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل ، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون ؛ فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل ، وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية . لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد ، وإذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة . وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم ، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجواريهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والامتداح وكل تلك المخازى الخلقية التى أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافآت وأدبيات .

إننا إذا وضعنا أمامنا ملكا أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء ، وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده ، وتصورنا كيف كان يعطى ويقرب الشعراء والشفعاء ، وصنوف المتملقين لكبريائه ، وكيف كان يحرم ويقصى أهل الجد والصدق فى القول والعمل ، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب ، لأنه أراد ذلك ولأنه رضى ، ولأنه أحب أن يمدح ؛ وكيف كان يسيل نقمة وعذاباً ، لأنه أرادَ ذلك ، ولأنه غضب ، ولأنه أحب أن يرهب ، ثم تصورنا كيف كان يتصرف فى إقطاعياته وفى عبيده ، وكيف كان يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما ، ولا عقلا ولا سفهاً ، ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال فتصيبهم بالخبال ، وكيف كان ينتقم ويثيب — : إننا إذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك ، ثم تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون إليه ، يلتمسون رضاه وهباته ، ويتعرضون لمواقع مجازفاته ، وكيف يصبحون شر الأنام طراً ، وكيف يعجزون عن أن يفعلوا الخير والصواب ، ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها إلهاً ، ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة — : إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون — على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم — عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة .

وأمر آخر ، ذلك أن المؤمنين يرون دائماً أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهد بحمايتهم ورعايتهم فى كل أمورهم أو جلها ، لأنهم لايتصورون أن يتخلى الله — وهو الكريم القادر — عمن صنع بيديه وعمن أوجدهم اختياراً واقتداراً ... فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين — أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجية . وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنع وما لن يظفروا به إلا إذا صنعوه هم . ولا يمكن أن يكونوا فى أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم ، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفى لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصامى الذى يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له إلى البقاء .

ثم إن المؤمن يعتقد — عادة — بأن الله إذ تفضل عليه فخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالانقطاع إلى عبادته ، زاهداً فى خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشئونه الخاصة ، وأن يصرف — إن

استطاع — كل قواه وأعماله وأوقاته — أو أكثر ذلك — إلى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل ، وإلا فإنه عبد سوء ، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرد . وحينئذ يجيء عاجزاً فى تناوله الأمور والحياة ، ويكون دون ذلك الذى صرف جميع قواه وأوقاته فى سبيل الانتصار فى معركة الوجود والبقاء . وما من شيء ينجح فيه المرء إلا على قدر انصرافه إليه وإعطائه من نفسه ووجوده . وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين .

على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية ؛ ذلك أن الإنسان — مهما كان تافهاً وصغيراً — لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يرجيه . والعادة أن الإنسان يحاول أبداً أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع . وإذا خير بين أملين — أو آمال — فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال فى رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل — وهكذا هو فى حياته وفى تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها . ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التى تسلك إليها ، لاختلاف الناس فى تصورهم وفى استعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم ، وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه . وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال أو عن كل الآمال التى يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها . وإذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه ، وأن هـذا الإنسان لا يعمل كما يعمل الإنسان الآخر لأن له أملا آخر ، ألهاه عن ذلك الذى شغل الآخر ، أو لأنه تصور الطريق تصوراً لم يتصوره الآخر ، أو لأمر آخر من هذه الأمور التى تصنع الخلاف والاختلاف بين البشر فى أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم .

على أنه لا خلاف فى أن أسمى هـذه الآمال وأقواها فى الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدى فى تلك الحياة الضخمة الأبدية التى ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التى تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة ، والتى تملؤها بالخوف والاكتئاب . فإذا ما استطاع إنسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يَغْنَى ويتغنى به ، وأن يصرف إليه تصوره والتفكير فيه وفى لذة الظفر به والوصول إليه والحصول عليه ، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء فى هذا الوجود ، وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئاً ، وقد يدع شيئاً قليلا أو كثيراً . والاختلاف فى هذا

راجع إلى الاختلاف فى قوة اجتذاب هذا الأمل الأخروى وضعفه . وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها لأنه ليس من أهلها ، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجل شىء فيها ، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذى صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبى سفيان — وهو يضع خطوط الطريق لابنه يزيد — : « أما فلان فقد أعجزه الورع ، فدع له دينه يدع لك دنياك » — يعنى أنه لا يبالى بشىء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان إلى الآخرة وإلى الاستعداد للقائها .

فإذا لاحظنا على المتدينين — أفراداً وشعوباً — عجزا عن إيجاد الحياة وعن التحليق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الإنسانية ، أو عن شىء ما من وسائل الحياة وأسبابها ، فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف إليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام ؛ وإذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا إذا وجدنا على بن أبى طالب وأمثاله وجيوشهم ينهارون بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم ، وإذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة فى كل عمل يتناوله أمام ذلك الذى جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته ، مصيراً ذلك إلهه المطاع المعبود وربه .

فالمؤمنون إذن يشغلون بأملهم فى الآخرة عن أن يصنعوا لهم فى الدنيا أملا جسيما عظيما ، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذين صنعوا لهم هذا الأمل ثم اعطوه كل نشاطهم وإبداعهم ، فأصبحوا فيها السادة الغالبين .

ومن المعلوم أن أوربا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت فى ذلك الهوان والضعف والعجز الذى نعرفه ونقرؤه ، فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروى وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هى آلهتها التى وحدتها وأبت الإشراك بها ، صعدت بالحياة هذا الصعود الذى أعجز أبصارنا تنوره والنظر إليه . وقد قال أحد فلاسفة الإنجليز المعاصرين المدرسين اليوم فى إحدى الجامعات البريطانية — وهو ملحد كما هو ظاهر — : « إن أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الإيمان بالآخرة وبالله » .

وقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاما مثلا طيباً للفقر والضعف والمسكنة والجهل ، حينما كانت مسيحية متدينة صالحة ! فلما أن مرق بها

البلاشفة وصنعوا لها أربابا آخرين وعبادة أخرى ، صارت هى روسيا اليوم ، قاهرة ألمانيا التى لم تكن تقهر ! ولعل من الطريف أن روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد ألمانيا العبقرى . وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهدين : القيصرى والبلشفى ، أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء ، وعوامل التحول قائلا : « لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين فى الزمان القيصرى يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وفقرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الاجتماعى إلى القوى الخفية المجهولة ، فكانوا يومذاك مثلا رائعاً فى الانحطاط ، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك إلى المصنع والمحراث والمدرسة ، فصاروا هم الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها » .

وكذلك القول فى تركيا وفى كل الأمم الحديثة والقديمة .

ولعل الفرق يظهر جلياً فى دولتين شرقيتين متجاورتين ، وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول . فاليابان ، وإن كان للدين البوذى فيها آثار وبقايا ومعابد وتماثيل ، إلا أنها قد نفضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئاً ، وإن أبقت بعض تلك الأشياء على جسمها الخارجى ! والدين الشنتوى الذى تقمصته الروح اليابانية هو الدين الذى يوجهها ويمثلها ، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك . وهو دين يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة ، وعلى عبادة الجمال والقوة المادية . ولهذا فإن اليابانيين يبالغون جداً فى تصور الجمال وفى إدخاله على كل وجوه الحياة ، حتى على لعب الأطفال وأحذيتهم الخشبية وأصغر الأمور التى يعملون . وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص ، يتعبد بها وبتلاوتها ، وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء . وخلاصته أنه دين طبيعى أو أنه دين الطبيعة فى أعم معانيها ! ومن ثم كان أهله من أشد الناس اتصالا بالطبيعة وحباً لها .

أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشيوسى وسواه بما لم يستطيعوا القيام منه ، لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال ، ومن التأميل بالمستحيل والتحويل على ما لا حقيقة له ، فعجزوا عن النهوض ، وعجزوا عن الإفاقة ، على رغم القوارع والمنبهات التى تطرقهم كل حين من الداخل ومن الخارج ، وعجزوا عن أن يتخلصوا من تلك الأكفان البالية الزرية التى لفهم — بمهارة فائقة — فيها كنفشيوس وغيره من سحرة المتنبئين ! ومن أشنع ما فى هذا الدين ، الذى يتصوره أهل الصين ، أنه يجعل السعادة والراحة والحياة

الصحيحة فى هذه الحياة مستحيلة ، وأن من الواجب طلبها وتأميلها وانتظارها بعد الموت لا قبله ، ثم ما يوصى به من التلفت إلى الماضى السحيق المظلم ، ومن الاحتذاء والاقتداء بالماضين الذاهبين .

ومن أجل الاختلاف بين هذين الشعبين الشرقيين وجدت الأمة اليابانية المخيفة — على رغم هزيمتها الحربية الأخيرة — ووجدت الأمة الصينية الفقيرة المغلوبة على جميع أمرها .

أما الهند فإنها تعد اليوم — وقد كانت كذلك قبل اليوم ، وأظنها ستبقى هكذا زماناً طويلا — أحد الأمثال المضروبة العقيمة التى تصنعها الأوهام الدينية ، ويشوه وجودها الخيال المشوه الكذوب ، على رغم سابقة هذا الشعب المعترف بها فى الحضارة القديمة والفلسفة العريقة ، التى كانت أحد الأضواء المضيئة للإنسانية يوم أن كانت تعيش تحت الظلام ... وقد عجز الهنود عن أن يجدوا لهم فى هذا الوجود أملا حاراً ملحا ملهباً يحفزهم على النشاط وعلى الإحسان فى وجودهم . وقد تقطعت أنفاسهم إعياء ، تطلعاً إلى تلك الآمال والأمانى المذكورة المذخورة لهم وراء هذا العالم ، وسعياً وراء تلك الخيالات الدينية الساحرة اللذيذة ، التى لم يستطع طول تناولهم لها أن يصيبهم بالإقهاء أو بالملل والسأم الذى يحدثه عادة طول الملازمة والمقاربة . ولا شك فى أن من أعظم أسباب اندحار هذا الشعب العريق فى التاريخ وعجزه عن حياة السيادة والاستقلال ، وعن الحياة الإنسانية المحترمة ، هو كثرة أديانه وما فيها من سخافات ومحالات ومعوقات . وليس مما تقر له عيون أنصار الأديان أن تقرأ فى هذه الأيام أنباء الاختلاف الكبير المرير بين الهندوس والمسلمين على مصير الهند إذا تبرع الانجليز وخرجوا منه ! وهذا كما لا يخفى قبل أن يفعل الانجليز ذلك ، بل قبل أن يفكروا فيه تفكيراً جاداً ! فاعجب له من خلاف ، واعجب لهم مختلفين ! ولعل مسألة البقر المقدس ومسألة ذبحه وأكل لحمه من أعظم ما يشغل الفريقين اليوم ، ومن أعظم ما يهيىء للبريطانيين البقاء هناك والتدخل للحماية والفصل والحكومة ! والعقلاء يعلمون اليوم جميعاً أن الهند لن تظفر بالحياة المرتجاة ما لم تغير أديانها أو تغير فهمها لها أو تتركها — وهكذا القول فى كل الأمم والشعوب التى مثلت دورها فى رواية التاريخ العامة وفرغت منه ، والتى لا تزال تؤدى دورها ، والتى لم توجد بعد . وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل فى هذه الحياة ومن الدوران حولها . وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة ، لأنهم كانوا

يبالغون جداً فى حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود ، وهوت جميع الأمم التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد، إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى . حتى إن رجلا فيلسوفاً عظيما ، هو الدكتور جستاف لوبون ، لما أن لاحظ هذا قال فى كتابه الموسوم « بالآراء والمعتقدات » : « إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر . . » لأنه — على ما زعم — قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير إلى الأمام ! قال : « ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام [1] . . » !!

وهو طبعاً يريد بعهود الوثنية تلك العهود التى سادت فيها عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة ، كالذى كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون ، ويعنى بعهود التوحيد والإيمان ، التى زعم أنها وقفت بالإنسانية ، تلك العهود التى أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وإلى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا ، كعهود أنبياء بنى إسرائيل وأسباطهم ، وعهود الكنيسة فى القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين ، وعهود الغزالى والشعرانى وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين ؛ فإن هذه العهود — على حسب ما رأى وقال — كانت نكبة على البشر أجمع ، لأنها لم تستطع أن تصنع لهم شيئاً سوى التأميل فى الآخرة . أما تلك العهود الوثنية فإنها — كما يرى ويقول — ناهضة على حب هذا الوجود إلى حد العبادة ، فاستطاعت — يدفعها هذا الحب وهذه العبادة — أن تضع أساس هذه الحياة التى يتمتع بها إنسان هذا العصر السعيد . فكأنها قضية مفروغ منها ، تلك هى أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها .

ومن الملاحظات الفردية فى هذه القضية أن الآحاد الذين تراهم ينجحون فى التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الإنسانية هم دائماً من غير الأتقياء الورعين وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم . حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس فى تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا فى سماء الشعر أو الأدب الخالد ، أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود ، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات ، لم نجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الدينى ؛ أمثال المتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ وابن سينا والرازى والفارابى وابن رشد

(١) ونحن نبرأ من كل إلحاد وزيغ . وليس عرضنا لهذه الأقوال من أجل الإيمان بها ، ولكن من أجل الاعتبار وطلب الفائدة .

وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم ... ولا نزال حتى اليوم نرى أنه لا يقوم بتصريف شؤون الدولة الكبيرة ، كالوزارة والسفارة وأمثالها ، إلا جماعات تختار من غير الأتقياء ، حتى أممنا التى شهرت بالتدين وبتأسيس ملكها وحكمها على أوامر الله ، نجدها تعرف هذا وتعترف به وتكل أمورها الرسمية ذات الشأن إلى غير المتدينين . وهذا لأنها تعلم بالاستقراء والتجربة أن هذه الشؤون إذا أسندت إلى جماعات الصالحين لم يحسنوا أو لم يستطيعوا القيام بها — ولأن هؤلاء من جهة أخرى لا يستطيعون بنبوغهم وسعيهم أن يصلوا إلى رضا من إليهم المصير ومن بيدهم الحل والربط والإعزاز والإذلال . فيبقون خاملين منسيين مبعدين . وقد قال الخليفة الملهم عمر بن الخطاب : « لوددت أنى وجدت رجلا تقياً قوياً مسلماً استعمله » ... وقال مرة أخرى حينما حار بين الأتقياء والأقوياء :

« أشكو إلى الله جَلَدَ الفاجر وعجز الورع » . وكلنا الآن إذا أردنا أن نشترى شيئاً أو أردنا من أحد أن يصنع لنا شيئاً — حتى لو أردنا أن نطبع مثل هذا الكتاب — لم نجد بداً من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور ، إذا كنا حقاً نرغب فى الإتقان والجودة والكمال أو القريب من الكمال . أما إذا شئنا لأنفسنا الصناعة الرديئة أو الصنف الردىء أو إخلاف الوعود أو الحصول على الأكاذيب المتلاحقة ، فإننا حينئذ لا نجد بداً من أن نقوم بعملية تفتيش عن هؤلاء الأتقياء وعملية تلمس لهم فى جحورهم المظلمة .

ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكرى الذى توزن به الأمور فى الغالب ، ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طيبين خيرين ، فاقدين لكل مناعة عقلية مستعدين استعداداً غريباً للوقوع فى حبائل المشعوذين والدعاة المضللين ، عَمِينَ عن كل الحقائق التى يراها ويستفيد منها الآخرون ، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعاً عجيباً ، وتنفق بينهم سوقه ، وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين — دينيين وغير دينيين ، ويصيخون لكل ناعق ، ويهبون — بسخاء نادر — جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل . لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب ، والقائد من الصائد ، فصدقوا المستحيلات والمتناقضات وآمنوا بأشنع الترهات ، لأن العاصم من كل ذلك — وهو العقل — قد أبعد وعزل .

وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التى كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ انهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ استعدادهم لتصديق ما لا يجوز على العاقلين ، بدون

مقاومة أو إباء . وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التى كانت توجه إليهم ، ونتعجب من السخف والكذب الذى يجىء فيها ، ونقول كيف يرجو هؤلاء العقلاء — إذ هم عقلاء بدون ريب — أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشىء منه ! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف المناعة العقلية لديهم ! فإن هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضاً — وكانت تنفع .

ومن أجل هـذا الضعف فى المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الإنسانية وعلى أفضل صفات البشر ؛ فإنك لن تلقى فى حياتك — ما عشت — منظراً أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية ، فى سائر العلوم التى قاومت الجهل والسخف عنـد غيرنا وطاردتهما ، يحشدون بشكل يزرى بالإنسان ، تحت ركاب رجل هو أقل منهم فى كل شىء مما يتصل بالقيم الإنسانية ، ليسوقهم — بدون وعى ولا معارضة منهم — ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه ، ثم ليملى عليهم ما يشاء وما تشاء له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل إلى المجد الذى حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبـات والقداسات التى يفرضها لشخصه الكريم ، باعتباره الإنسان المقدس الطاهر المعصوم الذى يجب أن يطاع طاعة عمياء ، والذى يجب ألا يخطر على البال ، بالنسبة لذاته الكريمة ، توجيه عبارة من عبارات الاستفهام — دع الاعتراض وما هو أشد منه — فترتفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعى الخير وبين اتباعه الخيرين كلمات : « لِمَ » « كيف » « من أين » « إلى أين » . وليس لهذا الصنم الأرضى الذى ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمتم بها ويطلقها على ضحاياه وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور .

وليست روح التسليم العقلى عند المتدينين بجديدة ، بل هى روح ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا . حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون فى ذلك مجالا لا بأس به للسخرية ، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسـية ! وقد طار فى كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهكمين الساخرين — وهو أبو العلاء ، وقد قسا كثيراً : —

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ... دين ، وآخر ديِّنٌ لا عقـل له

***

مالى أرى كل الأنام لجهلهم بالدين أشباه النعام أو النعم

لو قال ذئب غضاً بعثت بملة من عند ربى قال بعضهمو نعم :

ومن الواجب أن نعرف سبب هـذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين . والذى يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلى وتعليل ثابت ! بل يرون أن الوجود كله — بما فيه من حوادث وأحداث — محكوم بقوة مجنونة — أو هى كالمجنونة — فى أفعالها وتصرفها ! ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق ، فكل شىء جائز ، وكل شىء مستحيل ... فيصابون بالفساد الفكرى العام ، وإذا اختلت الوسيلة فكذلك النتيجة ، وإذا انهار الأساس انهار بلا شك ما رفع عليه !! ولن تجد ميزاناً فكرياً لدى هؤلاء الذين يعيشون فى هذا الجو المسحور المجنون المائج بالخوارق والمعجزات والكرامات التى صنعها الشيوخ والصالحون — ساخرين من القوانين الطبيعية !

وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا ، كما علل بعض علماء النفس والاجتماع القسوة التى يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا ، وأَخْذَهُمْ خصومهم أخذاً خالياً من الشفقة والإنسانية — بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين ، وكثرة قراءتهم النصوص التى تصف الأهوال المعـدة لأهل الآثام والشهوات . فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين ، وتفترس على حسابه ! ومن ثم فإننا نعتقد أن هـذه الجماعات المنسوبة إلى الدين ، الناطقة باسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح فى يدها لحَكَمَ البشرَ عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهاب يستنكره العالم اليوم . وهـذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأى والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان . ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً من إنسان يثب على عنقك ومالك ، يقتلك ويسلبك ، معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك ، ويجاهد فى سبيله ، وينفـذ أوامره وشرائعه !! والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين : لعله لا ينطلق .

كل هذه حقائق لا ريب فيها . ولكن ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الدين مفسد للبشر ، حائل بينهم وبين الكمال ، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الإنسانية المبدعة ؟ كلا ، ليس هذا هو المراد ولا هو الصحيح ، بل الدين بطبعه وروحه لايعدو أن يكون وثوباً بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل . وإنه لكذلك إذا أخذ وفهم على وجهه .

ولكن ها هنا شيئان : أحدهما أنه إذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضاراً ومفسداً لأخلاق الإنسان وكل معانيه الطيبة ، أو التى يجب أن تكون طيبة ، كما سبق البيان .

وثانيهما أن البشر عاجزون — فى ما يبدو لنا حتى اليوم — عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد ، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين ، أو متدينين تديناً باطلا — كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان . ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة .

ويظهر أن المبادى الإنسانية العظيمة تأتى دائماً سابقة لاستعداد الجماهير من البشر . فإذا دعوا إليها أو فرضت عليهم — قبل تمام هذا الاستعداد — أخذوها أخذاً سيئاً ضاراً بهم وبالمبادىء نفسها ، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها . ومن هنا تأتى النكبة . وكلما تقدم نضج الإنسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادىء الجميلة التى تسبق استعداده . ولاشك فى أن الناس اليوم يتصورون الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام العام للسلام ، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات ، ولغير ذلك من مسائل الإنسان العظمى ، تصوراً هو أرقى جداً من تصورهم لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين ، كما أن تصورهم لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائماً . وهم أبداً يقومون بعملية تخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود ، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاماً أرقى وأفضل . والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التى عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً ، لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت ، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل . وكان من نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها ، لأنها فى ما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق . والواقع أن الذين تحجروا وسدوا الطريق هم المتدينون لا الدين نفسه . ولا ريب عندنا فى مجىء ذلك اليوم الذى يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا ، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها . وحينئذ — حينئذ فقط — تبلغ بهم السمو المقدر لها ولهم .

والإنسانية — كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف — لها ثلاث حالات : إحداها أن تكون بلا دين ، لا باطل ولا صحيح ، وثانيها أن تكون على دين باطل

— أى على دين تتصوره بالصورة التى شرحناها فى هذا الكتاب ، وثالثها — وهذا خيرها بلا شك عندنا — أن تكون على دين صحيح ، تدركه إدراكا صحيحاً . وهذه الحالات الثلاث هى على ثلاث درجات . ولا شك أن الحالة الثانية هى شر الحالات ، وأن الأمة التى تكون متدينة بهذا الدين تأتى عاجزة عن مقارعة الأمتين الأخريين ، وأن الأفراد الذين يكونون متدينين كذلك سيصرعون لا محالة إذا حاولوا منافسة الآخرين ومقاواتهم من أفراد هاتين الأمتين أيضاً . ولا يجب أن تغبط الأمة التى تحرص على مثل هذا الدين ، إذ إن مصيرها بين الأمم مقرر معروف . وما هو إلا مصير هذه القطعان الآدمية المتزاحمة على البؤس والشقاء والجهل والاستعباد ، فى آسيا وإفريقيا ، التى نسميها أمماً وشعوباً ، تلك القطعان التى تلهب جلودها الملونة سياط هؤلاء البيض منذ القرون ، بدون أن تستطيع المقاومة أو الهرب والشرود !! وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا فى سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين ، ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبداً أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف ، بل إن ذلك ليعجبهم ويرضيهم ! وإنهم لعلى استعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد ، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية ، وأن يصنعوا فى هذا الغرض كل شىء وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض ! إذ أى ضير يصيبهم من ذلك ؟ ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم استعداد — إذا لم يمنع من ذلك مانع — أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها . وإنهم يخشون ويحترمون فى وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة ، ويقرون عيناً — مع الاحتقار الشديد والفرح البالغ — بأمثال ذلك الرجل الجامد — ذلك الرجل الذى قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض ، والذى أمر رعاياه فى العام الماضى بقراءة القرآن والبخارى لرفع الوباء الذى اجتاح بلاده التى ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة ؛ هذا الرجل الذى عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة ، لإنقاذ بلاده البائسة الشقية من طاعون وفد عليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة ، فرد هذه المساعدات قائلا : إن الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة ؟ ! هذا الرجل الذى يمضى فى بناء السجون فى بلاده ، بينما تمضى كل الأمم فى بناء المدارس والمصانع والمصحات ! ! وإن هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب إلى قلوبهم وإلى رضاها من أولئك الذين يوصمون بالإلحاد والزيغ ، ممن يعملون على إيقاظ الشعور القومى وعلى بعث الكرامة الوطنية السجينة فى النفوس تحت هذه الأنقاض المحطمة المتراكمة . وقد حدثنى

أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر إلى بلاده التى يقبض عليها الاستعمار بقسوة وإحكام ، فلم يستطع أن ينال التصريح الذى يبيح له السفر ، فلجأ إلى حيلة لطيفة ، هى أنه تزيى بزى رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والإرشاد ، واضعاً على رأسه عمامة تزرى بالهرم ، وعلى كتفيه جبة تتسع لإيواء كل الشياطين ، وتحت ابطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحى . قال وقد نجحت هذه الحيلة أعظم نجاح ، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الاحترام والتوقير والسرور . وقريب من هذا ما حدث قبيل هذه الحرب فى البرلمان الفرنسى ، إذ قام أحد الأعضاء — على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون فى المغرب العربى — قائلا : إن فرنسا دولة علمية إلحادية ، فمالها وللتبشير !؟ فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك . فقام الرئيس فرد عليه رداً ما أعجبه ! إذ قال إن هذه — يعنى العلمانية الإلحادية — بضاعة محلية لا تصدر إلى الخارج !! وقصده من هذا أن الدعوة إلى الأديان يجب أن تبقى مستمرة نشيطة فى المستعمرات وإن حرمت فى فرنسا نفسها . ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم — أى الفرنسيين — لن يصدروا الخير إلى الخارج مجاناً ويحرموا بلادهم منه . ودهاة الاستعمار فى العالم يعلمون أن نفوذهم وبقاء سلطانهم فى بلادنا المغلوبة مقدور بما فى هذه البلاد من رجال الدين ومن شيوخ الطرق الصوفية ، وأنه بمقدار ما ينقص هؤلاء ينقص نفوذهم ويدنو أجلهم ، وبمقدار ما يزيدون يزيد ذلك ويأخذ فى الرسوخ والبقاء . ولهذا فإنهم يعضون على هؤلاء الشيوخ والعلماء بالنواجذ ، ويعملون على توسيع سلطانهم ورفع مكانهم بين الجماهير والدهماء ، إذ هم أحسن لهم من الجيوش المدججة بالسلاح . من شرذنوب الاستعمار أبه دائماً على نصرة الرجعيين وتحطيم الأحرار وعلى البسط للأفكار والعقائد المؤخرة ومطاردة المقدمة . وكل هذا لا يخفى إلا على من أضله الله ولم يرد هو أن يهدى نفسه .

هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة ؛ نعم ، ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ أقول إن التدين الحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد ؛ ولكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أنى أريد الاستغناء عن الدين ؟ كلا ، فالدين حاجة من حاجات الإنسان التى لا يمكن أن يستغنى عنها . ولكن ثبت أن البشرية عاجزة — إلا فى ما ندر — عن فهمه على وجهه الصحيح ، هذه هى المشكلة التى لم يستطع حلها بعد . وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير فى سبيلها الطويل الشاق ، لتبلغ هذه الغاية التى بلغتها ! وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر فى الظلام ! وكم حبب إليها الألم والعذاب فى تحويمها حول أهدافها الكبرى ! وإن كل ما نحن فيه اليوم ما هو إلا إحدى

نتائج هذا التحويم . ومن المحقق أنه لولا هذه المحبة الإلهية السماوية — التي هي الدين — لتقرر مصير الإنسان على نحو آخر من النهايات — وما كان مستطاعاً أن يستغنى البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل في حياتهم أو يصنعوا لهم أملا آخر ، إذ لا حياة بدون أمل .

وإذن فهل معنى عجز الإنسان عن أن يفهم التدين والدين فهماً صحيحاً أن الواجب عليه ، أو المستحسن له ، أن يتركه وينأى عنه ! كلا ، وإنما الواجب أن تنفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه ، وهذا هو عين ما فعلناه في كتابنا هذا .

وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة إلى تصحيح التدين وتصحيح الأديان . وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الإنسان الكبرى .

أيها القارىء الكريم :

من الجائز أن أكون قد أخطأت أو بالغت في مواضع أو في مواضع ، ولكن أمرين يجب ألا يقع عندهما خلاف ولا يسوء فيهما فهم ؛ أحدهما أني كنت مخلصاً في جميع ما كتبت ، وأني ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العزيزة . وليكن هذا شفيعاً لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو بعض الشروح والتفصيلات . وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، ولكني حاولت أن يكون هذا الإيمان سليما قوياً ، وأن يكون كإيمان عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وأمثال هؤلاء ، وأبيت أن يكون مثل إيمان الشعراني والغزالي وابن عطاء الله والأسيوطي وغيرهم من شيوخ الطريق وحداة الجهالة ورسل الفقر — ممن نكبوا البشر وانحرفوا بهم عن الغاية التي كان يجب أن يبلغوها .

اعتراف وشكر

الآن — وقد انتهى طبع هذا الكتاب — أجدني ملزماً بأن أتقدم بشكري وتقديري إلى رجال مطبعة مصر — التي قد تكون أعظم مطبعة في الشرق العربي — لما لقيت لديهم من عناية ونبل أخلاق.

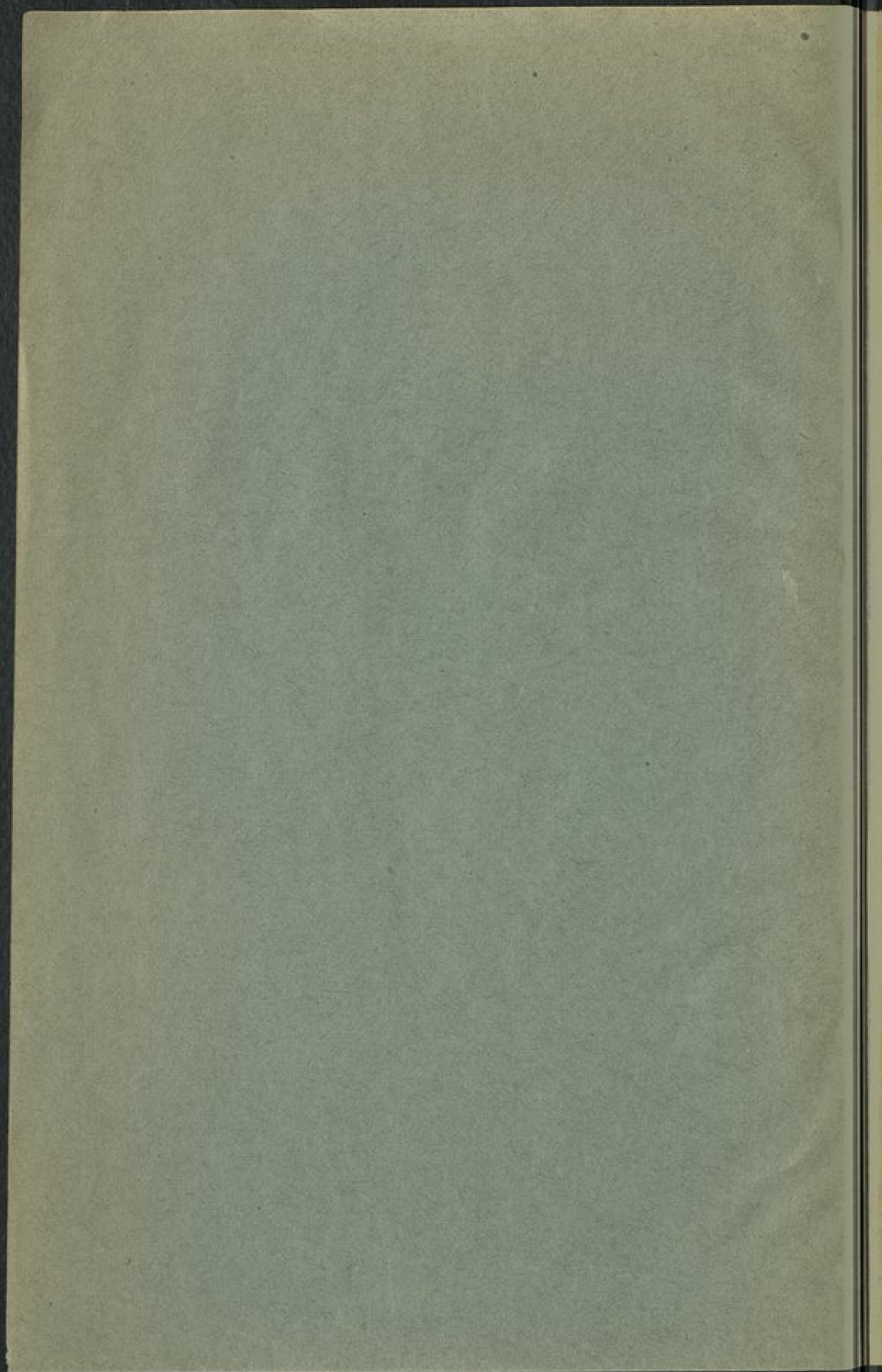
ثم أخص بشكري رئيس مصححي هذه المطبعة: الأستاذ الشاعر « محمود أبو الوفا » ؛ ذلك الإنسان الذي لمست فيه العقل والقلب معاً ، فلقد كان معنياً بأن يخرج الكتاب في أحسن صورة وأجمل حلة . فله مني الشكر مكرراً مضاعفاً ؟

المؤلف

إصلاح الخطأ

خطأ	رقم الصفحة	رقم السطر	صواب
يصادقه	٢٢	٣	يصادفه
وازدادت بتلك الثروة ...	٢٥	٢٢	وازدادت بذلك الثروة
سنة	٣٢	٢٤	سنه
تنفذ	٦٢	١٠	تنفد
تعزوا	٧٥	٦	تعزو
أو بيع الضرر	٩٩	٢١	أو بيع الغرر
انه سبيل	١٧٦	٢٣	انه لا سبيل
حكايته	٢٠٣	١٩	حكاياته

عناوين الكتاب الرئيسية



DATE DUE

